إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(٢)

إشراقات قرآنية

« حزب المُفَصَّل »

سلمـان العـودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج٢) من «سورة المجادلة» إلى «سورة نوح»

٤٣٦ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٠ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ٧ - ٠ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٢)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:


@salman_alodah


/SalmanAlodah


salman@islamtoday.net


www.youtube.com/user/DrSalmanTv


www.islamtoday.net/salman/

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الثاني

من «سورة المجادلة» إلى «سورة نوح»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة المجادَلة**»، أو: «**سورة المجادِلة**»، بفتح الدال وكسرها[1]، **والأقرب** الكسر؛ إشارة إلى المرأة التي جادلت الرسول ﷺ في زوجها، ونوَّه الله تعالى بذكرها في صدر السورة، و«المجادَلة» بالفتح: فعل الجدال بين المرأة وبين رسول الله ﷺ، وهو الأشهر في كتب التفسير، والسنة[2].

واسمها في مصحف أُبيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**سورة الظِّهَار**»[3]؛ لأن الله تعالى بيَّن حكم الظِّهَار في صدر السورة بما لم يبيِّنه في «سورة الأحزاب».

ولها اسم ثالث، وهو: «**سورة ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾**»[4]، بالنظر إلى ما بُدئت به السورة، وهذا يُستخدم عند تحزيب القرآن وذكر الأجزاء، كـ«جزء عمَّ»، و«جزء تبارك»، و«جزء قد سمع».

*** عدد آياتها:** إحدى وعشرون آية في عدِّ علماء مكة والمدينة، واثنتان

---

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٥٨)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٢٨٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٧).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٥/ ٢٩٨)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥).

(٤) ينظر: «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٤٨٠)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٤٣)، والمصادر السابقة.

وعشرون آية في عدِّ علماء الشام والعراق[1].

* **وهي مدنية** بالإجماع، قاله الماوردي، وابن عطية، وغيرهما[2].

وفي حكاية الإجماع نظر؛ فقد حُكي عن عطاء وجود آيات مكية فيها[3].

والظاهر أن السورة كلها مدنية؛ فموضوعات السورة مدنية، تعالج بعض هموم المجتمع المسلم الناشئ في المدينة؛ ففي بدايتها حديث عن امرأة تشتكي إلى رسول الله ﷺ حالة من الإشكال الزوجي داخل منزل فقير متواضع.

ثم ينتقل الحديث إلى النَّجْوى بين طوائف من الناس داخل المجتمع المسلم، وما يُحدثه من آثار.

ثم يشير إلى بعض آداب المجالس.

ثم آداب مناجاة الرسول ﷺ.

ثم الحديث عن موالاة الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه[4].

موضوعاتٌ ترسم مناخ المدينة في الفترة التي نزلت فيها السورة، حيث يعيش المسلمون واليهود والمنافقون.

وكان من المسلمين مَن هو حديث عهد بالإسلام، أو ضعيف الإيمان، وكانوا هدفًا للقوى التي تريد أن تُزعزع هذه المجموعة الوليدة.

والذي يظهر أن غالب خطاب السورة لهذه الفئة، وليس للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وإن كانوا داخلين في عموم الخطاب، كما أنها لا تخاطب

---

(١) فقد اختلفوا في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٢)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة (ص١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٩٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٤١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦)، والمصادر السابقة.

الكافرين والمنافقين خطابًا مباشرًا، بل تتهدَّدهم من طَرْفٍ خفيٍّ.

والمقصود الأعظم هو: تقوية إيمان أولئك الذين لم يتمحَّض إيمانهم، وأصبحوا هدفًا لخطابات مغرضة داخل المجتمع المدني.

* ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾:

استفتح تعالى السورة بهذا الخبر: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، مع أن الله سبحانه في آيات كثيرة في «سورة النساء»، و«سورة النور»، و«سورة الأحزاب» بيَّن أحكام النساء والاستئذان والدخول والخروج والطلاق، دون أن يستفتح بمثل هذا الاستفتاح العجيب!

وهذا يُذكرنا بآية «سورة آل عمران»: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهم: اليهود(١)، فقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يجعلك تستحضر الجو الذي يشوِّش فيه اليهود على حدثاء الإسلام بالتشكيك.

وابتداء السورة بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ يؤكِّد سماع الله حديث خَوْلة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وشكواها في مجلس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وهي: خَوْلة، أو: خُوَيلة، وفي بعض الروايات: جَميلة. ويحتمل أن يكون لهذه المرأة أكثر من اسم، أو يكون: «جميلة» وصفًا لها(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٠)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٢٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٩).

(٣) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٣١٠)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٨٣٠)، و«أسد الغابة» (٧/ ٩٢)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٤٢)، و«تهذيب الكمال» (٣٥/ ١٦٣)، و«الإصابة» (١٣/ ٣٤٠)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٧٤)، والمصادر السابقة.

وزوجها هو: أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[1].

تقولُ خَوْلةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كنتُ عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقُه وضَجِرَ، فدخل عليَّ يومًا، فراجعتُه بشيء، فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلتُ له: كلَّا والذي نفسُ خُويلةَ بيده، لا تخلُصُ إليَّ وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكمَ اللهُ ورسولُه فينا بحكمه. فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغلبُ به المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيتُه عنِّي، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسولَ الله ﷺ، فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، فجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسولُ الله ﷺ يجادلُني فيه ويقولُ: «**يا خُويلةُ، ابنُ عمك شيخٌ كبيرٌ، فاتَّقِي اللهَ فيه**».

قالت خَوْلةُ: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيَّ القرآنُ، فَتَغَشَّى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشَّاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: «**يا خُويلةُ، قد أنزلَ اللهُ فيك وفي صاحبك**». ثم قرأ عليَّ: «﴿**قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١**﴾... ﴾ إلى قوله: ﴿**وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤**﴾».

فقال لي رسولُ الله ﷺ: «**مُريه فليُعْتِقْ رقبةً**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده ما يُعْتِقُ. قال: «**فليَصُمْ شهرين متتابعين**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله إنه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيام. قال: «**فليُطْعِمْ ستينَ مسكينًا**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده من شيء يتصدَّقُ به. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فإنَّا سنُعِينُه بعَرَق من تمر**». فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله سأُعينُه بعَرَق آخر. قال: «**قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدَّقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا**»[2].

---

(١) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٣٠٢)، و«أسد الغابة» (١/ ٣٢٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ١٢٩)، و«تهذيب الكمال» (٣/ ٣٨٩)، و«الإصابة» (١/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥)، وابن الجارود (٧٤٦)، وابن حبان (٤٢٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٤١٠)، وينظر: «فتح الباري» (٩/ ٤٣٣)، و«إرواء الغليل» (٢٠٨٧).

وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا تقول: «الحمدُ لله[1] الذي وسع سمعُهُ الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزلَ الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾»[2].

وفي رواية أخرى لهذه القصة: كانت خَوْلَةُ تحت رجل من الأنصار، وكان سيِّئَ الخلق ضريرَ البصر فقيرًا، وكانت الجاهليةُ إذا أراد الرجلُ أن يفارقَ امرأته قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي[3]. فنازعتْهُ في بعض الشيء فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان له عَيِّلٌ أو عَيِّلَان، فلما سمعته يقول ما قال احتملتْ صبيانها، فانطلقت تسعى إلى رسول الله ﷺ، فوافقته عند عائشةَ أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنهَا في بيتها، وإذا عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأس رسول الله ﷺ، فقامت عليه ثم قالت: يا رسولَ الله، إن زوجي فقيرٌ ضَرِيرُ البصر سيِّئُ الخلق، وإني نازعتُهُ في شيء فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ولم يرد الطلاقَ. فرفعَ النبيُّ ﷺ رأسه فقال: «**ما أعلمُ إِلَّا قد حُرِّمت عليه**».

قال: فاستكانت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي. قال: وتحوَّلت عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأسه الآخر، فتحوَّلَتْ معها فقالت مثلَ ذلك، قالت: ولي منه عَيِّلٌ أو عَيِّلَان. فرفعَ النبيُّ ﷺ رأسه إليها فقال: «**ما أعلمُ إِلَّا قد حُرِّمت عليه**». فبكت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي.

وتغيَّرَ وجهُ رسول الله ﷺ، فقالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: وراءَك. فتنحَّتْ ومكث رسولُ الله ﷺ ما شاء اللهُ، ثم انقطع الوحيُ، فقال: «**يا عائشةُ، أين المرأةُ؟**». قالت: ها هي هذه. قال: «**ادْعِيهَا**». فدعتها فقال النبيُّ ﷺ: «**اذهبي فجِيئي بزوجك**».

---

(١) وفي رواية: «تبارك...».

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥)، والبخاري معلقًا (٩/ ١١٧)، وابن ماجه (١٨٨، ٢٠٦٣)، والنسائي (٦/ ١٦٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٥٤)، والحاكم (٢/ ٤٨١). وينظر: «البدر المنير» (٨/ ١٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «سنن البيهقي» (٧/ ٦٣٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٩)، و«القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» (٢/ ٧٣٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٥٢)، و«عمدة القاري» (٢٠/ ٢٨١)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧).

قال: فانطلقت تسعى، فلم تلبث أن جاءت به، فأدخلته على النبيِّ ﷺ، فإذا هو كما قالت ضريرُ البصر، فقيرٌ، سيِّئُ الخلق، فقال النبيُّ ﷺ: «**أستعيذُ بالسَّميع العليم من الشيطان الرَّجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾**. إلى آخر الآية. فقال له النبيُّ ﷺ: «**أتجدُ عتقَ رقبة؟**». قال: لا. قال: «**أفتستطيعُ صومَ شهرين متتابعين؟**». قال له: والذي بعثك بالحقِّ إذا لم آكُلِ المرة والمرتين والثلاث يكاد أن يغشو بصري. قال: «**فتستطيعُ أن تطعمَ ستينَ مسكينًا؟**». قال: لا إلا أن تعينني فيها. قال: فدعا به رسولُ الله ﷺ فكفَّر يمينه[(١)].

وخَوْلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذه هي التي استوقفت عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوقف لها وترك أعيان الناس ينتظرونه، وقالت له: هيه يا عمرُ، عهدتُك وأنت تسمَّى: عُميرًا في سوق عُكاظ تصارعُ الصبيانَ، فلم تذهب الأيامُ والليالي حتى سُمِّيتَ: عمرَ، ثم لم تذهب الأيامُ حتى سُمِّيتَ: أميرَ المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ في الرعية، واعلم أنه مَن خاف الوعيد قرب منه البعيد، ومَن خاف الموت خشي الفوتَ. فبكى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانتهرها أحد الصحابة، وقال لها: هيه، فقد اجترأْتِ وأكثرتِ وأبكيتِ أميرَ المؤمنين! فقال له عمرُ: «أوما تعرف هذه؟ هذه خَوْلة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمرُ والله أجدرُ أن يسمعَ لها، والله لو حبستني إلى الصلاة، لاحتبستُ لها!»[(٢)].

وفي الآية يبرز جانب من التغيير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي، وبخاصة في قضية المرأة؛ لأن العرب كانوا يحتقرون المرأة ويزدرونها، فجاء القرآن بإثبات حقِّ المرأة في بثِّ شكواها ومطالبتها بحقوقها، ثم هي ها هنا تجادل رسولَ الله ﷺ.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٥٧)، و«طبقات ابن سعد» (١٠/ ٣٥٤- ٣٥٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٠)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥١- ٤٥٣)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (٢/ ٣٨٩)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٦٣٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٢٣)، و«إرشاد الساري» (٨/ ١٦٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٣٩٤- ٣٩٥، ٧٧٣)، و«الرد على الجهمية» (٧٩)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٨٦)، و«الإصابة» (١٣/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٩٩).

والجدال فيه شيء من القوة في المخاطبة، وليس مجرد عرض أو حديث أو سؤال، وكان النبيُّ ﷺ يقول لها أكثر من مرة: «**ما أَرَاكِ إلا قد حُرِّمت عليه**». وهي تجادله، وتراجعه في الكلام، وفي ذلك تكريس لحقِّ المرأة في الوجود، وحقها في الحياة، وفي المشورة والرأي، وهو ما لم يكن يحتمله ضيق الجاهلية وتبرمها من الأنثى وحصار صوتها، حتى كان يعدُّ عيبًا، ولا يزال بعض الناس يعدُّون صوتها عورة، وهو الذي كان يُسمع في مجالس النبي ﷺ[1].

كانت تجادل النبيَّ ﷺ، وأثناء المجادَلة كانت تشكو إلى الله عَزَّوَجَلَّ أمرها وحالها وصعوبة ما يمكن أن يحدث إن حُرمت من زوجها.. إلى أين تذهب، وهذا بيتها وأبو أولادها، وهؤلاء الأطفال ما مصيرهم؟ فكان في الأمر عُسْرٌ وشِدَّةٌ.

وكثيرًا ما يحتاج صاحب الهمِّ إلى البَوْحِ والتنفيس، وأن يفهم الآخرون معاناته وشكواه ويساعدوه، إنه لا يريد أن يوصل صوته إليهم فحسب؛ بل أن يجعلهم يشاركونه ألمه ومعاناته وإحساسه ومخاوفه ومشاهدة المخاطر المُحْدِقة به أو بأسرته وأولاده.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ إثبات سماع الله تعالى لكلامها، وليس له مزيَّة عن غيره من الكلام؛ إذ هو سبحانه يسمع كل كلام، ومن أسمائه: «السميع»[2]، ولكن فيه معنى أن الله تعالى قد أجابها، فإنه يُطلَق على الإجابة[3]، كما تقول: أعوذُ بالله من دعاء لا يُسمع، يعني: لا يُستجاب له[4].

وكما في قولك: سمع الله لمَن حمده، يعني: استجاب الله تعالى لمَن حمدَه

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠١، ٦٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٧٥)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٣٩).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (١/ ١١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٢/ ١٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨).

(٤) ينظر: «معالم السنن» (١/ ٢٩٦)، و«الكاشف عن حقائق السنن» (٦/ ١٩١٥)، و«فتح الباري» لابن رجب (٧/ ١٩٤)، و«فيض القدير» (٢/ ١٠٨).

وكتب ثوابَه[1]، فالسمع هنا يتضمَّن معنى الإجابة، وقديمًا قال الشاعر[2]:

دعــوتُ اللهَ حتى خِفــتُ أَلَّا ... يكــونَ اللهُ يســمعُ مـا أقــولُ

أي: لا يستجيب له.

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾: سمَّى الله حديثها: مجادلة، وسمَّى التراجع بينها وبين رسول الله ﷺ: تحاورًا. والتحاور ألطف من المجادلة، وكأن كل واحد يرجع إلى قول الآخر، وكأن الكلام يبدأ عند هذا، فإذا انتهى انتقل إلى الآخر ورجع إليه، بخلاف المجادَلة التي فيها شِدَّة وقوة؛ فهي تجادل، لأنها صاحبة حاجة، وتتكلَّم من معاناة وتلح، ومنه: جَدْل الحبل[3]، ومنه: الجَنْدل، وهو الصخر[4]، ولكنها ملتزمة بالأدب الواجب مع رسول الله ﷺ، والرسولُ ﷺ يحتوي جدلها ويُسكِّنه، فيتحول إلى محاورة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ فأكَّد هذا المعنى، وأن الله تعالى مع الناس بسمعه وبصره المتضمِّن لكمال علمه وسلطانه وتدبيره وحكمته، وهذا كله مما يستتبعه المعنى.

وفي الاستفتاح العظيم لهذه السورة تذكير بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وتحذير للذين يتهامسون ويتسارُّون ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما سيأتي[5].

---

(١) ينظر: «مطالع الأنوار» (٥/ ٥٠٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/ ١٢١)، و«شرح أبي داود» للعيني (٤/ ٢٥٤)، و«إرشاد الساري» (٢/ ٧١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٣٤٢)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٣٨٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٥/ ١٧٩- ١٨٠)، و«تاج العروس» (٢١/ ٢٣٥) «س م ع»، منسوبًا إلى شُتَير- وقيل: شُمَير، وقيل: سُمير- بن الحارث الضَّبِّي.

(٣) ينظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٤٤٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٩)، و«تاج العروس» (٢٨/ ١٩١) «ج د ل».

(٤) ينظر: «العين» (٦/ ٢٠٦) «ج ن د ل»، و«لسان العرب» (٣/ ١٢٩) «ج ل م د».

(٥) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾.

* ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾:

والمظاهرة: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي[1]. وكأنه حرَّم على نفسه أن يعاشرها أو يجامعها، مثلما تحرم عليه أمه، وحرمة الأم هي حرمة أبدية غليظة، كما هو معلوم، وبدأ الله تعالى بها في آية المحرمات: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]؛ لأنها من أشنع ما يكون.

والظِّهار مشتق من الكلمة التي كانوا يقولونها؛ وهي الظَّهْر[2].

وفي هذه الآية دليل على أن الأمر لا يخصُّ أوسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحده، وإنما هو حكم عام للناس جميعًا.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما زوجاتهم بأمهاتهم، ولا يمكن أن يكن كذلك؛ والتعليل ظاهر في قوله سبحانه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾، فمجرد أن يقول الإنسان لزوجته: إنها كأمه، أو كظهر أمه لا يجعلها في حكم الأم.

وفي هذا تمهيد لإبطال ما كانوا يعتقدونه من أن ذلك يعدُّ طلاقًا أو تحريمًا بائنًا، فأنكر سبحانه تشبيه الزوجة بالأم، وبيَّن أن الأم هي مَن ولدت[3]، وفي حكمها يدخل الأم من الرَّضاعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وفي حكمها الخالة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الخالةُ بمنزلة الأمِّ**»[4].

فهو هنا يبيِّن أن القول الذي يقولونه باطل من حيث التكوين، وباطل من حيث

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٣)، و«فتح الباري» (٩/ ٤٣٢)، و«سبل السلام» (٢/ ٢٧٢).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٤١)، و«مختار الصحاح» (ص١٩٧)، و«المصباح المنير» (٢/ ٣٨٧) «ظ هـ ر».

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣٢١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٨)، و«المغني» (٨/ ٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٩، ٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشريعة، وأن مجرد الحكم اللَّفظي على شيء ما بخلاف حقيقته لا يعني تحول الأشياء وفق تلك الأقوال المزوَّرة، كما كانوا في الجاهلية يسمون الحَجَر والشجر: إلهًا، فقال سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فهذا قول بالغ الفحش؛ لأن فيه إزراءً بحقِّ الأم بجعلها في مقام التحريم هكذا، وفيه تعريض الأم للخيالات والتصورات التي لا تليق بالبنوَّة.

وفي القول زور من جهة تشبيه الزوجة بالأم، وهذا بعيد كل البعد؛ فالأم لها جانب التربية والسبق والفضيلة والبِرِّ، والزوجة لها جانب المعاشرة والمودة والرحمة(١).

ولذلك عقَّب بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وما أسرع ما عاجلنا ربنا بالعفو والمغفرة بعد التحريم والنهي ووقوع العباد في المعاصي، وهذا يشمل عفوه سبحانه ومغفرته لمَن تاب بأن يتوب اللهُ عليه، ولمَن لم يتب بأن يغفر الله تعالى له، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

أو أن المقصود أن يعفو عن عباده، فلا يؤاخذهم بالذنب، ويغفر لهم ويستر عليهم، فيبدِّل سيئاتهم حسنات(٢).

وفيه إشارة إلى أن المقام في الحال التي يقع فيها الخطأ من الإنسان بسبب غضب أو شهوة أو هوى دون تقصُّد الخطأ أو الإضرار أو الظلم، يستدعي التيسير والرحمة والسَّعة، مع بيان الحكم والعقوبة أو الكفارة.

ولذلك فالأصل في الباب أن يُقتصر فيه على ما ورد، وأن لا توسع نواحيه

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨١- ٤٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٢٠).

وجوانبه، ولا يُقاس على اللفظ غيره مما لا يماثله في الشناعة والبشاعة[1].

* ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾:

ظاهر اللفظ يحتمل أنهم ظاهروا أول مرة، ثم عادوا وظاهروا مرة ثانية.

وبهذا فسَّره جماعة، كما نُقل عن الفرَّاء وداود الظاهري، ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2]، وهو ضعيف.

والأقوى أن المعنى: أن يظاهر من زوجته، ثم يعود إليها ويعاشرها بعد أن حرَّمها على نفسه[3]، كما وقع هذا لسَلَمة بن صخر البياضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه جاء للنبي ﷺ، وكان فيه شَبَق وغُلْمة[4] وقوة في رغبته في النساء، فلما دخل رمضان ظاهر من امرأته؛ حتى يحافظ على صيامه وعلى صلاته، ثم وقع به شوق إليها، فواقعها[5].

ودلالة الآية ظاهرة على أن مَن فعل ذلك فعليه كفارة، وهي المذكورة ترتيبًا في الآية نفسها: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾: وهذه هي **الخصلة الأولى في الكفارة**: أن يعتق رقبة قبل أن يجامع زوجته[6].

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٨٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٤٨)، و«المحلى» (٩/ ١٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٠- ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩- ٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦)، و«أضواء البيان» (٦/ ١٩١).

(٤) أي: شدة الشهوة. ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ١٧١)، و«تاج العروس» (٢٥/ ٤٩٠) «ش ب ق».

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠٠)، وأبو داود (٢٢١٣)، والترمذي (٣٢٩٩)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، وابن الجارود (٧٤٤)، وابن خزيمة (٢٣٧٨)، والحاكم (٢/ ٢٠٣). وينظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ٤٤٤)، و«إرواء الغليل» (٢٠٩١).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٢).

وفيه دلالة على تشوّف الإسلام إلى تحرير الرَّقيق، وقد كان الرِّقُ عرفًا شائعًا في المجتمعات البشرية، ولا سبيل إلى إلغائه مرة واحدة، لكن عمد الإسلام إلى تجفيف منابعه، كما يقال: لا تقتل البعوض، ولكن جفِّف المستنقعات. وجاءت الشريعة بتشجيع الناس على تحرير الرَّقيق، فالناس وُلدوا أحرارًا، وهم في ذلك سواء.

وهل يشترط أن تكون هذه الرقبة رقبة مؤمنة؟

قولان للفقهاء: فذهب أبو حنيفة إلى عدم اشتراط ذلك[١].

والجمهور يشترطون أن تكون مؤمنة[٢]؛ استدلالًا بالآية الأخرى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢].

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ تقييد للكفارة بأن تُخرج قبل أن يجامع المظاهِر زوجته[٣].

وعبَّر بالمسيس؛ تهذيبًا وكناية عن المعاني التي يُستحى من التصريح بها.

والمقصود بالتماس هنا: الجماع[٤]، كما أن في التعبير إشارة إلى التكافؤ بين الزوجين، بمعنى أنَّ التماس هنا مشترك من الطرفين، تأكيدًا إلى أن العلاقة الزوجية هي علاقة تكافؤ، وإشعارًا إلى أن المرأة ليست محلًّا لقضاء الوَطَر فحسب.

ومن الألفاظ التي استعملها القرآن تعبيرًا عن الجماع بلفظ مهذَّب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والناس بحاجة إلى معرفة الأحكام والحلال والحرام، وما يحلُّ وما لا يحلُّ في

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٥/ ١٠٩- ١١٠)، و«البناية شرح الهداية» (٥/ ٥٤٢).

(٢) ينظر: «اختلاف الفقهاء» للمروزي (ص٣٦٥)، و«المغني» (٨/ ٢٢)، و«المجموع» (١٧/ ٣٦٨)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٢/ ٤٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٨- ١٩).

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٠١)، والمصادر السابقة.

العلاقة بين الزوجين، والآداب التي تحيط بهذه العلاقة، وتربية الناس على تهذيب الألفاظ، بعيدًا عن الابتذال، والسورة كلها تدور حول الأدب والذوق والتربية على العلاقات الاجتماعية الراقية، كما سوف يظهر.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: الأمر بتحرير الرقبة مما تُوعظون به، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيءٌ، مما يستوجب على الناس أن يُراقبوا الله سبحانه، فلا يتكلموا إلا بخير[1].

وفيه إحياء لشعور الخوف من الله في النفوس؛ ليكون زاجرًا لها عن الحرام، وهو ما يسمى بالوازع الديني، فهذا الوازع لا يقتصر عمله وأثره على حَمْلِ الناس على الصلاة في المساجد، بل هو عام؛ يزجرهم عن رمي الطلاق من غير تبصر، أو ظلم الآخرين، أو بخس حقوقهم، أكانوا من الأباعد أو الأقربين.

* ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

وهي **المرتبة الثانية في الكفارة**: من قبل المسِّ لمَن لم يجد الرقبة أو ثمنها صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع ذلك؛ لضعفه أو عجزه أو غير ذلك انتقل إلى **المرتبة الثالثة**: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، وكأنه جعل إطعام كل مسكين مقابل صيام يوم من الشهرين المتتابعين[2].

وفيما يتعلق بهذه المرتبة الثالثة: الإطعام، لم يشترط فيها أن تكون ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى عدم تقييد الإطعام بأن يكون قبل المسيس[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٣).

(٣) ينظر: «المحلى» (٩/ ١٩٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٥)، و«المغني» (٨/ ١١- ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١).

والأقرب أنه مثل سابقه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، لكنه اكتفى بما سبق من تكرار: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ ولأن الإطعام لما كان بديلًا عن الصيام، لَمْ يَحْتَج أن يقول: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ليكون إيمانكم بالله ورسوله إيمانًا حقيقيًّا، وليكون عملًا تلتزمون به أمر الله عَزَّوَجَلَّ[2].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما سبق ذكره من كفارة الظهار وتحريمه[3].

والحدود جمع: حدٍّ، وهو ما يفصل بين الشيئين[4]، فكأن هذا هو الحدُّ الفاصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والإسلام والجاهلية.

ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنهم لا يؤمنون بحدود الله، فلا يلتزمونها، ففي ذلك تحذير منهم ومن فعلهم، وفيه دعوة إلى التزام شريعة الله سبحانه، ووجوب العمل بها وتحكيمها، فالكافرون الذين لا يؤمنون بالحدود متوعَّدون بالعذاب المؤلم في الدنيا والآخرة.

وكأن هذا يُشبه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، وفيه تعريض بمَن يبتغون في الإسلام سنة الجاهلية من المنافقين وغيرهم الذين لا يؤمنون بالشريعة اعتقادًا، ولا يلتزمونها، ولا يعملون بها.

وهنا تم القسم الأول من هذه السورة، وهو ما يتعلَّق بقصة المجادلة.

(١) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣١٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٣٧)، و«بدائع الصنائع» (٣/ ٢٣٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٧)، و«المغني» (٨/ ١١- ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٤/ ٢٦٨)، و«تاج العروس» (٨/ ٨)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٤٥٧) «ح د د»، وما سيأتي في «سورة الطلاق»: ﴿... وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾.

* **ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر**، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾:

هكذا توجَّه السياق إلى بعض مَن هم حول المؤمنين وليسوا منهم، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يقفون في الحدِّ الآخر المقابل للحقِّ، وهي مثل: ﴿شَآقُّواْ﴾ [الأنفال: ١٣]، أي: يتخذون شِقًّا وناحية غير ما فيه الله ورسوله والمؤمنون[(١)].

﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي: أُذلوا وأُهينوا كما أُهين الذين من قبلهم من الأمم، وممن ترونهم حولكم، كما حدث لبني قَيْنُقَاع ولقريش في هزيمتهم النكراء في بدر[(٢)].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: وعبَّر هنا بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنه يتناسب مع قوله: ﴿كُبِتُواْ﴾، فالكَبْت الذي أصابهم في الدنيا يُناسبه يوم القيامة أن يكون العذاب مهينًا لهم، ولا أشد هوانًا لهم من أن يُحشروا في نارٍ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

* ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾:

في ذلك تأكيد ودعوة للمؤمنين إلى أن يستحضروا كمال علمه وإحاطته سبحانه بخلقه، ولقد سمع هذه المرأة التي تجادل في زوجها، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ركن الدار لا تسمعها، فلا يخفى عليه سبحانه شيء مما يعمل العباد أو يقولون أو يسرُّون أو يظهرون: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

وما يفعله العباد يُكتب، وينبِّئهم الله تعالى به يومَ القيامة، فقد أحصاه حين نسيه

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣)، والمصادر السابقة.

الناس، والكلام هنا عن أولئك الذين كفروا بالله ورسوله، فإنهم نسوا أعمالهم، وأما المؤمن فإنه وإن كان يقع منه الخطأ، إلا أنه لا ينسى عمله، فهو يرى ذنبه وخطأه بين عينيه، فيُكثر من الاستغفار والندم حتى فيما يجتهد فيه أن يكون خيرًا، كما ورد عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما اعترض في صلح الحُدَيْبِيَة، أنه عمل لذلك أعمالًا صالحة؛ لتكفِّر عنه ما مضى من التوقف في امتثال الأمر ابتداء[١].

وربما وقع المرءُ في ذنب، فكان خيرًا له من جهة ما تبعه من ندم وتكفير بالصالحات وتواضع وانكسار وسلامة من العُجب والاغترار.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه من أمرهم شيء، سرهم وعلانيتهم، فهو شهيد حاضر معهم، كثروا أو قلُّوا، وهي درجة أبلغ من مجرد العلم أو الإحصاء[٢]!

* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾:

إشارة إلى كمال علمه سبحانه الشامل السريع المحيط الذي لا يخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ ولهذا بدأ الآية بالعلم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، وختم الآية بالعلم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ووسط الآية هو صورة تفصيلية موضحة لهذا العلم: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ...﴾[٣].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٠٦)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٤٦)، و«سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٧)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: «إبطال التأويلات» (١/ ٢٣٠)، و«العلو» للذهبي (ص١٧٦)، و«تفسير القاسمي» (٥/ ٧٧).

والنَّجْوى: الهمس والمسارَّة بين اثنين أو أكثر، وغالبًا إذا كانوا اثنين يقال: مسارَّة، فإن كانوا أكثر عبَّر عنه بالنجوى[1]، وقد تُطلق النجوى على مجمل التناجي أو المسارَّة بين فئة دون الباقين[2].

والحقيقة التي تقرِّرها الآية أن الله معهم في نجواهم ومسارَّتهم بسمعه وبصره وعلمه التام الذي لا يضل، وحفظه وإحصائه الذي لا ينسى.

وبدأ بـ«الثلاثة»؛ ليكون قوله بعد ذلك: ﴿**وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ**﴾ متناسبًا متقابلًا، فـ«الاثنان» أدنى من «الثلاثة»، ثم ذكر «الخمسة» وتجاوز «الأربعة»؛ لأن «الأربعة» تدخل في الأدنى المذكور، فلما قال: ﴿**وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ**...﴾ كان «الأربعة» أدنى من «الخمسة»[3]. واتسع اسم الإشارة ليشمل «الثلاثة» و«الخمسة»، على ما في السياق من تجنب تكرار العدد وهو أجمل وأبلغ.

فهو معهم بعلمه وبسمعه وبصره، كما قال لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿**إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وبسلطانه سبحانه، وإحاطته وقدرته، فهذا معنى المعيَّة، كما ذكره الأئمة والسلف، وأشار إليه ابن كثير في «تفسيره»[4].

﴿**وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾: والنص أقرب للتحذير والوعيد، ففيه تعريض بالذين يشقُّون وحدة الصف المسلم بالتناجي، وبث الفرقة، وإشاعة القلق، لا بقصد الإصلاح، بل لغرض تنفير المؤمنين وزعزعة يقينهم، ولذا توعَّدهم بأن يخبرهم بما عملوا يوم

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٦٤)، (١٠/ ١٢٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٤/ ٩٠)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٢٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٠٤)، و«زاد المسير» (١/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٣)، و«فتح القدير» (١/ ٥٩٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٣/ ٢٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٤٤٧- ٤٤٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٧٣)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٨).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٩٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ١٣١- ١٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢).

القيامة، وهو متضمِّن لمؤاخذتهم عليه.

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾:

تشير الآية إلى أُناسٍ ظلُّوا يتناجون ويتهامسون منعزلين عن المجموعة، يتآمرون بمكائد وخُطط خبيثة، مقصودها النيل من الإسلام ومراغمة أهله، وهي الحرب النفسية والاجتماعية التي تسعى إلى تفتيت المجتمع ونشر الشائعات في داخله، على أن هذه النجوى ذاتها تُحدث الحزن، كما قال ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجَى اثنان دونَ صاحبهما، فإن ذلك يُحزنُهُ**»[1]. لأنه إذا أصبحوا يتهامسون فيما بينهم وهو منعزل عنهم ضاق صدره، ورأى أنه ليس محلًّا للثقة، وربما كانوا يتكلمون فيه، أو يُخفون عنه بعض الحقائق؛ شكًّا في أمانته.

ولذلك قال بعض أهل العلم: إنه يدخل في التناجي لو تكلموا بلغة أخرى غير اللغة التي يُحسنها؛ بقصد إخفاء الحوار عنه[2].

والمعنيون في هذه الآية: أناس يتناجون بما لا يجوز، زيادة على أنهم قد نُهوا عن مجرد التناجي، فكيف إذا كان موضوعها الإثم والعدوان ومعصية الرسول؟

والإثم: يُقصد به هنا: ما يخصهم من المعاصي، كشرب المحرم أو اللهو المحرم[3].

وأما العدوان: فهو على الآخرين، يتناجون بالوقيعة بفلان أو ضربه أو سرقة ماله[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٨، ٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٣، ٢١٨٤) من حديث ابن مسعود وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٦)، والمصادر السابقة.

وأما **معصية الرسول** ﷺ: فهي وإن كانت من الإثم والعدوان، لكنها ذُكرت تخصيصًا؛ لأنه بين أظهرهم، والمؤمنون يحبونه ويُطيعونه، إلا أن هؤلاء الناس كفروا النعمة، وأصبحوا يتناجون بمعصيته ﷺ، ولعل موضوع المعصية هنا ليس مجرد مخالفة سنته؛ بل التمرُّد على الأوامر التي تنظِّم حركة المسلمين في مواجهة خصومهم من اليهود والمشركين، وإرباك الموقف في الأزمات التي كانت تمر بالمجتمع المسلم الناشئ.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: والظاهر أن المقصود اليهود[١]؛ فقد كانوا إذا جاؤوا للنبي ﷺ قالوا له: السَّام عليك يا أبا القاسم[٢]. **والسَّام** هو: الهلاك أو الموت[٣]، ويتظاهرون بأنهم يسلِّمون عليه، والنبيُّ ﷺ يأخذهم بظاهرهم، حتى أكثر الناسُ عليه، وقد سلَّم عليه أحدُهم، وردَّ عليه النبيُّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يقول: السَّام؟ فقال: «**ردُّوه عليَّ**». فردُّوه عليه، فقال: «**أقلتَ: السَّامُ عليك؟**». قال: نعم. فأرشدهم ﷺ إذا شكُّوا في السلام أن يردُّوا بقولهم: «**وعليكم**»[٤]. أما إن علمتَ أنه قال: السلام عليكم. فترد عليه بمثلها أو أحسن[٥].

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾: إما يقولون ذلك في قلوبهم، دون أن يتفوَّهوا به، أو يقولون في خاصة مجالسهم: أن هذا لو كان نبيًّا حقًّا لعذَّبنا الله بما نقول، فنحن نتكلَّم في ظهره بمعصيته ونتناجى بذلك، ونُلقي عليه التحية المُلبسة

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٦١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٥، ٦٢٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥، ٢١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٠- ٤٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١١).

(٣) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٥٧)، و«الاستذكار» (٨/ ٤٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٤٢٧، ١٣٤٥٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٠٥)، والترمذي (٣٣٠١)، وابن ماجه (٣٦٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأصله في «صحيح البخاري» (٦٩٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٣).

وفي «صحيح البخاري» (٦٢٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه.

(٥) ينظر: «التمهيد» (١٧/ ٨٩)، و«عمدة القاري» (١٤/ ٢٠٦).

الخادعة، ولم يُعذِّبنا الله بهذا[1].

وهذا ملائم للعقلية اليهودية المريضة في تعاملها مع الشأن الإلهي، فهم يحسبون عقاب الله كعقاب البشر، فإن الإنسان إذا سخط ربما يُعجِّل العقاب، لكن الله تعالى حليم صبور، لا يعجِّل لعجلة عباده، ولهذا ردَّ عليهم فقال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، والمعنى ظاهر، فإن لم يلحقهم عذاب في الدنيا فحسبهم ما توعَّد الله عليهم من عقوبة الآخرة، وبئس العذاب.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: إن كان ولا بد من التناجي، فليكن في غير الإثم والعدوان ومعصية الرسول[2]، كما في الحديث لما قال الرسول ﷺ: «**إياكم والجلوسَ في الطرقات**». قالوا: يا رسولَ الله، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدَّثُ فيها. قال رسولُ الله ﷺ: «**فإذا أبيتُمْ إلَّا المجلسَ، فأَعْطُوا الطريقَ حقَّهُ**». قالوا: وما حقُّهُ؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذَى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر**»[3].

إذًا النهي عن النَّجْوى في السابق هو **أولا** للنجوى ذاتها، وأنها تُحدِث حُزنًا وانخزالًا بين المؤمنين وخوفًا ورعبًا.

وثانيا: لأن تلك النَّجْوى تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فلذا نهاهم هنا أن يتناجوا كما يتناجى المنافقون، وأرشدهم إلى البديل؛ وهو التناصح والتحاور فيما يخدم وحدة المجتمع المسلم وأمنه.

فالتقوى في مقابل **الإثم**، **والبِرُّ** في مقابل **العدوان**، وقدَّم هنا «البِرَّ» على

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«التقوى»، في حين أنه قدَّم «الإثم» على «العدوان»، والسِّرُّ- والله أعلم- أن عمل الخير للآخرين أفضل؛ ولهذا يقول الفقهاء: النفع المتعدِّي يُقدَّم على النفع اللازم[1]. فالإحسان إلى الفقير أفضل من نوافل العبادة؛ لأن فيه نفعًا للآخرين.

* ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾:

بيَّن تعالى أن التحريض على هذه النَّجْوى إنما هو من الشيطان؛ ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2].

إن الله لا يُحب أن يُحزن الذين آمنوا، ولهذا لم يتعبَّدنا بالحزن، ونهى رسولَه ﷺ عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، فالقيم الإيمانية تؤسِّس للسعادة في القلب وانشراح النفس وقرة العين، وأن كل ما يدعو إلى تحقيق معنى الرضا والفرح والسعادة والسرور فإنه مطلوب ما لم يكن إثمًا.

ومن ذلك: ما يتعاطاه الناس فيما بينهم من بذل المعروف، وهو البِرُّ الذي أشارت إليه الآية، ومنه الطاعة لله والعبادة، وتجنب ما يثير الندم، وهو التقوى المذكورة، ولذا دعا إلى ما يدفع الحزن عن الآخرين؛ فالكلام الطيب، والقول الطيب، والوجه الطيب، والبشاشة، وحسن المعاملة، والإحسان إلى الخلق بكل ممكن مقدور هو مما تُحفِّز عليه الشريعة، وتحث عليه نصوص الكتاب والسنة[3]،

(١) ينظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص١٠٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (١/ ٣٣٠)، و«فيض القدير» (٦/ ٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلْقَى أخاكَ بوجه طَلْق**». أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، وقوله: «**مَن نفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرب الدنيا، نفَّس اللهُ عنه كُربةً من كرب يوم القيامة، ومَن يسَّرَ على مُعْسر، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستر مسلمًا، سترَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**». أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

فإدخال السرور على المؤمنين مطلوب، وإزالة الأحزان منهم مطلوبة.

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾: فالمؤمن الذي حقَّق الإيمان أقرب إلى الرضا والسرور، مع أن الحزن والهمَّ والاكتئاب عوارض إنسانية قلَّ مَن يسلم منها، وقد تكون مرضًا يصيب الإنسان لعارض في الطفولة أو بسبب المورثات التي تجعله مهيَّئًا أكثر من غيره لتقبل الهمِّ والغمِّ والألم(١).

إن الحزن والاكتئاب لا ينحصر سببه في الذنب والمعصية، ومهما يكن فإن الإيمان هو من أقوى الوسائل التي تجعل الإنسان أكثر استعدادًا وتأهلًا للفرح والرضا والسرور ومقاومة الحزن؛ فإذا كان عند الإنسان إيمان قوي بالله وتوكُّل عليه واستحضار للوجود الإلهي المهيمن على كل شيء، والقادر على كل شيء، فذلك يورثه قوة نفسية على مقاومة الحزن، وحتى لو وُجد الاكتئاب، فالإيمان يؤسِّس ويرسِّخ الاستعداد والاستجابة النفسية للعلاج.

ومن نجوى الشيطان التي ذكرها بعضهم: ما يتعلق بالرُّؤْيا أو الحُلم(٢)، فكثيرًا ما يستيقظ الإنسان وهو متكدِّر، وربما كان هذا بسبب رُؤْيا مزعجة رآها، سواءً تذكرها أو نسيها، ولكن بقي أثرها، يُفكِّر أن هذه الرُّؤْيا سوف تتحقَّق، فإنه يظل في كل لحظة يقول: متى تقع؟ فربما يقع شيء يشبهها، فيقول: هذا ما كنتُ رأيته. ثم يتولَّد عنده إحساس أنه كلما رأى شيئًا مخيفًا أو محزنًا فإنه سيقع.

ومَن توكَّل على الله استطاع أن يُكيِّف ويعوِّد نفسه على اعتقاد أن ما رأى من الشيطان، وأنه لن يضرَّه حتى لا يبالي به، وقد جربتُ هذا بنفسي كثيرًا منذ الطفولة، ووجدتُ الأمر كما وصفتُ!

وفي «الصحيحين» من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الرُّؤْيا من الله، والحُلْمُ من الشيطان، فإذا رأى أحدُكم شيئًا يكرَهُهُ فلينفثْ(٣) حين يستيقظُ**

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٧).

(٣) النفث: نفخ لطيف بلا ريق.

ثلاثَ مرات، ويتعوَّذْ من شرِّها، فإنها لا تضرُّهُ»[1].

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾:

انتقل السياق من موضوع النَّجْوى إلى موضوع آخر متشابه، يشترك مع النَّجْوى في أنه من آداب المجالسة والعلاقة الاجتماعية.

وقد قُرئت الآية بالجمع والمفرد: ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾، و﴿ٱلۡمَجۡلِسِ﴾[2].

ويحتمل أن يكون المقصود: مجلس النبي ﷺ، وهو يتكرر في أوقات مختلفة، فيسمى: «مجالس» بالجمع، وعلى الإفراد فالمقصود كل «مجلس»[3].

وقد ورد في سبب النزول: أن النبيَّ ﷺ كان في خطبة الجمعة، أو في الصُّفَّة، وضاق المجلس، فجاء أُناس من أهل بدر من السابقين، وبعضهم كبير السن، وبعضهم من السابقين بالعلم ممن له وجاهة ومكانه ومنزلة، وبعضهم محتاج؛ مثلما ورد عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان ثقيل السمع، فيحتاج إلى أن يكون قريبًا، وهؤلاء قد تحملهم ظروفهم على التأخر أحيانًا، وكان النبي ﷺ يُضطر إلى أن يقول: «**قُمْ يا فلانُ، قُمْ يا فلانُ**». من باب التأديب والتدريب لناس يثق بمحبتهم وطواعيتهم، وأن ذلك لا يخدش مشاعرهم، وربما قال: «**يا فلانُ، أفسح لفلان**». وأحيانًا لا يخاطبهم فرادى، بل ينبِّه إلى التفسح ومراعاة ضيق المجلس في

---

(1) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٨- ٦٢٩)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٣)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٦٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٨٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٧٤).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٨- ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٦- ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٩)، والمصادر السابقة.

طريقة الجلوس والتضام والإفساح للآخرين.

ولما قال مرة: «**قُمْ يا فلان، قُمْ يا فلان**». استغلَّها المنافقون، وقالوا للمسلمين: ألستم تزعمونَ أن صاحبَكم يعدلُ بين الناس؟ فوالله ما عدل بين هؤلاء؛ قومٌ أخذوا مجالسهم وأحبُّوا القربَ من نبيهم، أقامهم وأجلس مَن أبطأ عنهم مقامهم!؟[1].

وأرادوا بهذا إيغار صدورهم، وتحريك كوامن النفس والأنانية التي هي من شر ما يوتِّر العلاقة ويفسدها.

إن من أعظم ما يعانيه الناس في مجتمعاتنا طبع الأنانية؛ التي هي الأَثَرة في المجلس، في قيادة السيارة، في الوظيفة، في العمل، في الدراسة.. فسيطرة النزعة الأنانية على المجتمع كفيلة بتدميره والقضاء عليه، ولا يمكن محاربة هذه الأَثَرة إلا بتوظيف القيم الإيمانية وتحريكها[2]، كما نجد ها هنا، فالله سبحانه يخاطبهم بلفظ «الإيمان»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ويختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾، إذًا الإيمان الموجود في قلوبكم يجب أن يتحول إلى برامج عملية واقعية تُرى على الجوارح والسلوك في الملبس والمأكل، والمجلس والعمل والطريق، ومع الأهل وغيرهم، فلا ينبغي أن نستسلم لعاداتنا الاجتماعية ولمألوفاتنا؛ بل أن نستلهم الإيمان في الذوق الذي نتعامل به في المجلس على صعيد الفرد أو الجماعة.

ولأن من طبيعة النفس أن تسرع للعمل حين تعرف جزاءه، بيَّن أن الإفساح في المجلس يترتَّب عليه أن يفسح الله لهم، وهذا يشمل الفُسحة في الحياة والرزق

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٦- ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥- ٤٦).

وأما ما ورد أن سبب النزول: أن النبيَّ ﷺ كان في مجلس، وكان إلى جنبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاء عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوقف ولم يجد مجلسًا، فأصبحَ النبيُّ ﷺ ينظرُ، فعرف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأفسحَ له، وقال: ها هنا يا أبا الحسن... فلا يصح. ينظر: «معجم ابن الأعرابي» (١٤١، ٥٦٦)، و«مسند الشهاب» (١١٦٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٩٩)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٣٨٠- ٣٨١)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٧١)، و«السلسلة الضعيفة» (٣٢٢٧).

(٢) ينظر: «أنا.. وأخواتها» للمؤلِّف.

وسَعة النفس والبال، والفُسحة في منازلهم في الجنة لقاء طيبتهم وإيثارهم غيرهم بمجالسهم التي سبقوا إليها[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾: **النُّشوز** هو: الارتفاع، **والمكان الناشز** هو: المرتفع الناشز من الأرض، ومنه سُمِّيت المرأة التي تعصي زوجها ولا تؤدِّي حقوقه: ناشزًا: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[٢] [النساء: ٣٤].

وكذلك الرجل يقع منه النشوز في حق زوجته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ [النساء: ١٢٨]، وإن كانت لغة الفقهاء تُطلق النشوز على المرأة دون الرجل في الغالب.

والمعنى: إذا قيل لكم: قوموا، فقوموا[٣]. **والمقصود**: الانصراف حتى لا تثقلوا على المضيف، كما أمر الله سبحانه المؤمنين في شأن الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فإذا قيل لكم: قوموا، فقوموا، أو: انصرفوا، فانصرفوا، ولا تتثاقلوا وتستطيبوا الجلوس، غير متنبهين إلى حاجة المضيف للخلوة بنفسه أو أهله أو استطالته المجلس دون فائدة[٤].

ومن المعنى: إذا طُلب من أحدكم أن يقوم عن مكانه في المجلس، مراعاة لحقِ كبير أو ضعيفِ سَمْعٍ أو نحوه، فليقم بطيب نفسه[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧١- ٥٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٦٩٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١١٣٥)، و«تفسير الرازي» (١١/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ٤١).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٠٦)، و«لسان العرب» (٥/ ٤١٨) «ن ش ز».

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٩)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٤)، والمصادر السابقة.

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أي: إن تفعلوا ذلك دون ضيق أو حزن أو تبرُّم، فهي علامة الإيمان والعلم؛ لأن الدرجة ليست في صدارة المجلس أو التكريم الظاهر، بل في الإيمان والعلم.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن الناس ليسوا سواسية، حتى أصحاب محمد ﷺ؛ فيهم الخلفاء الراشدون، وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وفيهم مَسْلَمة الفتح، وفيهم مَن روى أحاديث كثيرة، وفيهم مَن لم يرو إلا حديثًا واحدًا، وفيهم مَن لم يرو شيئًا، وفيهم مَن لا يُعرف في كتب السير إلا اسمه، وفيهم الأعراب الذين هم حُدثاء عهد بإسلام.. فالناس ليسوا سواسية، فهنا لما قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أي: بهذا الفعل، بمعنى أن أصحاب السابقة والإيمان يُقدَّمون على غيرهم، وكذلك أصحاب العلم يقدَّمون على غيرهم(١).

وهنا لفتة إلى مكانة العلم والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]، فليس تميز الناس بأنسابهم أو مجدهم الاجتماعي، كما قيل(٢):

فلا تحسبُ الأنسابَ تُنجيكَ من لَظَى ... ولو كنتَ من قَيْسٍ وعبدِ مَدَان
أبو لهب في النار وهو ابنُ هاشم ... وسلمانُ في الفردوس من خُراسان

وكما قيل(٣):

كن ابنَ مَن شئتَ واكتسبْ أدبًا ... يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسَبِ
إن الفتى مَن يقول: ها أنا ذا ... ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

وفي ذلك دعوة إلى تعظيم أهل العلم والإيمان، أما إن كانوا من السابقين،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: «مقامات عائض القرني» (ص١٨٧).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).

فهذا لا شك فيه، وخاصَّة ممن أثنى الله تعالى عليهم وجعل على أيديهم قيام الدين ونصرته وحفظ القرآن والسنة.

والكفر بالتاريخ هو كفر بالذات، وإذا اعتقدنا أن الأجيال السابقة ما استطاعت أن تُطبِّق الدين أو طبَّقته بطريقة محرَّفة، أو ما قامت به، فينبغي أن نعتقد أن مَن بعدهم أولى أن لا يقوموا بذلك، فيكون هذا في النهاية إنكارًا للذات نفسها، وجحودًا للرسالة ومرسلها، وتمهيدًا لصغار النفوس واستعدادها للإفتتان، وتحذيرًا للصراع داخل الدوائر الفاضلة والمنتخبة.

وفي هذا إثبات لما ينبغي من محبة أهل العلم، والثناء عليهم، وحسن الظن بهم، والدعوة لهم، وتكريمهم، وتجنب الوقيعة فيهم بالذم والسَّلْب والعيب والتنقص والازدراء، و«**لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا ذو الفضل**»، فإذا رأيتَ الإنسان يتجرَّأ على الأكابر والعظماء وأهل الفضل ويزدريهم أو يحتقرهم، فاعلم أن هذا من دناءة نفسه، ومن قلة العلم والأخلاق والذوق أيضًا.

ولا يلزم من هذا اعتقاد عصمتهم، ولا تحريم الردِّ عليهم فيما يخطؤون فيه من اجتهادات، فقد يَرُدُّ الإنسانُ على مَن هو أعظم منه وأكثر علمًا، وقد يأخذ من هذا العالم أو من ذاك، والعلماء ليسوا معصومين، ولا كهنوت في الإسلام، ولكن لا بد عند الردِّ والنقد أن يكون بأدب وعدل، لا يخالف التوقير والاحترام ورعاية الحقوق.

فيجب أن نوازن بين هذين الجانبين اللذين كثيرًا ما يُظن أنهما متعارضان، فتوقير أهل العلم واحترامهم وإعطاؤهم المكان اللائق بهم، لا يمنحهم العصمة فيما يصدر منهم من فتاوى وآراء واجتهادات، كما أن تسويغ نقدهم ومراجعتهم والاستدراك عليهم، ورد بعض ما يصدر منهم من اجتهاد مرجوح أو خطأ صريح، لا يبيح الاستهانة بقدرهم، ولا الاستخفاف بمكانتهم، والتوازن في هذا مسلك يدل على حسن التربية، وصدق اللهجة، وسلامة الصدر.

وعلى العالم أو الفقيه أن يكون قريبًا من الناس، موطَّأ الأكناف لهم، حسن

المعاملة، بعيدًا عن الكِبْر أو سوء الظنّ، وألَّا تشغله الدنيا أو المناصب، أو يظهر للناس من أمره ما يدل على افتتانه بالمجد والرئاسة ومجالسة الكبراء، والمسارعة في استرضائهم؛ لئلا يكون هو المتسبِّب في سقوط جاهه عند الناس، أو الوقيعة في عرضه، أو سوء الظن به.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾:

هذا تشريع مؤقَّت، **سببه**: أنهم كانوا يكثرون من مجالسة النبي ﷺ ومناجاته، حتى في بيته، وقد يطيلون الجلوس بما يثقله ويشغله عن أعماله ﷺ، فأراد الله بهذا تأديبهم(١).

والمعنى: إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: قبل أن تناجوه تصدَّقوا بشيء على الفقراء أو المساكين(٢)، وفي هذا التقييد ترشيد لمناجاتهم، وتهدئة لهذا الاندفاع؛ إذ بعض المناجاة مما لا تستدعيه الضرورة ولا الحاجة، ويمكن قضاؤها بمناجاة غير الرسول ﷺ من أهل الحصافة والرأي.

والصدقة تطهير للقلب وللمال، كما قال سبحانه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولذا قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾، وهو دليل على أن هذا لم يكن واجبًا قطعيًّا، بل على سبيل الاستحباب والترغيب(٣)؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وفي هذا إشارة إلى فئة أخرى من المؤمنين لم يكونوا بأهل يَسَار حتى يجدوا ما يتصدقون به، فخفَّف الله عنهم(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٤).

* ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أشار إلى فئة أخرى من حدثاء العهد بالإسلام استثقلوا التصدق، فقال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ﴾ يعني: عجزتم أو خفتم من الفقر أو غيره، فلم تقدِّموا هذه الصدقات التي أُمرتم بها[1]، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾، ولم تتصدَّقوا ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: خفَّف عنكم، كما قال في «سورة التوبة»: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ١١٧]، فالتوبة هنا قد تعني: تخفيف الأمر[2].

والآيتان نزلتا معًا، مما يدل على أن الأمر ليس فيه نسخ من الوجوب إلى الاستحباب، وإنما خُفِّف في السياق نفسه[3]؛ ولهذا يقال: إن هذه الآية لم يعمل بها أحدٌ قط، إلا ما رُوي أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «هذه الآية ما عمل بها أحدٌ، ولا يعمل بها أحد بعدي». فإن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما نزلت هذه الآية كان عنده دينار، فصرفه اثني عشر درهمًا، وكان يتصدَّق على فقير، ثم يناجي النبي ﷺ[4].

وقد يكون عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل ذلك على سبيل البركة وامتثال أمر الله تعالى، وإلا فإنه زوج بنت رسول الله ﷺ، والنبيُّ ﷺ يزورهما في بيتهما.

والمقصود تعظيم مقام النبي ﷺ؛ لأنه بين أظهرهم، وهو مَن هو في التواضع ولين الجانب والحياء من الناس، ولذا تولَّى الله حفظ مقامه وتأديب أصحابه ومجالسيه ببعض حقه الشريف ﷺ، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٢)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص٣٩٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٦).

(٤) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص٢٥٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٢١٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٣)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٦)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٩٦).

ﵟٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَﵞ أي: فهذه هي الواجبات الأصلية والأركان العملية، والتي منها الصلاة، ومنها الزكاة الواجبة للفقراء والمساكين، ومنها طاعة الله وطاعة رسوله.

* ﵟ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥ﵞ:

هذا المقطع الأخير من السورة، وهو متصل بما ذكرنا من تداخل الطوائف المختلفة في المجتمع المدني، ووجود بعض الضعفاء الذين لم يتحرَّر ولاؤهم خالصًا للإسلام وأهله، فهم على علاقة مع المنافقين أو مع اليهود أو مع الوثنيين، بحكم القرابة أو الجوار أو الشراكة أو الصداقة السابقة، ونحو ذلك، وقد قبسوا شيئًا من الإسلام أو حاولوا، ولكن لم يتحرَّر هذا الولاء عندهم، فجاءت هذه الآية لتعالج هذا الموضوع.

والآيات نزلت- كما يقول المفسرون- في قوم من العرب تولَّوا اليهود[1]، ولم يصرِّح السياق باسم اليهود الذين كانوا يوالونهم[2]، لكن الغالب أن لفظ الغضب في القرآن يُطلق على اليهود[3]؛ ولهذا قال هنا: ﵟمَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡﵞ، فهؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم ليسوا عربًا مثلهم، فيكون بينهم القرابة والنسب، وليسوا مثلهم في الإسلام، فهؤلاء يُظهرون الإسلام، وأولئك يُظهرون الكفر بالله ورسوله[4].

ويجوز أن يكون المعنى: أن هؤلاء القوم- كما قال تعالى في موضع آخر-: ﵟمُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚﵞ [النساء: ١٤٣]، أي: ليسوا مع

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

(٣) وفي الحديث المرفوع: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم**». وقد تقدم تخريجه في «سورة الفاتحة»: ﵟصِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ﵞ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

المسلمين، وليسوا مع أعداء المسلمين، بل هم متردِّدون متذبذبون[١]، كما في قول النبي ﷺ: «**مثلُ المنافق، كمثَلِ الشاة العائِرَة بين الغنمين تَعِيرُ إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً**»[٢]. أي: ليست مع هذه الرعية، ولا مع تلك الرعية، فهي ضائعة بينهما[٣].

﴿**وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾: **والمقصود هنا**: المنافقون[٤]، يكذبون ثم يحلفون بالله على الكذب، فجمعوا ثلاث سوآت؛ الأولى: الكذب، **والثانية**: أن الكذب وقع منهم عن قصد؛ لأن الإنسان قد يقع منه الخطأ وهو لا يعلم، وفي لغة أهل الحجاز يُطلق الكذب على الخطأ[٥]، **والثالثة**: أنهم يحلفون بالله على ذلك الكذب. والفعل المضارع يدل على أن هذا وقع منهم مرارًا لا مرة[٦].

وإذا كان مذمومًا أن يكثر المسلم من الحلف، ولو صادقًا، كما يدل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٤]، فيحلف على الحقير والجليل، والصغير والعظيم، فكيف بمَن يحلف على الكذب، ثم يكثر من الحلف، حتى يصبح عادة لسانية، تدل على استهانته بالله وبآياته.

وإذا كان النهي ورد عن كثرة الحلف، حتى مع الصدق، فكيف بمَن يحلف كاذبًا، ثم يكرِّر ذلك؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١- ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ١٢٨)، و«عمدة القاري» (١٦/ ٦٩)، و«فيض القدير» (٥/ ٥١٥- ٥١٦).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٥٢)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٤٠).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٠٣)، و«لسان العرب» (١/ ٧٠٩) «ك ذ ب».

(٦) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٩)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾.

وإذا كان الحلف الواحد على باطل قد يكون يمينًا غَمُوسًا يغمس صاحبه في النار[1]، فكيف بمَن هذا ديدنه؟

فهؤلاء توعَّدهم الله بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

والعذاب الشديد قد يكون في الدنيا بما كتب الله تعالى لهم من الذلِّ والهوان والغلبة، وهو أيضًا في الآخرة[2].

وقال بعضهم: إنه عذاب القبر[3]، حتى لا يكون في الآية تكرار؛ لأنه بعد ذلك قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

والأَوْلى أنه يشمل كل ما سوف يُعذَّبون به في الدنيا، من عذاب الذل والهوان والخسف الذي سوف يصيبهم، وعذاب القبر، وعذاب الآخرة، وأشده عذاب الآخرة، ولذا نص عليه فيما بعد على وجه التحديد.

* ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾:

هذا تفريع على قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأها الحسن البصري، وأبو العالية: (**اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً**) بكسر الهمزة[4]، أي: تظاهروا بالإيمان، حتى يخادعوا المؤمنين، وتستقيم حياتهم المعيشية، وربما أرادوا الكيد والمكر والخديعة، وليسوا بمؤمنين[5].

وقراءة الجمهور: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، جمع: يمين، أي: اتخذوا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٩٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣١٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٧٨).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٠)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

من القَسَم بالله وقايةً يتسترون بها من المسلمين، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: صدُّوا بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم عن الحق بهذا الفعل الشائن، ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، وعبَّر بـ﴿مُّهِينٞ﴾؛ ليتناسب مع استهانتهم بالله وباسمه العظيم، وزجِّهم باليمين الكاذبة في غير مناسبة؛ فكان الجزاء من جنس العمل[1].

* ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾:

وهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾؛ حتى يقوا أنفسهم، ويحافظوا على أموالهم وأولادهم، وعلاقاتهم الأسرية والاجتماعية، فبيَّن أن الأموال والأولاد التي من أجلها فعلوا ما فعلوا لن تنفعهم من الله، وحتى لو كان أولادهم صالحين، كعبد الله ابن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، فالأبناءُ ناجون عند الله، ولكن لا يغنون شيئًا عن آبائهم، وقد يرثون أموالهم وينفقونها في سبيل الله، فينعمون بها في الدنيا والآخرة، ويُعذَّب بها الآباء الذين اكتسبوها باليمين الكاذبة وبالنفاق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن قيمة الإنسان بالعمل، وليست بمجرد المال، أو النسب، أو الولد، وإنما المال والنسب والولد والمكانة تنفع الإنسان إذا أحسن توظيفها واستخدامها، وإلَّا فقد تكون وبالًا عليه، كما قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾[2] [الأنفال: ٣٦].

* ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾:

لأنهم أدمنوا الحلف الكاذب، فأصبح عادة وشهوة لا يصبرون عنها، فيقع منهم يوم القيامة، فيحلفون بالله كما يحلفون من قبل في الدنيا للمسلمين على

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٩- ٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٨١)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (١/ ٥٦٩)، و«تفسير السعدي» (ص١٤٤).

الكذب[1]، ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ الذين ما زالوا يكذبون ويتحرَّون الكذب ويسارعون فيه، حتى كُتبوا عند الله من الكذَّابين الذين صار الكذب سيماء وعلامة وصبغة تصبغ شخصياتهم، وليس مجرد فعل عارض يتوب الإنسان منه ويندم.

* ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: أن الشيطان استولى وسيطر عليهم من كل جانب[2]، وفي الحديث: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إِلَّا قد استحوذَ عليهمُ الشيطانُ؛ فعليكَ بالجماعة؛ فإنما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ**»[3].

والأَحْوذ والأَحْوذي هو: القوي الغالب[4]، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان واللهِ أحوذيًّا، نسيجُ وحدِه»[5].

وبهذا صاروا من جماعة الشيطان الذين استسلموا له وأعطوه القياد ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧١٠، ٢٧٥١٤)، وأبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٢/ ١٠٦)، وابن خزيمة (١٤٨٦)، وابن حبان (٢١٠١)، والحاكم (١/ ٢١١، ٢٤٦)، (٢/ ٤٨٢)، والبيهقي (٣/ ٧٧) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٦٣)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٨٧) «ح و ذ»، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠٥٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٦٨)، والحارث (٩٦٦- بغية)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٩١٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣١٨)، والقَطِيعي في «جزء الألف دينار» (٣٣٣)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٤٨) (١٨٥)، والبيهقي (٨/ ٣٤٩).

فمع تحزبهم واجتماعهم الذي هو مظنة الربح، إلا أنه حكم عليهم بالخسران المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأن اجتماعهم كان على حرب الله وحرب أوليائه، ومن حارب الله فليبشر بسوء النهاية مهما ظنَّ غير هذا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾:

أي: يتخذون حدًّا آخر غير حدِّ الله ورسوله، **أو المعنى**: يحاربون الله ورسوله، كأنهم استخدموا السلاح والحديد لمحاربة الله ورسوله[1].

وهم هنا يحاربون الرسول ﷺ، أو يحاربون المؤمنين، لكنهم في واقع الأمر يحاربون دين الله؛ لأن هذا مؤدَّى ما يفعلون، والله غالب على أمره، فمهما كانت كثرتهم وسلاحهم، إلا أنهم يُهزمون ويُخذلون، فيلحقهم الذُّل في الدنيا، والخزي في الآخرة.

و لم يقل: «ذليلون»؛ بل قال: ﴿فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾، **والأذل**: هو الأكثر ذلةً، وإن كان كل الكافرين تلحقهم ذِلَّة، إلا أن بعضهم أشد من بعض ذلة حسب درجتهم في الكفر ومحادتهم لله ولرسوله ﷺ.

ولم يقل: «هم الأذلُّون»، وإنما قال: ﴿فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ يعني: أنهم داخلون في عداد ناس كثيرين من ﴿ٱلْأَذَلِّينَ﴾، فليس لهم شأن ولا وزن ولا قيمة ولا اعتبار ولا ذكر، فهم منسيُّون ضمن هؤلاء الأذلين[2].

وهي سنة جارية لا تتخلف مضت على أقوام وأمم وطغاة لا يعلمهم إلا الله، والناموس لا يتخلَّف، ولكن الناس يغفلون عنه، ويغترُّون بالقوة العابرة أو الظهور الوقتي.

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٤)، وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٥٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٦).

* ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾:

﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى وقدَّر وأنزل[1]، فهذا يعطي قوة عظيمة للمؤمنين ويعزِّز الإيمان في قلوبهم، ويدعو الضعفاء والمتردِّدين إلى أن يحسموا أمرهم وخيارهم إلى الإيمان والإسلام.

وعقَّب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تأكيدًا للوعد، فالغلبة هنا تكون بالحجة والبيان والبرهان، وهذا دائم في كل وقت، والغلبة تكون كذلك بالقوة والسلطان، وإن كان يتفاوت بحسب المبلِّغين عن الله ورسله، وقوة حجتهم، وتمام معرفتهم، وجودة لغتهم، واستيعابهم لمعطيات عصرهم[2].

وهذا يكون متى توفرت أسبابه، ويكون لرسل الله الذين بُعثوا بالقتال والجهاد، كموسى ومحمد عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، فإن الله تعالى كتب لهم القوة والغلبة والانتصار، وأذلَّ أعداءهم، أما الرسل الذين لم يُبعثوا بمثل ذلك، كعيسى عَلَيْهِالسَّلَامُ، فإنه لم يُبعث بقتال، فهؤلاء كتب الله لهم القوة والغلبة من جهة أن دينهم كُتب له الخلود والبقاء، وأن يقفِّي على آثارهم برسل يحيون شريعتهم وذكرهم ويجدِّدون عقيدتهم، كما جاءت رسالة محمد ﷺ لتعزِّز عيسى ودعوته ومكانته.

أما من بعد الرسل، فإن الله تعالى يكتب العزة والقوة للمؤمنين، بحسب ما يتحقَّق فيهم من الإيمان والتجرُّد والصفاء وصدق النية والامتثال للشروط الشرعية التي منها مراعاة السنن، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال: ٦٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٧)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٨).

* ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

وهذا يعني استحالة أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر حقَّ الإيمان، ثم يقع في قلوبهم موادة، أي: تبادل الودِّ والحبِّ مع مَن حادَّ وحارب الله ورسوله وحارب المؤمنين[1].

وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم؛ حتى عدَّ بعضهم اثني عشر تعرَّضوا لبعض قرابتهم في ساحة القتال، كأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونُقل ذلك عن أبي عُبيدة بن الجرَّاح أنه قتل أباه في المعركة، وجماعة من الصحابة كانوا في معركة بدر وأُحد وغيرها لا يتحاشون من أقربائهم الذين يكونوا في العُدوة الأخرى مع الجيش الكافر أن يقاتلوهم[2].

ولا يصح أن الآية نزلت في خصوص هؤلاء، وإنما المقصود أن هذا مما يشتمل عليه معنى الآية، علمًا أن بعض هذه الأخبار والقصص- وإن توارد عليها المفسرون- ليس لها أصل، كقصة أبي عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبيه، وأنه قتله في معركة بدر، وهي في عامة كتب التفسير، مع أن المحقِّقين من أهل العلم والسِّير أنكروها، وذكروا أن والد أبي عُبيدة مات قديمًا بمكة قبل الإسلام أو قبل الهجرة، ولم يشهد بدرًا[3]، وإنما تناقل الناس مثل هذه المعاني دون تحقيق، كشأن القصص والأخبار.

وهذا المعنى من حيث الجملة صحيح، ولا يستكثر ذلك على أتقياء المؤمنين، والله تعالى ذكر قصة نوح وولده، وقصة إبراهيم وأبيه، وقصة لوط وزوجه، وما فيه

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٨).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٤).

(٣) ينظر: «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص١٢٤).

أن الإيمان يفصل ما بين المؤمنين وما بين الذين يحاربون الله ورسوله ويعادونه، إلا أن كثيرًا من الشباب يغفلون عن معنى شرعي آخر؛ وهو حقوق الوالدين، وخاصةً حينما يكونان مسلمين.

على أن الموالاة والموادَّة على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: موادة المشركين والكافرين لشركهم، وما يترتب على ذلك من الرغبة في انتصارهم، وأن يكون هوى الإنسان وميله إليهم ومعهم، فهذا كفر وشرك؛ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

الضرب الثاني: نوع من الموالاة والموادة المحرَّمة، ولكنها دون الشرك، مثل: ألا يكون عنده الميل والهوى القلبي إلى دينهم وملتهم، ولكنه قد يُسِرُّ إليهم ببعض المودة أو يفشي لهم بعض الأسرار أو يميل إليهم في بعض الأشياء دون الشرك، فهذه كبيرة من الكبائر.

الضرب الثالث: القدر المباح؛ وهو المعاملة الحسنة والقول الطيب والخُلق الكريم الذي أمر الله تعالى به، كما في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، وفي شأن الأبوين قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: لا يوادونهم؛ ولهذا لم يذكر هنا في هذا المقام التُّقاة أو التَّقِيَّة، كما في «سورة آل عمران»: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، **والتُقاة** تكون بالفعل وبالقول عند الحاجة إليها، وأما القلب فلا مجال للتُّقاة فيه(١)؛ وهنا كان الحديث عن المودة وهي فعل القلب، قال: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾، وبدأ هنا بالتدرُّج بحسب درجة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣١٥)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٦)، و«تفسير الرازي» (٨/ ١٩٣- ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠).

القرابة: الأب، ثم الابن، ثم الأخ، ثم العشيرة والقبيلة[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾: وإذا كان الله سبحانه هو الذي كتب الإيمان في قلوبهم، فمَن الذي يمحو أو يزيل هذا الإيمان؟ إنها شهادة لهم من الله بصحة إيمانهم وبقائه وموتهم عليه؛ لأنه تعالى كتبه، فلا يمحوه أحد، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: نصرَهم وعزَّزهم بلُطف ورحمة وفضل منه جلَّ وعز، ونور يقذفه في قلوبهم وعزة يجعلها في حياتهم وأعمالهم[2]، ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فهم صارموا[3] أقرب قريب في مرضاة الله، وتخلَّى بعضهم عن زوجاتهم، وهاجر بعضهم من وطنه وترك أسرته وأهله وأولاده، فعوَّضهم تعالى بجزاء من جنس أعمالهم وهو أنه ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فحينما سخط عليهم البعيد والقريب والزوج والوالد والولد والجار والعشيرة، عوَّضهم تعالى برضوانه عنهم، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، في مقابل ما فات عليهم من المصالح الدنيوية، وتركوا من الدور والمنازل والمكانات والعلاقات والتجارات في سبيل الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الصادقين هم جميعًا «حزب الله»، وأن هذا اسم تشريف مثل اسم الإيمان، ومثل اسم الإسلام والسابقة[4]، وغيرها من الأسماء التي لا ينبغي أن يُخصَّ بها أحد دون أحد من المؤمنين، فإن الأسماء العامة كهذا الاسم، أو أمة الإسلام، أو أمة المؤمنين، أو جماعة المسلمين، لا يجوز لأحد أن يختصَّ به، والاختصاص يفضي إلى اعتقاد أن مَن هم داخل هذا التكوين أو الجماعة هم الذين لهم الحق في هذا الاسم، ومَن

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٣)، و«الجدول في إعراب القرآن» (٢٨/ ١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦١).

(٣) التصارم: التقاطع. ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٩٦٥) «ص ر م».

(٤) كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خارجه فكأنهم من الحزب الآخر.. من حزب الشيطان؛ لأن السياق يُوحي بأن الناس حزبان؛ حزب الله أو حزب الشيطان؛ لأنه لم يذكر شيئًا ثالثًا في نهاية الأمر، فالأسماء القرآنية الشرعية ينبغي أن تظل على جلالتها وقداستها وإطلاقها، وألَّا يجرأ أحد على اختصاصها لنفسه، فكل المؤمنين حزب الله، وكل المؤمنين هم جماعة المسلمين.

وبعض مَن ينتحلون هذه الأسماء يعتقدون كفر الأمة، كجماعة التكفير والهجرة التي نشأت في مصر، وانتشرت إلى بعض البلاد العربية، وكانت تعتقد كفر الأمة، وأنهم وحدهم جماعة المسلمين[١]، حتى قال شاعرهم[٢]:

من قبل الطوفان اسمعني يا عبدَ الله
واخرج من أرضك واتبعني في أرض فلاة
أرض في قلبي لم يُعبد فيها الشيطان
أرض في فكري أحمله في كل مكان
فاحمل أزوادك واتبعني يا عبد الله
يكفينا زادًا في الدنيا هذا القرآن
في أرض الهجرة يا صحبي طُهر وسلام
وفرار من سُخف الدنيا ومن الآثام
وحكومة عدل وأمان..
صدقني.. في الأرض الواسعة أمان!

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ومثله تسمية: «حزب الله»؛ فإنها نقل للاسم الشريف المتصل بقيم ومعانٍ إيمانية ربانية إلى جماعة ذات انتماء خاص، ومنهجية خاصة، ومواقف سياسية وعسكرية محدَّدة، تقاتل عن عقيدتها وطائفتها ومصالحها، وليس لها الحق في احتكار الاسم أو ادعائه.

---

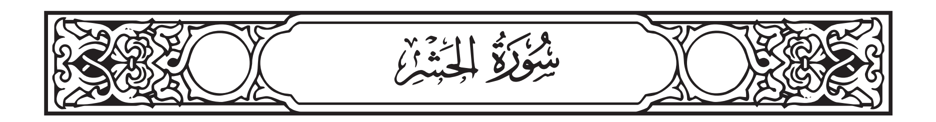
(١) ينظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٣٣٣).

(٢) منسوبًا إلى زعيمهم: شكري مصطفى.

ويا لها من منزلة سامية وفضيلة نادرة أن يصف الله جماعة من عباده بأنهم حزبه، وفريقه، وأنصاره، فينسبهم لذاته الشريفة ويعدهم بالفلاح؛ وهو حصول المرغوب وزوال المكروه في الدارين[1].

○○○

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (١/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٨٢)، و«تفسير السعدي» (ص١٦٢).



سُورَةُ الحَشْرِ

❃ تسمية السورة:

اسمها المشهور في المصاحف، وكتب السنة: «**سورة الحشر**»[١].

وجاء ذلك في حديث مرفوع استحباب قراءة آخر ثلاث آيات منها، ولكنه حديث ضعيف[٢].

وقد سماها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كما في «صحيح البخاري»-: «**سورة النَّضِير**»[٣]، أو: «**سورة بني النَّضِير**»، وهي إحدى قبائل اليهود بالمدينة، والتي بسببها نزلت السورة[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٢)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٣٠٦)، والدارمي (٣٤٦٨)، والترمذي (٢٩٢٢)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٣٠)، والثعلبي (٩/ ٢٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٨٨) من حديث مَعْقِل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**مَن قال حين يصبحُ ثلاثَ مرات: أعوذُ باللهِ السميع العليم من الشيطان الرَّجيم. ثم قرأ الثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعينَ ألفَ مَلَكٍ يُصلُّون عليه حتى يُمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومَن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة**». وينظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٦٣٢)، و«نتائج الأفكار» (٢/ ٤٠٥- ٤٠٦)، و«بلوغ المرام» (٣٤٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٢).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣٠٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٦).

* **عدد آياتها:** أربع وعشرون آية باتفاق العلماء[1].

* **وهي مدنية** باتفاقهم[2].

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١﴾:

استفتحت السورة كسائر المسبِّحات[3] بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، ولعلَّ اختيار الماضي هنا؛ لأن موضوع السورة عن أمر مضى وانقضى؛ وهو نصر الله تعالى للمؤمنين وهزيمة بني النَّضِير اليهود المحاربين، فهي تتحدَّث عن نعمة وقعت وانتهت[4]؛ ولهذا بدأت بالتسبيح: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وكأن هنا إشارة إلى جند الله المبثوثين في السماء والأرض، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ومن ذلك الملائكة، ومن ذلك النواميس الكونية، فهي من جند الله تعالى[5]، وكل ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات فهي تُسبِّح الله[6].

وجاءت الصيغة في بعض السور بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وهنا قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الحديث عن نعمة أرضية وقعت في الأرض، وفي المدينة تحديدًا، ورآها الناس وكان لهم فيها يد عاملة وسبب مباشر، فناسب أن يُكرر الاسم الموصول، ففيه عناية وحفاوة بالأرض وما فيها ومَن فيها[7].

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣).

(٣) والسور التي افتتحت بالتسبيح هي: «الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن».

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(٦) كما في قوله تعالى في «سورة الإسراء»: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾.

(٧) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: ومن الملاحظ أن السورة خُتمت بما بدئت به؛ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، **فالعزَّة** واضحة هنا بالانتصار والغلبة والتمكين للمؤمنين، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القويُّ الذي بفضله تمكن المؤمنون شيئًا فشيئًا بعد أن كانوا يُعذَّبون ويُقتلون بمكة صاروا يملكون أقوى قوة في جزيرة العرب، وأما ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ ففيه إشارة إلى حكمته سبحانه في تدبير الأمور والتدرج والتوقيت، فهذا من الحكمة.

وفي الجمع بين الاسمين العظيمين التفات إلى أهمية الحكمة والتعقل والفهم مع القوة، وأن القوة بلا حكمة لا يُؤْمَن معها أن تفضي للظلم والتعدِّي، كما أن الحكمة بلا قوة لا تدفع ولا تكاد تغني، ولذا كان اعتماد المؤمنين في حربهم مع بني النَّضِير على الحكمة والصبر وحسن التدبير أكثر من اعتمادهم على السلاح، فتحقَّق لهم في نهاية الأمر الانتصار، وكأن هذا تعليم للمؤمنين؛ لأن الله بأسمائه الحسنى يُعلِّمنا التخلُّق بالأخلاق الفاضلة، يُعلِّمنا أن نكون أعزَّاء أقوياء، ويُعلِّمنا أن نكون حكماء، وأن القوة من غير حكمة ترتدُّ على صاحبها، وأن الحكمة من غير قوة قد تكون ذلًّا وهوانًا[1].

* ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾:

الحديث في السورة هو عن نعمة الله بإجلاء بني النَّضِير من المدينة[2]، وخَضْدِ شوكة الشِّرك والنفاق، وقد خرج قبلهم بنو قَيْنُقاع[3]، وسوف يحدث لبني قُريظة بعدهم ما يحدث، **والمقصود هنا**: بنو النَّضِير خاصَّة، حيث أخرجهم الله من ديارهم

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣، ٤٧)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٦٠، ٢٣٧).

(٢) وقد كان إجلاؤهم سنة أربع للهجرة، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٩٠).
وقيل: سنة ثلاث. ينظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٣) وكان إخراجهم في شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره ﷺ، وقيل: في صفر سنة ثلاث. ينظر: «إمتاع الأسماع» (١/ ١٢٢)، و«سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٧٩).

بالمدينة[١].

وقد كان آباؤهم وآباء بني قُريظة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمرهم أن يخرجوا من فلسطين إلى مقاتلة العَمَالِيق، فلم يحسنوا قتالهم، وفي هذه الأثناء مات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرجعوا إلى مساكنهم في أَرِيحا وما حولها، فقال لهم قومهم: خذلتمونا، ولم تقوموا بما أوجب الله عليكم، فلا تدخلوا ديارنا، فردُّوهم، فلجأوا إلى جزيرة العرب وصاروا مزارعين كبارًا، وصارت لهم قرى وحصون عظيمة.

ومن المعروف أن لبني النَّضِير ستة حصون معروفة يتمنَّعون بها[٢]، وتحولوا إلى تجار يملكون التجارة، وإلى مرجعية ثقافية وعلمية في البلد؛ حيث كانت الجزيرة تشهد فراغًا معرفيًّا وثقافيًّا ودينيًّا في أوساط الوثنيين، فوجدوا مستقرًّا لهم، وكان منهم كبار وسادة مشاهير من أمثال: حُيَي بن أَخْطَب، وهو من زعمائهم، وهو والد صفية بنت حُيَي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومنهم السَّمَوْأَل بن عَادِيَاء.

فهذا أصل قصة مجيئهم إلى المدينة، وبعضهم أقام بخيبر، وبعضهم بتَيْماء[٣].

أخرجهم الله تعالى من ديارهم ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾، واللام هنا هي لام التوقيت، يعني: لوقت، أو في وقت، أو عند أول الحشر[٤]، و﴿ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ معناه: الجمع[٥]،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٢) وهي: حصن الكُتَيْبَة، والوَطِيح، والسُّلالِم، والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقَّ، وسيأتي ذكرها قريبًا.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٤- ٢٨٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٩)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٣٤٣)، و«تاريخ مكة المشرفة» (ص٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٢٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٨).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٨٣)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٧)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤١٣) «ح ش ر».

وليس المقصود: حشر القيامة- والله أعلم- وإنما أول الجمع[1].

وقال بعض المفسرين: أخرجهم لأول مرة؛ لأن بني النَّضِير لم يقع عليهم جلاء وإخراج قبل ذلك[2].

وقيل: أخرجهم من ديارهم لأول الحشر من المدينة، ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثنَّى ذلك فأخرج بقيتهم من خيبر إلى الشام، فكان ذلك هو الحشر الثاني[3].

وقيل: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: لمنطقة الحشر، وهي بلاد الشام[4].

والقول الرابع في المسألة: أن ذلك أول الحشر، ويتلوه حشر آخر، وهو ما قبل القيامة، حيث النار التي تحشر الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا[5].

ولا مانع من إرادة هذه المعاني كلها: أن الله عَزَّوَجَلَّ أخرجهم وقد كانوا أعزَّة، وأخرجهم لأول مرة حيث لم يقع عليهم إخراج قبلها، وتتالى عليهم النفي بعد ذلك، حتى أخرجوا إلى بلد الشام.

بل يحتمل أن حشر اليهود سيكون في فلسطين التي هم يتجمعون إليها الآن، فإن خروج هؤلاء من جزيرة العرب هو مؤذن ببداية طويلة لتنادي اليهود من كل مكان إلى هذه المنطقة التي أذن الله لحكمة يعلمها أن يتجمعوا فيها؛ وهي فلسطين،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٩).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٧).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٩- ٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢- ٣)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص٢٥٨).

فيكون معنى قوله سبحانه: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي: لبداية تنادي اليهود وتجمعهم وحشرهم، سواء كانوا مكرهين بسبب ما يقع عليهم من الاضطهاد الذي غالبًا ما يقع بسبب غدرهم ومكرهم وعدم وفائهم بالعهود، وهذا مناسب للسياق ويشهد له الواقع الذي نراه الآن في تنادي اليهود إلى فلسطين.

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا؛ لأنهم متمكِّنون، والمسلمون أهل المدينة وُلدوا وهم يشاهدون اليهود في قصورهم وحصونهم، فكانوا يستبعدون أن يقع عليهم جلاء يستأصل وجودهم ويزيح شرَّهم عن عاصمة الإسلام الأولى[1].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وهم أيضًا ما ظنوا أن يخرجوا، وظنوا أن حصونهم ستمنعهم، وهي قلاع مَنِيعة أُعدّت للحرب[2].

وفي التعبير شيء من السُّخرية بهم، وإلَّا فمَن الذي يستطيع أن يمتنع من ربِّه، كما قال كعبُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]:

زَعَمَت سَخِينَةُ أَن تُغالِبَ رَبَّها ... ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

كانوا يمتنعون بأبراجهم العالية، ومبانيهم المشيدة، والتي لا تزال بعض آثارها باقية، ولا يقيمون وزنًا للأبعاد المعنوية والعقائدية، فحساباتهم مادية صِرفة، لا تهتم إلا باستعراض ما تملك من ترسانة الأسلحة والأدوات التي تعترض قذائف الخصم، كما يقع للصهاينة اليوم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٣) ينظر: «ديوان كعب بن مالك» (ص١٨٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦١)، و«طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٢٢).

وقد نُسب إلى حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، كما في «العقد الفريد» (٦/ ١٤٦)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٤٦٦).

وكان لبني النَّضِير ستة حصون عالية معدَّة للحرب ومليئة بأنواع السلاح، وهي: حصن الكُتَيْبَة- مصغَّرًا- والوَطيح، والسُّلَالِم- بضم السين[1]- والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقَّ، بفتح الشين[2].

وهم بهذه الحصون وما تحتويه من عتاد وذخيرة ورجال يُعَدُّون قوة ضاربة في الجزيرة، وخاصة الحجاز لا تقارن بها قوة أخرى.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ أي: هزمهم من حيث لم يكونوا يتوقعون، وكما أن الله يرزق المتقين من حيث لا يحتسبون، وينصر المؤمنين من حيث لا يحتسبون، فكذلك أَتَى بنيان هؤلاء القوم من حيث لم يحتسبوا، واستأصله من القواعد ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾[3] [النحل: ٢٦].

ولم يقل سبحانه: «يحسبوا»، وإنما قال: ﴿يَحۡتَسِبُواْ﴾؛ لأن حساباتهم كانت قويَّة دقيقة، وكانت هذه الحسابات من أسباب هزيمتهم، وكانوا يستعدون لحرب شوارع في المدينة، ويعدُّون العدَّة لها[4]، فقَذَفَ الله في قلوبهم الرُّعب، وأتاهم من منطقة القلوب بالهزيمة التي لا ينفع معها السلاح النووي، ولا الصواريخ والطائرات.

ولما فتح المسلمون حصون بني النَّضِير وجدوا ثلاثمائة وأربعين سيفًا،

---

(١) وقيل: بفتحها، ويقال: السُّلاليم.

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٣٧)، و«سنن أبي داود» (٣٠١٤)، و«الأحكام السلطانية» للماوردي (ص٢٥٥)، و«الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفرَّاء (ص٢٠٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٢٢٦)، و«معجم البلدان» (٢/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٢٩٧-٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

وخمسين درعًا، وخمسين بَيْضة[1]، وألوانًا من السلاح، وسيف ابن أبي الحُقَيق الذي أعطاه النبيُّ ﷺ سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، كان عندهم ترسانة ضخمة بقياس ذلك العصر، لكنها لا تغني، وقد أراد الله هزيمتهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وكأنك هنا أمام قذيفة؛ لأن المقام مقام حرب؛ ولذلك استخدم لفظ «القَذْف» الذي يدلُّ على السرعة والمباغتة والقوة وعلى الاجتياح، وأن «الرُّعْبَ» ليس في زاوية من قلوبهم؛ بل هو مستولٍ عليها عن آخرها.

و«الرُّعب» أشدُّ «الخوف» الذي يصبح معه الإنسان غير قادر على أن يُفكِّر التفكير الصحيح المتروِّي، وإنما جُلُّ همه أن ينجو بنفسه[3].

وفي هذا مصداق ما أخبر به ﷺ أنه نُصر بالرُّعْبِ مسيرة شهر[4]، فما بالك بمسيرة بضعة أميال عن المدينة، وكما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾: قُرِئ: ﴿يُخْرِبُونَ﴾، و﴿يُخَرِّبُونَ﴾[5].

وقد جرت هذه الجملة القرآنية على ألسنة الناس مجرى المثل؛ فكثيرًا ما يستخدمه الناس في مناسبات شتى: «فلان يُخرب بيته بيده»، وهذا من إعجاز الله

---

(١) أي: بيضة الحديد التي يُغطَّى بها الرأس في الحرب.

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٧- ٣٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١١)، و«عيون الأثر» (٢/ ٧٣- ٧٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٨٢- قسم السيرة)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ١١٧)، و«سبل الهدى والرشاد» (٤/ ٣٢٤- ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٠).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٥٦)، و«تاج العروس» (٢/ ٥٠٤) «ر ع ب»، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧١).

(٤) كما جاء من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٥، ٤٣٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢١).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٢- ٥٠٣)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٣٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٦٣)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٨٦- ٣٨٧).

تعالى في فعله، وإعجاز الله في قرآنه، فهذه القصور الضخمة التي شيَّدُوها والبيوت التي سكنوها أصبحوا يخربونها.

وهنا سؤال: لماذا يخربونها بأيديهم؟

في الجواب عن هذا عدة وجوه:

١- من باب الحسد للمسلمين أن يستولوا عليها بعدهم، فكانوا يخربونها حسدًا.

٢- ليكون أسرع لهم للهرب، فإذا حوصروا نقضوا البيت وخرجوا إلى البيت الذي خلفه، وهكذا.

٣- من أجل أن يأخذوا منها ما يسدون به بعض الطرق؛ لأنهم كانوا يستعدون لحرب شوارع.

٤- إن النبيَّ ﷺ قد أمرهم بأن يُجلوا من المدينة، وأذن لهم أن يأخذوا حمل بعير، إلا السلاح؛ ولذلك صار الواحد منهم يهدم الجدار ليأخذ أنفس ما فيه، وهذا مردُّه إلى الحكمة وحسن التدبير حيث انقلبت قوة العدو قوة عليه[(١)].

﴿وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فيُخربون بيوتهم بأيديهم؛ لأنهم السبب في كل ما جرى من نقض العهد والميثاق والغدر، وكونهم أخربوها بأيدي المؤمنين؛ أن المؤمنين أيضًا كانوا يساهمون في إخراب بعض هذه البيوت، من أجل ما تقتضيه مصلحة الحرب[(٢)].

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: البصائر والعقول[(٣)]، انظروا لما جرى، وخذوا منه العبرة، و«السَّعيد مَن وُعظ بغيره»[(٤)]، ولا شك أن في هذا عبرةً للمؤمنين

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٤-٢٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤-٥).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٤٥) من قول ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ. ورُوي مرفوعًا.

ليسلكوا طريقة النبي ﷺ في الصدق والوفاء بالعهد والميثاق، والحذر واليقظة وحسن التدبير والصبر والتوكل على الله تعالى وألَّا يعتمدوا على قوتهم، فكثيرًا ما يُؤتى القوم من جهة الهزيمة النفسية، وإذا وقع الرُّعب فلن ينفع معه سلاح، و«المنهزم لا يلوي على شيء»[1]. أي: لا يلتفت إلى شيء.

وفيه عبرة لصاحب المال أن لا يغتر بماله مهما كثر، وكم من أزمة اقتصادية ضربت العالم أو بلدًا من البلدان الغنية، وكان ضحاياها البنوك والمؤسسات الكبرى والأثرياء الذين يعدون على رأس قوائم تجار العالم!

وفيه عبرة لصاحب العلم والدين؛ فإن هؤلاء القوم من أهل الكتاب ومع ذلك لما أعرضوا ما نفعهم علمهم.

وقد أخذ كثير من الأصوليين من الآية دليلًا وحجة للقياس في إثبات الأحكام الشرعية، أي: قياس النظير على نظيره إذا توفرت العلة[2].

وهو استنباط صحيح، على أن الاعتبار أوسع من ذلك، والآية لم تكن في سياق حكم فرعي تفصيلي؛ بل دعت إلى الاعتبار السنني المآلي في النظر إلى عواقب الأمور، واستنباط سنن التمكين وسنن الزوال والانهيار والاعتبار بها؛ لئلا يؤتى القوم من مأمنهم، أو يخطئوا في حساباتهم.

* ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾:

«الجلاء» يختلف عن «الخروج»، **فالجلاء** هو: خروج جماعة من الناس بالقوة والإكراه من مكان معين، يخرجون بنسائهم وأطفالهم، ويسمى: جلاء، وإجلاء[3].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٦)، (٣/ ٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٣٨٥)، (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير القاسمي» (٥/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: «تقويم الأدلة في أصول الفقه» (ص٢٦٣)، و«المحصول» للرازي (٥/ ٢٦)، و«روضة الناظر» (٢/ ١٦٨)، و«شرح تنقيح الفصول» (ص٣٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥-٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٦).

وإنما أَجْلَى الرسول ﷺ بني النَّضِير لغدرهم وتآمرهم[1]، وكان في هذا التصرف غاية الحكمة حفاظًا على دماء المسلمين؛ لأنه لو كانت بينه وبينهم حرب لأصاب المسلمين بعض الضرر والقتل، والنبي ﷺ شحيح بأرواحهم، وكان ﷺ حريصًا أشد الحرص على تجنُّبِ القتال؛ لأن القتال كره، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكان يقول: «**أيها الناسُ، لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ**»[2]. فأعفاهم النبي ﷺ من القتل، وأمرهم بالجلاء، مع أن الجلاء لن يستأصل شرَّهم، ولن يقطع مكرهم، ولسوف يتآمرون مرة أخرى، وهذا معلوم، لكن هكذا كان مقتضى الحكمة، ولذا قال سبحانه في «سورة الأحزاب»: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

والمعنى: لولا أن الله قدَّر عليهم الجلاء لعذَّبهم بعذاب آخر غير الجلاء؛ مثلما عذَّب غيرَهم بالقتل أو بأي عقوبات أخرى[3].

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي: في الحالين لهم في الآخرة عذاب النار إذا لم يتوبوا[4]، فهذا الذي أصابهم هو يسير بالنسبة لعذاب الآخرة.

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾:

إشارة إلى آثار البلاد وقد هُدمت ودخلها الفاتحون الجُدد، وسبب ذلك كونهم جعلوا أنفسهم في شِقٍّ غير شِقِّ الله ورسوله فهزموا، ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، فهذا بعض عقابه تعالى لهم، وأعاد المضاف دون ذكر «الرسول»؛ لأن الأصل مشاقة الله، ومشاقة الرسول من توابع ذلك، فهي وإن كان فيها طيٌّ لذكر

---

(١) وذلك حينما حاولوا قتل النبي ﷺ حين ذهب إليهم يستعينهم في دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري. ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث ابن أبي أَوْفى رضي الله عنهما، وينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٣).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٦٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٦).

الرسول، إلا أن فيها تعظيمًا له من حيث المعنى[1].

* ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾:

هذه قصة وقعت في هوامش الحرب، فقد كان لليهود مزارع خارج الحصون يسمونها: البُويرة، ولا زالت معروفة، والمكان الذي هم فيه يسمى: الزُّهرة، وحين حاصرهم المسلمون خلت مزارعهم من حراستهم، فأحرق بعضَها بعضُ المسلمين، فصاروا يقولون: يا محمد، أنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال إحراق النخيل؟![2].

ولم يذكر الله التحريق، ولم يقل: «ما أحرقتم»، وإنما قال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، مما يدل على أن الإحراق كان محدودًا؛ ولهذا قال علماء السير: إن الذي أُحرق إنما هو نخلة واحدة، وقال بعضهم: أربع نخلات، وأكثر ما قيل: ست نخلات[3].

ورُوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن المسلمين إنما أحرقوا تلك النخلة؛ لضرورة الحرب وتهيئة الميدان للدفاع والمواجهة والمنازلة[4].

ويظهر أن واقعة الإحراق ثابتة، ويدل لذلك قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]:

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٠)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (١/ ٢٣٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦١)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٣٨- ٣٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣، ٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦)، و«تاريخ الخميس» (١/ ٤٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٢)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٧٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣٢٦، ٤٠٣٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٦)، و«ديوان حسان بن ثابت» (ص١١٨).

وهانَ على سَراةِ بَني لُؤَيٍّ ... حَريقٌ بالبُوَيرَةِ مُستَطيرُ

البُويرة هذه منازلهم[١]، **وسَراة بني لُؤي**: زعماء قريش الذين تعاهدوا مع هؤلاء اليهود، يقول: هان عليهم لم ينصروا هؤلاء الناس كما وعدوا[٢].

وقوله: حريق بالبُويرة مستطير: لا يدل على أنه حريق كبير، ولكن من المعلوم أن من طبيعة جذوع النخل كثافة الدخان عند اشتعالها، فيتوهم الرائي أن ثَمَّ حريقًا واسعًا، وإذا اقترب وجد الأمر أهون من ذلك.

ثم رد عليه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب يقول[٣]:

أدامَ اللهُ ذلك من صَنِيع ... وحرَّق في نواحيها السَّعيرُ

فكان أبو سفيان يريد الشماتة بأن ينتشر الحريق في المدينة كلها، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قطع وحرَّق في بني النَّضِير[٤].

والأقرب- والله أعلم- أن التحريق كان للنخل المقطوع، أي: قطعوها ثم حرَّقوها.

والتحريق هنا قد يكون لإثارة الرُّعب في قلوب اليهود، وهو جزء من الحرب، وقد يكون للحاجة؛ ليستدفئوا بها أو يطبخوا أو نحو ذلك من المصالح المباحة، ولم يرد أن النبيَّ ﷺ أمرهم بذلك أو نهاهم عنه، وإنما نزلت الآية الكريمة التي تحتمل الوجهين[٥].

واللِّيْنَة: النخلة، وأصلها: لِوْنة[٦].

---

(١) ينظر: «معجم البلدان» (١/ ٥١٢).

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٣٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٦)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ١٥٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٣١، ٤٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٦).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٣٩٣)، و«تاج العروس» (٣٦/ ١٣١) «ل و ن».

وبعضهم يقول: إن اللِّينة هي: النخلة، إلا البَرْني، أو العجوة[1].

وذكر الطبري أن كل نخلة هي لينة، وتُجمع على: ألوان؛ لأن أصلها: لِوْنة[2].

ولا زال الفلاحون عندنا يسمُّون ثمر النخل قبل أن يصير تمرًا: لونًا.

ومعنى الآية: ما قطعتم من نخلةٍ لحاجة أو تركتموها فلم تقطعوها ولم تحرقوها، فهو بقدر الله[3]، وهكذا عبَّر بلفظ الجمع: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ إشارة إلى أن معظم النخيل لم يُقطع؛ لأنه سيكون للمسلمين، وسمَّى الله تعالى النخلة بالشجرة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فالشجرة الطيبة هي: النخلة، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «الصحيحين»[4]؛ ولهذا ورد وصف النَّخل بأنها: «الرَّاسِخَات في الوَحْل»، يعني: في الطين، «المُطْعِمَات في المَحْلِ»[5]، أي: في المجاعة.

فما قطعتم من لينة، أو تركتموها قائمة على أصولها فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فيكون هذا إذنًا قدريًّا كونيًّا علم بعدما وقعت الواقعة أنه كائن بقضاء الله وقدره، أي: أن الله تعالى أذن به، كقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وبعضهم قال: هو إذن شرعي، بمعنى: أن الله تعالى أذن لهم بذلك وأباحه باعتباره من الاجتهاد المتعلِّق بملاحظة المصلحة لتسهيل حركة المقاتلين أو تدفئتهم أو إرعاب العدو وتيئيسهم من العودة إلى ما كانوا عليه[6].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٦- ٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٩- ٥١٠).

(٣) ينظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٨/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٧).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

(٦) ينظر: «التفسير الوسيط» (١٠/ ١٣٥٢- مجمع البحوث الإسلامية).

والأقرب أنه كان مسكوتًا عنه، وهم فعلوه لمصلحة الحرب، وليس لغرض آخر.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: إشارة إلى أن تلك الشائعة التي أُذيعت وضُخِّمت وبُولِغ فيها، فيها خزي للفاسقين.

والمقصود هنا: اليهود الذين خرجوا عن طاعة الله وخرجوا عن العقد والعهد والميثاق، فسُمُّوا: فاسقين[١]، وكان أعظم سرٍّ في ذلك هو الغَدْر، ففيه دعوة المؤمنين أن يرعوا العهد والميثاق وألَّا يغدروا، كما كان النبيُّ ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يوصون قادة الجيوش بتجنب ذلك[٢]؛ لأن الغدر والبغي مرتع مبتغيه وخيم.

وكما قال الشاعر[٣]:

قضـى اللهُ أن البَغْـيَ يصـرعُ أهله ... وأن علـى الباغـي تـدورُ الدَّوائـرُ

وفي الحديث الصحيح: «**ما من ذنب أَجدرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدَّخرُ له في الآخرة، مِثْلُ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحم**»[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٨).

(٢) كما في حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه، وفيه: «**ولا تغدِروا**». أخرجه مسلم (١٧٣١).

وكان النبي ﷺ لا يغدر، كما في حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هرقل، وفيه: «فهل يغدر؟ قلتُ: لا». أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

وعدَّ الغدر من صفات المنافقين، كما في «صحيح البخاري» (٣٤، ٢٢٢٧، ٢٤٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٨). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣٢)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٢٢٦- ٢٢٧)، و«الرحيق المختوم» (ص٤٠٦).

(٣) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٣٦٦)، و«صبح الأعشى» (١٣/ ٣٤٨).

(٤) أخرجه الطيالسي (٩٢١)، وأحمد (٢٠٣٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (١)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢٦٦)، وابن حبان (٤٥٥، ٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٦)، (٤/ ١٦٢) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩١٨).

* ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من بني النَّضِير[1]، والسياق في حكم الغنيمة والفيء.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾: **الإيجاف** هو: الإسراع والإيضاع[2]، **والمعنى**: ما أسرعتم إليه[3]، **والرِّكاب** هي: الإبل[4]؛ ولذلك لا يسمى: راكبًا إلا إذا كان على الإبل، أما إذا كان على الخيل فإنه يسمى: فارسًا[5]. وذلك لأن المحل المقصود قريب، والمسلمون لم يحتاجوا إلى قتال ولا حرب، وإنما كانت إرهاصات وحصارات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾، فالأمر من عند الله، وهو الذي سلَّطَ رسوله ﷺ على هؤلاء اليهود ونُصر بالرُّعب، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذا من قدرته عَزَّوَجَلَّ مما لم تظنوا أنتم ولا ظنوا هم أن يقع.

وكان المسلمون قد سألوا رسولَ الله ﷺ عما تركه اليهود من أرض ونخل، هل يُقسم كما تقسم الغنيمة؟ فأنزل الله هذه الآية ليُبيّن أن حكمه مختلف، وأنه ليس للمقاتلين، كما في غنائم الحروب[6].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٨).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٣)، و«تذكرة الأريب» (ص٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص٣٢٠)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٣٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٩/ ٤٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (٧/ ١٤) «ر ك ب»، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٩).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٧٣)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٢٧)، و«روح البيان» (٩/ ٤٢٥).

(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٠٩).

* ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: سواء بني النَّضِير أو غيرهم، مثل فَدَك وخيبر وما بعدها؛ لأن هذه القرى تساقطت تباعًا في قبضة المسلمين[١].

والعادة أن هذا يحدث مع أهل القرى، أما أهل البوادي فإنهم في الغالب لا يقع منهم الفيء؛ لأنهم إذا حوصروا في مكان انتقلوا إلى غيره لسهولة الحركة وخِفَّتها، بخلاف أهل القرى فإنهم مضطرون إلى المكث في المكان ذاته والدفاع عنه أو تسليمه.

ثم بيَّن سبحانه قسمته، فقال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، وكل شيء هو لله سبحانه؛ لكن المقصود: أن الأمر والحكم فيه لله وللرسول ﷺ[٢]، وكان النبيُّ ﷺ يُنفق منه على أهله وأزواجه نفقة سنة، ويجعل ما بقي عُدَّة في الكُراع[٣] والسلاح[٤]، ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب الذين حُرموا الزكاة من أقارب النبي ﷺ[٥]،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٦).

(٣) أي: الخيل.

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٢٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا رِكاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفقُ على أهله نفقةَ سنة، وما بقي يجعله في الكُراع والسلاح، عُدَّةً في سبيل الله».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص٢٥٣-٢٥٧).

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: الذين لا يوجد لهم أموال ولا عائل[1]، ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: ويدخل فيهم الفقراء[2]، ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: من الذين انقطعت بهم السُّبُل، ولا يجدون ما يصلون به إلى بلادهم[3].

ثم علَّل ذلك التقسيم بقوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾، و«**الدُّولَة**» بضم الدال، أي: لئلا يكون متداولًا محتكرًا بين الأغنياء فحسب[4]، ومثلها الأموال الضائعة التي ليست لأحد، **والرِّكَاز**: الذي يعثر الناس عليه مدفونًا، والمعادن التي ليس لها مالك خاص، وهي ملك لله ولرسوله وللمؤمنين يعطون منها بحسب بلائهم وبحسب سابقتهم، كما رُوي ذلك عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

وهذا كله المقصود منه تقارب الطبقات؛ لئلا يزداد الغني غنى والفقير فقرًا، ويكون المجتمع منشطرًا إلى فئة تملك كل شيء، وفئة لا تملك شيئًا.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾: **يجوز أن يكون المعنى**: وما آتاكم من المال أو من الفيء فخذوه، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ حتى ولو كان قضيبًا من أَراك[6]؛ ولهذا سماه: غُلولًا، كما في قوله: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [آل عمران: ١٦١].

أو يكون معنى الآية أوسع من ذلك: فما آتاكم الرسول من الأمر والنهي والحكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٥) «س ب ل»، و«روح البيان» (٩/ ٤٢٧)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٥- ٨٦).

(٥) ينظر: «شرح الطيبي على مشكاة المصابيح» (٩/ ٢٨٠٠)، و«الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (٦/ ٣٧٣).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦).

والتشريع، فعلى المسلمين أن يأخذوه[١].

ولهذا يستدل العلماء بالآية على وجوب طاعة الرسول ﷺ، وعلى أن السُّنَّة تشريع يجب العمل به؛ ولهذا استدل بها الصحابة والتابعون والأئمة على كثير من الأحكام التي وردت مجملة في القرآن أو لم ترد أصلًا؛ كتحريم كل ذي نابٍ من السِّباع، وكل ذي مَخْلَب من الطير، وإلحاق الرَّضاعة في أحكامها بالنَّسب، فيحرم منها ما يحرم منه.

وورد أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى رجلًا محرمًا وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا! فقال الرجلُ: أتقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب الله؟ قال: نعم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

ومثله: لَعْنَ الواصلةَ والمستوصلةَ والواشمةَ والمستوشمةَ[٣].

والشافعي استدل بهذا في أشياء كثيرة مما لم يرد في القرآن؛ ولكن ورد فيه نص من السنة النبوية[٤].

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٧)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٧٧)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢٤٨).

وأخرجه الآجري في «الشريعة» (١٠٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١/ ٢٤٩) (٨٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٤٠).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٢٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لعن اللهُ الواشمات والمستوشِمات والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحُسن المغيِّرات خلقَ الله». فبلغ ذلك امرأةً من بني أَسَد يُقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنتَ كَيْت وكَيْت! فقال: وما لي ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله ﷺ، ومَن هو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحين، فما وجدتُ فيه ما تقولُ! قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري. فذهبت فنظرت، فلم تر من حاجتها شيئًا، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها. يعني: في البيت.

(٤) ينظر: «الأم» (٧/ ٣١٤)، و«سنن البيهقي» (٥/ ٣٤٧)، و«الشافي في شرح مسند الشافعي» (٣/ ٣٩٥)، والمصادر السابقة.

ويدخل في ذلك ما يتعلق بقسمة الفيء.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، وأكَّد على شدة عقاب الله لمَن خالف تقواه وتجرَّأ على عصيان رسوله ﷺ، وفيه إشارة إلى أن المال فتنة، فليحذر المسلم من أكله من غير حِلِّه.

* ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾:

أي: من مصارف الفيء هؤلاء الفقراء المهاجرون[1]، وفقرهم بسبب خروجهم طاعة لله ولرسوله، وإلا فهم أغنياء في بلادهم.

وهم بهذا الاعتبار يُشبهون أبناء السبيل؛ لكن الله تعالى خصَّهم وأثنى عليهم، فهم الذين استحقوا النصر، وأن تقاتل معهم الملائكة، وأن ينصرهم الله بالرُّعب؛ ولهذا جعل الله محبة هؤلاء الصِّدِّيْقين والثناء عليهم وذكرهم الحسن سيماء لمَن رضي عنهم وأرضاهم واختارهم من عباده، فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يُبغضهم إلا منافق، لا سيما بعد أن أثنى الله تعالى عليهم في كتابه وأشاد بهم هذه الإشادة العظيمة، وأثنى على صبرهم على ما أصابهم من الفَاقة بسبب الهجرة في سبيل الله، وقد كان لهم ديار وأموال في مكة، لكنهم فضَّلوا عليها الإسلام، وآثروا الله تعالى ورسوله وطاعته على الدنيا فأُخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾.

والتعبير بالفعل المضارع دليل على أن إخراجهم وإن كان فعل عدوهم، إلا أنه كان باستطاعتهم تلافيه لو أرادوا التفريط في دينهم، ولكن ابتغاءهم فضل الله ورضوانه عرَّضهم لتلك الحرب التي أخرجتهم من ديارهم وأموالهم مع حبهم لها إيثارًا لحبِّ الله ورسوله.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ فهم جيل استثنائي يُثني عليهم الله سبحانه، وهو الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٦٧).

يعلم بواطنهم وظواهرهم بهذا الثناء المستفيض المطوَّل المفصَّل.

وهذه آية ينبغي أن نقف عندها ونستلهم منها حبَّ أصحاب محمد ﷺ، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه، فهم جيل لن يأتي بعده مثله، ولذا قال: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**﴾، فأي مدح فوق ذلك؟!

ووصفهم بالصدق.. صدق القلوب، وصدق الألسنة، وصدق الأعمال، والله سبحانه أمرنا أن نكون معهم، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩**﴾ [التوبة: ١١٩].

ومن هنا كان إجماع الصحابة رضي الله عنهم حجَّة عند العلماء، كما ذكر ذلك ابن حزم وابن تيمية وغيرهما[١].

واختلفوا في إجماع مَن بعدهم، وإن كان الجمهور على اعتبار الإجماع[٢]؛ لكن إجماع الصحابة رضي الله عنهم له ميزة وخصيصة عظيمة مع وضوحه وانضباطه وصلته القريبة بزمن التشريع ونزول الوحي وقرب عهدهم بالنبوة مما يقتضي قوة إدراكهم لمقاصد التشريع ومراميه، مع سلامتهم من الأهواء والمرادات المخالفة للحق.

* ﴿**وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩**﴾:

بدأ الثناء على المهاجرين؛ لفضلهم وسابقتهم، ثم ثنَّى بالثناء على الأنصار؛ إما لأن لهم جزءًا من الفيء، وقد أعطى النبي ﷺ ثلاثة من الأنصار من الفيء، أعطاهم لفقرهم أو لسبب آخر، ولم يعط بقية الأنصار من باب تصحيح الوضع الاقتصادي في المدينة؛ لأن المهاجرين لم يكن عندهم شيء بسبب خروجهم من

---

(١) ينظر: «الإحكام» لابن حزم (٤/ ١٤٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥٧)، و«معالم أصول الفقه» (ص١٥٨).

(٢) ينظر: «روضة الناظر» (١/ ٣٧٨)، و«الإبهاج في شرح المنهاج» (٢/ ٣٥٣)، والمصادر السابقة.

بلادهم، وأهل المدينة الأنصار كانوا أهل زَرْعٍ وضَرْعٍ ولهم بيوت ومزارع، فكان المهاجرون في حاجة إلى أن تكون لهم أصول ثابتة يستعينون بها على معاشهم وحياتهم الاقتصادية، وكذلك لتحقيق: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ﴾، وهذا مقصد اقتصادي أخلاقي عظيم[1].

ومعنى ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ أي: كانت مباءة لهم، يبوؤون إليها، أي: يعودون إليها، و﴿ٱلدَّارَ﴾ هي: المدينة[2]؛ ولذلك صار من أسمائها: الدار.

وهل إيمان الأنصار قبل المهاجرين؟

كلا! ولكن المعنى- والله أعلم- أنهم جمعوا الثنتين معًا قبل غيرهم، يعني: هم اجتمع فيهم تبؤو دار الهجرة والإيمان معًا قبل المهاجرين، المهاجرون تبوؤوا الإيمان من قبل؛ لكن ما كان عندهم دار مستقرة، أما من اجتمع لهم الدار والإيمان معًا فكانوا هم الأنصار[3].

وهذا يوحي بأهمية الدار للإيمان، وكأن الإيمان يفتقر إلى دار تؤويه وتحفظ أهله، وإلا أصبح معنى فرديًّا غير متمكّن.

ويحتمل الإشارة إلى أن الأنصار بدأ فيهم الإسلام قبل الهجرة، كما هو معروف، وبايعوا النبيَّ ﷺ، وأرسل إليهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم فشا الإسلام في بيوتهم.

وقد يكون ذلك على سبيل التسامح في العبارة، كما قال بعضهم[4]:

ورأيتِ زوجَكِ في الوَغَى ... متقلِّدًا سيفًا ورُمْحًا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٧٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٠).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٨).

(٤) ينظر: «شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى» (ص٣٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢١، ٤٧٣)، (٣/ ١٢٣)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص١٣٦)، و«الكامل في اللغة والأدب» (١/ ٢٦٤).

والتقلُّد يكون لأحدهما.

ومثله قول الآخر[1]:

قالوا: اقتَرح شيئًا نجد لك طَبخُهُ قُلتُ: اطبُخوا لي جُبَّةً وَقَميصا

أو يكون المعنى: أن الإيمان أصبح دارًا وسكنى لهم تسكن إليه قلوبهم كما تسكن أجسادهم إلى بلادهم[2].

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: وما أعظم هذا الثناء الإلهي، فلم يصفهم بالرضا عن إخوانهم المهاجرين أن يشاركوهم في مدينتهم وممتلكاتهم؛ بل زادوا على ذلك محبتهم؛ ولهذا كان الإخاء بين المهاجرين والأنصار مضرب المثل لكل مؤمن صادق ولكل تآلف أو تحالف.

وما أجمل تمثُّل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقول الطُّفَيل الغَنَوي[3]، وهو يثني على الأنصار:

جزى الله عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يملُّونا ولو أن أُمَّنا تُلاقي الذين يلقون منا لملّت

هم خلطونا بالنفوس وألجئُوا إلى حُجُرات أدفأت وأظلَّت

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجد الأنصار في صدورهم وَجْدًا ولا حسدًا ولا غِلًّا ولا ضيقًا مما أوتي أولئك المهاجرون[4]، وذلك أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل غالب أموال بني النَّضِير للمهاجرين، فلم يقع هذا في نفوس

---

(١) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص٢٦٥)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٤٥٥)، و«معاهد التنصيص» (٢/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٠).

(٣) ينظر: «الأم» (١/ ١٨٩)، و«حلية الأولياء» (٩/ ١٥٣)، و«معرفة السنن والآثار» (١٤/ ٤٨٩)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٩).

الأنصار؛ بل إن النبي ﷺ لما أراد أن يُقطع للأنصار من البحرين- منطقة الأَحْساء- قالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها[1].

إنها حالة إنسانية راقية رائعة نادرة في البذل والاستعلاء على حظوظ النفوس والمطاولة في ذلك دون ملل ولا تذمر ولا ضجر، ولا استثقال، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٥].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: **والإيثار**: أن تجعل حظ الآخرين من الشيء قبل حظك[2]، والآية نزلت في الأنصار، وورد أنها نزلت في أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصَّةً؛ لما جاء ضيف النبي ﷺ فلم يكن عند أزواجه شيء، فذهب مع أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال لامرأته: ضيفُ رسولِ الله ﷺ، لا تدَّخريه شيئًا. قالت: والله، ما عندي إِلَّا قُوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشاءَ فنوِّميهم، وتعالَي فأَطْفئي السراجَ ونَطْوِي بطُوننا الليلةَ. ففعلت ثم غَدَا على رسولِ الله ﷺ فقال: «**لقد عَجِبَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ- أو: **ضحك- من فلان وفلانة**». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآية[3].

فهذه مقامات النبل الأخلاقي، والاستعلاء على الحاجات الذاتية، والانحياز للصديق والرَّفيق والجار والشريك، أو الانحياز للفريق والمجموع ولو على حساب المصالح الفردية.

فهنا أثنى على الأنصار بالإيثار، وهو مقام أعظم مما مدح الله به قومًا آخرين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨].

فإن هؤلاء يحبون المال والطعام، ويطعمونه غيرهم، أما الأنصار ففوق الحب هم يحتاجونه وبهم إليه فاقة ملحة وخصاصة، ومع هذا يقمعون دوافع الأَثَرة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٧٦، ٣٧٩٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «الأسماء المبهمة» للخطيب (ص٣٩٨- ٤٠٠)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن بشكوال (١/ ٤٥٥- ٤٥٧)، و«فتح الباري» (٧/ ١١٩)، (٨/ ٦٣٢).

والأنانية ويقدِّمون غيرهم عليهم!

ولم يكن قصدهم أن يُثنى عليهم بهذا، كما كان عين الحال عند بعض العرب في الجاهلية، بل حبًّا في الله ورسوله وكَرَم أخلاقٍ جُبلوا عليها، ولذا قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فهم قد وقوا شُحَّ أنفسهم فوعدهم بالفلاح.

والفرق بين «الشُّحِّ» و«البُخْل» دقيق، وبعضهم قال: هما مترادفان[1].

وقيل: البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك، **والشُّح**: الحرص على تحصيل ما ليس عندك.

وقيل: الشُّحَّ معنى نفسي، **والبخل** معنى عملي حِسِّي؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾[2] [النساء: ١٢٨]، فما من نفس إلا وفيها شُحٌّ؛ شُحٌّ بالنفس، وشُحٌّ بالمال، وشُحٌّ بكل ما تملكه النفس.

وأما **البخل**: فهو ما يظهر على الإنسان من المنع وعدم العطاء أو الحرص على المال، فيكون البخل أثرًا للشُّحِّ، وكأن الشُّحَّ سيئة القلب، والبخل سيئة اليد واللِّسان[3].

والأقرب أن الشُّحَّ أشد درجات البخل[4].

وبعد، فنحن نُشهد الله سبحانه على حُبِّ المهاجرين والأنصار الذين أَحَبَّ بعضهم بعضًا، وأَحَبُّوا ربهم، وأَحَبُّوا نبيهم ﷺ، وشهد لهم الله تعالى في كتابه بخير

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩)، و«الآداب الشرعية» (٣/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤١٠).

(٣) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص٢٩٥- ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٩٣)، و«سبل السلام» (٢/ ٦٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٤).

(٤) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٦٢)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٩٥)، و«النهاية» (٢/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٩٣)، و«الإتقان» (٢/ ٣٦٤).

المنازل، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم ويجمعنا بهم في جنات النعيم، وهكذا نقول: إن كل مؤمن بالله ورسوله لا بد أن تكون هذه من أصول دينه وإيمانه؛ أن يُحِبَّ هذا الجيل الذي أَحَبَّه الله ورسوله، وألا يتكلم فيهم إلا بخير، فهم خيرة الله من عباده، وصفوة خلقه بعد النبيين، وثمرة التربية المحمدية العظيمة التي زكَّاها الوحي؛ لتكون منارة يهتدي بها السائرون على الطريق إلى يوم الدين.

* ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

قد يكون المقصود بالذين جاؤوا من بعدهم: الذين جاؤوا إلى المدينة من غير المهاجرين ومن غير الأنصار، كالقبائل التي تأخر إسلامها[1].

والجمهور من المفسرين على أن المقصود: الأجيال اللاحقة بعد عصر المهاجرين والأنصار[2]، فهؤلاء يحبون المهاجرين والأنصار، ويدعون لأنفسهم ولهم بهذا الدعاء الخاشع المتبتِّل، وبدؤوا بأنفسهم؛ لأن من السُّنَّة أن يبدأ الإنسان بنفسه قبل غيره في الدعاء، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وكما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨].

فدعوا لمَن سبقوهم بالإيمان بالمغفرة، وأول ما يشمل ذلك المهاجرين والأنصار، ووصفوهم بـ«الأخوة»، وأي شرفٍ ومجدٍ أعظم من أن يعقد الله لواء الأخوة- بغض النظر عن الجنس واللون والشكل- بين هؤلاء المؤمنين وبين كل مَن يحبهم ويثني عليهم إلى يوم القيامة، وشهدوا لهم بالإيمان وأثنوا عليهم بالسابقة؛ وهي سابقة زمانية وسابقة رتبية في الفضل، ولذا جاء في حديث عمران وابن مسعود وغيرهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أن خير القرون قرن النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٢- ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٦).

الذي يلونهم[(١)].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: دعوا أَلَّا يجعل الله في قلوبهم حقدًا أو كراهية أو بغضًا للمؤمنين، سواءً كانوا سابقين أم لاحقين[(٢)].

والغِلُّ يقع للسابق بسبب ما يرثه الإنسان من معتقد، أو بسبب قراءة تاريخية خاطئة أو منحازة، كما يقع للمعاصر بسبب الاختلاف والتنافس والتحزب وسوء الظن، وتحريش شياطين الإنس والجنِّ، وتغرير الإعلام الذي من شأنه قلب الحقائق وتوسيع الشُّقَّة وزرع العداوة بين الناس ليحفظ بذلك سيادته.

وفيه وجوب محبة أصحاب محمد ﷺ، وقد ورد في ذلك نصوص كثيرة، وكتب فيه أهل العلم وأَلَّفوا، ولكن مما يستحق أن نشير إليه ونؤكده هنا أنه لا ينبغي لأحد من الناس أن ينال من أحد من أصحاب محمد ﷺ، حتى لو كان الصحابة اختلفوا فيما بينهم، فهم بشر يختلفون في أمر من أمور الدين وليسوا في منزلة واحدة؛ بل هم درجات عند الله، لكن لهم شرف الصحبة.

أما مَن جاؤوا بعدهم فهم بمنزلة دونهم، ولم ينالوا هذا الشرف؛ ولذلك ليس من حقك أن تتعصَّب أو تنحاز لهذا ضد هذا، أو تجعل من النيل والوقيعة دينًا يتدين به.

ولا شك أن الشتم والسَّبَّ ليس من قيم الدين ألبتة، فالله تعالى لا يُتعبَّد بالسَّبِّ، حتى إن الله نهى عن سَبِّ آلهة المشركين، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وحتى سَبِّ الشيطان لم نُؤمر به، وإنما أُمرنا بالاستعاذة منه، وحتى سَبِّ فرعون وهامان وقارون وأبي جهل ليس فيه أجر وليس عبادة، ولا يزيد القلب إشراقًا، ولا يزيد النفس إيمانًا، ولا يزيد الحسنات، ولا يثقل الميزان.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٣٣- ٢٥٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٥٥).

بل إن اعتياد اللِّسان على لغة السَّبِّ والوقيعة يفضي إلى الازدراء والاحتقار وخشونة الخُلق؛ ولذلك لا يتديَّن الإنسان بِسَبِّ المنحرفين والضالين والإفراط في ذلك إلا بقدر ما يستدعيه بيان الحق مما يتعلق بالأحكام الشرعية أو الجرح والتعديل في المرويات؛ لتعلقها بحفظ السنة النبوية.

* ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾:

وهذا المقطع عجيب؛ فقد التفت فيه السياق إلى جماعة أخرى تعمل في الظلام عمل الهدم والتحريش، يرأسهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ، ومعه سبعة أو ثمانية من رؤوس النفاق كانت تخطِّط في المعركة؛ لكن دون جدوى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾، هم ليسوا إخوانًا في النَّسَب ولا في العروبة؛ لأن هؤلاء من بني إسرائيل وهؤلاء من العرب، وإنما الأخوة هنا أنهم كانوا حلفاء وإخوة لهم في الشَّر وفي حرب الله تعالى ورسوله ﷺ، وكأنه بعدما ذكر الأخوة السابقة الصادقة بين المؤمنين حتى بين الجيل المتأخِّر والجيل المتقدِّم انتقل إلى الأخوة الباطلة الفاسدة، وبيَّن أن هؤلاء منافقون يبطنون الشرك والكفر، وأولئك يهود من أهل الكتاب، وإنما جمعهم وألَّفَ بينهم العداءُ لله ورسوله والمؤمنين.

وهكذا يقع في كل زمان ومكان حينما يستشعر المجرمون الخطر من قوة الإسلام وأهله، يلجؤون إلى عقد التحالف وينسون ما بينهم من العداء والتباعد في الملة والمذهب والمقصد!

وكان القول المذكور تهامسًا في مجالس خاصَّة عُقدت لمعالجة الموقف، فهم يقولون لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب من بني النَّضِير قبل المعركة: نحن منكم وأنتم منَّا، والمصير واحد، ولئن أُخرجتم من المدينة لنخرجن معكم. وأرادوا بهذا التحريض على المقاومة والتثبيت لهم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع فيكم محمدًا ﷺ، ولا غيره[1]، فما بيننا وبينكم من العقود والمواثيق أعظم من أن نطيع فيكم أحدًا.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، فإن صار الأمر إلى قتال فسوف نخوضه معكم[2]، وقال لهم عبد الله بن أُبيٍّ: إن عنده أكثر من ألفين مقاتل مدرَّبين مجهَّزين بأسلحتهم مستعدين لخوض المعركة[3]، فقال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، قال هذا في مقابل ما قال عن أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾، فهم كاذبون حتى في هذه الدعوى المادية.

* ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾؛ لأن حُبَّ البلاد متأصِّل فيهم فلن يخرجوا، وليس لديهم عقيدة صادقة يُضَحُّون من أجلها، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ بل سوف يتخلُّون عنهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على افتراض ذلك[4]، ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

نفى سبحانه أن يكونوا صادقين في العزم على الخروج معهم من المدينة لو أُخرجوا منها، أو أن يكونوا مستعدِّين لمناصرتهم في المعركة لو وقعت، وقرَّر أنهم لو خاضوا المعركة سيُهزمون ويولُّون الأدبار، وخوضهم المعركة هو افتراض بعيد؛ إما على سبيل التنزُّل أو التهوين من شأنهم، أو أنه قد يوجد منهم مَن يفكِّر بخوض المعركة من أصحاب الهوج والحمق الذين لا يفكِّرون في عواقب الأمور.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٩).

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٤٢- ٢٤٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥١).

* ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾:

وهذا من الأسلوب المعجز في القرآن، ولو أردت التعبير عن هذه الحقيقة فلن تجد أبلغ ولا أدق وصفًا من هذا السياق؛ فأشخاصكم أصبحت مرهوبة عندهم وهم لا يُظهرون ذلك؛ بل يُكِنُّونه في صدورهم، وهم يَرْهَبُونكم أشد من رهبتهم من الله عَزَّوَجَلَّ، أما أنتم فيعلمون قوتكم وبأسكم وشجاعتكم ويرونها ماثلة أمامهم، وأما الله تعالى فإنهم لم يقدروه حق قدره؛ ولهذا لا يخافونه.

وقد قيل: «مَن كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ»[1]، ولذا قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، **والفقه** هو: المعرفة القلبية الباطنة، ومعرفة الله هي من المعرفة الباطنة التي تلامس القلوب فتورث الخشية؛ ولو كان عندهم فقه لخافوا الله عَزَّوَجَلَّ وخافوا بطشه خوفًا لا يقارن به خوف أحد؛ إذ الملائكة المسبِّحة بحمده تخافه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياء تخافه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فكيف بالعصاة من بني آدم؟ ولكن غياب الفقه عن قلوبهم جعلهم مشغولين بخوف البشر عن خوف الله، وبخوف العقاب العاجل عن الآجل.

والكلام يصدق على اليهود والمنافقين معًا؛ لأنه ليس أحد من الطرفين بأولى برجوع الضمير إليه من الآخر، فهذه صفة أنهم يخافون المؤمنين أكثر مما يخافون الله[2].

وهل هم يخافون الله؟ قد يوجد منهم مَن يعرف الله بعض المعرفة، واليهود أهل كتاب، والمنافقون وإن كانوا في غالب أصلهم وثنيين، إلا أنه قد يوجد عند بعضهم إيمان بوجود الله، لكن خوفهم منه ضعيف أو منعدم[3].

---

(١) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٧٢٨)، و«الرسالة القشيرية» (٢/ ٤٧٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٢٢٤) منسوبًا إلى أحمد بن عاصم الأنْطاكي.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٧)، والمصادر السابقة.

* ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

فليس لديهم استعداد أن يخوضوا معركة عسكرية فيها مواجهة جيش بجيش، والتاريخ بالاستقراء شاهد على هذا، فلا تجد في تاريخ اليهود مثل هذا، بخلاف الصليبيين؛ فلهم معارك ضارية مع المسلمين، ثم جاء الاستثناء كأنه استئناف لكلام جديد، فهم بارعون في الكيد والمكر والقتال من وراء الجُدُر والأحابيل والحيل التي يتفننون بها في القتال؛ وكانوا يمتنعون بالحصون المَشِيدة في قراهم، أما المواجهة فهم لا يحسنونها ولا يتقنونها؛ لأن الرُّعْبَ يعصف بقلوبهم.

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾: والقتال من وراء الجُدُرِ يعني قتالًا من غير مواجهة؛ بل هو رشق بالنبل أو القذائف أو القنابل بلا رحمة، كما يفعلون الآن في حروبهم ضد الشعب الفلسطيني الأعزل.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: هذا الوصف يحتمل معنيين:

١- أنهم إذا اجتمعوا قوَّى بعضهم بعضًا، فإذا جدَّ الجِدُّ وحزم الأمر غيروا ذلك ونقضوا ما أبرموا[(١)].

٢- وهو أصح: أن خلافاتهم فيما بينهم شديدة[(٢)]؛ ولهذا عقَّب سبحانه بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، فهم مختلفون ما بين قبائل وأحزاب وجماعات من الأشكناز والسفرديم والفلاشا وغيرها من مكونات المجتمع اليهودي، والأحزاب اليمينية واليسارية تتكايد فيما بينها حتى في حال الحرب يسعى بعضها لإسقاط بعض، على أنهم الآن في حالة التمكين بحبل من الله أو حبل من الناس، وربما لا تبدو هذه الاختلافات ظاهرة للعين، ولذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾، فالناظر

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٨٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٦).

يظنهم أمة واحدة مجتمعة، والله يخبر أن قلوبهم شتى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾: وصفهم في الآية السابقة بأنهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن معرفة الله فقه تحتاج إلى قلب واعٍ مؤمن بصير، ووصفهم هنا بأنهم ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن العقل الرشيد يدرك أهمية الاجتماع وعدم التفرُّق، وأن الله تعالى لا ينصر القوم المختلفين حتى لو كانوا من المؤمنين(١)؛ ولهذا خاطب محمدًا ﷺ وأصحابه بقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وكان الناس يوصي بعضهم بعضًا بالاتفاق والاجتماع، كما قال الرجل الذي حضرته الوفاة لأولاده(٢):

كونوا جميعًا يا بَنيَّ إذا اعتَرَى ... خَطْبٌ ولا تتفرقوا آحادَا

تَأْبَى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسُّرًا ... وإذا افترقن تكسَّرت أفرادَا

فالعقل الرشيد حتى من دون إيمان يوحي بأهمية الاجتماع، وأن تضم قوتك إلى قوة غيرك، فمَن كان دأبه إذكاء الاختلاف وتأجيجه والانشغال به لم يعد في طاقته جهد لمواجهة عدوه والتفرغ لحربه، وبهذا ترك العمل بمشورة العقل ونصيحته، فجُمع لهؤلاء بين غياب الفقه القلبي وغياب الفهم العقلي؛ إذ فقدوا تأثير القلوب، حتى صاروا يخافون الناس أكثر مما يخافون الله، وفقدوا تأثير العقول، حتى أصبحوا مختلفين فيما بينهم، فماذا بقي لهم إلا الأجساد؟!

وقد أمرنا الله بالاعتبار في قصة بني النَّضِير، وهذا من أعظم مواطن الاعتبار، أن يكون خوفنا من الله فوق خوفنا من كل أحد من الناس، وأن نُصِرَّ على التوحد وتنسيق الجهد مهما كانت الفروق والاختلافات بيننا.

وإن أكثر ما جنى به المسلمون على أنفسهم وسبَّب لهم الهزيمة والفشل وذهاب الريح هو التفرُّق والتنازع الذي عصف بهم طويلًا، ومثله التعصب للمذهب أو البلد أو القبيلة أو الحزب.

---

(١) ينظر: «درة التنزيل» (١/ ١٢٦٤- ١٢٦٥)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص٢٣٥)، و«فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٧).

(٢) نُسب إلى أكثم بن صيفي، والطُّغْرائي.

ومن المؤسف أن هذا سرى إلى بعض طلبة العلم والمثقفين والدُّعاة، فلم يعد التفكير: كيف نستطيع أن نوصل رسالتنا إلى العالم؟ ولا: كيف نستطيع أن نبني نهضة؟ ولا: كيف نستطيع أن نرسم القدوة الحسنة؟ بل أصبحت كثير من المشروعات والبرامج والانشغالات: كيف نسقط الآخر ونضعف قدرته؟ حتى مظهر الاجتماع الذي حكاه الله عن اليهود ليس مشاهدًا، فلا تحسبنا جميعًا، بل يدرك الناظر لأول وهلة أننا شيع وأمم وفرق تتهاجى، ويهدم بعضنا بنيان بعض، وصدق علينا قول محمد إقبال[1]:

كلُّ شعب قام يبني نهضةً ... وأرى بنيانكم منقسمًا

في قيم الدهر كنتم أمةً ... لهفَ نفسي كيف صرتم أُممًا؟

بل إنك تجد الدولة المسلمة الواحدة عبارة عن أقاليم وجماعات وأعراق وتيارات، وكلها مستعدة لأن تتشظَّى وتسعى للانفصال، فهذا مما حذَّرنا الله منه؛ حين نهانا أن نتشبه بأهل الكتاب والمشركين، وقال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

والنهي عن التشبه بهم ليس محصورًا في المظاهر الشكلية، ولكن يعم الجوانب الأخلاقية والعملية والتربوية، وهي أمور ينبغي أن نتقي الله فيها ونتواصى بها حتى يأتي ذلك الجيل الذي يدرك أهمية أن يكون المؤمنون جماعة واحدة، وأن نركِّز على ما يستحق الاجتماع عليه، كأصول التوحيد والإيمان وأصول العبادات والأخلاق بدلًا من التركيز الدائم على مسائل الاختلاف وأسبابه وتضخيمها، وجعلها سببًا للتنازع والفرقة.

* ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

والمقصود: قريش- والله أعلم- في هزيمتهم يوم بدر، أو بنو قُريظة الذين جرى لهم ما جرى بعد بدر[2].

---

(١) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (٢/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦).

والوبال هو: السوء، ومنه المرعى الوَبِيل، إذا كان مرعى سيئًا ومذمومًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة[1].

* ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النَّضِير أن يخرجوا معهم لو أُخرجوا، هم في ذلك كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فلما كفر تبرأ منه[2].

وادِّعاء الشيطان خوفه من الله هنا كذب؛ إلا أن يكون المقصود: خوفه من أن يأخذه الله عَزَّوَجَلَّ[3].

وقد ذكر بعض المفسرين قصة الرجل الذي يسمى: بَرْصِيصا، والذي زيَّن له الشيطان أن يزني بامرأة ثم حملت، فزين له أن يقتلها، فأمسكوا به، فجاء الشيطان وزيَّن له أن يسجد له لينقذه، فسجد له ثم تخلَّى عنه وقُتل.

وهذه القصة لا يصلح أن يفسَّر بها القرآن الكريم؛ لأنه ليس لها إسناد يعتد به، وهي من روايات بني إسرائيل[4].

---

(١) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٩- ٣٠٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١- ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥- ٧٦)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٩).

وقد سمى الله سبحانه اليهود في علاقتهم بالمنافقين في أول «سورة البقرة» بالشياطين، كما في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾، وذكر في «سورة الزخرف» الشيطان القرين[١]، فلا مانع إذًا من إرادة الشيطان الإنسي في هذا السياق، وأنه يغري الإنسان بالكفر ثم يتخلَّى عنه.

وفي الآية تعريض باليهود الذين يخافون البشر أشدَّ من خوفهم من الله، وهم بهذا أسوأ حتى من الشيطان الذي قد يتخلَّى عن حليفه خوفًا من الله.

وليس لفظ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ مقصورًا على إبليس الذي وعده الله بالإنظار إلى يوم الدين؛ بل هو عام لكل شياطين الجن والإنس[٢].

* ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

المثل هنا واضح، فكما أن المنافقين أَغْرَوْا اليهود بالبقاء وانخذلوا عنهم، وكان مصيرهم سيئًا، فاليهود طُردوا والمنافقون خُذلوا؛ لأنهم كانوا يتعزَّزون باليهود، فلما طُرد اليهود ذهبت قوتهم- ومنهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ ومَن معه- ولم يعد لهم شأن، فكذلك الشيطان والإنسان، فالشيطان يغري الإنسان ويقول له: ﴿اكْفُرْ﴾، وإذا كفر كان مصيرهما معًا هو النار، فهذا عذاب الدنيا، وذاك عذاب الآخرة[٣].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾:

ختم الله تعالى السورة الكريمة بهذا النداء القوي المؤثِّر الذي هو تعقيب على مجمل الحوادث المذكورة؛ فيذكِّرهم بهذا الحبل المتين، وألَّا تلهيهم الانتصارات

---

(١) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٥٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٣٨)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٢٧٨) «ش ط ن».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٦٢).

والمكاسب التي حقَّقوها عن معنى الإيمان الذي به عَزُّوا وتميَّزوا، وألَّا تحملهم المعارك وخصوماتها وتفاصيلها والانهماك فيها عن مراعاة التقوى، حتى مع العداوة والشنآن، **والتقوى** معنى عامٌّ يقتضي فعل الأوامر وترك النواهي وتجنب الحرام(١).

والغد هو: ما بعد اليوم، مثلما أن الأمس هو ما قبله، وكما يقول زُهير(٢):

وأَعلَمُ عِلمَ اليَومِ والأَمسِ قَبلَهُ ... ولَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَمِ

والمقصود بالغد: يوم القيامة؛ إشارة إلى قربه(٣).

ثم كرَّر الأمر بالتقوى، ويحتمل أن يكون الأمر الثاني مختلفًا عن الأول، فأمرهم بتقوى الله بفعل الطاعات؛ ولهذا قال: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: من الطاعات وأعمال الخير، ثم كرَّر وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى ترك المنهيات والمحرمات(٤).

* ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾:

وفي هذا إشارة إلى اليهود الذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم، فأصبح في تدبيرهم من الخرق وسوء التقدير وفساد الحساب ما هو ظاهر للعيان، فلا تكونوا مثلهم واعتبروا بحالهم(٥).

ومن المعاني هنا: أنهم انشغلوا بالأشياء عن أنفسهم؛ فكثير ممن نَسُوا الله تعالى تجدهم مشغولين بتجارة أو وظيفة أو شهرة أو متعة تلهيهم حتى عن حاجات

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص١١٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٩٥).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦٠٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٧)، والمصادر الآتية.

نفوسهم[1].

وأنت تجد هذا بشكل أوسع في الأمم والشعوب التي نسيت الله تعالى وانشغلت بمادياتها وحياتها العاجلة، وشاعت فيها نظريات الإلحاد والكفر بالله والجراءة على ذاته العلية وحدوده وشرائعه باسم الحرية، بينما لا تسمح تلك الحرية بالمساس برموز تاريخية أو وطنية وتعاقب مَن يشكِّك أو ينفي الهولوكوست (المحرقة النازية)!

ثم تدرَّج بها الحال إلى أن تكفر بالإنسان ذاته ولا تُقيم له وزنًا، وتُشكِّك في حقيقته وأهميته وأصله وعقله، فهم نَسُوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، كفروا بالله فآل الأمر إلى أن يكفروا بالإنسان.

ومن هذا أنهم لما نسوا الله جعل الله الأشياء التي يمتلكونها وبالًا عليهم، وضرُّوا بها أنفسهم وأضلُّوا بها غيرهم وأضروهم:

فالعلم تحوَّل إلى أداة لتحصيل الأسلحة التي من شأنها تدمير الحياة البشرية على وجه الأرض، حينما انفلت من عقاله، ولم يكن باسم الله سبحانه.

والعبث في الجينات البشرية وعمليات الاستنساخ واللعب بالأجنة التي تحوَّلت إلى مزارع، ليس لخدمة الإنسان، أو للقضاء على بعض الأمراض أو معالجتها، فهذا مطلب مشروع، ولكن لأنه لم يكن باسم الله فقد انفلت من عقال الأخلاق والمصلحة الإنسانية العامة، وأصبح ضررًا ووبالًا على الإنسان.

ونحن اليوم نتكلم عن المدنية والحضارة والتسهيلات في المواصلات والاتصالات والإعلام والخدمات الطبية، لكن مَن الذي يستطيع أن يقول: إن الرفاهية والسعادة التي يشعر بها الإنسان اليوم أفضل مما كان عليه الإنسان قبل مائتين أو ثلاثمائة سنة؟

ومَن يقول: إن البشرية نجت من غوائل العدوانية والعنصرية والسعي لتكريس

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٤).

الأنانية الفردية لثري أو زعيم، أو الأنانية الجماعية لجنس أو لون أو شعب على حساب الآخرين؟

* ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

فالناس صنفان، لا ثالث لهما، وهما متباينان كليًّا، وفي التعبير إشارة إلى عمق المسافة بينهما؛ ولهذا لم يقل: «أصحاب الجنة أفضل»، وإنما قال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أما أصحاب النار فلا فوز لهم بوجه من الوجوه.

* ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

المعنى: لو خاطبنا الجبل بالقرآن بعد أن أصبح مؤهَّلًا ومهيَّئًا للخطاب بقدرة الله سبحانه، مع أنه حجر صلد، لخشع وتصدَّع من خوف الله[1].

والمتصدِّع هو: المتشقِّق[2]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، فهذا مثل ضربه الله لعباده، **والمثل** هو: القول المأثور والحكمة التي يتناقلها الناس[3]، وضرب الأمثال بمعنى: أنها تُسَكّ سكًّا وتُتخذ اتخاذًا، كما يستخدم في ضرب العملة الرائجة بين الناس، فيتعاطونها ويتناقلونها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يتدبرون معانيها ويُعملون فيها عقولهم[4].

وهذه دعوة إلى الفكر والتفكر، وتدبر آيات الله الشرعية؛ لأن كل أحد من الناس لو قرأ القرآن بوعي وإقبال لأثمرت القراءة هدايةً لقلبه وصفاءً لروحه، وهذا من التيسير؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

ومن العوام مَن يدرك من معاني القرآن ودلالاته وقصصه وأخباره ما تدمع له

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٨- ٥٤٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٧).

عينه ويخشع له فؤاده، وإن فاتته المعاني التي تحتاج إلى مراجعة أو فهم أو قراءة في كتب التفسير، وفي القرآن قدر كبير واضح تعرفه العرب من لغاتها، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[1]، وهي دعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية في السماوات والأرض والجبال التي تسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ.

ويشبه هذا ما جاء في «سورة البقرة»: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وقد نزلت الآيات على المؤمنين وهم بعد انتصار فرحوا به، فكأنها تدعوهم إلى أن يتواضعوا لله عَزَّوَجَلَّ، ويعرفوا أن الأمر كله لله، وأن النصر من عند الله، وأنه ليس لهم منه شيء إلا أن الله تعالى استعملهم وسخَّرهم فيه، والله يسلط رسله على مَن يشاء.

وفيه توبيخٌ لليهود؛ فإنهم يوصفون بقسوة القلوب، وغلظ الأكباد، والغفلة عن المعاني؛ ولهذا حذَّرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ أن يكون مصيرنا كمصيرهم في قسوة القلوب، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. وعاتبهم في «سورة البقرة» - كما سبق - بأن قلوبهم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، وهذا يعزِّز مناسبة الآية لقصة بني النَّضِير وملحقاتها.

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾:

ختم الله تعالى السورة بآيات في تمجيده، وذكر طائفة من أسمائه الحسنى تناسب المقام، وتسعى لإحياء القلوب، ولله تعالى تسعةٌ وتسعونَ اسمًا، مائةٌ إلَّا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٥٣)، و«تفسير الطبري» (١/ ٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٢٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٥/ ٥٨)، و«تفسير الرازي» (٧/ ١٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٤).

واحدًا، مَن أحصاهَا دَخَلَ الجنةَ[1].

وليس المقصود حصر الأسماء، فإن الله تعالى لا يحيط بأسمائه إلا هو؛ ولهذا كان في دعائه ﷺ- كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**أسألُكَ بكلِّ اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو علَّمتهُ أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك**»[2].

ويوم القيامة يسجد ﷺ تحت العرش، فيُلهمه الله تعالى أسماء ومحامد يحمده بها، لم يكن يعلمها من قبل[3].

والمعنى: أن من أسماء الله الحسنى تسع وتسعين اسمًا، من صفتها وخصيصتها أن «**مَن أَحْصَاها دخلَ الجنةَ**».

والإحصاء يكون بحفظها، ولهذا يحسن أن يكون عند المؤمن كتاب موثوق يجمعها أو لوحة تحصيها، وأن يحفظها ويُحفِّظها لأطفاله، وأن يتعلَّم معانيها، فهي ليست رموزًا ولا ألغازًا، وإنما أسماء معروفة المعنى، وأن يدعو الله تعالى ويناديه بها: يا غفور، اغفر لي، يا رحيم، ارحمني، وأن يحاول أن يقتدي بمعاني تلك الأسماء، فيتعلم؛ لأن الله عليم يحب العلماء، ورحيم يرحم من عباده الرحماء، ويغفر للناس حتى يغفر الله له، يعفو لمَن أخطأ عليه أو ظلمه؛ لأن الله عفو يحب

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧، ٨). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾، وأول «سورة الإخلاص».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله ﷺ: «**فأقعُ ساجدًا لربي، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ ويلهمُني من محامده، وحُسْن الثناء عليه شيئًا لم يفْتَحْه لأحد قبلي**».

وفي «صحيح البخاري» (٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله ﷺ: «**فأقومُ بين يديه، فأحمدُه بمحامدَ لا أقدرُ عليه**- وفي رواية: **لا تحضرني- الآن، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ**». وينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾.

العفو، ويتوب؛ لأن الله يحب التوابين، وهو التواب الرحيم[١].

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، إشارة إلى تعظيمه جل وعزَّ، ثم ذكر اسمه العظيم؛ بل قيل: هو الاسم الأعظم: ﴿ٱللَّهُ﴾[٢].

وقيل: الاسم الأعظم مجموعة في قولك: «الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، المنانُ، بديعُ السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»، كما عند أحمد، وأهل «السنن»[٣].

والله هو الذي تألهه القلوب وتحنُّ إليه، فكل مَن عرف الله حنَّ إليه وأحبه وتمنَّى لقاءه ورؤيته، ومَن أكرمه الله بالرؤية ذهل عن كل نعيم سواها، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]، فلا نعيم أعظم من رؤيته جل وعزَّ وسماع كلامه،

---

(١) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ٥)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٢٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٥٨٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«روح البيان» (٩/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٨)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٤٣- ٥٣)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٣) أخرج أحمد (٢٢٩٦٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩٢)، والحاكم (١/ ٥٠٤)، وغيرهم، من حديث بُرَيْدَة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ سمع رجلًا يدعو، وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد سألَ اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**».

وسنده جيد، بل هو أصحُّ ما ورد في باب الاسم الأعظم.

وأخرج أحمد (١٢١٥٠، ١٣٠٨١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣- ٥٠٤)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا دعا، وقال: اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمدُ، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ. فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**». وما قبله أصح.

وثَمَّةَ أحاديث أخرى في هذا الباب. وينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٤٤- ٤٥).

وذكره تعالى واللَّهج بأسمائه يمنح القلب تعلقًا وحنينًا حتى يشتاق العبد للحظات الخشوع والاستحضار ويحزن لفقدها ويحاول استعادتها، حتى تصبح سرور قلبه ونعيم عيشه وبهجة حياته.

وهو الذي تألهه العقول وتتحيَّر فيه؛ لأنه لا يعلم ذاته وأسماءه وصفاته إلا هو.

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ ... نِ غدا الفِكْرُ كليلا

كلما أَقْدَمَ فكري ... فيك شبرًا فرَّ ميلا

ناكصًا يخبط في عَمْـ ... ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا[1]

ومن معانيها: المألوه المعبود الذي لا يُعبد بحق سواه[2].

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن إحساس الناس وإدراكهم، فلم يعلموه ولا عاينوه، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الموجود الحاضر المدرَك مما علموا وشاهدوا.

وقيل: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: الآخرة، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الدنيا.

فكل ذلك في علمه سبحانه[3].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: واستفتح بهذه الآية الكريمة؛ إشارة إلى أن أسماءه الحسنى سبحانه كلها أسماء تتَّصف بالحُسن؛ بل هي أحسن الأسماء، فأسماؤه كلها حسنة، فيها الخير، والبر، والجُود، والكرم، والعطاء، والفضل، والرحمة، **نحو**: الله، الرحمن، الرحيم، البَر، الجواد، الكريم، التوَّاب، الغفور، الحليم، الشَّكور، الكريم.

لكن ليس في أسماء الله سبحانه: المنتقم، أو: المعذِّب، أو: الآخذ، أو: شديد

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

(٢) ينظر: «مع الله» (ص٥٠- ٥٢)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٦).

العقاب.. على القول الصحيح[1]، أو: أليم العذاب، ولكنه صفة لبعض فعله؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، فهنا ذكر المغفرة والرحمة وبدأ بها وخاطب بها عباده تقرُّبًا وتحبُّبًا، ثم لم يقل: «وأني المعذِّب، أو: الباطش، أو: الآخذ». وإنما قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، فوصف عذابه بأنه أليم.

ولذلك ذكر الغزالي وابن تيمية وابن القيم وسواهم ممن كتبوا في أسماء الله تعالى وصفاته: أن أسماء الله تعالى الحسنى تدور على أسماء الخير والبر والرحمة والجود[2]؛ وبذلك يتعرف الله تعالى إلى عباده؛ لأن الناس ينساقون إلى الطاعة بالرحمة والعفو والمغفرة والرغبة أكثر مما ينساقون بالوعيد، مع أن أهل السنة يقررون المعاني الثلاثة؛ وهي الحبُّ والخوف والرجاء، والحبُّ بالاتفاق أفضل المعاني التي يتعبَّد بها الناس لربهم، ويأتي بعده الخوف والرجاء، وهما متساويان، كما قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا»[3]. أي: متساويين.

وبعضهم يرجِّح جانب الخوف عند الهمِّ بالمعصية، ويرجِّح جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويرجِّح جانب الرجاء عند الاحتضار، كما قال النبيُّ ﷺ: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله** عَزَّوَجَلَّ»[4].

كل هذه المعاني متآلفة متناسقة، لا يقضي بعضها على بعض، ولا يهدم بعضها بعضًا؛ ولهذا قال سبحانه عن الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦)، و«معارج القبول» (١/ ١١٧- ١١٨)، و«الصفات الإلهية» (ص٣٤٨)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢].

(٢) ينظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٨٢)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٧١)، و«حادي الأرواح» (ص٢٦٤)، و«أسماء الله وصفاته» لعمر الأشقر (ص٦١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٥- ١٨).

(٣) ينظر: «الإقناع» (١/ ٢١١)، و«كشاف القناع» (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، فجمع بين الخوف والرجاء والحب، ولكن الحب بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمنزلة الجناحين[(١)]، والرأس أهم وألزم لبقاء الحياة من الأجنحة.

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣﴾:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تكرر هذا المطلع في بدايات الآيات؛ لتوكيد قيمة الألوهية التي ترسم صلة العبد بربه، وتقرِّر الوحدانية لله وأنه المعبود بلا شريك، وهذا هو المقصد الأَسْمى من سرد الأسماء؛ بل هو المقصد الأعظم للكتب والرسالات السماوية.

﴿ٱلۡمَلِكُ﴾: لا مُلك إلا له، ولم يحدث في عصر من العصور أن وُجد من البشر من ملك الدنيا كلها شرقًا وغربها؛ حتى الملوك المشهورين، والأباطرة، والفراعنة، وغيرهم من أمثال بُخْتَنَصَّر، وذي القَرْنين، والإسكندر المَقْدوني، وهُولاكو، وجِنْكيزخان، وغيرهم ملكوا رُقعة من الأرض وزاحمهم غيرهم ونافسهم.

ولو فرض أن مَلِكًا مَلك الدنيا كلها، فهو يملكها اليوم، لكنه لم يملكها أمس ولن يملكها غدًا.

ولو فُرض أنه طال ملكه فهو إلى زوال، ولو دامت لك ما وصلت لغيرك، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك، وهذا كله ملك طارئ يتعلق بالتدبير، لكن ملك الله

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ٣٥٩- ٣٦١)، و«شعب الإيمان» (٢/ ٣٢٨)، و«الرسالة القشيرية» (١/ ٢٦٠)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤١١)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١، ٢٠٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٥١٣)، (٢/ ٣٧)، و«فتاوى السبكي» (٢/ ٥٥٥)، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾، و«سورة البروج»: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾.

سبحانه ملك أصلي؛ لأنه هو الذي خلقها وأوجدها من العدم، فهي تدين له في كل ذرة من ذراتها؛ وملكه سبحانه لكل شيء في السماء والأرض، والبر والبحر، والإنسان والحيوان، والدنيا والآخرة، والأملاك والأفلاك، ويوم القيامة يتجلَّى الأمر وينكشف، فيقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ثم يجيب جلَّ وعزَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1] [غافر: ١٦].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: ففي ذلك تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يعتري الملوك عادةً من صفات النقص، فإن بعض الملوك يقع له العُجب، ويقع منه الظلم ويتكبَّر على مرؤوسيه، ويقع في الشهوات، ويداخله العُجب، وتصيبه الآفات، ويعتريه النقص والعجز، أما الله سبحانه فهو المقدَّس الكامل المنزَّه عن النقائص والعيوب[2].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: يعني: السالم من كل آفة، فلا يعتريه نقص ولا عيب، ولا خطأ ولا زلل ولا نسيان، وهو الذي يُسلِّم عباده ويرزقهم، ولذا كان السلام تحية الإسلام، وملكه لعباده سلام وخير وبر ورحمة وجود.

ولذا كان في الدعاء الذي علَّمه الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فملكه خير وفضل وبركة[3].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: فهو يُؤمِّن عباده، أي: يمنحهم الأمن، فالأمن في الدنيا من عطائه وفضله، وهو مطلب ومقصد، فالأمن على النفس والمال والولد هو من الله، وهو نعمة من عنده، وكثير من الملوك ينشرون الخوف في رعاياهم لأجل الهيبة

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩٣٠)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالكائي (٢/ ٢٤٧)، (٧/ ١٣٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١١٦).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢١٤)، و«مع الله» (ص٧١).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢١٥)، و«مع الله» (ص٧٥- ٧٨).

والانكفاف، أما الله فهو يُؤمِّن عباده، ويخص المؤمنين السالمين من الظلم بالأمن التام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وهو يُؤمِّن عباده بما جعل في الكون من الأسرار والحكم والنواميس بتوفير الهواء والماء والطعام والشراب والثروات في باطن الأرض والخيرات، وهو يُؤمِّن عباده من الظلم والجَوْر، ويُؤمِّن عباده يوم القيامة أَلَّا يقع عليهم حَيْف[1].

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الشاهد الذي لا يغيب، والرَّقيب الذي لا يغفل، والملوك وإن كانوا يجتهدون في معرفة أحوال رعاياهم إلا أنه يخفى عنهم الكثير مما تخفيه صدور الناس أو ما يدبرونه في الخفاء، أما الله عَزَّوَجَلَّ فهو مطَّلعٌ على أحوال عباده وأسرارهم وأقوالهم وذوات صدورهم وخططهم ونواياهم وظاهرهم وباطنهم[2].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: وهذا أيضًا من توابع الملك، فله تعالى العزَّة الذاتية التامة الدائمة، وهو يمنحها لمَن يشاء، كما منحها محمدًا ﷺ والمؤمنين معه حين نصرهم على المشركين واليهود والمنافقين[3].

وكثير من ملوك الدنيا وسلاطينها، وإن كان لهم قوة وعزة ظاهرة، إلا أن نوعًا من الذُّل يغشاهم ممن هو أعلى منهم وأقوى فيخافون منه، بل حتى مَن دونهم يخافون من تمردهم وخروجهم عن طاعتهم، فيراعونهم ويخادعونهم، أما الله عَزَّوَجَلَّ فهو العزيز من كل وجه؛ لأنه الغنيُّ عن خلقه والخلق كلهم مفتقرون إليه.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي يَجْبر كسر المنكسرين، ويَجْبر مصابهم، ويزيل ما بهم، ويعوِّضهم ويمنحهم الرضا والصبر.

و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي يُجبر عباده على ما يشاء؛ فإنه لا يقع في الكون شيء إلا

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣١)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٢١)، و«مع الله» (ص٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٢٧)، و«مع الله» (ص٨١).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣٧)، و«مع الله» (ص٨٣).

بإذنه ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه[1].

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾: والكبر من سيماء الملوك، ولكنه يُعَدُّ عيبًا؛ لأنهم يأخذون فيه ما ليس لهم ويتظاهرون بعظمة لا يستحقونها، فيورث ذلك ازدراءً منهم لمَن تحت أيديهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، مَن نازعني واحدًا منهما ألقيتُهُ في جهنمَ**»[2]. فالكبرياء لله سبحانه وحده.

ومن معاني ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾: الكبير الذي لا أكبر منه عَزَّوَجَلَّ[3]؛ ولهذا يستفتح المصلِّي صلاته بـ«الله أكبر»، والمؤذِّن يستفتح أذانه بـ«الله أكبر» فهو أكبر من كل شيء وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السماوات والأرض والدنيا والآخرة بالوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، فإن كبرياءه سبحانه تليق به.

وليس الكبر الذي اتصف به سبحانه هو الذي عند الناس حين يداخلهم التِّيه والغرور، مع ما فيهم من صفات النقص والضعف الأصلي والطارئ، وإنما الله تعالى له صفة الكمال والعظمة والمجد الذاتي.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: تأكيدٌ لهذه المعاني كلها؛ فإن لله تعالى من هذه الأسماء أجمل المعاني، فمن حسن ظنك بالله وحسن معرفتك به أن تعلم أن له الكمال والجلال والجمال من كل شيء، فمُلكه كامل مقدَّس ليس كمُلك البشر،

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٤)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٤٠)، و«مع الله» (ص٨٥- ٨٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٥٠٩)، وأحمد (٧٣٨٢، ٩٥٠٨، ٩٧٠٣)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٥٥٠)، وابن حبان (٣٢٨، ٥٦٧١)، والحاكم (١/ ٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٥)، وابن حبان (٥٦٧٢)، والضياء (١٠/ ٢٧٢- ٢٧٤) (٢٨٤- ٢٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٤١).

وفي «صحيح مسلم» (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا: «**العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمَن يُنازعني عذَّبتُه**».

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٤١)، و«مع الله» (ص٨٧).

وكبرياؤه **عظمة** بحق وكمال، وعزته تامة لا يشوبها ذل، وقدرته لا يعتريها نقص..

والتسبيح معناه: التقديس والتنزيه[1]؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح**»[2]. فهو السُّبُوح القدُّوس، المسبَّح المقدَّس المنزه عن كل ما يخطر ببال الناس من الخيالات والأوهام والظنون، وعن كل ما يقوله الضالون والمكذِّبون والمشركون.

* ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾**﴾:

﴿**ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ**﴾: ثلاثة أسماء، **قيل**: هي مترادفة[3].

والصحيح أنها ليست مترادفة؛ ولكن بينها عمومًا وخصوصًا، فالخلق أعم، ثم البَرْء وهو ظهور المخلوقات إلى الواقع وإلى العيان، **والتصوير** هو: حصول المخلوقات على صورها؛ هذا إنسان، وهذا حيوان، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا أبيض، وهذا أحمر[4].

وقد يكون المعنى- كما أشار إليه أبو حامد الغزالي وغيره[5]-: أن السياق يشمل ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: الخلق، وهي التقدير، أي: أن الإرادة الإلهية قبل حصول الأشياء وكتابة الأشياء، فهذا يعتبر خلقًا، مثل قول الشاعر[6]:

ولأَنـت تَفْـرِي مـا خلقـتَ وبعـ ... ـضُ القـوم يخلُـقُ ثـم لا يَفْـرِي

أي: يعد ولا يفي، فيكون معنى الخلق: تقدير الأشياء قبل حصولها، فإن الله

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٥٠٣)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ١٢٥)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١/ ١٢٦)، و«التحرير والتنوير» (١١/ ١٠٢)، وما تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٢/ ٣٣)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٩١)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٨٩١- ٨٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص٩٥- ٩٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «المقصد الأسنى» (ص٧٥)، و«مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٥٦٧).

(٦) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص٥٦).

تعالى قدَّرها قبل أن تحصل وأراد أن تحصل في مواقيتها المعلومة، فهذا معنى الخلق والتقدير.

ثم مرحلة البَرْء، ومنه البَرِيَّة، وهم الناس[1]، وكل الأشياء بُرئت وخُلقت، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي فَلَقَ الحبةَ وَبرأَ النَّسمةَ»[2]. أي: أوجد، فـ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾: الموجد الذي خلق الأشياء التي نراها في العيان.

ثم ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾: الذي أعطاها صورها وميَّز بعضها عن بعض[3].

وفي هذه الأسماء الثلاثة معجزة الخلق والإبداع من العدم، وفيها الحكمة البالغة، وفيها الرحمة العظيمة التي بها تتراحم الناس والدواب والطيور، وفيها الجمال الباهر الذي جمال المخلوقات من جماله.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: ختم بالتسبيح لله عَزَّ وَجَلَّ، وأعاد الاسمين اللذين بدأ بهما أول السورة: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ إشارة إلى ربط هذه الأسماء بمجريات الواقع والأحوال، وأن أسماء الله الحسنى ليست مجرد أسماء يتبرَّك بها في الصباح والمساء- وإن كان هذا مطلوبًا مشروعًا- ولكنها عقيدة تصبغ حس المرء حينما يشاهد ما يقع في الكون من آيات وحوادث، فيلحظ آثار الأسماء الحسنى في جملها وتفصيلاتها.. في نفسه، وفي الآخرين، وفي الحوادث؛ الصغيرة والكبيرة، السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والعلمية المعرفية.. فإذا آمن العبد بالله وأحصى أسماءه واستحضر معانيها وهو يمضي في حياته ويتأمل ما حوله، لم تطش موازينه ولم تضطرب رؤيته، وقرأ العلم والقدرة والرحمة والحكمة والعزة والصبر وسائر الأسماء والصفات الجليلة في كل ما يرى ويسمع، فسبحانك الله وبحمدك، لا إله إلا أنت، ولا ربَّ سواك.

❍ ❍ ❍

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٠٤٧، ٦٩١٥)، و«صحيح مسلم» (٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٥- ٣٧)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٦٦، ٢٤١- ٢٤٤).

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

❊ تسمية السورة:

اسمها: «**سورة الممتحِنة**»، وتنطق بكسر الحاء؛ باعتبارها وصفًا للسورة نفسها، حيث ورد فيها الامتحان، وهذا عند الأكثرين[١].

وبعضهم ينطقها بفتح الحاء: «**سورة الممتحَنة**»؛ إشارة إلى المرأة الممتحَنة[٢].

وأول امرأة وقع عليها الامتحان هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في القصة المعروفة[٣].

وبعضهم يسمِّيها: «**سورة الامتحان**»[٤]؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٣٣)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٢٨)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٨٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«الكواكب الدراري» (١٨/ ١٣٥).

(٣) أنه لما كان يوم الحُدَيْبِيَة اشترط سُهيل بن عَمرو على النبي ﷺ أنه لا يأتيكَ منا أحدٌ- وإن كان على دينك- إلا رَدَدْتَه إلينا... وفيه: وجاءت المؤمناتُ مهاجرات، وكانت أمُّ كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ، وهي عاتقٌ، فجاء أهلُها يسألونَ النبيَّ ﷺ أن يُرجعَها إليهم، فلم يُرجعْها إليهم، لما أنزل اللهُ فيهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. ينظر: «صحيح البخاري» (٢٧١١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٧١)، و«عيون الأثر» (٢/ ١٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٩)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٩٥)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص٢١١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٠٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٨١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥).

جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

ولها اسم ثالث، وهو: «**سورة المودة**»(١).

* **عدد آياتها:** ثلاث عشرة آية(٢).

* **وهي مدنية** بالاتفاق(٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾:

لهذا السياق قصة رواها البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ لما خرج لفتح مكة أرسل حاطبُ بنُ أبي بَلْتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب إلى مشركي مكة؛ يخبرهم بخروج النبي ﷺ إليهم، وأعطاه امرأةً، فأخبر اللهُ نبيَّه ﷺ بذلك، فبعث عَلِيًّا والزُّبير والمقدادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «**ائتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظَعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها**». يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فانطلقنا تَعادَى بنا خيْلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتابَ. فقالت: ما معي كتابٌ. فقلنا: لَتُخرجنَّ الكتابَ أو لَتُلْقينَّ الثيابَ. فأخرجته من عِقاصِها، فأتينا به رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى ناس من المشركينَ من أهل مكة يخبرُهم ببعض أمر رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا حاطبُ، ما هذا؟**». قال: لا تعجلْ عليَّ يا رسولَ الله، إني كنتُ امرأً ملصقًا في قريش- كان حليفًا لهم، ولم يكن من أنفسها- وكان ممن كان معك

---

(١) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٨٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٩).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٧٥).

من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمونَ بها أهليهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذَ فيهم يدًا يحمونَ بها قرابتي، ولم أفعلْهُ كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبيُّ ﷺ: «**صدق**». فقال عمرُ: دعني يا رسولَ الله، أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهدَ بدرًا، وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهل بدر فقال: اعملوا مَا شئتم، فقد غفرتُ لكم**». فأنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾[1].

وهذه القصة فيها عجائب:

أن هذا يجري من صحابي قد شهد بدرًا، وشهد الحديبية، وشهد له النبيُّ ﷺ بالجنة؛ لما جاء غلامُه وقال: يا رسولَ الله، ليدخلنَّ حاطبٌ النارَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**كذبتَ، لا يدخلها؛ فإنه شهدَ بدْرًا والحُدَيْبِيَةَ**»[2].

وهو صحابي جليل صادق بشهادة النبي ﷺ، فكيف يحدث منه مثل هذا الأمر العظيم المتعلق بإفشاء سرٍّ عسكريٍّ خطيرٍ إلى المشركين، وبطريقة سرِّية دقيقة توحي بأنه يدرك ما هو مقدم عليه؟!

ثم تتعجب كيف استطاع المجتمع المسلم آنذاك أن يستوعب هذا الموقف، ويتعامل معه بتوازن لا يُفهم منه الاستهانة بخطورة هذا الأمر فيتجرَّأ الناس بإفشاء الأسرار الخطيرة، وفي الوقت ذاته لا يتعامل بغلظة زائدة تجعل المجتمع ينشق على نفسه، فإن المجتمعات إذا كانت تتعامل وتُعامِل الخطَّائين وأصحاب الزلَّات معاملة قاسية، تُجاوز حد العدل والإنصاف والحكمة، فهذا قد يكون سببًا في إقصائهم وقطع صلتهم وصلة مَن يتعاطف معهم.

ونلحظ أن الله افتتح السورة بتقرير وصف الإيمان للمنادَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وإن وقع منه من الكبائر ما وقع، وهذا يدل على أن حَاطِبَ بن أبي بَلْتَعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو من الذين آمنوا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم كان التذكير بعداوة أولئك القوم لله ورسوله وعداوتهم للمؤمنين مهما تظاهروا لبعض المؤمنين بغير ذلك، وفيه تشنيع هذا الفعل؛ وهو اتخاذهم أولياء؛ لأن أعداء الله تعالى يصُدُّون عن المسجد الحرام، ويُحاربون الله ورسوله ﷺ، ويقتلون المؤمنين والمؤمنات، وهم لم يتوبوا من إجرامهم، فهم أعداء الله؛ فموالاتهم والبَوْح بالأسرار لهم خيانة لله؛ لأنهم عدو لله، وهي خيانة للنفس؛ لأنهم أعداؤكم.

ومعنى ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: لا تجعلوا مَن عادى اللهَ ورسولَه وعاداكم وليًّا حَمِيمًا صديقًا تبوحون له بالأسرار توددًا وتحبُّبًا إليهم[1].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: **وألقى الشيء**: إذا رمى به، فصار المعنى هنا: ترمون إليهم بالوُدِّ وبالسِّرِّ على غير تفكُّر، وأحيانًا ربما يصدر من المرء شيء دون تفكير، فإذا فكَّر تعجب كيف صدر منه ذلك الفعل المشين؟! فهو إشعار بأن ما وقع كان من غير تأنٍّ ولا تحرٍّ ولا تخطيط؛ بل هي خاطرة عاجلة لم تأخذ حقها من النظر والتحرير وتقليب وجوه الرأي، **والمودة** هي: الحُب[2]، **والمقصود**: ظاهر المودة المتمثِّل في إخبارهم بما همَّ به النبيُّ ﷺ من الفتح.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾: فيه تذكير بأنهم يعلنون كفرهم بالحقِّ الذي تؤمنون به، وليس هذا فحسب، بل و﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، فقد أخرجوا النبيَّ ﷺ من مكة وأخرجوكم أنتم منها[3]، وحاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نزلت هذه الآيات بسببه مهاجر، فقد أخرجوا المسلمين بالتضييق عليهم ومحاصرتهم واضطرارهم إلى الهجرة، وبمنعهم من العبادة، ومنعهم من إظهار دينهم، وهمُّوا بقتلهم، وقتلوا

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٣).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٦٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٦٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٥٣) «و د د».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٥).

منهم مَن قتلوا، والنبيُّ ﷺ كان يقول وقت خروجه منها: «**والله، إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجتُ**»[1].

فهكذا كان معنى الإخراج، وأنه ليس طردًا؛ ولكنهم حاصروه ﷺ وحاصروا المؤمنين معه، حتى اضطروا للبحث عن مناخ مناسب للدعوة وتأسيس الدولة[2].

﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: أخرجوكم بسبب الإيمان[3]، وحاربوكم في دينكم، ومنعوكم من الصلاة عند الكعبة. ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾: وهذا هو الواقع أنه ما أخرجهم دنيا؛ بل هم تركوا الدنيا وراءهم وخرجوا من مكة؛ جهادًا في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته.

وصدَّر هذه الجملة بـ﴿إِن﴾ التي هي أداة للشرط، يعني: إذا كنتم خرجتم، وكأنه جعله محل تردد واختبار.

والمعنى: ما دمتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فكيف تُسِرُّون إليهم بالمودة، وتفشون إليهم هذا السِّر[4]؟!

﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾: أي أعلم ما أخفيتم من أمر الكتاب عن النبي ﷺ، وما أخفيتم من الإيمان في قلوبكم، وأعلم أن ما وقع منكم لم يكن كفرًا بعد

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧١٥- ١٨٧١٨)، وعبد بن حميد (٤٩١)، والأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ١٥٤)، والدارمي (٢٥٥٢)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٥١٤)، والترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٣٨)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧، ٢٨٠، ٤٣١) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢١- ٢٣)، و«طرح التثريب» (٦/ ٥٠).

(٢) ينظر: «رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص١٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٧)، والمصادر السابقة.

الإسلام، ولا رغبة في القضاء على الدِّين؛ ولكنه طمع في مصالح الدنيا لم يحالفه التوفيق، ولم يرع حرمة الأمانة وحفظ السِّر[1].

وفي التذكير بالعلم الإلهي لكل خافية ومعلنة ترغيب وتحفيز للتوبة والإنابة، وترهيب من الفعل وما يصاحبه من ضعف نفسي وعزوب عن المراقبة الإلهية وغفلة عن مقتضاياتها.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: فسمى الفعل: «ضلالًا عن السبيل»، ولم يتساهل فيه أو يجعل العذر مانعًا من توصيفه المستحق، كما لم يصفه بأنه كفر ورِدَّة.

وهذا الخطاب بعد حدوث الفعل ليس دعوة إلى الجَدَل أو التهرب؛ بل هو تذكير بخطورة الأمر، ودعوة إلى التوبة من هذا الجُرم العظيم، ولذا تاب حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مما فعل، واعتذر إلى الله ورسوله والمؤمنين، وفي ذلك دعوة للآخرين أَلَّا يفعلوا، وإذا وقعوا في كبيرة أن يتوبوا.

وفيه إشارة إلى أن «الولاية» أنواع:

لقد ذكر الله تعالى عن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «المودة» في موضعين: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، و﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، واعتُبر هذا ضلالًا عن سواء السبيل؛ ولكن لم يعدّه كفرًا، وجعل حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عداد الذين آمنوا، واعتذر له عنه الرسول ﷺ بأنه شهد بدرًا، والبدريون مشهود لهم بالجنة.

فولاية الكفار منها ما هو كفرٌ؛ وهو أن يواليهم لدينهم؛ لأنه أحبَّ دينهم وفضَّله على دين الإسلام.

ومنها ما هو معصية؛ مثل: أن يواليهم ويظاهرهم على المسلمين لمصلحة خاصة، كما في قصة حَاطِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع طُمأنينة قلبه بالإيمان، وقد يرى أنَّ ما

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٠٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٨).

يفعله ليس مؤثِّرًا في النتائج النهائية للمعركة، فهو ينفعه ويدفع عنه، وضرره على المسلمين قليل أو معدوم، بالنظر إلى معطيات النصر الكثيرة المتوفرة لهم، فهذا جرم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب وإثم وضلال عن سواء السبيل.

ويدخل في هذا الجاسوس الذي يتجسَّس على المسلمين، فهو مرتكب جُرمًا عظيمًا؛ ولكنه لا يكفر، وهل يُقتل؟ فيه خلاف بين الفقهاء[(١)].

والصواب أن ذلك إلى الإمام يُقدِّر ما هو الأصلح في شأنه.

وتأمل كيف أن حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما سُجن ولا عوقب إلا بهذا اللَّوم، وحسبك بهذا تأنيبًا وتأديبًا!

* ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾: أي: هؤلاء الذين كتبتم إليهم وكشفتم لهم بعض أسرار المسلمين، لا تظنوا أنهم سوف يرقبون فيكم بذلك إلًّا وذِمة، سوف يُظهرون لكم العداوة[(٢)].

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ﴾: أي: يمدوا إليكم، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: بالضرب والقتل، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾: أي: بالسَّبِّ والشتم والتعنيف[(٣)]، ولن يلتفتوا إلى ما قدمتم لهم أو خدمتموهم، ليس هذا فحسب، بل ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

---

(١) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥/ ١٦٣- ١٦٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ٦٧)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (١٨/ ١٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٤٥)، و«فتح الباري» (١٢/ ٣١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤١٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٩).

(٣) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٨٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٠).

وقد جاء التعبير في أول الآية وآخرها متغايرًا؛ ففي أولها عبَّر بالفعل المضارع: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾، وفي آخرها عبَّر بالماضي، فقال: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ لأن مودتهم الكفر ليست جديدة ولا مرهونة بأن يثقفوكم، وإنما هي أصلية راسخة عندهم قبل أن يظفروا بكم وبعد الظفر[1]، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

* ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣﴾:

الوقف يحتمل أن يكون على ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾، ثم الجملة التي بعدها مستأنفة: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، ويحتمل أن يكون الوقف على قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فعلى الثاني يكون المعنى: أنها لن تنفعكم يوم القيامة[2]، هذا وجه.

وعلى الأول يكون المقصود: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ أي: مطلقًا، ثم قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ جملة مستأنفة، أي: أن الله يفصل بينكم يوم القيامة[3]، وليس المقصود بـ«الفصل» هنا «الحُكْم»، وإنما المقصود: التفريق؛ بأن كل أحد مشغول بنفسه[4].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: أن ما عملتَ يا حاطب، وما أسررتَ وما كتبتَ وما أرسلتَ فالله تعالى يعلمه[5].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٥) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨).

* ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾:

الأُسوة هي: القدوة[1]، وهو درس للمؤمنين، ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، وإبراهيم أبو الأنبياء، وأبو الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قويًّا في الحقِّ صادعًا، وقوته مما عرفه العرب والعجم والروم والهند وغيرهم، حتى إن الهنود عندهم عبادة البراهمة، يقال: إن أصلها من اسم إبراهيم، ثم تحرَّف الاسم، وضلت العقيدة[2]!

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مثالًا في القوة والصبر والتحمل، وهو من أولي العزم من الرسل، وقصته مبسوطة في مواضع كثيرة، كما في «سورة هود»، و«سورة الأنبياء»، و«سورة الصافات»، وفيها جرأته على قومه وتكسير الأصنام، دون اكتراث بهم وبوعيدهم، مع كونه شابًّا لا سند له من الناس!

جعله الله لنا أُسْوَةً حَسَنَةً في مصارمته لقومه، مع أنه لم يكن معه سوى ابن أخيه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وزوجته سارة، كانوا ثلاثة فقط، فأشاد الله بهم وجعلهم قدوة للمؤمنين عبر العصور.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾: وهذا موضع القدوة والأُسوة؛ وهو البراءة من أعداء الله[3]. ولم يقع منهم هذا لأول وهلة من الرسالة؛ بل صبروا على قومهم ودعوهم بالحسنى والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فلما تبيَّن لهم أنهم أعداء

---

(١) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٨/ ٦٣٥) «أ س و»، و«النهاية» (١/ ٥٠) «أ س ا»، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٧).

لله كاشفوهم بالعداوة، ولقد وصل بهم الحال إلى أن يوقدوا النار لإحراق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والقضاء عليه، فلما ظهرت عداوتهم ويئس من إسلامهم وأعلنوا الحرب على الله وعلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ صرَّح لهم بقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي: من أفعالكم، من كفر ومحادَّة لله[1].

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من الأنداد والأصنام والمعبودات المختلفة، كالكواكب وغيرها. واستثنى اللهَ وحده[2].

وهل كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره، أو يعبدون الأصنام فقط؟ يحتمل.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: ظهر واستمر[3]، ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، وهذه هي الغاية.

درس في البراءة من المشركين الذين يحاربون الله تعالى ورسوله، ويخرجون المؤمنين ويعلنون عداوتهم وحربهم، فلا بد أن يكون المسلمون بُرآء منهم، وأن يفاصلوهم مفاصلة واضحة لا لبس فيها.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾، وهذا استثناء، أي: ليس لكم في هذا المستثنى قدوة ولا أسوة[4]، والمقصود: وعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه أن يستغفر له، فنهاه الله تعالى عن ذلك واستثنى هذا من موضع القدوة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع منه هذا الأمر في شأن أبيه، ووقع من حاطب بن أبي بَلْتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما وقع في شأن قريش، يدل على أن تمازج المجتمع وتداخل

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٤٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤).

(٣) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٩/ ٤٩٧)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٧).

العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فيحتاج الأمر إلى كثير من الإيضاح في ضوابط هذه العلاقة؛ ولهذا تكفلت السورة بإيضاح الأمر وتجليته وبيانه.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وكأن هذا من تمام قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه أنهم أعلنوا توكلهم على الله وإنابتهم، أي: رجوعهم إليه، وأن إليه المصير[1].

* ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾:

واستمروا في دعائهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، دعوا ربهم أَلَّا يجعلهم فتنة للكافرين، **ومعنى الفتنة يحتمل وجوهًا**[2]:

الأول: أن يتسلطوا عليهم فيفتنوهم عن دينهم.

الثاني: أن يقع عليهم عقوبة من الله أو عقوبة بأيدي الكافرين، فيكون في ذلك فتنة للذين كفروا؛ أن لو كان هؤلاء على خير ودين، وكان الله راضيًا عنهم ما أوقع فيهم هذه المصيبة، ولَمَا سَلَّطَ عليهم الأعداء.

* ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لتعزيز جانب التأسِّي بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾، وفيه إلماح إلى أن المرء لو فاته عَرَض من الدنيا أو لحقه شيء من الأذى بسبب صدق ولائه، فالعوض عند الله، وعليه أن يكون رجاؤه في الله وفي ثواب الآخرة، وما عند الله خير وأبقى.

ويحذِّر أن يتكرر ما حصل من حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٨)، والمصادر السابقة.

ٱلْحَمِيدُ﴾.

والتولِّي يحتمل معنيين:

١ – أن مَن يعرض عن الله وعن وعده ووعيده ووعظه ويكرِّر الخطأ الذي صدر منه؛ فإن الله تعالى هو الغني عنه، الحميد للطائعين[١].

٢– أن يكون المعنى: مَن يقع منه التولِّي للكافرين والإفشاء إليهم بالأسرار، فهذا معرَّض للعقوبة[٢].

وفيما تقدم درس في وجوب البراءة من أعداء الإسلام، وممن يحاربون الله ورسوله، وفيه وجوب وضع الخطأ في نصابه، وألَّا يبخس المخطئ حقه، فلا يتهاون به، ولا يجار عليه.

وفيه بيان طريقة التعامل مع المخطئين في المجتمع، فمن الخطأ أن يُلاحق الناس بالعيب أو العار، أو التعيير في المواقع والمجامع والمجالس، والتحذير من التشهير والتذكير بالخطأ- ولو بعد سنوات- فمن المروءة والأخلاق والشهامة والدين أن يوقف الأمر عند حَدٍّ معين، وأن يَكُفَّ الناس ألسنتهم عن الوقيعة والقيل والقال والشتيمة ونقل الحديث والشماتة، وقد يكون بعض الذين يعيِّرون ويشمتون يقعون في مثل هذه الأخطاء أو ما هو شرٌّ منها.

* **﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾:**

تأمل لطفه سبحانه في قوله: ﴿عَسَى﴾، و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة[٣]، وفي ظاهرها الاحتمال القريب أن يجعل الله بينكم أيها المؤمنون وبين الذين عاديتم،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ١٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٦)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٨)، و«الإتقان» (٢/ ٢٤١).

ونهاكم الله عن ولايتهم بالباطل، أن يجعل بينكم مودة بالحقِّ سببها الإسلام[1]، وفي هذا دعوة إلى أَلَّا يُفرِّط الإنسان ويبالغ في العداوة، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[2]. ولعل عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ هذا المعنى من هذه الآية الكريمة.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾ على ذلك، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم إذا تابوا وأنابوا، وغفور رحيم لكم أيضًا فيما صدر منكم ثم تبتم منه[3].

* ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾:

هذه الآية توضِّح الفرق بين المحاربين وغيرهم، وأن الولاء المنهي عنه في الآية يُقصد به المحاربون المعادون لكم، وتوضِّح أيضًا الفرق بين المعاملة الحسنة الطيبة، وبين الموالاة الممنوعة، فالله تعالى لا ينهى المسلمين عن الإحسان والبِرِّ والقسط للقبائل التي تميل للمسلمين، ولا تحاربهم ولا تظاهر عليهم، مثل: خُزاعة ومُزَيْنة وأسْلَم وجُهَيْنة وغِفَار الذين كانوا مشركين؛ لكن كان هواهم مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يحبون أن ينتصر على قريش، فهؤلاء لا ينهاكم الله عنهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٢١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٤٨٤)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٢٢٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٣٩٤)، والطبري في «تهذيب الآثار» (٣/ ٢٨٤- مسند علي)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٦٨، ٦١٦٩).

ورُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الترمذي (١٩٩٧)، وغيره، ولا يصح رفعه. ينظر: «علل الدارقطني» (٨/ ١١٠)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٢٤٨)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٦٤- ٤٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٢).

وفي هذا درس لمَن يجعلون الكفار في ميزان واحد في التعامل، وهم ليسوا كذلك، فمنهم المعتدي المبارز بالعداوة والصدِّ عن سبيل الله، ومنهم المسالم المحايد، ومنهم المدافع عن حقوق المستضعفين من المسلمين.

وفي العصر الحاضر منهم مَن يكون متعاطفًا مع قضايا العروبة والإسلام، وقد يكون في سُدَّة الحكم والسياسة، أو في ميدان الإعلام، أو في مجال الفكر والثقافة، ويتحمل العناء بسبب وضوح آرائه ومدافعته عن الحق، وقد يُحرم من كثير من الميزات التي يتمتع بها غيره، فمثل هؤلاء يجب أن يُحتفى بهم، وتمدُّ معهم الجسور، ويُدعوا إلى المواسم والمناسبات المختلفة، ويُشجَّع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.

وقد جعل الله تعالى في الزكاة سهمًا للمؤلَّفة قلوبهم، ممن يُطمع في إسلامهم، أو إسلام مَن خلفهم[١].

على أنه ليس المال فقط هو الذي تؤلَّف به قلوب الناس؛ بل الخُلُق الحسن، والكلام الطيب، والصبر، وحسن المعاملة، والحفاوة والتقدير.

وقد أورد المفسرون في هذا الشأن قصة أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إذ جاءتها أمها بالمدينة وكانت مشركة، فسألت أسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالت له: إن أمي قدمتْ وهي راغبةٌ، أفأصلها؟ قال: «**نعم، صِلِي أُمَّك**»[٢]. فأمرها بالصلة وحسن المعاملة.

وكذلك الآباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وكذلك الزوجة، فإن للمسلم أن يتزوج كتابيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، مع ما يقع بين الزوجين من المودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم: ٢١]، وكما في قصة أبي طالب الذي أحبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحزن على موته، فأنزل الله تعالى

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠، ٥٩٧٩)، ومسلم (١٠٠٣) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] [القصص: ٥٦]، **ففرَّق الله بين الطائفتين، وشرَّع لغير المحاربين أمرين:**

١- البِر؛ وهو: الإحسان إليهم بالقول وبالفعل.

٢- القِسْط، وهو: العدل[2].

وفي الآية حثٌّ عليهما؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إن العدل قيمة مطلقة، ليس فيها استثناء، حتى مع الأعداء، فالعدل واجب في كل الأحوال[3].

ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

* ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾:

فمَن وُجدت فيهم هذه الخصال الثلاث أو بعضها؛ بأن قاتلوكم في الدين، أو أخرجوكم من دياركم، أو ظاهروا على إخراجكم، فواحدة من هذه الجرائم تكفي لأن يكونوا محل النفي والعداوة، وتحريم البِرِّ والتولِّي، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وادَّعى بعضهم أن الآية منسوخة[4]، **والصحيح** أنه ليس فيها نسخ، وأنكر الطبري وعامة المفسرين دعوى النسخ؛ لأن الآية متأخرة النزول، نزلت في السنة الثامنة من الهجرة أو قريبًا من ذلك، ولم يأت بعدها ما ينسخها، بل هي توضيح لما

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٣). وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٦٨) «و ز ن».

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للكيا الهراسي (٣/ ٦٠)، و«تفسير الرازي» (١١/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ١١٠).

(٤) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٣/ ٧١- ٧٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٣)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٥٩- ٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢١).

قبلها من الآيات[1].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾:

سبب هذا السياق أنه بعد صلح الحُدَيْبِيَة الذي جرى فيه الصلح على هدنة بين المسلمين والكفار عشر سنين، ظهرت ظواهر جديدة، منها: أن بعض المسلمات من مكة هاجرن فرارًا بدينهن إلى المدينة، ووقع بسبب ذلك إشكال لمعارضته لشرط من شروط الصلح؛ وهو أن مَن يأتي إلى المسلمين فيجب رده إلى الكفار، فنزلت هذه الآيات جوابًا عن هذا الإشكال[2]، وبيَّنت أن النساء لا ترد، ولكن تمتحن؛ بأن تُقسم أنها ما خرجت من مكة عشقًا لرجل، ولا كرهًا لرجل، ولا طلبًا لدنيا، وإنما خرجت إيمانًا بالله ورسوله، فإذا حلفت على ذلك صُدِّقت، وإذا دلَّت قرائن الحال على صدقها حتى بدون حلف قُبل منها ذلك ولم تُرجع إلى مكة[3].

وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إشارة إلى أنه ليس لكم إلا الظاهر[4]، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ بما ظهر لكم من قرائن ودلائل وبينات[5]، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٣).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٢٢- ٤٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٠٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٦).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٢).

الوثنيين بمكة، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، فالمسلمة لا تحلُّ للمشرك الوثني، ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تأكيد للمعنى[1]، مثل قول: «لست منك، ولست مني». فأمرهم ألَّا يعيدوهن إلى أزواجهن الكفار.

وهل هذا نسخ للعهد الذي بينهم وبين المشركين؟ هذا احتمال[2]، **والأقرب**- والله أعلم- أن النساء لم يدخلن أصلًا في منطوق الشرط الذي تضمَّنه صلح الحُدَيْبِيَة، فإن ظاهره كان قاصرًا على الرجال ممن تتقوَّى به الشَّوْكة، وربما لم يكن هذا مفطونًا له عند قريش؛ ولذلك كان العقد مبهمًا، ولم تكن النساء داخلة فيه بشكل صريح، وتفسيره محل اختلاف، والله تعالى بيَّن أن المرأة لا مدخل لها في عقد الصلح المبرم.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾، وهذا من مقتضى الأمانة والعدل؛ أن المرأة المسلمة التي هاجرت يُعطَى زوجها المهر الذي أنفقه على زوجته[3].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: لا بأس عليكم أيها المسلمون أن يتزوج أحدكم بامرأة من هؤلاء المهاجرات بعدما تخرج من عدتها؛ لأنها لم تعد حِلًّا لزوجها الأول، فلكم أن تنكحوهن[4] ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وفيه إشارة إلى أن المال الذي أُعطي لزوجها مقابل ما أنفق لا يعني أن تُنكح بدون مهر، وإنما هذا تعويض لزوجها الكافر في مكة، وتُعطَى هي مهرًا لنفسها مقابل علاقة الزوجية الجديدة[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٢).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٧١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢١)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٤).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٩).

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: فالزوجات الكافرات المشركات اللاتي هاجر أزواجهن وبقين على دينهن بمكة ليس لكم أن تستمروا على نكاحهن[1].

﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: لكم أن تشترطوا على مشركي مكة أن تأخذوا منهم ما أنفقتم على أزواجكم المشركات اللاتي بقين عندهم من باب المعاملة بالمثل[2].

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ أي: بحكم العدل بينكم وبينهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

* ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾:

فما فاتكم وخسرتموه من نسائكم المقيمات بمكة واللاتي ذهبن إلى الكفار، فمن باب المعاقبة والمعاملة بالمثل، فالحكم هو ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ﴾ أي: المسلم الذي ذهبت زوجته عليه وبقيت في مكة أعطوه مثل ما أنفق أيضًا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[3].

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾:

وهذه هي البيعة التي كان يأخذها النبيُّ ﷺ على المؤمنات[4]، **والمعنى**: إذا جئن مهاجرات يُبَايِعْنَكَ، **والبيعة** هي: العقد، وقد تُطلق على صفقة اليد، وتكون في الأمر العام، وتكون على الإسلام[5].

وقد بايع النبيُّ ﷺ النساء في مكة فيما بعد على مثل هذه البيعة، وكانت معهم

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٢٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٤- ٩٥)،و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨٩- ٥٩٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٩)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٩/ ٥٢١).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٢١٥)، و«صحيح مسلم» (١٨٦٦).

(٥) ينظر: «الكليات» للكفوي (ص٥٦٣)، و«التعريفات الفقهية» (ص٤٩).

هند بنت عُتبة زوجة أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما قال النبيُّ ﷺ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ اعترفت بذلك وآمنت به وبالوحدانية، وكذلك النساء بايعنه على ذلك.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾: فقالت هند: يا رسولَ الله، إن أبا سفيانَ رجلٌ شَحيحٌ- وزوجها موجود- لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، إِلَّا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل عليَّ في ذلك من جناح؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بَنِيك**»[1].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: ولما قرأ هذا رسولُ الله ﷺ قالت هند: يا رسولَ الله، وهل تزني الحرة[2]؟ لأن الزنى في العرب كان في الجواري دون الحرائر غالبًا.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: وهنا قالت هند: ربيَّناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، وأنتم أعلم بهم[3]. فتبسم الرسول ﷺ ولم يغضب لقولها، وهذا من سعة حلمه ﷺ[4].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: **والبهتان** معروف، وهو: أشدُّ الكذب[5]، كما قال ﷺ: «**إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبْتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ**»[6].

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١٠/ ٩، ٢٢٥- ٢٢٦)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٤٦٠)، و«تاريخ دمشق» (٧٠/ ١٨٠- ١٨٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٦١- ٤٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٨- ٩٩)، و«البدر المنير» (٨/ ٢٨٩، ٥٩٥- ٥٩٦)، و«طرح التثريب» (٧/ ٤٧)، و«فتح الباري» (٩/ ٥١٠- ٥١١)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٠٠)، و«الإصابة» (١٤/ ٢٦٧- ٢٦٨).

والحديث أخرجه البخاري (٢٢١١، ٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٧٥٤)، وفي إسناده ضعف، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٤٦٠) (٧٨٦٨)، وابن عساكر (٧٠/ ١٧٧- ١٧٨)، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٠)، و«زاد المسير» (٥/ ١٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ١٢٠)، (١٨/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٨).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (١٠/ ١٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٥٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والظاهر أن المقصود بالبهتان هنا معنًى خاص، وقد قرأتُ بعض ما كتبه علماء التفسير، وترجَّح لي أن المقصود هنا ليس مجرد كلام يُختلق، وإن كان كثير من المفسرين قالوا: كل الكلام المختلق والكذب والإفك داخل في هذا.

ولا مانع من إرادة هذا المعنى؛ لكن يتأكد النفي والنهي عن بهتان خاص؛ وهو أن تُدخل المرأة على زوجها مَن ليس من ولده؛ بأن تحمل من غيره، أو أنها لا تحمل فتدَّعي أنها حملت وولدت، فتنسب ولد غيرها إليها وإلى زوجها[1].

﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ أي: فيما أمرتهن به من ألوان المعروف، بما في ذلك فعل الطاعات وترك المعاصي[2].

ومن هنا أخذ النبيُّ ﷺ عليهنَّ أَلَّا يَنُحْنَ.

ومن الطريف أن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أخذ عليها ذلك قالت: يا رسولَ الله، أَسْعَدَتْني فلانةُ، فأريد أن أَجْزِيها. فما قال لها النبيُّ ﷺ شيئًا، فانطلقتْ ورجعتْ فبايعها[3].

هذا أيضًا يدل على السماحة، وعلى الطيبة، وعلى الخلق العظيم، وكما قال النبيُّ ﷺ: «**استقيمُوا، ولن تُحْصُوا**»[4]. وفيه أن شدة التدقيق كثيرًا ما تضر ولا تنفع، والسماحة كلها خير وبركة.

﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾: والنبيُّ ﷺ كان يبايعهن كلامًا، وما مسَّت يدُه يدَ امرأة قطُّ[5]، وكان يقول: «**إني لا أصافحُ النساءَ، إنما قولي لمائة امرأةٍ كقولي لامرأةٍ**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٠)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٢٩- ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٧).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٠٦، ٤٨٩٢، ٧٢١٥)، و«صحيح مسلم» (٩٣٦).

(4) أخرجه الطيالسي، وأبو عبيد في «الطهور»، وأحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾.

(5) أخرجه البخاري (٤٨٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

واحدةٍ»[١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾:

ختم السورة- كما هو المعتاد في سياقات القرآن- بما ابتدأت به، وهو موضوع التَّوَلِّي والولاية، وتأكيد النهي عن تولِّي هؤلاء القوم.

فيحتمل أن المقصود: اليهود[٢]؛ لكثرة وصفهم بأن الله غضب عليهم، كما في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، **فيكون المعنى:** لا تتولَّوْا هؤلاء اليهود الذين هم وإن كانوا أهل كتاب ويؤمنون بالآخرة، إلا أنهم يئسوا منها ومن الفوز بها[٣].

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الوثنيون المشركون من البعث[٤].

أو يكون المعنى: كما يئس الكفار المقبورون الأموات الذين شاهدوا وعاينوا وعرفوا أنه لا حظَّ لهم[٥].

أو يكون المعنى أعم من ذلك، ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يشمل التأكيد على عدم تولِّي الكافرين والوثنيين المشركين، ويكون معنى يأسهم من الآخرة:

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٢٦)، وأحمد (٢٧٠٠٦- ٢٧٠١٠)، والترمذي (١٥٩٧)، والنسائي (٧/ ١٤٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥٩٩)، وابن حبان (٤٥٥٣)، والحاكم (٤/ ٧١) من حديث أُميمة بنت رُقَيْقة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٢٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٢٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٠).

أنهم لا يؤمنون بها، أو أن الله تعالى أيأسهم منها، فلا حظَّ لهم فيها، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: من الأموات المقبورين[1].

فرجع أمر السورة إلى تأكيد معنى الولاية بين المؤمنين، وتحريم موالاة الكفار المحاربين، ووجوب التعامل بالخُلق الحسن والعدل والإنصاف، وذكر حكم النساء القادمات إلى النبي ﷺ من مكة، والإشارة إلى شروط بيعة النساء، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ الصَّفِّ

❊ **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الصَّف**»[1]، ووجه هذه التسمية وقوع لفظ: ﴿صَفًّا﴾ فِيهَا، وهو صَفُّ القتال.

ومن أسمائها: «**سورة الحواريين**»[2]؛ لذكر الحواريين فيها.

وسمَّاها بعضهم: «**سورة عيسى**»[3].

❊ **عدد آياتها:** أربع عشرة آية بلا خلاف[4].

❊ **وهي مدنية** عند الجمهور[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٨)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥١)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧١).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٧٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٣٣)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٣/ ١٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٥)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤٢٤)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٠)، و«الإتقان» (١/ ٥٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٢).

وقيل: إنها مكية، ونُسب هذا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١].

وقال بعضهم: إن فيها المكي والمدني[٢].

والصواب أنها مدنية[٣].

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾:

عبَّر بلفظ الماضي؛ إشارة إلى عَرَاقة التسبيح[٤]، وقِدَم الرسالات التي أرسل الله تعالى إلى عباده، حتى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نبيٌّ مكلَّمٌ[٥].

واختار اسم ﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾ مراعاةً لسياق السورة، وإشارة إلى عِزَّة وغلبة الذين يطيعونه، كما قال في آخر السورة: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ۝١٤﴾، فمن عِزَّته أن يُعزَّ أولياءه، ومن حكمته أنه يرسل الرسل تترا[٦]، ويجعل لكل رسول شريعة وحُكمًا، كما أرسل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مصدِّقًا لما بين يديه، ثم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمًا للرسل ومصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾:

ظاهر النداء العتاب، وفي هذا تحذير من حال اليهود الذين لا يفعلون ما يقولون، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون[٧].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٥) كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٢١٥٤٦)، وغيره، وتقدم تخريجه في أول «سورة نوح».

(٦) كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. أي: يتبع بعضها بعضًا. ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٧٥).

(٧) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥٧٥)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٠)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٠٥).

وقد ورد في سبب نزولها- كما في حديث عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عند** أحمد، والترمذي- أن جماعةً من الصحابة اجتمعوا وقالوا: لو نعلمُ أيَّ الأعمال أحبُّ إلى الله لعملناه. فأنزل الله هذه السورة، وقرأها عليهم رسولُ الله ﷺ[١].

فأُخبروا أن أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى الجهاد.

قال المفسرون: كان المسلمون يقولون: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالَنا وأنفسَنا. فدلَّهم اللهُ على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ...﴾. فابتُلوا يومَ أُحُدٍ بذلك، فولَّوْا مدبِرين، فأنزلَ الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

وعلى هذا السبب فالمعنى: لِمَ تَعِدُون بأمر ولا توفون به؟[٢]

ومن هنا أخذ بعض أهل العلم وجوب الوفاء بالوعد من الآية الكريمة[٣].

واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ، ومنها: إذا وعد أخلفَ**»[٤].

والعلماء متفقون على وجوب الوفاء بالوعد ديانةً، إذا لم يكن حرامًا، واختلفوا في الإلزام به قضاءً، أي: إذا رُفعت فيه دعوى مطالبة بالإلزام بالوعد، فذهب مالك إلى وجوبه إذا ترتب عليه التزام[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٨٨، ٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩)، وابن حبان (٤٥٩٤)، والثعلبي (٩/ ٣٠٣)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٤/ ٢٩٠)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤٣٦) (٤٠٩)، والحاكم (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٦- ٤٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٥- ١٠٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٤٥)، و«لباب النقول» (ص١٩٥)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٥).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٥٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٥)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) ينظر: «الفروق» للقرافي (٤/ ٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧).

وقيل: يجب الوفاء بالوعد قضاءً، فلو قلت لأحد: تزوَّج وأعطيك عشرة آلاف ريال، فإنه يجب عليك الوفاء؛ لأن عقد الزواج يترتب عليه التزام بالنفقة على الزوجة والمهر ونحو ذلك من الحقوق المالية.

وجمهور أهل العلم يرون أنه لا يجب الوفاء بالوعد قضاءً- أي: عند التقاضي[(١)]- لكن لا يجوز أن يتعمَّد أن يَعِدَ ويخلف، ولو وعد ثم طرأ عليه أن يخلف لعارض فلا حرج عليه، والموعود به لا يلزم إلا بالقبض، كالهبة لا تلزم إلا بالقبض[(٢)].

وقيل في سبب النزول: إن بعض الناس كان يقول: قاتلتُ. ولم يقاتل، وصليتُ. ولم يصلِّ[(٣)].

حتى ورد أن صُهيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل رجلًا، فأعطاه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَلَبه، فجاءه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: إن فلانًا يدَّعي أنه قتله. فذهب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحلف أنه هو الذي قتله، فنزلت هذه الآية[(٤)]. فعلى هذا الوجه فهي تحذيرٌ من الادِّعاء والكذب.

وثَمَّ معنى يلتبس عند بعض الناس، ويظنونه داخلًا في دلالة الآية؛ وهو أن يأمر الإنسان بالشيء، ثم لا يفعله؛ كمَن يحثُّ على قيام الليل أو الصيام أو عمل الخير، ولا يفعله، ومثله: أن ينهى عن الشرِّ والمنكر، ويفعله.

وهذا غير داخل في معنى الآية؛ لأن الأمر بالخير خيرٌ، ولو لم يفعله، وعلى المؤمن أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وأن ينهى عن المنكر ولو قارفه، وقد نقل القرطبي عن بعض الأصوليين قولهم: «فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٤/ ٧٥).

(٢) ينظر: «الفروع» (١١/ ٩٢)، و«أسنى المطالب في شرح روضة الطالب» (٢/ ٤٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٨).

ينهى بعضهم بعضًا»[1]. ويكاد أن يجمع العلماء على أنه واجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وينهى عن المنكر ولو وقع فيه[2].

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، فهو دليل على أن من القبيح أن يأمر الإنسانُ الناسَ بالبِرِّ ثم ينسى نفسه فلا يأمرها به، ولا يعني هذا أَلَّا يأمر الناس بالمعروف، فكونه لا يفعل المعروف ولا يأمر غيره به شرٌّ من كونه يأمر غيره بالمعروف ولا يفعله، كما أن المأمورات متفاوتة؛ فمنها الفرائض والواجبات والمندوبات، وقد يكون في المرء نقص في بعض المعروف واجتهاد مشهود في غيره من الصور الأخرى[3].

* ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾:

المقت: أشدُّ البغض[4]، والآية تفيد بأنه مقت كبير عظيم عند الله أن يقع ما توعَّد عليه في الآية، وإذا كان البغض من الناس شاقًّا على نفس أحدنا، فكيف ببغض الله للعبد؟! وهذا يقع حين تدَّعي شيئًا لم تفعله، ولا يجوز لك بحال أن تحبَّ أن تُحمد بما لم تفعل، ولا تعد وفي نيتك أَلَّا تفي.. هذه قيم أخلاقية يربِّى الناس عليها.

* ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾:

مقابل **المقت** العظيم للمُدَّعِين ما ليس فيهم ذكر الله تعالى **الحب** لنقيضهم من المؤمنين الباذلين نفوسهم في سبيله؛ ذودًا عن حِياض الدين، وحفظًا لمقام الإسلام، ودفعًا لغوائل الشر والعدوان عن الحقِّ وأهله، وليس في سبيل الدنيا وشهواتها.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٧)، و«مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣٢٠٩).

(٣) ينظر للمؤلِّف: «رسائل الغرباء»: الرسالة الثالثة: «دفع الغربة»: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» (ص٣٧٣).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٥١- ٥٢)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٧٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٧٢) «م ق ت»، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٥).

وقوله: ﴿صَفًّا﴾ أي: صافِّين، أو مصطفِّين[1]، والصَّفُّ يكون في الصلاة، ويكون في الحرب[2]، وهو إشارة إلى النظام واجتماع الكلمة والراية، وأن النظام والانضباط جزء من القيم الإسلامية؛ يكون في العبادة التي يقف الناس فيها أمام ربهم، ويكون في الجهاد الذي هو من أعظم شرائع الإسلام وذِروة سَنامه، وهو كذلك في سائر شؤون الحياة، يعلِّم الناس الانضباط ووحدة الكلمة والتقارب واجتناب أسباب الفرقة؛ ولهذا شبههم بـ«البنيان المرصوص»، فهم بشرٌ؛ لكنَّ أكتافهم وأجسادهم متراصة متلاحمة كالبنيان الذي لا تجد فيه ثغرة ولا فجوة ولا اعوجاجًا[3]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن المؤمنَ للمؤمن كالبُنيان؛ يَشُدُّ بعضُه بعضًا**»[4]. وقال: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد**»[5].

وقد وصف الله سبحانه صحابة رسوله ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ويجوز أن يكون معنى «المرصوص»: الذي وُضع عليه الرصاص، كما ذكر الفرَّاء، وغيره من أئمة اللغة، واختاره ابن العربي، وذكر مباني في الشام وفي غيرها قد وضع فيها الرصاص، فكانت من أقوى ما يكون من البناء[6]، وفي ذلك إشارة إلى قيمة عظيمة من قيم الوحدة بين المسلمين وتقارب قلوبهم، وأن الله تعالى يحب هؤلاء، ومفاده: أن الله تعالى لا يُحِبُّ أولئك الذين ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٦).

(٢) وفي «المسند» (١١٧٦١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ يضحكُ اللهُ إليهم: الرجلُ يقومُ من الليل، والقومُ إذا صفُّوا للصلاة، والقومُ إذا صفُّوا للقتال**».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٥٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨١).

[الأنعام: ١٥٩].

* ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾:

ذكر تعالى أمرًا وقع لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه حين ناداهم بهذا الدعاء المحبَّب الذي يجعلهم يستجيبون له ويستمعون إليه، وعاتبهم على أذيتهم له مع علمهم برسالته، وقد آذوه في أشياء كثيرة، كما في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، وكما في قصة البقرة، وعبادتهم للعجل، وقصة دعوته لهم لدخول بيت المقدس، ولعلَّ هذا أقرب ما يكون علاقة بالآية الكريمة لما ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢] ثم قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤].

وفي هذا من سوء الخطاب وسوء الأدب مع الله ومع رسوله، ومع ذلك يتلطَّفهم فيقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾[١].

وقد بلغ من أذيتهم له أن عيَّروه عَلَيْهِ السَّلَامُ بشيء من خلقته الباطنة بما ليس فيه، كما في «الصحيحين» أنهم قالوا: «إن موسى رجل آدر». أي: أن في خصيتيه انتفاخًا[٢]، وهكذا كل قوم خُزِنَ عنهم العمل وابتُلوا بالقول يبحثون عن أي شيء حتى يكون سببًا للقيل والقال، فأذن الله تعالى أن يراه كثير من الناس بعدما خرج واغتسل وذهبت ثيابه، فرآه الناس أجمل ما كان وأحسن ما كان، وعرفوا أن هذا كان إفكًا وفرية، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كانت بنو إسرائيلَ يغتسلونَ عُراةً، ينظرُ بعضُهم إلى بعض، وكان موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **يغتسلُ وحده، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ، فذهب مرة يغتسلُ، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظرت**

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥١)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٣٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٧٧) «أ د ر»، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١٢٦)، و«فتح الباري» (١/ ٣٨٦).

بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطَفِقَ بالحجر ضَرْبًا»(١).

وعبَّر بالماضي ولم يقل: «وقد علمتم»، وإن كان هذا هو المعنى، و«**قد**» تدلُّ على التحقيق، وهو التأكيد أنكم تعلمون، ولكن التعبير بالمضارع يشير إلى تجدد العلم بتوالي الآيات والمعجزات، وقد حصل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات شيء كثير؛ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾(٢) [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما أصرُّوا على الضلال والزيف والتحايل والكذب والتحريف، جاءت العقوبة من جنس عملهم؛ فصرفهم الله عن الحقِّ، فهم لا يهتدون(٣)؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، فوصفهم بالفسق، كما قال في «سورة المائدة»: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾، وأشدُّ ما يكون الفسق حينما يكون من الأحبار الذين يعصون على بصيرة وعلم.

وفي الآيات إشارة إلى بقاء هذه الأمة، وأنها لا تزول مهما صادفها من النكبات، فإن التعبير بالفعل المضارع ﴿يُقَاتِلُونَ﴾، يدل على التجدد والتكرر مرة بعد مرة.

وفيه إشارة إلى ديمومة صراع الحق والباطل إلى قيام الساعة، فلا تزول القوى الظالمة الضالة، سواء كانت معصيتها بعلم أو بجهل أو بكفر، ولا سبيل إلى استئصالها أو زوالها، ومن شأن هذا أن يجعل المؤمن أكثر تواضعًا واعتدالًا وتكيفًا مع ما في الحياة البشرية من النقائص والأخطاء، فالأرض لن تَتَمَحْضَ للخير، ولن

---

(١) أخرجه البخاري» (٢٧٨، ٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٢).

تسيطر عليها كلمة الله تعالى في كل مكان، وكانت الشيوعية تبشِّر الناس بالفردوس الموعود، وكانت الليبرالية الغربية تتنبَّأ بنهاية التاريخ واستسلام العالم لها، فالإسلام لا يوجد فيه هذا، وإنما يوجد فيه الإشارة إلى أن الخير والشر موجودان مما يجعل المؤمن سالمًا من اندفاع غير مدروس في دعوته أو عمله أو جهاده.

* ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ٦﴾:

لم يقل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: «يا قوم»؛ لأنهم ليسوا قومه[1]، فهو يخاطب بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كانوا متعصِّبين للتوراة تعصبًا مفرطًا، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء مصدِّقًا لما بين يديه، أي: معزِّزًا ومؤكِّدًا لما سبقه من التوراة[2]؛ حتى يؤلِّف قلوبهم على القبول، وإن كان التصديق لا يعني أنه لم ينسخ شيئًا منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وعيسى صلة بين موسى ومحمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولذا قال النبيُّ ﷺ حينما سُئل: ما كان بدء أمرك؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأت أمي أنه خرجَ منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام**»[3].

والبشارة هي: الإخبار بالأمر السَّارِّ[4]، وقد بشَّر الرسلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمحمد ﷺ، حتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر تعالى في الكتاب الكريم بشارة النبي به في قوله:

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٢- ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٣)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٧٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٦٣٦)، والبزار (٤١٩٩)، وابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم (٢/ ٤١٨، ٦٠٠) من حديث العِرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطيالسي (١٢٣٦)، وأحمد (٢٢٢٦١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٠٠)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص١٠٠)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١١٨).

﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

ولذلك جاء في التوراة: «إن الحق أقبل أو تجلَّى من سَيْنَاء[١]، وأشرق من سَاعِير بفلسطين[٢]، واستعلن واستعلى في فَارَان[٣]؛ وفَارَان: جبل بمكة؛ إشارة إلى بعثة النبي ﷺ.

وفي التوراة أيضًا: «أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل جبل فَارَان»[٤]، وهو بالاتفاق جبل بمكة المكرمة، وفي هذا يقول الشاعر محمد إقبال في قصيدته[٥]:

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا ... فبَعَثْتَ نورَ الحقِّ مِنْ فارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقينَ بلَمْحةٍ ... وسَقَيْتَهم راحًا بغير دِنَانِ

أحرقتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الـ ... إيمان لا بِتَلَهُّب النيرانِ

لم نبقَ نحن ولا القلوبُ كأنها ... لم تَحْظَ من نار الهَوَى بدُخَانِ

وجاءت البشارة في إنجيل مَتَّى، وإنجيل يُوحَنَّا، ومنها: الإشارة إلى الناموس الذي يأتي بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه الخاتم، وعباراته بعضها صريح باسم النبي ﷺ: «محمد»، وبعضها تشير إلى «وادي البكاء»، وهي هنا كلمة لا تعني «البُكاء»، وإنما تعني: «البَكَا»، وقد كُتبت بالحروف الكبيرة، مما يدل على أنها اسم علم؛ إشارة إلى مكة، فهنا تحريف لاسم الوادي: وادي مكة، وهذا موجود في الأناجيل المتداولة اليوم بين أيدي الناس مع تواصيهم بكتمان الأمر، ويوجد منهم المنصفون الذين يعترفون بذلك، فضلًا عن الإشارات الكثيرة التي ليس فيها تصريح باسمه ﷺ.

---

(١) وهو مكان نزول الوحي على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) وهي جبال بيت المقدس التي بُعث منها عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) ينظر: «البدء والتاريخ» (٥/ ٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٨٩)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٥٩)، و«فتح الباري» لابن رجب (٤/ ٣٤٠)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «البدء والتاريخ» (٥/ ٣٣)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٩٠)، و«الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» (ص٢٦٥)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (١/ ٩٨).

و﴿أَحْمَدُ﴾ من أسماء النبي ﷺ، وهو صيغة مبالغة من الحمد، فهو أكثر الناس حمدًا لربه عَزَّوَجَلَّ، وهو أكثر الناس استحقاقًا للحمد[1]؛ ولهذا من أسمائه: أحمد، ومحمد، وكذلك: الماحي، والحاشر، والعاقب[2].

وبعض العلماء أوصل أسماءه الشريفة إلى تسعة وتسعين اسمًا، وبعضهم أوصلها إلى ثلاثمائة اسم، وبعضها ألقاب أو صفات، كما ذكره ابن القيم، وغيره[3].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: هل مرجع الضمير في هذا الفعل إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أم إلى محمد ﷺ؟

وهل الذين قالوا هذا القول العظيم هم قوم النصارى، أم هم مشركو العرب؟

جاءت الآية بهذا مبهمًا لتشمل الأمرين، ويعزِّز هذا قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].

* ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾:

أي: لا أحد أشدُّ ظلمًا من هذا، **ويحتمل أن يكون المقصود**: كفار العرب الذين كذَّبُوا وحي الله سبحانه[4]، وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهم يُدْعَون إلى الإسلام.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٨)، و«جلاء الأفهام» (ص١٧١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٣٢، ٤٨٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٤).

(٣) ينظر: «عارضة الأحوذي» (١٠/ ٢٨٠)، و«الشفا» (١/ ٢٢٨)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ١٧)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٢)، و«جلاء الأفهام» (ص١٧١- ٢٠٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٥٣)، و«فتح الباري» (٦/ ٥٥٨)، و«تنوير الحوالك» (٢/ ٢٦٣)، و«كوثر المعاني» (١/ ٨٣)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص٣٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٤٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٨٨).

والأقرب أن المقصود: أهل الكتاب[1]؛ وذلك لسياق الآية **أولا**، وأنه في قوم عيسى، **وثانيًا**: لأنهم الأقرب أن يقال عنهم: إنهم افتروا على الله الكذب؛ لأنهم أهل كتاب، وتمكنهم من الكتاب يجعلهم يحاولون أن يلتمسوا من كتابهم ما يدفعون به الحقَّ، ويردُّون به الصواب، ويخدعون به دَهْماء الناس، ولذا كذَّبُوا برسالة محمد ﷺ وهم يُدعون إلى الإيمان بها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: وخَتْم الآية بهذا مناسب؛ لأنهم بَلَغُوا في الظلم مبلغه؛ إذ ظلموا عقول الناس وحالوا بينهم وبين الإيمان والهدى، وحَرَّفُوا الدين السماوي، وأدخلوا عليه المفاهيم الفلسفية الفاسدة المتناقضة، وتجاهلوا تعليمات الكتب المقدسة الحقيقية.

* ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: اللام هنا للتوكيد[2]، وأي شيء يريدون إطفاءه؟ إنه نور الله! وهل شيء أعظم من نور الله؟ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فمن نور الله سبحانه ما خلقه من الأنوار في الكون، كالشمس والقمر، ومَن ذا الذي يستطيع أن يطفئ نور الشمس؟ إنه لأمر مثير للسخرية، وبماذا يحاولون إطفاءه.. بأفواههم! فإذا كان هذا نور الشمس، فكيف بنور الحقِّ ونور الوحي ونور الإيمان؟!

وتأمَّل منذ أن بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ إلى يومنا هذا كم من المكائد والمؤامرات والعداوات عادى بها الكفار أجمعون الإسلام، فما زاده ذلك إلا انتشارًا وقوةً وظهورًا، فالحمد لله ربِّ العالمين.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ فهو نور تام كامل وسيظل كذلك، وفيها معنى الغلبة والنصر

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٧٨)، و«غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني» (ص١٥٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٥/ ٧٤٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٩)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩٠).

وتحقيق المقاصد الربَّانية للبعثة المحمدية ولا بدَّ.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: وكأن الحديث هنا عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالغالب أنهم يُوصفون بالكفر، في حين وصف غيرهم بالشِّرك[1].

* ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾:

الهُدى: القرآن، **ودين الحقِّ**: الإسلام.

وقيل: **الهُدى**: العلم النافع، **ودين الحقِّ**: العمل الصالح[2]، فأرسله الله سبحانه بالعلم والعمل.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾: أي: ليعليه وينصره على سائر الأديان، ولو كرهوا ظهور الإسلام.

والظُّهور له معنيان:

الأول: ظهور القوة والحجة، والبيان والبلاغة، والرسالة والدعوة، والتربية والتعليم، وهذا بيِّنٌ[3].

والثاني: ظهور الغلبة والسلطان[4]، وقد تحقَّق قدر كبير منه؛ لكن لا يلزم من هذا الوعد أن يتحقَّق بكماله في كل وقت؛ لأن هذا خلاف مقتضى الحكمة والابتلاء، وخلاف مقتضى السنة الإلهية في ابتلاء بعض الناس ببعض، وأن الدهر دُوَل، وأن النصر والهزيمة، والقوة والضعف، والكثرة والقلة؛ بل والتمدن والحضارة، والتخلُّف والجهل تنتقل وتتأثر بظروف ومعطيات كثيرة، وأن الله امتحن الناس بالعمل والتخطيط والدأب ليحصلوا على النتائج، وتوعدهم إن هم

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٣)، و«تفسير القاسمي» (٨/ ٤٥٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٥٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٣٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٠/ ٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٦)، و«التفسير القيم» (ص١٩٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٥٩)، والمصادر السابقة.

فرَّطوا أو قصَّروا بأن يروا عاقبة ذلك عيانًا.

وهذا الوعد الإلهي محفِّز للمسلمين لتحقيقه، ومعنى أنه سيظهره على الدين كله: أن الأديان المشار إليها ستكون موجودة ولن تندرس؛ بل ستبقى، ولكن سيظهر الإسلام عليها بالقوة وبالغلبة وبالحجة، وهذا بواسطة مَن يُسخِّرُهم الله تعالى من المؤمنين، ففيه حفز للمؤمنين أن يبذلوا جهدهم في الدعوة إلى الله تعالى، وفي التأثير على الناس.

وكم يشعر المرء بالأَسَى في هذا العصر أنه لم يكن المسلمون على مستوى المسؤولية في إظهار دينهم، وفي إظهار صور قوته وبلاغته، وإعجازه وتأثيره، لا في قولهم ولا في فعلهم، فعلى صعيد السلوك والممارسة والواقع الاجتماعي تجد في المجتمعات الإسلامية ألوانًا من الضعف والخلل الأخلاقي، ونقصًا في الانضباط والذوق، ربما تَفُوقهم كثيرٌ من أمم الأرض، حتى إن بعض الذين أسلموا من الغربيين إذا جاؤوا إلى البلاد العربية والإسلامية حمدوا الله أنهم أسلموا قبل أن يروا واقع المسلمين في بلادهم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾:

كأنه ذكر التجارة هنا؛ لأن بعض المسلمين صدَّتهم التجارة عن الجهاد في سبيل الله، فذكر تعالى لهم الأفضل والأبقى والأربح؛ وهو الإيمان والجهاد.

واستخدم أسلوب العرض والاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾.. وكأنه يقول: أنتم تبحثون عن الأرباح الطائلة، وهذا الله يعرض عليكم أن يرشدكم إلى ما هو خير لكم إن كنتم تعلمون.

﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن كثيرًا من التجارات الدنيوية تكون سببًا في العذاب الأليم يوم القيامة؛ فإن من الناس مَن يكون ماله عذابًا ووبالًا عليه، وشغلًا له عن الفرائض وطاعة الله.

وكما ذكر الله تعالى عن عدد من أهل الكتاب وغيرهم أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في

سبيل الله؛ فأشار عليهم ربهم الذي يحبهم بالتجارة الرابحة الطيبة المباركة التي تُنجي من العذاب الأليم؛ وهي الإيمان بالله ورسوله.

* ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ولا يصلح عمل إلا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ.

﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، فالجهاد بالمال بصرفه في مجالات الخير كلها.

وقدَّم المال؛ لأنه أول مصرف وقت التجهيز، وأن به قِوام الأنفس وحمايتها، ولنفاسته ولعزَّته في ذلك الزمان.

وقيل: للترقِّي من الأدنى إلى الأعلى[1].

والجهاد بالنفس هو: أن يبذل الإنسان نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، بالجهاد الأعظم الذي هو مقاتلة الأعداء، أو بما دون ذلك من ألوان بذل النفس في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وألوان الكرم والجود التي كان عليها النبي ﷺ والسابقون من أصحابه، ومن ذلك تحمُّل العنت والأذى في سبيل الله بصبر وطيب نفس واحتساب، دون أن يقول الإنسان: كيف يصيبني هذا وأنا معي الحق؟ لماذا لم يدفع الله عني؟

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: خير لكم مما أنتم متشاغلون به.

* والدليل على أنه خير لكم نتيجة ذلك: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

وكأنه ذكر المساكن والجنات إشارة إلى أن كثيرًا من الناس تحرمهم أعمال الخير والدعوة والجهاد وخدمة الناس والإحسان إلى الخلق من الاشتغال بالتجارة، أو من طول المكث والبقاء في بيوتهم ومساكنهم، في حين أن غيرهم يملكون بيوتًا مرفَّهة جميلة، فالمؤمنون حُرموا من هذا الترفه، أو من بعضه، أو لم يستقر بهم

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٨/ ١٥٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٢٧٨)، و«روح البيان» (٩/ ٥٠٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٥/ ٧٧٨).

مقام بين أهليهم بسبب تبعات العمل والدعوة والتعليم والإحسان والإصلاح، وما يترتب على معاناة ذلك من السفر والغربة والحبس والانشغال بأحوال الناس، لكنهم عُوِّضوا بسعادة صدورهم، وبالعطاء الذي يجدونه مضاعفًا يوم القيامة.

* ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: شيء مما جُبلت النفوس على محبته، والنفس مُولعة بحبِّ العاجل.

فما هذه العِدَةُ الأخرى؟ إنها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: **قيل**: فتح مكة. **وقيل**: فتح بلاد فارس والروم[1].

واللفظ شامل لذلك كله، ومن أوله فتح مكة؛ لأن السورة- والله أعلم- نزلت قبل فتح مكة بسنة أو سنتين؛ فتحقق بدء النصر والفتح في حياته ﷺ بدينونة الجزيرة العربية له، ووضع الأساس لهذه الدولة الفتيَّة العظيمة.

ووصف «الفتح» بأنه قريب، أما «النصر» فهو عام، وهكذا يمكن أن يكون كما في «سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾»، فيكون مؤذنًا بفتح مكة، ويحتمل أن يكون «الفتح» فتح مكة، وهو قريب تحقَّق قبل موته ﷺ، أما النصر فما جرى بعد ذلك من انتصارات الدولة الإسلامية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وهذا من إعجاز القرآن، فإن إسلام العرب، وفتح مكة، والنصر، ودخول الناس في دين الله أفواجًا كله من الغيب الذي وقع، كما أخبر به سبحانه.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾:

هذا النداء دعوة صريحة للمؤمنين من هذه الأمة أن يجعلوا شعارهم نصرة الله،

---

(١) ينظر: و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٦٤).

بنصرة دينه وشريعته وأمته، وليس نصرة شخص أو طائفة أو جماعة أو أسرة أو دولة أو نِحْلة...

ثم ذكَّرهم بقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾.

والحواريون هم: أصحاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا اثني عشر رجلًا[1].

والكلمة حبشية[2]. **وقيل**: هي عربية، من: الحَوَر؛ وهو شدة البياض، وقد كانوا شديدي بياض الثياب[3]، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتواصون بالاعتناء بنظافة الثياب، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعجبه من القارئ والطالب أن يكون حسن الثياب، طيب الرائحة[4].

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم ولغيرهم هذا القول: مَن الذين سوف يكونون أنصارًا لي في طريقي إلى الله وفي سعيي إلى نصرة الله وإقامة دينه؟

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، وأجابوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ذلك.

ويلحظ هنا اختلاف الصيغة والتركيب، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ فأضاف النصرة إليه، لكنها ليست نصرةً لشخصه؛ لأنه فلان، ولكن لأنه يدعوهم إلى الله، والفارق واضح بين الصيغتين؛ فالصيغة العيسوية تناسب بني إسرائيل، بل النخبة المختارة منهم: الحواريين، والذين التزموا بالنصرة، ومع ذلك وجد من بعضهم التردد والتساؤل.

أو أن تلك الصيغة تناسب بعثة عيسى إليهم خاصة في زمان محدود، فكان

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠١).

(٢) وقيل: نَبَطيَّة. ينظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٢٥٥)، (٢٨/ ٢٠١)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١/ ٥١٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٤٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٦٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٨٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٥/ ٢٨٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٨).

(٤) ينظر: «الموطأ» (٥/ ١٣٣٧)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٨).

وجود النبي بينهم من أهم ضمانات الاستمرار على الحق وعدم النكوص، وكأن الحواريين بقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أظهروا تجردًا تامًّا وديمومةً على النصرة أكثر مما في مكنتهم وطاقتهم، والله أعلم.

أما ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، فلهذه الأمة التي يقوم وجودها أصلًا على الارتباط بمنهج الله وحده، سواءً وجد الرسول ﷺ بينهم أم لم يوجد، فهي أمة خاتمة وليست مؤقتة، ولهذا خُوطبت بمثل قوله سبحانه: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

كما أن دعوته ﷺ لم تكن خاصةً محصورةً في فريق أو قبيل أو جنس، بل هي دعوة للعالمين، ولذا فالإيمان والجهاد ماضيان إلى قيام الساعة، كما في قوله ﷺ: «**لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ**»[١]. وقوله ﷺ في الحديث الآخر أيضًا: «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنمُ**»[٢].

ومثله حديث: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خذلهم، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلكَ**»[٣]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

لذا نُوديت الأمة أن تربط نصرتها بالله لا بغيره، علمًا بأن نصرة الرسول ﷺ هي نصرة لله، ونصرة للمؤمنين كذلك، ولكن الملمح المهم هو عدم ربط النصرة بوضع معين، بل هي نصرة باقية ما بقي الليل والنهار، وأنه في حال القوة والضعف والغنى والفقر والكثرة والقلة والعزة والذلة، و﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾.

ولكل قوم أئمة وسادة، ولكن هؤلاء الأئمة إنما يستحقون هذا اللقب الشريف

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤، ٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٩، ٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧١، ١٨٧٣) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٨٧٢) من حديث جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧/ ١٧٤، ١٧٥- كتاب الإمارة، ١٩٢١) من حديث معاوية والمغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢٣) من حديث ثوبان وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بالتزامهم المنهج وصدقهم مع الله ورسوله، فإذا فرَّطوا أو قصَّروا حُرموا منه، واستبدل بهم غيرهم، وهذا لا يحدث إلا في أمة واعية يقظة حية، لا تبني دينها على التقليد والتبعية والهوى الأعمى، وإنما تبني دينها على العلم والهدى والنص والدليل، فهي ليست قطيعًا يُساق دون وعي لا يدري من أمره شيئًا إلا الثقة العمياء بمَن ينعق به، كلا إنها الأمة التي نُوديت بأن تنصر الله وحده، ونصرتها لمَن دونه إنما هي مشروطة بأن يكونوا من أنصار الله، فمتى أخلُّوا بهذه النصرة لم يكونوا جديرين بأن يُتَّبعوا أو يُقتدى بهم.

إن الله تعالى حين قرَّر قانون الانتصار الراسخ العظيم، أبرز فيه هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾.

وكل أحد من فرد أو جماعة أو حزب قد يدَّعى نصرة الله ونصرة دينه، وأنه ما قام بذلك طمعًا ولا منافسة، ولذلك كان التعقيب الرباني لتحديد مَن هم الذين ينصرون الله؟ هل هم المدَّعون؟

كلا، إنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾.

وأنت تلحظ جيدًا أن الله تعالى أعطاهم صفات لا تبين إلا في المستقبل ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ وكم من مدَّعٍ ينكث وعده ويتخلَّى عن عهده وينهمك في دنياه.

إن الكثيرين ينساقون مع الأحلام الوردية الجميلة، ويرسمون المستقبل بريشة مبدعة خيالية خالية من المآخذ، لكن حين يصبح هذا المستقبل واقعًا مشهودًا، وليس حُلمًا منشودًا، تتغير المعالم وتختلف القلوب وتتحرك المطامع، ويصبح الجمع شتيتًا، وتبدأ التُّهم.

إن الصيغة لم تُربط لنصر بالذين يعدون أنهم سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لكن بالذين علم الله من حالهم المستقبلي أنهم إن مُكِّنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾، بعضهم آمن بعيسى، وبعضهم كفر[1]، ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾: أيدهم بالحجة، وبالتوفيق، وبالقدر، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾: ظاهرين بالحجة منصورين[2].

هذا متناسب مع الإشارة إلى ظهور الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ومتناسب مع قوله سبحانه في أول السورة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فهو أظهر أولياءه ونصرهم وأيَّدهم ولو كانوا قليلًا، و﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

○○○

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٣).

سُورَةُ الجُمُعَةِ

❋ **تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الجُمُعة**»، كما في كتب التفسير، والمصاحف، والسنن[1]، وفي الآثار المرفوعة إلى النبي ﷺ[2].

ووجه تسميتها: وقوع لفظ: ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ فيها، وهو اسمٌ لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

❋ **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[3].

❋ **وهي مدنية** باتفاق علماء التفسير[4].

❋ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾:

استفتحها بالتسبيح الدال على أن الكون كله خاضع لعبودية لله، وأن الذي يقع

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٩)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٥)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (٨٧٩).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٦)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٤)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٣)، و«الإتقان» (١/ ٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٥). وحُكي أنها مكية، وهو قول ضعيف جدًّا.

منه المخالفة والتمرد هم بعض الإنس والجنِّ[1].

﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: المالك الخالق المدبِّر، ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾: المنزَّه الكامل الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الذي له العزة، والذي يمنح العزة لمَن يشاء، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها، والمحكم المتقِن لما يخلق، والحكيم في شرعه وأمره ونهيه ووحيه[2]، ولذا ذكر بعدها بعثة محمد ﷺ.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾: وهذا من مقتضى الملك؛ حيث اعتنى بعباده، ولم يهملهم ويتركهم سُدى، وإنما أرسل إليهم رسلًا، وأنزل إليهم كتبًا، ومن مقتضى القُدُّوْسِية والتنزُّه عما لا معنى له، وهو مقتضى العزة، حيث سينصر رسله وأولياءه في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وهو مقتضى الحكمة فيما شرع لهم، وفيما قدَّر وقضى.

والأُمِّيُّون جمع: أُمِّيٍّ؛ وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب[3]، وتُطلق على العرب من حيث الجملة، حتى لو كان فيهم مَن يقرأ، فإنهم يسمون: أمة الأُمِّيِّين، وهذا نبي الأُمِّيِّين، لما غلب عليهم من عدم القراءة والكتابة.

ووقوع البعثة في العرب لم يكن اتفاقًا، وإنما اصطفاء وابتلاء، ولحكمة أرادها سبحانه، مع أن في الأرض يوم ذاك أمم لها سيادتها وحضارتها وعلومها وفلسفتها وسلطانها؛ كالرومان، والفرس، واليونان، والصينيين، وغيرهم، ولكن اختار الله العرب؛ لأنهم أخلق وأجدر الأمم بحمل الرسالة آنذاك.

---

(١) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠، ٣٣، ٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣، ٦٠، ٢١٤، ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٥)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص١٨٦، ٢٠٨)، و«مع الله» (ص٧١، ٨٤، ١٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣٥٤)، و«المحيط في اللغة» (٢/ ٤٨٧) «أ م م»، و«الإفصاح عن معاني الصحاح» (٤/ ٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٤٤٥)، و«روح البيان» (٩/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٨).

وليس معنى هذا أنهم كَمَلَة، كلا؛ بل فيهم عيوب، وفي غيرهم من الأمم خصائص يفوقون فيها العرب؛ لكن من حيث مجموع الصفات، فالعرب أخلق من غيرهم بحمل الرسالة، فقد كانت فيهم أخلاق عظيمة؛ كالكرم، والشجاعة، والصدق، ولم تفسدهم آثار الحضارة المادية، ولم يغلب عليهم الترف، فكان لديهم من الاستعداد الذاتي والنفسي الفردي والجماعي ما ليس لغيرهم.

وكونه مبعوثًا في الأُمِّيِّين هذا وصف للواقع، فقد كانت بعثته فيهم، وليس في النص أنه لهم، فهو مبعوث فيهم ومن بينهم؛ ولكنه مبعوث إلى الناس كافَّة، وإن كانت مسؤولية الأُمِّيِّين أعظم؛ لأن الرسول منهم، والكتاب بلغتهم، والحجة عليهم أعظم.

وكان ﷺ أُمِّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب؛ ولهذا لما جاءه الملَك وقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾. قال: ما أنا بقارئ[1]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وهذا أدعى إلى أن تتحقق فيه البشارة التي بَشَّر بها الرسل والأنبياء السابقون ببعثة النبي الأُمِّيِّ، فهي تتحقق بهذه الصفة، وهو أدعى إلى أن يتقبل العرب منه ويستجيبوا له ويتجمعوا حوله؛ لأنه رسول منهم، وهو نبيهم ﷺ؛ لئلَّا يرتاب المبطلون، أو يظنوا أنه تلقَّى هذا العلم من أحد أو قرأه في الكتب؛ فهو الأُمِّيُّ الذي علَّم البشرية كلها، واستفتح نبوته بـ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، وجاء بالكتاب العظيم، وأنشأ أعظم حضارة على وجه الأرض.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: وهذا هو **المقصد الأول**، وبدأ بالتلاوة؛ لأنها أول مراحل العلم، وأول ما خُوطب به ﷺ قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، ومعناها: اتْلُ[2]، كما قال سبحانه: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولذا سُمِّيت قراءة القرآن: تلاوة، كما قال تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]. فالتلاوة، وإن

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٠٧)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ٣١٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٦٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٢٢٧)، وما سيأتي في «سورة العلق».

كانت أولى المراحل، إلا أنها مشعرة بما بعدها من المتابعة والتأسِّي والإِذعان.

والآيات هي: آيات الله، أو آيات القرآن[1].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: وهذا هو **المقصد الثاني**: وهو تزكية القلوب[2]، وهو مقصد عظيم؛ لأن مدار النجاح والفلاح على صلاح القلوب واستعدادها لتلقي الوحي وقبوله والإيمان به، وما يترتب على ذلك من حسن التنسك والعبادة، والصلة بالله التي هي سِرُّ الخشية والتقوى والخلق الكريم، والعلم الشرعي ليس المقصود به التكثُّر أو المباهاة أو المفاخرة، وإنما تزكية النفوس، وهذه دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، والتي تحقَّقت ببعثة محمد ﷺ.

وذكر التزكية التي هي أثر عن العلم؛ دليل على أن تصحيح المعرفة وتصحيح الفكر وضبط (عادات التفكير) أسبق من تصحيح السلوك، فالتزكية أثر عن المعرفة الصحيحة والفكر السليم، فالعقل أولًا، والقلب ثانيًا.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: وهذا هو **المقصد الثالث**، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقتضي الكتابة، فهو أُمِّيٌّ يُعلِّم الناس الكتابة[3]، ولذا قال الشاعر[4]:

أَخـوكَ عيسـى دَعـا مَيْتًـا فَقـامَ له ... وأَنـتَ أَحيَيـتَ أَجيـالًا مِـنَ الرِّمـمِ

ولهذا رُوي عنه ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»[5]. يعني: ذكرًا كان أو أنثى.

والكتابة أصبحت جزءًا من ضرورة الشريعة في مسائل وأحكام كثيرة، كما في البيوع مثلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨).

(٤) ينظر: «الشوقيات» (١/ ٢٠١).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجه في «سورة العلق»: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولم يعلِّمهم الكتابة بالخط أو بالقلم فحسب، بل علَّمهم ما هو أوسع من ذلك؛ إذ فتح مداركهم للمعرفة وللاطلاع وللبحث.

يا طالِبي عِلمَ النَبيِّ مُحَمَّدٍ ... ما أَنتُمُ وَسِواكُمُ بِسَواءِ
فمِدادُ ما تَجري بِهِ أَقلامُكُم ... أزكى وأفضلُ مِن دَمِ الشُهَداءِ[١]

ولم يكن الإسلام يخاف من المعرفة، ولا يحجر عليها، إلا ما كان ضررًا مَحْضًا أو غالبًا؛ بل جعل للعلم تلك المكانة العالية، وجعل فضل العلماء على سائر الناس كفضل القمر على سائر الكواكب[٢].

والكتاب هو أيضًا القرآن[٣]، وهو أعظم الكتب وأشرفها وأجمعها لخير الدنيا والآخرة.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، **فالمقصد الرابع**: أن يعلِّمهم الحكمة، وقد تكون هي السنة، كما قاله غير واحد من السلف[٤]؛ وهي المأثور عن النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى ما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكَلِم، وإلا فإن لفظ الحكمة أبعد من ذلك، **فالحكمة** هي: القول المحكم المبني على الخبرة والتجربة والمعرفة، **والحكمة** هي: البصيرة، وهذا لا يتحقَّق إلا بطول المجالسة والاقتباس والتأسِّي، وهي أثر من صفاء القلوب بالتزكية، وصفاء العقول بالمعرفة.

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥١) منسوبًا إلى ابن دُريد، و«الأربعين الطائية» (ص١٢٩)، و«معجم السفر» (ص٢١٣) منسوبًا إلى ابن الأنباري.

(٢) كما في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وإن فضلَ العالم على العابد، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب**». أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢١١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، والمصادر السابقة.

وعقَّب بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا انتقال من الصلاح إلى الإصلاح، ففي المقام الأول: تزكية ذاتية للفرد والجماعة.

والتدرُّج والترقِّي ينتقل بهم إلى أن يكونوا علماء حكماء قادة.

ومما ظهر لي في الجمع بين الكتاب والحكمة: أن **الكتاب** يعني: الكتابة والقراءة والفهم والتعليم. وأن **الحكمة** هي: البصيرة والخبرة وخلاصة التجربة الإنسانية.

فهذه هي المقاصد الأربعة للبعثة، **وهذا مدعاة إلى أن نتساءل دائمًا:** هل الاهتمامات التي تشغل حياتنا اليوم، سواء كانت علمية معرفية، أو دعوية، أو اجتماعية، أو سياسية، هي ضمن هذه الأربع وبشكل جوهري؟ أم إننا فرَّطنا كثيرًا في الأولويات، وأصبحنا نُضيع كثيرًا من الوقت والجهد في أمور ليست جوهرية؛ بل هي فروع وتفصيلات في الشريعة وقع الخُلف فيها، واختار كل إمام أو فريق ما يميل إليه، أو هي جزئيات من أمر الحياة الدنيا لا يتعلق بها نهوض ولا نجاح ولا فلاح(١)!

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ في ضلال مبين(٢).

ويمكن ربط هذه المقاصد الأربعة بأسماء الله الأربعة، فمن كمال ملكه سبحانه أن يوجِّه إلى عباده الرسالة، ويُقيم لهم الطريق والمحجَّة، و«القدُّوس» يُناسب قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ لأن القَدَاسة والتزكية متقاربان، والتقديس: تزكية، ولذا يسمَّى الصِّديق التَّقي: قِدِّيسًا. و«العزيز» يناسب تعليم الكتاب، وقد وصف الله كتابه بأنه عزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: ٤١]، **والعِزُّ** هو: بالتمسك بهذا الكتاب والأخذ به، و«الحكيم» يناسب تعليم الحكمة، فهو يُلْهِم عباده الصالحين الذين

---

(١) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١١)، و«روح البيان» (٩/ ٥١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٠).

يقتبسون من وحيه الحكمة والصواب في أقوالهم وآرائهم ودعائهم[١].

* ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾:

النص هنا يبيِّن أنه ﷺ لم يكن نبيًّا خاصًّا بالعرب؛ بل هو رسول للأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ولكل أحد من الناس بلغته رسالته.

والمقصود: آخرون من العرب من الأجيال اللاحقة من التابعين وتابعي التابعين، أو من كانوا صغارًا وقت النبوة[٢]، وقد قال ﷺ: «**وَدِدْتُ أَنَّا قد رأينا إخواننا**»[٣].

فتشوَّف إلى أن يرى المؤمنين الذين آمنوا به، ووعدهم بأن الصابر منهم على دينه له أجر خمسين[٤]، فهؤلاء من «الأميين»، ولكنهم لم يلحقوا بهم في الزمان والرتبة، وهم متأخرون عنهم.

وقال ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٥].

وقال أيضًا: «**مثلُ أُمَّتي مثلُ المطر، لا يُدرى أولُهُ خيرٌ أم آخرُهُ**»[٦].

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠، ٣٣، ٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣، ٦٠، ٢١٤، ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٧)، و«مع الله» (ص٧١، ٨٤، ١٩٧).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣١١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٣)، و«الدر المنثور» (٨/ ١٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في حديث أبي ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها» (١٩٢)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (٣١)، وابن حبان (٣٨٥)، والحاكم (٤/ ٣٢٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤، ٩٥٧)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٢٥٣٤، ٢٥٣٦) من حديث أبي هريرة، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) تقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾.

وفيه إشارة إلى فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة النبي ﷺ والتلقِّي عنه، وفضَّلهم على غيرهم من أصحاب الأنبياء السابقين، وفضَّلهم على غيرهم من اللاحقين، فهم أفضل الأمم من حيث الجملة.

ويحتمل السياق معنى آخر؛ وهو أن المقصود: الأمم الأخرى من غير الأميين[1]، وكأن الضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المبعوث إليهم عامة، وليس إلى الأميين خاصَّة، وكأنه قال: هو الذي بعث في الأميين وبعث في آخرين أيضًا، أو يرجع إلى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: وآخرين ممن كانوا في ضلال مبين بعث فيهم محمدًا ﷺ.

وعلى هذا فالآية تؤكِّد أن الرسالة للبشر كلهم جميعًا.

ومما يُعزِّز هذا: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ، فأُنزلت عليه «سورةُ الجمعة»: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال: قلتُ: مَن هم يا رسولَ الله؟ فلم يراجعه حتى سأَل ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسيُّ، فوضع رسولُ الله ﷺ يده على سلمانَ، ثم قال: «**لو كان الإيمانُ عند الثُّرَيَّا، لنالَهُ رجالٌ** - أو: **رجلٌ - من هؤلاء**»[2]. ولهذا قال مجاهد في الرواية المشهورة عنه: هم الأعاجم[3].

وقيل: هم الفرس[4]. وهو يعود إلى ما قبله.

وقيل: هم الأطفال الصغار[5].

وقيل: هم الأمم الأخرى[6].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦).

(٣) ينظر: «تفسير ابن وهب» (١/ ٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٧١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٦).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨١).

(٦) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٤٤)، والمصادر السابقة.

وكل ذلك داخل في معنى الآية، فهؤلاء الآخرون الذين بُعث النبيُّ ﷺ فيهم لم يكونوا في درجتهم، أو لم يكونوا في زمانهم، وهذه معجزة نبوية في إخباره ﷺ بالغيب؛ لأنه يومئذ لم يكن من أتباع النبي ﷺ إلا القليل من الناس، كان فيهم سلمان الفارسيُّ، وصُهيب الرُّوميُّ[١]، وبلال الحبشيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أفراد يُعَدُّون على الأصابع، والسياق هنا عن أمم بُعث فيهم النبي ﷺ وسيلحقون بهم؛ لأن قوله: ﴿لَمَّا﴾ يعني: لم يلحقوه ولكنهم قاربوا أن يلحقوا[٢]، وهكذا كان؛ فإن كل شعب من شعوب الأرض كان له أثر وعمل في خدمة الدين ورفعة شأنه، وقد نبغ علماء من غير العرب وتميَّزوا باللغة العربية والبلاغة والفصاحة، وكتبوا، وألَّفوا، وأصَّلوا، ونظَّروا، وفي النحو كذلك، وفي الحديث النبوي والفقه، ولعل المؤلِّفين من غير العرب أكثر وأشهر، وهؤلاء الأئمة الستة الذين صنَّفوا الكتب الستة في السنة النبوية غالبهم من الأعاجم، وكذلك أئمة التفسير، أما الأئمة الأربعة المتبوعون في الفقه فهم من العرب، غير أبي حنيفة فهو من فارس، رحمهم الله جميعًا.

* ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾:

أي: فضل الله تعالى بالرسالة للنبي ﷺ واختياره، وفضل الله واختياره للعرب الأُمِّيِّين، وكون الرسول منهم والقرآن بلغتهم، وفي ذلك رد على الحاسدين، وخاصة اليهود الذين حسدوا النبي ﷺ وأمته، والحاسد في حقيقة الأمر يعترض على قضاء الله تعالى واختياره[٣].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ففضله يعود على مَن اختارهم بما لم يكونوا يحتسبون، وهو واسع أيضًا لغيرهم ممن تواضع لعظمته وسأله من فضله.

(١) لم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روميًّا، وإنما نُسب إلى الروم؛ لأنهم سبوه صغيرًا. ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٧٢٦)، و«الإصابة» (٣/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٨٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٩).

* ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾:

انتقل السياق إلى الحديث عن أمة سابقة لها كتابها ورسولها وتاريخها يشبه من بعض الوجوه تاريخ الأمة المحمدية؛ وهم اليهود[١].

وفي الآية إشارة إلى أنهم كُلِّفوا ذلك الأمر على غير طوعهم، وثمة فرق بين مَن يختار الخير ويقصده ويبحث عنه، وبين مَن فُرضت عليه بعض الفروض أو العادات أو الرسوم فرضًا بسبب البيئة أو المجتمع الذي من حوله من غير أن يكون عنده اختيار؛ ولهذا فرَّق أهل العلم بين مسلمة الاختيار ومسلمة الاضطرار.

و﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ هي: الكتاب الذي أُنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والحمل هنا معنوي من باب: الحَمَالَة، كما تقول: فلان تحمَّل دينًا أو تبعةً معنوية[٢]؛ ولكن اليهود لم يحملوها، أي: لم يقوموا بها[٣]، فهم قرؤوها، وحفظوها، ظانين أنهم بذلك حملوا الأمانة وأدَّوها، ولكنهم لم يعملوا بها، ولم يقوموا بحقها، وفي ذلك تحذير للأُمِّيِّين أن يسلكوا سبيلهم، وحَثٌّ على أن يحققوا مقاصد الرسالة المشار إليها في أول السورة، وألَّا ينشغلوا باللفظ عن المعنى، ولا بالوجاهة والرئاسة والتصدر عن الإيمان والتقوى، ولا بالرسوم والأشكال الظاهرة عن الحقائق والمعاني والأحوال.

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾: والمقصود ليس تشبيه شخص بعينه؛ لأن سياق الكلام هنا ليس عن شخص؛ بل عن أمة أو طائفة، وإنما ضُرب المثل بالحمار؛ لأنه من أكثر الحيوانات بلادة.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٩٠).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٦١)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٤).

وكان اليهود يفاخرون العرب بأنهم يقرؤون التوراة، وأنهم أصحاب علم وأهل كتاب، ويحتقرون العرب الأُمِّيِّين، وكان العرب يُسلِّمون لهم تسليم الجاهل للعالم، فلما كفروا وجحدوا فضحهم الله، وحقَّرهم، وكشف حقيقة أمرهم.

والمثل هنا يختلف عن قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ...﴾ إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، فـ«المثل» هنا حكاية عن شخص بعينه[1].

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾: كذَّبوا بمحمد ﷺ، وأنكروا بعثته، وفي أحسن الأحوال قالوا: هو رسول العرب الأُمِّيِّين.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بجحد الحق، وظلموا أتباعهم بحرمانهم من الاتباع الصادق، وظلموا الحقيقة بالتنكر لها وافتروا.

وفي الآية بيان أن الله لا يهديهم، وأنه ميئوس منهم، وسيظلون كذلك، وهكذا وُجد، فمع أن الرسالة بُعثت وهم في المدينة، ثم طُردوا منها، ومن خيبر، ومن جزيرة العرب، إلا أن موقفهم ظل كما هو إلى اليوم وإلى الأبد، ولم يُسلم منهم إلا أفراد قلائل، كما أسلم عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، وفي هذا تحقيق لمقام النبوة وخطاب للنبي الأُمِّيِّ أن يخاطبهم، ويقول لهم: إن الله تعالى يختبرهم بهذا.

وسمى اليهود بهذا؛ لأنهم عادوا وتابوا في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾[2] [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦١٦)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٢/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨١)، و«الدر المنثور» (١/ ١٨٢).

ويمكن أن يكون نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، أو مملكة يهوذا التي عاشوا في ظلها حقبة من الزمن(١).

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: لقد كان مما ادَّعوه أنهم أولياء الله وأبناؤه وأحباؤه، وأنهم فُضِّلوا بيوم السبت(٢)، فواجه دعواهم بهذه المطالبة لإثباتها؛ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: فادعوا على أنفسكم بالموت(٣).

والأمر بتمنِّي الموت ليس من باب ما جاء في النهي عن تمنِّي الموت، كما في حديث: «**لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَهُ**»(٤). فإن الأمر بتمني الموت هنا يحمل على المباهلة، والله تعالى ذكر المباهلة في القرآن مع اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤]، بأن يجتمعوا فيدعوا على أنفسهم جميعًا أينا كان أرشد وأصدق وأقوم بأمر الله أن الله تعالى يحفظه وينجيه، وأن يهلك الظالم، والمباهلة مع النصارى في قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، ومع الوثنين في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: ٧٥].

وهم لن يتمنوه، كما قال هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، وهو خبر، وفي «سورة البقرة» قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، وهو نفي، فهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ الآن، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ في المستقبل.

وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم لو تمنَّوه لم يبق على الأرض يهوديٌّ إلا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٥٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٤٠١).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٥).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مات[1].

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، فهم يعرفون في دواخلهم أنهم ليسوا أولياء الله وليسوا على هُدى، وما قدمت أيديهم هو ما عملوا، وإنما يعبِّر باليد عن كل ما عمله الإنسان من قول أو فعل أو عمل؛ لأن غالب معاناة الأفعال باليد[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: فهم ظالمون لا ينفكون عن الظلم؛ وليسوا لله بأولياء؛ لأن الولاية لا تجتمع مع الظلم، كما قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

* ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾:

شبَّه حالهم بحال مَن يفرُّ من الموت، ولا مَفرَّ منه، فلا بد لكم من الموت.

وفيها تذكير بالأجل وقرب حلوله، ولو كان منتهى الأمر الموت لهان الأمر، ولكن بعد الموت بعث ونشور وجنة ونار:

ولــو أنــا إذا مُـتـنـا تُـركـنـا ... لـكان المـوتُ راحـةَ كلِّ حـيٍّ
ولـكـنَّـا إذا مُـتـنـا بُعثنا ... ونُسألُ بعدَ ذا عـن كلِّ شـيءٍ[3]

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الذي يعلم سركم ونجواكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ وجاء التذكير بالموت كثيرًا في القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ،

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨٠- ٢٨١)، و«مسند أحمد» (٢٢٢٥)، و«مسند البزار» (٤٨١٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٩٩٥)، و«مسند أبي يعلى» (٢٦٠٤)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٢٦٨- ٢٦٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٧٧)، و«المختارة» (١٢/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٦). وورد في بعض المصادر مدرجًا مرفوعًا، وهو خطأ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١/ ٣٥٥)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٦١٦).

(٣) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص٢٢٠)، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٢٠).

بل ندب إلى الإكثار من تذكره؛ كما في قوله ﷺ: «**أكثروا ذكرَ هاذمِ اللَّذَّات**»[1]. أي: هادمها وقاطعها[2].

فالموت حقيقة واقعة، لا ينكرها إلا مسلوب العقل، وتذكر الموت لا يراد به إفساد حياة الناس والفرار من لأوائها بطلب الموت، ولا الحرمان من المتعة والبهجة والنعيم، كلا! وإنما لإصلاح الحياة بزجر النفس عن الظلم والإفساد والتعدِّي ونسيان حقوق الخلق والخالق ويحفِّزها على تدارك الزمان واغتنام الفرص والمبادرة.

ولذا كان الحث على استذكار النهاية أحد الوصايا الأساسية التي يكرِّرها علماء التنمية البشرية، كما فعل ستيفن كوفي صاحب كتاب «العادات السبع»، وستيف جويز صاحب شركة (أبل).

فالموت حافز على العمل والنجاح والصفاء واستثمار الوقت، ولا يشرع أن يكون الحديث عن الموت سلبيًّا بوصف الميت وحال بدنه بعد دفنه، وتعفنه وسريان الدود في لحمه وعظامه، والتهييج على النياحة، وإنما المشروع أن يكون الموت موعظة تجعل الإنسان أكثر انتفاعًا بالحياة، وأكثر عملًا فيها، وأبعد عن مقارفة المعاصي والاستجابة للمغريات والشهوات.

* ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩**﴾:

انتقل من مخاطبة ﴿**ٱلَّذِينَ هَادُواْ**﴾ وتقريعهم إلى مخاطبة ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ**﴾ من الأمة الرسالية الخاتمة: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ**﴾.

والمقصود: النداء الذي يكون عند صعود الخطيب إلى المنبر[3]، ويسمى:

---

(١) سيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

(٢) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٣٦) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٥٦٠- ٥٦١)، و«مرقاة المفاتيح» (٣/ ١١٦٠)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٨/ ٢١٥- ٢١٧).

النداء الثاني[1]، وأما النداء الأول فقد أمرَ به أميرُ المؤمنينَ عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]؛ حتى يستعد الناسُ لصلاة الجمعة، ويكون قبل دخول الوقت.

و﴿مِن﴾ للتبعيض[3]، أي: وقت الزوال، ويوم الجمعة هو اليوم الذي خصَّ الله به تعالى هذه الأمة، فاليهود كانوا يفتخرون بيوم السبت، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، وهو قبل يوم السبت؛ ولهذا النبي ﷺ قال: «**نحن الآخرونَ، ونحن السابقونَ يومَ القيامة، بيد أن كلَّ أمة أُوتيت الكتابَ من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليومُ الذي كتبه اللهُ علينا، هدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غدًا، والنصارى بعد غد**»[4].

والعرب كانوا تبعًا للأمم الكتابية قبل البعثة، حتى جاء النبي ﷺ، وشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة، والجمعة اسم إسلامي قرآني، وبعضهم يقولون: إنه كان معروفًا على قلة عند العرب، فقُصَيٍّ بن كِلاب كان يُسمَّى: مُجَمِّعًا، وهو الذي قيل فيه:

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا ... به جمعَ اللهُ القبائلَ من فِهْرِ[5]

لكن الأقرب أنه اسم إسلامي جاء به القرآن، وكان يُسمَّى في الجاهلية: العَروبة، بفتح العين.

وكان العرب في الجاهلية يسمون يوم الأحد: أول، والاثنين: أَهْوَن، والثلاثاء:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٩١٢).

(٣) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢١٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٠٠)، و«روح البيان» (٩/ ٥٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٥٩)، و«نسب قريش» (ص٣٧٥)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٤٦٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢) منسوبًا إلى حذافة بن غانم العدوي.

ونُسب إلى غيره. ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٧٣١)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٢٩٤)، و«الفائق» للزمخشري (٣/ ١٨٤).

جُبَار، أو: جِبار، والأربعاء: دُبَار، أو: دِبار، والخميس: مُؤْنِس، والجمعة: العَروبة، والسبت: شِيار[١].

ولا شك أن الأسماء المتداولة اليوم كانت معروفة عند العرب، وربما كانت الأسماء المشار إليها قديمة، وإلا فالسيرة النبوية والروايات تدل على أنهم كانوا يستخدمون أسماء الأيام المعروفة الآن، ولم يجر الإسلام لها تغييرًا جوهريًا، سوى الجمعة.

وفي «الجمعة» فضائل كَتَبَ العلماء فيها مصنفات، وأشار ابن القيم إلى طرف منها في «زاد المعاد»[٢]، منها: فضيلة اجتماع المسلمين للصلاة وقت الزوال، والخطبة، وأن صلاة الجمعة جهرية، ومشروعية الاغتسال، والطيب، ولبس أحسن الثياب، وساعة الإجابة، وقراءة «سورة الأعلى» و«سورة الغاشية» في صلاة الجمعة، وقراءة «سورة السجدة» و«سورة الإنسان» في فجرها.

وأوصل بعضهم خصائص الجمعة إلى أكثر من مائة خصيصة أو تزيد.

وأول جمعة في الإسلام كانت في المدينة، أقامها أسعد بن زُرارة، ومصعب ابن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٣]، وكان كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلما سمع نداء الجمعة ترحَّم على أسعد ابن زُرارة، فقال له ولده: أراك تترحَّم عليه. قال: نعم، هو أول مَن جمع بنا الجمعة في نقيع يقال له: نَقِيع الخَضِمات، قبل أن يهاجر النبي ﷺ[٤].

---

(١) ينظر: «الأيام والليالي والشهور» للفراء (ص٣٧)، و«الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُوب (ص٣٦)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص١٣٥)، و«لسان العرب» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (٣/ ٣٤١) «ع ر ب».

(٢) ينظر: «الجمعة وفضلها» للمروزي، و«الجمعة» للنسائي، و«زاد المعاد» (١/ ٣٦٣)، و«اللمعة في خصائص الجمعة» للسيوطي.

(٣) **قيل**: إن أول مَن جمَّع في المدينة مصعب بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٥١٤٦)، و«الأوائل» لابن أبي عاصم (٤٧). **وقيل**: إن أول مَن جمَّع هو أسعد زُرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد جُمع بين الروايتين بأن أسعد كان آمرًا، ومصعب كان إمامًا. ينظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ١١٥)، و«عون المعبود» (٣/ ٢٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وابن خزيمة (١٧٢٤)، وابن حبان (٧٠١٣)، والحاكم (٣/ ١٨٧). وينظر: «إرواء الغليل» (٦٠٠).

ولما هاجر النبي ﷺ كان وصوله المدينة يوم الاثنين، فجلس في قباء، وفي يوم الجمعة انطلق إلى المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدًا، فصلَّى فيه النبي ﷺ، وخطب في ذلك اليوم خطبة مروية ذكرها القرطبي في «تفسيره»[(١)]، وإن كانت تحتاج إلى التوثيق من سندها.

و«السعي إلى ذكر الله» هو: المضي إلى المسجد مشيًا بسكينة ووقار.

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: فامْضُوا إلى ذكرِ الله، واعملوا له؛ **وأصل السعيِ في هذا الموضع**: العمل، أي: التوجُّه لاستماع الخطبة والصلاة، والمضي إليها، وترك ما يشتغل به من أعمال تؤخِّر عنها.

قال قتادة: «أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضيُّ إليها»[(٢)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو كان السعي لسعيتُ حتى يسقط ردائي». قال: ولكنها: «فامضوا إلى ذكر الله»[(٣)].

وهذا يبيِّن أن المراد بالسعي التوجه والمضي إلى الصلاة، وليس المقصود السعي بمعنى العَدْو والإسراع في المشي.

و«ذكر الله» هو الخطبة والصلاة **على القول الراجح**[(٤)]، وسماها: «ذكرًا»؛ لما فيها من ذكر الله سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن هذا مقصد الخطبة؛ ولذلك جعلت الجمعة ركعتين، بخلاف الظهر، فكأن الخطبتين مقام الركعتين[(٥)]؛ ولذلك ينبغي أن تكون الخطبة

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٨- ٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٩).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٥).

(٥) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (٤/ ١٢٧٥)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٧/ ٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٣).

هادفة تخاطب القلوب وترقّقها وتشعل فيها جذوة الإيمان، وأن تكون توجيهات شرعية مؤصلة على قواعد النصوص لا على محض الاجتهادات الشخصية، ومن الخطأ أن نفرط أثناء الخطبة في تفصيلات جزئية تتحول إلى تصفية حسابات مع اتجاهات أو مذاهب أو أحزاب أو آراء.

والنبي ﷺ يقول: «**إذا أقيمت الصلاةُ فلا تأتوها تسعونَ، وأتوها تمشونَ عليكم السَّكينةَ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**»[1].

والمقصود: انبعاث القلب وتوجهه إلى ذكر الله، وترك الشواغل الأخرى، أي: استعدوا لذكر الله[2].

ويشهد لهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، أي: أطاق الولد أن يمشي مع والده[3].

أو: فامضوا إلى ذكر الله، وهكذا كان يقرأها عمر وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكأنها قراءة للتفسير[4].

وينبغي أن نترقَّى بالخطبة؛ لتكون معنى يخاطب المصلِّين جميعًا؛ لأن الجمعة يحضرها المسلمون كلهم لزامًا، وقد استنصتهم الشرع للخطيب، لا لمعنى فيه يخصُّه حتى يجعل منبر الجمعة محلًّا لاجتهاداته الشخصية، ربما ليس لها دليل، بل يجب أن تنحصر في محكمات الشريعة وقيمها وأصولها التي تهم الناس جميعًا، وأن تكون قبسًا من الذكر الحكيم، ودعوة إلى التزكِّي والتطهُّر والخلق العظيم، وعرضًا لسير الصالحين، وعلى رأسهم قادتهم من الأنبياء والمرسلين.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع في هذا الوقت[1].

وفيه دليل على جواز البيع من حيث الأصل؛ لكن طلب منهم ترك ذلك وقتًا محدَّدًا؛ ولهذا لا يجوز البيع والشراء بعد نداء الجمعة الثاني عند جماهير أهل العلم[2]، وهو الصحيح، والبيع بعد ذلك باطل، وألحق طوائف من الفقهاء بالبيع والشراء ما كان في معناها من المعاملات المالية الأخرى؛ لأنها تشترك جميعًا في كونها تلهي عن ذكر الله[3].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: فيه إلماح إلى قداسة هذا اليوم، وفضيلة هذا الوقت، وأنه وقت إجابة للدعاء، ووقت تجمع المسلمين، فهذا خير عند الله لمَن كان لديه العلم الهادي بقيم الأشياء.

* ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: انصرفتم منها[4]، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، و﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ غالبًا ما يُطلق على الرزق[5]؛ ولهذا شُرع لداخل المسجد قول: «**اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك**». وإذا خرج قال: «**اللهمَّ إني أسألُك من فضلك**»[6]. وفي الحج يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٣/ ٨٩)، و«المدونة» (١/ ٢٣٤)، و«الأم» (١/ ٢٢٤)، و«المبدع» (٤/ ٤١)، و«المحلى» (٧/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٦)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧١).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٧).

(٦) أخرجه مسلم (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. والمقصود: البيع والشراء(١).

وهكذا تأتي النصوص الشرعية لتربط ما بين الدين والدنيا، حتى لا يكون ثمة انفصال في واقع الحياة، فالدين لا يدعو إلى التخلِّي عن الدنيا وإهمالها، وذكر بعضهم أن في السعي في الأرض بعد الجمعة والضرب فيها والبيع والشراء بركة ورزقًا(٢).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، فذِكْر الله لا ينبغي أن يقتصر على وقت الخطبة، أو في وقت الصلاة، أو في المسجد، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانه»(٣).

وليس للذكر طقوس معينة، بل شُرع للمؤمنين أن يذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، متوضِّئين وغير متوضِّئين، فقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر اللهَ وهو جنب، غير أنه لا يقرأ القرآن إلا إذا تطَّهر، وفي حالة التبايع والمعاملات ينبغي ألَّا ينقطع فيها الذكر، وكان السلف يشوبون بيعهم بالذكر والدعاء والكلام المبارك.

* ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾:

سبب نزول هذه الآية: ما رواه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخطب يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فسمع الناسُ وقعها، وعادة ما يكون معها دفوف وطبول تخبر بقدومها، فخرج أكثرُ الناس من المسجد، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطبُ، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا، فيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا فيهم، فنزلت هذه الآية(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٧٥)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٥٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨- ١٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢- ١٢٣)، و«فتح الباري» لابن رجب (٨/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (٣٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٥٨)، ومسلم (٨٦٣). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٨).

وقد ورد أن النبيَّ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحدٌ، لسالَ بكم الوادي نارًا**»[١].

وقد كانت الحادثة في السنة الرابعة أو قريبًا منها، وكانت الخطبة بعد الصلاة[٢]، فهؤلاء صلوا مع النبي ﷺ، وجلسوا يستمعون الموعظة، كما هي الحال في صلاة العيد، ولم يكن الاستماع للخطبة واجبًا بعد، وكانوا في مجاعة شديدة وشظف من العيش، ومسهم الضُّر، وجاءت العِيرُ فتنادوا إليها.

ويظهر لي أن للمنافقين في هذا عملًا ويدًا، وهو تجرئة الناس على الانفضاض عن رسول الله ﷺ، فخرج المتعجِّلون، وخرج الأعراب، وخرج أطراف الناس، حتى لم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلًا على سبيل التقريب[٣].

وفي رواية: بقي ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، ومن عَدِّ أسمائهم يتبين أنهم كانوا فوق الاثني عشر رجلًا، وبعضهم قدَّروا أنهم يستطيعون أن يسمعوا الفائدة أو الحكمة من غيرهم.

وبهذه الوجوه يزول الإشكال الذي يخطر بالبال في انصراف رجال الصدر الأول عن الخطبة إلى التجارة.

و«**اللَّهو**» تابع غير مقصود، بل المقصود: «**التجارة**»، وقرن تعالى بينهما؛ توبيخًا وتقريعًا لمَن فضَّل التجارة على الذِّكر والحكمة، **وبدأ بالتجارة**؛ لأنها هي المقصود، ولذا قال: ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ ولم يقل: «إليهما»؛ لأن انفضاضهم كان قصده التجارة[٤].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٩٧٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤٧)، وابن حبان (٦٨٧٧)، وابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (٢/ ٨٥١)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٦-٢٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٤٧).

(٢) ينظر: «المراسيل» لأبي داود (٦٢).

(٣) ينظر: «سنن الدارقطني» (٢/ ٣٠٧- ٣٠٨)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٥٩)، و«فتح الباري» (٢/ ٤٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢)، و«فتح الباري» (٢/ ٤٢٤)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٥٠).

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾، وهذا دليل على أن خطبة الجمعة تكون عن قيام، وكان النبي ﷺ يخطب قائمًا، ثم يقعد، ثم يقوم للخطبة الثانية[1].

وفي السياق شيء من التأنيب والتوبيخ؛ إذ كيف يتركون النبيَّ ﷺ وهو قائم يحدِّثهم ويذكِّرُهم؟

وقيامه يدل على احتفائه وحرصه، وهو الرؤوف الرحيم بهم.

﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي: ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة خيرٌ مما ذهبتم إليه[2]، كما قال قبل: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

فالرزق عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يُروى أن أبا هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: «يا أهلَ السوق، ما أعجزكم!». قالوا: وما ذاك يا أبا هريرةَ؟ قال: «ذاك ميراثُ رسول الله ﷺ يُقْسَم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!». قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد». فخرجوا سِراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرةَ لهم حتى رجعوا، فقال لهم: «ما لكم؟». قالوا: يا أبا هريرةَ، فقد أتينا المسجدَ، فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يُقْسَم. فقال لهم أبو هريرةَ: «أما رأيتم في المسجد أحدًا؟». قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام. فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ»[3].

والقصة تدل على أن المجتمع المدني كان مجتمعًا بشريًّا، فلم يكونوا ملائكة في الأرض يخلفون، وكانت تحلُّ بهم الضرورات والحاجات، وفيهم القوي والضعيف، ولكن كان فيهم أكابر من عِلية الصحابة ومقدِّميهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزُّبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٢٠)، و«صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٢) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٦٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٢٩)، وينظر: «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٢٤).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بقوا مع النبي ﷺ، ولما نزلت هذه الآية تأدَّب بها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم شُرعت الخطبة قبل الصلاة، فكانوا يأتون إليها مبكِّرين، ويستعدون لها بالطيب وجميل اللباس والغُسل والتبكير.

❍ ❍ ❍

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

✽ **تسمية السورة:**

تُسمَّى: «**سورة المنافقون**» بالرفع على الحكاية[1]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

أو: «**سورة المنافقين**» على الإضافة[2].

✽ **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[3].

✽ **وهي مدنية** بالاتفاق أيضًا[4]؛ لأن حركة النفاق لم تظهر إلا في المدينة.

✽ **وسبب نزولها** مشهور، **والراجح** أنه كان في غزوة المُرَيْسِيع، أو غزوة بني المُصْطَلَق، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكَسَعَ[5] رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فغضب الأنصارِيُّ غضبًا شديدًا، حتى

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٥٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٥)، و«مسند الحارث» (٢/ ٧٣١)، و«مسند البزار» (١٠/ ٢١٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، والمصادر السابقة.

(٥) أي: ضرب دبره بيد أو رجل أو سيف. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٧٣)، و«لسان العرب» (٨/ ٣٠٩) «ك س ع».

تَدَاعَوْا[1]، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟**». قالوا: يا رسولَ الله، كَسَعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلًا من الأنصار. فقال: «**دعوها؛ فإنها منتنةٌ**». فسمعها عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ فقال: قد فعلوها، أَقَدْ تَدَاعَوْا علينا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال عمرُ: دعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق. فقال ﷺ: «**دَعْهُ؛ لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابه**»[2].

وعن زيد بن أَرْقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ في غزاة، فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلُولَ يقول: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسولُ الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومَقَتَكَ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾. فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأ، فقال: «**إن اللهَ قد صدَّقك يا زيدُ**»[3].

وقيل: إن الحادثة وقعت في غزوة تبوك، وهو ضعيف، بل كانت في غزوة بني المُصْطَلِق- وهي: المُرَيْسِيع- في السنة الخامسة من الهجرة[4].

---

(١) أي: حتى استغاثوا. ينظر: «عمدة القاري» (١٦/ ٨٨)، و«إرشاد الساري» (٦/ ١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

وينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠- ١٢٢، ١٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، و«فتح القدير» (٢/ ٤٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٣١- ٢٣٢).

(٤) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٤٤)، و«الروض الأنف» (٧/ ١٨)، و«أسد الغابة» (١/ ٥٧٤)، و«عيون الأثر» (٢/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٤٩)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١- ٢٣٢).

* ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ جمع: منافق، وهو اصطلاح شرعي جديد لم يكن مستخدمًا من قبل، وهو مأخوذ من النفق، وهو الطريق الخفي المفتوح من جهتيه[١]، وبعض الحيوانات تحفر في الأرض حفرة وتجعل لها بابين إن حوصرت من هنا خرجت من هنا، فهم قد وضعوا رِجْلًا مع الإسلام ورِجْلًا مع الكفر، فإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وأول مَن أنشأ النفاق في المدينة هم اليهود، فهم مؤسِّسو النفاق وزعماؤه؛ ولذلك كان كثير من المنافقين من يهود أهل المدينة الذين أظهروا الإسلام، وفيهم من الأوس والخزرج الذين تأثروا بهم[٢].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ[٣].

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾: فيعلنون إيمانهم خداعًا وحقنًا لدمائهم، وبحثًا عن مصلحتهم العاجلة، ويُقسمون على ذلك، أو أن الشهادة ذاتها تعتبر قَسَمًا ويمينًا وهم لم يقولوا: «نعلم»، وإنما صرحوا بلفظ: الشهادة: ﴿نَشْهَدُ﴾.

والشهادة: إقرار بالشيء كأنه يشاهده بعينه من شدة يقينه، وهم يؤكِّدون الشهادة بحرف «إنَّ»، وباللام، وبالقَسَم[٤].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ولأن الآية وصفتهم بالنفاق ابتداءً، فإن السياق يعتني بالفصل بين كون الرسالة حقيقة من عند الله، وبين كون ادِّعائهم أنهم يشهدون كذبًا بما ليس في قلوبهم المنطوية على الكفر.

فألغى شهادتهم، وكذَّبهم فيما نسبوه لأنفسهم، وأثبت الرسالة بعلمه المحيط،

---

(١) ينظر: «العين» (٥/ ١٧٧- ١٧٨)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٤٣٢) «ن ف ق».

(٢) ينظر: «الإيمان» لابن تيمية (ص٢٣٥)، و«السيرة النبوية» لأبي شُهبة (٢/ ٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٤)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٣٨- ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٢- ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٤).

وهو الذي أرسله[1]، وعبَّر بلفظ العلم؛ تنويعًا، كما عبَّر بلفظ: الشهادة في «سورة آل عمران» في ابتداء الوحدانية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

* ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾:

تعريض بعبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، لما جاء إلى النبي ﷺ وحلف بالله أنه ما قال هذا، وزعم أن زيدًا رضي الله عنه كاذب فيما نسب إليه[2].

والجُنَّة- بضم الجيم-: الدِّرع أو التُّرس الذي يضعه الإنسان على جسده أو بعض جسده ليقيه من السلاح[3]، فهم جعلوا أَيْمانهم وقاية من أن يُعاقبوا أو يُؤاخذوا أو تُقام عليهم الحدود والعقوبات[4].

والأَيْمان جمع: يمين، وهو الحلف[5]، فهم يحلفون على الكذب وهم يعلمون، ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم.

وقُرئ بكسر الهمزة: **(إِيْمَانَهُمْ)**[6]، أي: أنهم تظاهروا بالإيمان لا صدقًا ولا رغبة فيما عند الله، بل لأجل عرض زائل من الدنيا، ومنه حماية أنفسهم، والحصول على ميزات اجتماعية يخافون فقدها[7].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٥).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) ينظر: «تاج العروس» (٣٤/ ٣٦٨) «ج ن ن»، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٠).

(٦) وهي قراءة الحسن البصري. ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص١٥٧)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٧).

(٧) ينظر ما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٦﴾.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: صدُّوا أنفسهم عن سبيل الله، وكأنهم استمرؤوا هذا وظنوا أن المسلمين لا يدركون حيلهم وأحابيلهم، وكذبوا وصدَّقوا الكذبة؛ ولهذا استمروا على كذبهم وتلبيسهم[1].

أو يكون المعنى: صدُّوا غيرهم عن سبيل الله، وهذا ظاهر من أفعالهم؛ فهم يحلفون ليغرُّوا غيرهم ويخدعوهم بتظاهرهم بالصدق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾:

والآية تحتمل أنهم آمنوا عند النبي ﷺ، ثم كفروا عند أصحابهم وشياطينهم الذين يثقون بهم[3]، كما قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. والشياطين هؤلاء هم مدرسوهم من اليهود وغيرهم.

وتحتمل أنهم آمنوا ظاهرا بألسنتهم، ثم كفروا باطنًا بقلوبهم وأعمالهم[4].

وتحتمل أن ناسًا من اليهود آمنوا بموسى، ولما جاء النبيُّ ﷺ كفروا به: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩].

والاحتمال الرابع: أن يكون ذلك إشارة إلى بعضهم الذين وقع منهم شيء من الإيمان ثم تركوه[5]، كما في صدر «سورة البقرة»: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[6] [البقرة: ١٧].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٧).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥- ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٧).

(٦) وقد أفاض ابن القيم في شرح المثل الناري والمثل المائي. ينظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١١٦- ١١٨).

فيكون المقصود أنهم أول ما سمعوا القرآن وقع عندهم شيء من الإيمان ولما رجعوا إلى أصحابهم غسلوا أدمغتهم وعقولهم وزيَّنوا لهم الباطل وصرفوهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فكفروا بعد ما وقع منهم شيء من الإيمان.

ولا مانع من حمل الآية على هذه المعاني كلها، والله أعلم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: والطبع على القلب أن يصبح أعمى، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، كالكُوز مُجَخِّيًا، كما قال ﷺ[1]، فالقلب المطبوع بخلاف القلب الحي السليم.

والطَّبع من الله، فهو الذي طبع على قلوبهم[2]، ولكن هذا الطبع بسبب أنهم استكبروا عن الإيمان والإذعان لدعوة الرسول ﷺ، واتخذوا أَيْمانهم جُنَّةً، يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره؛ ولم يريدوا الحق ولا أصغوا إليه، ولا توجَّهوا إلى ربهم بسؤال الهداية.

﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾: **والفقه**: المعرفة القلبية التي تميز بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والمعروف والمنكر[3].

* ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾:

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾: ليس المقصود المنافقين كلهم، ففيهم الطويل والقصير والسمين والنحيف، بل هو إشارة إلى مجموعة خاصة منهم، وعلى رأسهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ شيخُ النفاق[4]؛ ولذا قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) وقد قرأ زيد بن علي: (فَطَبَعَ) يعني: الله. وقرأ الأعمش وزيد بن علي- في رواية أخرى-: (فَطَبَعَ اللهُ). ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٧- ٤٦٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٩).

«كان عبدُ الله ابنُ أُبَيٍّ وَسِيمًا جَسِيمًا صَحِيحًا صَبِيحًا ذَلْق اللِّسان»[(1)].

فكان الرجل فيه خصال القوة في جسده، وهذا ليس مدحا في أصله وليس ذمًّا؛ لأن الله قال عن طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ولكن معناه أن هذه الأجساد خواء؛ وقد لقي أحد الشيوخ شابًّا فأعجبه، فقربه منه وسأله، فوجده لا يفقه شيئًا، فقال: ياله من بيت لو كان فيه سكان! فالجسم بيت جميل، ولكن لا روح فيه ولا عقل.

وبسطة الجسم صفة محايدة ليست صفة نقص ولا كمال، فهو يوجد في بعض المؤمنين وفي بعض المنافقين، وقد أثنى الله على جمال يوسف وقوة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكان محمد ﷺ حسن الصورة والقامة، كأن وجهه القمر بأبي هو وأمي.

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾: في ذلك إشارة إلى الفصاحة[(2)]، وهي بحد ذاتها معنى جميل، وكان النبي ﷺ يُوصف بأنه أُوتي جوامع الكَلِم[(3)]، وأفصح مَن نطق بالضاد[(4)]، وقال موسى عن هارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ [القصص: ٣٤].

في كلام هؤلاء المنافقين كثير من التقعر والتفيهق والتكلُّف وزخرفة القول دون طائل، وأنت تجد خطيبًا أو شاعرًا يحسن الكلام والتصريف، وليس من وراء كلامه معنى، ولو كانت الفصاحة لنصرة الحق وهداية الناس أو للمعاني الجميلة لكانت محمودة.

﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾: و﴿خُشُبٞ﴾ بضم الخاء والشين، جمع: خشبة.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٩).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٤) وما يُروى أن النبيَّ ﷺ قال: «**أنا أفصحُ مَن نطق بالضاد**». فهو لا أصل له، قاله ابن كثير وغيره. ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٣)، و«المقاصد الحسنة» (ص١٦٧)، و«كشف الخفاء» (١/ ٢٢٨)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٢٧).

وفي قراءة: (خَشَبٌ) بفتحتين[1]. فوصفهم الله بحسن الصُّور، وإبانة النُّطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخُشُب.

و﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: ممالة إلى الجدار، فهم لا يسمعون الهُدى، ولا يقبلونه، كما لا تسمعه الخشب المسندة[2].

ولو كانت هذه الخشب في الأشجار لكانت حية مخضرَّة نامية ينتفع بها، ولو كانت مما يستفاد منه في البناء أو الإيقاد فكذلك، لكنها مسنَّدة مركونة على جدار تضر ولا تنفع، ولا يستفاد من طولها وعرضها وكثرتها إلا شغل المكان وتعويق الطريق[3]!

ويحتمل أن يكون شبَّههم بالخشب عند ما يكونون في ناديهم أو مجلسهم، وكل واحد منهم في زاوية وقد اتَّكأ على الجدار يقول الزور ويغشى الفجور[4].

لقد خسر المنافقون نبيل الصفات الإنسانية، وهي الصدق، والصدق محمدة حتى عند عرب الجاهلية، إذ كانوا يستقبحون الكذب، وفي قصة غَوْرث بن الحارث أنه قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «**الله**». فسقط السيفُ من يده، فأخذه رسولُ الله ﷺ، فقال: «**مَن يمنعك مني؟**». قال: كن كخير

---

(١) وهي قراءة ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وسعيد بن المسيّب. ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦).

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء وسكون الشين، وقرأ الباقون: ﴿خُشُبٌ﴾ بضمتين. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٣٦)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص٣٨٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٦، ٢٨٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٩- ٤٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٣- ٦٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦).

آخذ، قال: «**أتشهدُ أن لا إله إلا الله؟**». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله[1].

فهذا مع جهله لم يحقن دمه بالكذب، ولا اتخذ إيمانه جُنَّة؛ لأن فيه كرامة الإنسان وصدقه ووضوحه.

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: كلما سمعوا صائحًا في المدينة لا يعرفون مصدره ظنوا أنهم المستهدَفون المقصودون، وأنه ينادي لمحاربتهم؛ لأنهم أصحاب مكائد ومؤامرات ودسائس، اجتمع لهم خبث نواياهم وقبح أعمالهم وإضمارهم العداوة والحقد والبغضاء للمؤمنين، وفي كل لحظة يتوقعون أنهم افتضحوا وبانت حقيقتهم، فلذا يحسبون كل صيحة عليهم، وهذا من خورهم وجبنهم[2].

﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾: إشارة إلى شدة عداوتهم، وكأنه لا عدوّ غيرهم، كما قيل[3]:

فمنهم عدوٌّ كاشرٌ عن عدائه ... ومنهم عدوٌّ في ثياب الأصادقِ

ومنهم قريبٌ أعظمُ الخَطْب قربُه ... له فيكم فعلُ العدوِّ المفارقِ

أردتم رضا الرحمن قلبًا وقالبًا ... ولم يطلبوا إلا حقيرَ الدوانقِ

فسدَّد في درب الجهاد خطاكُمُ ... وجنَّبكم فيه خفيَّ المزالقِ

وخصَّهم بذلك؛ لتلبسهم ومخالطتهم المؤمنين بالمدينة، واطلاعهم على عورات المسلمين، ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾: ونلحظ هنا أن الله لم يقل: «فاقتلهم»، أو: «فانفهم من الأرض»، وإنما أمره بالحذر[4]، وهذا أصل عظيم في التعامل مع المنافقين،

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٩) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥- ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠- ٢٤١).

(٣) للشاعر عصام العطار.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤١).

فقد كانوا يُصلُّون مع المسلمين ويصومون، وقد يقع لبعضهم الخروج للجهاد، وكانوا يُعاتَبون على القعود عن الجهاد، كما في قصة تبوك: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩٠]، وجاءوا واعتذروا من النبي ﷺ، فقبل منهم عذرهم.

وليتنا نعامل بعضنا بعضًا مثلما كان الرسول ﷺ يعامل المنافقين، ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، أنه لما جاء المنافقون واعتذروا من النبي ﷺ قَبِلَ منهم علانيتهم وكفَّ عنهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله[1].

وإن استغفرت لأخيك المسلم فبها ونعمت، وإن لم تستغفر فهذا شأنك، يكفي أنك تكف عنه شرَّك، ولا تفسِّر أعماله تفسيرًا سيِّئًا، وأوكلت سريرته إلى الله.

إن المنافقين تنظيم سري متآمر متغلغل في الأمة وعدو لها، وهذا يقتضي الحذر والتيقظ، وبخاصة أنهم من البيئة نفسها ويتكلمون اللغة ذاتها، وينتمون إلى المكونات عينها، ويتظاهرون بأنهم من الطينة نفسها، وربما زادوا وزايدوا وحاولوا هدم الإسلام باسم حمايته والغيرة عليه.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: وهذه صيغة دعاء تستعمل حتى مع مَن يخطئ، فيقال: قاتل الله فلانًا، كيف فعل كذا، أو قال كذا!

ويجوز أن يكون المعنى: أن الله تعالى هو الذي يتولَّى قتالهم ويحبط مخططاتهم، ولم يقل لنبيه ﷺ: قاتلهم[2].

وهذا يلقي مزيدًا من الضوء على قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

إن مجاهدة المنافقين تختلف عن مجاهدة الكفار، وليس قتالهم موكولًا إلى الناس.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦- ٣٠٧).

ثم تعجب منهم كيف يصدفون عن الحق على رغم وضوحه وبيانه، وأنهم يحاجون في الله من بعد ما استجيب له، فقد رأوا النبي ﷺ وشهدوا التنزيل وخالطوا المسلمين ورأوا العبر والآيات، ولكن السبب هو ما سبق من الطبع على قلوبهم، لمَّا صدوا وأعرضوا[1].

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: لعل القائل ممن يختلط بهم، وهو أحسن حالًا منهم، فهم كانوا درجات، كما نُقل عن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ أنه لما رجع في غزوة أُحد بثلث الجيش، أو بعد قصة المُرَيْسِيع بدأ الناس يتفرقون من حوله ويسيئون الظن به، فحينئذ جاءه بعضهم وقال له: تعال يستغفر لك رسولُ الله[2].

وتعال: أصلها مشتق من العلو، أي: اذهب إلى جهة العلو، لكن نُسي هذا المعنى، وصار يراد بها معنى: هلم، أو: احضر[3].

وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم عرفوا أن رسول الله ﷺ رجل لين سمح سهل يحب الخير للناس ويؤثر جانب الرحمة، وقد قال له ربه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وليس المقصود العدد، وإنما المراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار فلن يغفر لهم ربهم[4]، ومع هذا قال ﷺ: «**إني خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلمُ أني إن زدتُ على**

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٢٩٥)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢/ ٢٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٨٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٤، ٥٨٤) «ص ع د»، «ع ل ا»، و«زاد المسير» (١/ ٢٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٣)، و«عمدة القاري» (١١/ ١٥١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٤)، و«فتح القدير» (٢/ ٤٤١)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٧٨).

السبعينَ يُغفرُ له لزدتُ عليها»[1].

﴿**لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ**﴾: قُرئت بالتشديد وبالتخفيف[2]، والتشديد أبلغ؛ لأن معناه أنه لم يلووه مرة واحدة، وإنما مرات[3]، وقالوا: لن نذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لنا.

و﴿**لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ**﴾ مظهر من مظاهر الإعراض والتعالي والصدود، فهم يميلون رؤوسهم ويصرفون وجوههم امتناعًا واستهزاءً، ولذا قال: ﴿**وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾.

وفيها معنى آخر، وهو أنهم لا يريدون أن تلتقي أعينهم بأعين مَن يحادثهم ويقترح عليهم؛ لأن العيون تفضح؛ ولهذا قال سبحانه عنهم: ﴿**تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[4] [الأحزاب: ١٩].

فهم يلوون رؤوسهم إلى غير جهة المتحدِّث حتى لا يراهم ولا يقرأ علامات الكذب والخبث في عيونهم.

﴿**وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾: فليس في صدورهم إيمان ولا هُدى، إنما هو الكِبر، وما منعهم من الإيمان إلا هو؛ ولهذا لا يجتمع الإيمان والكبر في قلب امرئ مسلم، قال ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً. قال: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٢٦٩، ١٣٦٦، ٤٦٧٠، ٤٦٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٠، ٢٧٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٣٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٨)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٧١- ٤٧٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٦- ١٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧).

الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»[1].

وكان من رحمة الله برسوله ﷺ أَلَّا يأتوا إليه؛ لأنهم لو جاؤوه فاستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فمن حِفظ الله لنبيه ﷺ أَلَّا يدعو الدعاء الذي لا يستجاب، فرحمه الله بأنهم لم يأتوه وصاروا يصدون وهم مستكبرون.

* ﴿**سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦**﴾:

﴿**سَوَآءٌ**﴾ هنا، وفي «سورة البقرة» في شأن الذين كفروا: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ**﴾ [البقرة: ٦]، تدل على استواء الطرفين؛ ولهذا يأتي بعدها ذكر الطرفين، وهما هنا الاستغفار وعدمه[2]، وفي «سورة البقرة» الإنذار وتركه؛ ولأنه يستوي عندهم الاستغفار وعدمه حَكَم الله عليه بأنه سواء عليهم هذا أم ذاك، فالله تعالى علم منهم ما جعل المغفرة عليهم حرام: ﴿**أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ**﴾، **والفاسق** هو: الخارج على الطاعة وعن الحق[3]، فهم لا يهتدون.

* ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧**﴾:

﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ**﴾: يحتمل أن يكون المراد المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وتركوا أموالهم وبيوتهم في سبيل الله، فيقولون: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا، ويتركوه ويبتعدوا عنه[4]، وهم يظنون

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٦٣)، (٢٢/ ٦٥٨)، و«الكشاف» (١/ ٤٧)، (٤/ ٥٤٣)، (٣٠/ ٥٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٢٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٨).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٣٦)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ١٢٠)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٣٠٢) «ف س ق».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧).

أن الدنيا تدار بالدرهم والدينار، وبمجرد ما يتوقف الإنفاق سوف ينفضون مسرعين زرافات زرافات!

وربما قصدوا فئة من الفقراء، كأصحاب الصُّفَّة، وبعض الأعراب الذين يأتون وما عندهم شيء.

وقد ورد أن عبد الله بن أُبَيٍّ قال ذلك مظهِرًا للشفقة، وأعلنه؛ ولهذا قال: ﴿**عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ**﴾، ولم يقل: «على من عند محمد»؛ لأنه قالها في المجلس، فذكر أن النبيَّ ﷺ يأتي عنده الأعراب والفقراء فيحضرون مائدته، فلا تقدِّموا الطعام حتى يذهبوا بعيدًا[1].

وهم بهذا يظهرون الشفقة، وقصدهم أن يبتعد الناس عن النبي ﷺ وعن الإيمان والعلم، وينقطعوا عن مجالسته[2].

والمهاجرون كانوا رجالًا يعتمدون على أنفسهم في الكسب والتجارة، وهم أهل أسواق ومواسم ورحلات مشهورة.

يدل لذلك: قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما آخى النبيُّ ﷺ بينهما، فعرض سعد بن الرَّبيع عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئًا من أَقِطٍ وسمن، فرآه النبيُّ ﷺ، بعد أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرة، فقال النبيُّ ﷺ «**مَهْيَمْ يا عبدَ الرحمن؟**». أي: ما الخبر؟ قال: يا رسولَ الله، تزوجتُ امرأةً من الأنصار. قال: «**كم أصدقتها؟**». فقال: وزن نواة من ذهب، فقال ﷺ: «**بارك اللهُ لك، أولم ولو بشاة**»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢١، ١٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٤٨) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٢٠٤٩، ٣٧٨١، ٣٩٣٧)، ومسلم (١٤٢٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أثنى أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأنصار وحسن بلائهم، واستشهد بقول الطُّفَيل الغَنَويِّ[1] لبني جعفر:

جزى اللهُ عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يَمَلُّونا ولو أنَّ أُمَّنا ... تُلاقي الذي يَلْقَونَ منا لملَّت

هم خَلَطونا بالنفوس وألجئُوا ... إلى حُجُرات أَدْفَأَتْ وأظلَّت

والإسلام دين ينهى عن التواكل، ويحث على العمل والكدح والإنتاج.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: **قيل**: خزائن السماوات: المطر، وخزائن الأرض: النبات.

وقيل: خزائن السماوات: الغيوب، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وخزائن الأرض: القلوب، أن يسخر الله قلوب العباد بعضهم لبعض.

والأولى العموم، ويدخل في خزائن السماوات: المطر، والشمس بأشعتها، والهواء، وكل ما ينزل مما ينفع الناس، وغيرها مما لا يعلمه الناس، وخزائن الأرض: النبات والنفط والثروات المكنوزة في باطنها، وما يظهر ويدب على ظاهرها من حيوانات وناس[2].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾: فهذا من المعاني الإيمانية القلبية، والمنافقون لا يفقهون في الإيمان والأخوة والإيثار والقيم النبيلة، فكيف لمَن هم كالخُشُب المسندة أن يفقهوا هذه المعاني المشرقة؟ إنما هم عكوف على ظاهر من الحياة الدنيا وعلى الأشكال والرسوم.

---

(١) ينظر: «الخراج» ليحيى بن آدم (٨٤)، و«الأم» (١/ ١٨٩)، و«الحماسة الصغرى» (ص٢٥١)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٤٨٩)، و«عيار الشعر» (ص١٤٠)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٧١)، و«لسان العرب» (٩/ ١٧١)، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١٣/ ١١٦)، وما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ...﴾ [الحشر: ٩].

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٨).

* ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

وهم يعتقدون أنفسهم أعزة، وأن الرسول ﷺ ومَن معه هم الأذلاء[١]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالعزة لله ولرسوله ولمَن آمنوا بالله ورسوله، فلهم عزة الباطن بالإيمان، وعزة الظاهر بالنصر والغنى والتمكين، وفي حال الاستضعاف لهم عزة الثقة بالله والانتساب لدينه وانتظار فرجه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وقد عبَّر في شأن المال والخزائن بأنهم لا يفقهون[٢]؛ لأن الأمر يتطلَّب فقهًا قلبيًّا عميقًا، في حين أنه عبَّر هنا في شأن العزة بعدم العلم؛ لأن الأمر أوضح وأظهر، فهو مدرَك بالعيان لمَن أراد، وإن كان بعض المنافقين يغالطون ويجادلون في الحقائق، ويتجاهلون الدلائل الواقعية على ظهور الإسلام وقوته وانتشاره وغلبة أهله.

وهم حسبوها حسية سطحية أن عدد أهل المدينة كذا وعدد المهاجرين كذا، فأهل المدينة أكثر، ولذا يمكن أن نُخرجهم من المدينة، في حين أن الأمر على خلاف تقديرهم لأمرين:

١- أن المهاجرين ازدادوا يومًا بعد يوم؛ وإذا كانت غزوة المُرَيْسِيع في السنة الخامسة، فمن المحتمل آنذاك أن يكون عدد المهاجرين متساويًّا لأهل المدينة إن لم يكن أكثر.

٢- أن أهل المدينة أنفسهم أصبح أكثرهم مع صف الإيمان بالرسول ﷺ ومع المهاجرين ضدكم أيها المنافقون؛ ولذلك أنتم محشورون منعزلون وعددكم قليل ولكنكم لا تعلمون ولم تدركوا أن ثمة تغيرًا يطرأ على الساحة تتسارع خطاه.

والجملة التهديدية التي قالها ابنُ سَلُولَ كانت في حالة غضب، فكانت في بدايتها صغيرة، ومعظم النار من مستصغر الشَّرر.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٩).

(٢) كما في الآية السابقة. ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٠).

وكثيرًا ما تكون الحروب العظيمة بسبب شرارة لا يُؤْبَه لها، والظاهر أن إدراك المنافقين- وكبارهم بخاصة- أن الوقت ليس في صالحهم، وأن قوتهم تتآكل، وقوة الإسلام تزداد، يجعلهم يفتعلون مثل هذه الحوادث، ويستغلونها لإحداث البلبلة وتهييج البسطاء، وتغريرًا لحدثاء العهد بالإسلام، وإضلالًا لهم ليرجعوا إلى الكفر.

وهنا فائدة، وهي أن على العقلاء والحكماء أَلَّا يسترسلوا في سماع كلام الصغار والسفهاء ولو نشروه في وسائل الإعلام، فقد يُثير فتنًا من لا شيء، وطي الكلام وتجاهله ما أمكن أفضل من إشاعته وإعادته وترديده ولو على سبيل النقد أو الرفض له، فإماتة الباطل بتجاهله أفضل وأولى.

ثم إن من المداخل الخطيرة على المجتمعات محاولة زرع الفتنة فيها، وتحريك بذور العصبيات التي تحمل على الاحتراب، كالإقليمية والقبلية والعنصرية والعصبية الجاهلية، والواجب أن يشعر الناس بنعمة الله عليهم بالوحدة: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأن لا يتعاطى طرف ازدراءً أو تهوينًا أو تحقيرًا لغيره، ولا يستعرض قوته وعدته، فالأمر كما قيل[(١)]:

جـاء شَـقِـيـقٌ عـارضًـا رُمحه   إن بـنـي عـمـك فيهـم رِمـاحُ!

وفي القصة مشهد يسترعي الانتباه، وهو أن عبدَ الله بنَ أُبيٍّ ابنَ سَلُولَ بعد ما قال ما قال، استأذن عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ في قتله، فأبى عليه رسولُ الله ﷺ، وقال: «**ادعُوا لي عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبيٍّ**». فدعاه، فقال: «**أَلا ترى ما يقولُ أبوك؟**». قال: وما يقولُ بأبي أنت وأمي؟ قال: «**يقولُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ**». فقال: فقد صدق والله يا رسولَ الله، أنت والله الأعزُّ، وهو الأذلُّ، أما والله، لقد قدمتَ المدينةَ يا رسولَ الله، وإن أهلَ يثربَ ليعلمون ما بها أحدٌ أبرَّ مني، ولئن كان يُرْضي اللهَ ورسولَه أن آتيَهما برأسه لآتينَّهما به. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لا**». فلما

---

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٢٢٢)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص٤١٣)، و«معاهد التنصيص» (١/ ٧٢) منسوبًا إلى حَجَل بن نَضْلة.

قدموا المدينةَ قام عبدُ الله بنُ عبد الله بن أُبَيٍّ على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائلُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؟ أما والله لتعرفنَّ العزةُ لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظلُّه، ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي. فقال: والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجالٌ فكلَّموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه، فقال: «**اذهبوا إليه، فقولوا له: خَلِّه ومسكنه**». فأتوه، فقال: أما إذ جاء أمرُ النبي ﷺ فنعم[(١)].

ثم جاء ابنه إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريدُ قَتْلَ عبدِ الله ابنِ أُبَيٍّ، فإن كنتَ فاعلًا فَأْمُرني به، فأنا أحملُ إليك رأسَهُ، فوالله لقد عَلِمَتِ الخزرجُ ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالدِهِ مني، ولكني أخشى أن تأمرَ به رجلًا مُسلمًا فيقتلَهُ، فلا تَدَعُني نفسي أن أنظرَ إلى قاتلِ عبدِ الله يمشي في الأرض حيًّا حتى أقتلَه، فأَقْتُلَ مؤمنًا بكافرٍ، فأدخلَ النارَ. فقال ﷺ: «**بل نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، ونَتَرَفَّقُ به ما صَحِبَنا**»[(٢)].

وعاده النبيُّ ﷺ في مرضه، وصلَّى عليه عند موته، وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[(٣)] [التوبة: ٨٤].

ففي هذا البر والحفاظ ورعاية الحقوق وحسن التأتِّي وسياسة الأمور بصبر ورويَّة وتسامح مع اليقظة والحذر وعزل التأثير السيء للقوى المضادة.

* **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾**:

مناسبة الآية لما قبلها[(٤)]: أن من سمات المنافقين أنهم ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٦٦).

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٦١)، و«كشف المشكل» (٢/ ٥٣٢)، و«أسد الغابة» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨)، و«الإصابة» (٤/ ١٥٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٥٩٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٠).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٠).

خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، بخلاف المؤمنين الأتقياء الذين ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، بألسنتهم، وبقلوبهم، وبأبدانهم، بالتزام الطاعة وترك المعصية.

ففي الآية التحذير من صفات المنافقين الذين اعتزُّوا بأموالهم وأولادهم، وظنوا أن المال هو كل شيء، وأن مَن أعطوه المال فقد كسبوه، ومَن حرموه المال افتضَّ وذهب، وأن الغنى دليل الفلاح والنجاح، والفقر دليل الشقاء والتعاسة والتحقير: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وليس المقصود التخلِّي عن المال، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح**»(١).

والمال له عبودية وزكاة، وبه يستطيع المسلم أن يعف ويكف وينفق ويتصدَّق ويجاهد، وإنما المذموم تجاوز حدود ما أمر الله به، أو أن يكون المال مشغلة عن ذكر الله.

* ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

طلب إليهم أن يكسبوا المال من حلال، وأن ينفقوه في حلال، وأن يبادروا الآجال بصالح الأعمال، وذكَّرهم بأن المال عارية، وهو من الله وإليه، فهو من فضله ورزقه، وسوف يزول عنك أو تزول أنت عنه، وتصبح وحيدًا فريدًا بلا أهل ولا مال، ولذا عبَّر بقوله: ﴿أَحَدَكُمُ﴾ ولم يقل: «من قبل أن يأتيكم الموت»؛ لأن الإنسان يموت وحده، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥]. والإنسان يتعزَّز بقرابته وأهله ومَن حوله، لكن إذا حضرته الوفاة لم ينفعه أحد ﴿فَيَقُولَ﴾ إذا أتاه الموت على سبيل التمنِّي والدعاء: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، يريد أيامًا معدودات، وفرصة ولو قصيرة

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٦١)، وأحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم (٢/ ٢، ٢٣٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طالما توفرت له فضيَّعها وسوَّف وماطل وغفل ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولن ينفع هذا التمني بعد إذ وقع الأمر موقعه وحضرت الوفاة.

وفي الآية سر عظيم، فما من أحد يموت إلا وتحضره ندامة؛ إن كان محسنًا ندم أَلَّا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أَلَّا يكون نزع وتاب، **وغالب ما يندم عليه المرء عند الموت يتعلق بأمور خلاصتها ما يأتي**:

١- يندم أَلَّا يكون مؤمنًا صالحًا تقيًّا، كما أشارت الآية، وهذا يتعلق بصلته بربه، وضمن ذلك استذكار الذنوب والمعاصي والمخالفات والأوقات التي أُهدرت فيها، وكلما كانت المعصية أكثر متعةً وأطول وقتًا كانت ندامتها عند الموت أعظم.

٢- يندم أَلَّا يكون قدَّم إحسانًا إلى الناس وخيرًا، كما دلَّ عليه الندم في الآية على عدم الصدقة والإنفاق، ويشمل هذا من باب أولى الندم على ظلم الناس أو بخسهم حقوقهم أو العدوان عليهم في أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم.

٣- يندم على أن يكون عاش عمره في مجاملة للآخرين وتصنع لهم، ولم يعش حياته كما يريد هو، ويتمنى لو أنه اعتزل التمثيل وظهر بشخصيته الحقيقية وأحلامه وطموحاته.

٤- يندم على الإفراط في العمل الدنيوي كالوظيفة أو التجارة بما أثَّر على صحته ونفسيته، ومن ثَمَّ حُرم من متعة الحياة وزينتها، وقصَّر في حقوق الأهل والقرابة من أجل شيء لم يعد ينفعه في قليل ولا كثير.

٥- يندم على تفويت الأصدقاء الذين كانوا يستحقون أن يضحِّي من أجلهم فضحَّى بهم.

٦- يندم على فوات فرص الاستمتاع والسعادة التي كانت على مقربة منه، ولكنه عاش مع المظاهر والشكليَّات وليس مع الحقائق.

٧- يندم على كبت مشاعره وأحاسيسه، سواءً كانت إيجابية بالتعبير عن الرضا والحب والامتنان، أو سلبية بالتعبير عن العتب والمؤاخذة.

وقد كتبت الممرضة الاسترالية (بروني وير) كتابًا مفيدًا عن أهم خمسة أشياء

يندم عليها الإنسان عند الموت[١].

* ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾:

النفس: مشتقة من النَّفَس الذي يتردد شهيقًا وزفيرًا، وهو علامة الحياة، فيكون معناه: الروح، **ويحتمل أن يكون المقصود**: الإنسان[٢]: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومصداق هذه الآيات: حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ويؤمرُ بأربع كلمات: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ**»[٣]. فهي آجال مضروبة وأعمال مكتوبة لا تتقدم ولا تتأخر.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: **الخبير** من أسماء الله الحسنى، والخبرة أدقُّ وأخص من العلم، وهي المعرفة بالدقائق واللطائف والأسرار[٤].

وهذا مناسب للسياق؛ لأن ما يقوله الإنسان عند بغتة الموت هي دعوى كاذبة غالبًا، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولو صحت منه النية لحسن منه العمل، والمؤمن يُؤجر على نيته الصادقة ولو حال القدر بينه وبين العمل؛ ولهذا قال ﷺ: «**يقولُ الله: إذا أراد عبدي أن يعملَ سيئةً، فلا تكتبوها عليه حتى يعملَها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنةً، وإذا أراد أن يعملَ حسنةً فلم يعملها فاكتبوها له حسنةً، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف**»[٥].

❍ ❍ ❍

(١) اسمه: «أمنيات ما قبل الموت».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٤) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٥١).

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «**سورة التغابن**»(١).

* **عدد آياتها:** ثماني عشرة آية باتفاق علماء العدِّ(٢).

* **وهي مدنية** عند جمهور المفسرين(٣)، وذهب الضحاك إلى أنها مكية(٤).

ولابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة وجماعة أن فيها المكي والمدني(٥).

وهذا أظهر وأقوى؛ فإن ما في السورة من موضوع البعث ومجادلة المشركين ما هو من أغراض السور المكية، وفيها من التحذير من عداوة الأولاد والأزواج ما هو أشبه بالمدني.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٥)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٨).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٨)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٤٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٤٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٩)، والمصادر السابقة.

* ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾:

الاستفتاح بالتسبيح معهود في مطالع السور، وخاصة المسبِّحات، وهو يأتي بصيغة المضارع، كما في هذه السورة، و«سورة الجمعة»، ويأتي بصيغة الماضي، كما في «سورة الحديد»، و«سورة الصف»، ويأتي بصيغة المستقبل (الأمر)، كما في «سورة الأعلى».

وصيغة الماضي إشارة إلى عراقة التسبيح، وأن التسبيح لله وُجد منذ وُجد مَن يسبِّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليس أمرًا طارئًا، بل هو راسخٌ قديمٌ قدم الأكوان.

أما في المضارع، فهو إشارة إلى التجدُّد، وأنه ليس شيئًا وقع وانتهى، بل هو مستديم مستمر مستغرق للزمان.

وأما الأمر، فهو إشارة إلى المستقبل وأن التسبيح باق لا يزول[1].

وثمة تسبيح الكون اللاهج بالثناء على الله وتمجيده: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن تسبيح الكائنات: انسياقها لأمر الله في نظام فلكي رباني منضبط لا يتقدم ولا يتأخر، وبهذا فسره بعض أهل العلم[2]، وهو جزء من المعنى، لكن لا يمنع أن نفهم من السياق أن كل شيء يسبِّح الله بلغة لا نفهمها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، في حين أن حركة الأفلاك مما يفقهه الناس ويدركونه ويقرؤونه.

ففي آيات الأمر بالتسبيح إشارة إلى الفرق بين تسبيح الكائنات الاضطراري الذي جُبلت عليه، وبين التسبيح الاختياري الذي يُؤمر به الجان والإنسان فيكون به مكلَّفًا؛ ولهذا لما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: ١]، قال ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**». ولما نزلت: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال:

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤١- ٤٤٢، ٥٢٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤١)، (٨/ ٤).

(٢) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (٩/ ١٠٠٦)، و«صفوة التفاسير» (٣/ ٣٠٢).

«**اجعلوها في ركوعكم**»[1]. والصلاة جزء منها تسبيح.

والتسبيح: تقديس الله سبحانه وتنزيهه عن صفات النقص كلها، وإثبات الكمال له وحده[2].

﴿وَمَا﴾ تُطلق غالبًا على غير العاقل[3]، كالسماء والأرض والنجوم والأفلاك.

وفي ذلك إشارة إلى أن في السماوات عوالم عظيمة لا يعلمها إلا الله، وفي الأرض مثل ذلك، فهي تفتح عقل الإنسان على امتداد المخلوقات وسعتها، وأنها كلها على كثرتها تلهج بالتسبيح بربها، أفلا يليق بالإنسان أن يكون مثلها؟! أَلَا يستحق المولى الذي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، هذا التسبيح؟! فهو سبحانه متفرِّد بالملك التام المطلق.

ولذلك من أسمائه: المَلِك، والمالك، ومالك يوم الدين، ولا ملك إلا له؛ لأن ملك الناس ملك ناقص محدود بزمن، أما ملك الله سبحانه فهو دائم لا يزول ولا يحول ولا يتغير[4].

وهو الذي خلق الأشياء ومنحها خصائصها ووجودها، وهو المتصرِّف وحده، فليس ثمتَ مُلْك حقيقي إلا له؛ ولهذا يقول سبحانه يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ويجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[5] [غافر: ١٦].

---

(١) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان من حديث عقبة ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٤٧١)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٦٢) «س ب ح»، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٦٤)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾.

(٣) ينظر: «شرح ابن عقيل» (١/ ١٤٧)، و«شرح الأشموني» (١/ ١٣٥)، و«شرح التصريح على التوضيح» (١/ ١٥٧)، و«همع الهوامع» (١/ ٣٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٨)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٦٥)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٥) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٢٣٦)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٥٠)، (٢٠/ ٢٩٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٧)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٤٣- ١٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٠٠)، والمصادر السابقة.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فلا حمد حقًّا إلا له، ولا يستحق الحمد المطلق إلا هو سبحانه[1]، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فهو المحمود بحق واستحقاق، وهو الخليق بقول المتنبي[2]:

تملَّك الحمدَ حتى ما لمفتخر ... في الحمد حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ

والحمد هو: الثناء على الله بصفات الكمال، كالقدرة والعلم والحلم والشكر والرضا والكرم والجود والفضل[3].

ويلحق الحمد الشكر، وهو الثناء على المحمود بالنعم التي أسداها إلى العباد، فتشكره على السمع والبصر والعقل والمال والولد[4].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: له القدرة التامة، ومن قدرته خلق السماوات والأرض وما فيهما[5].

وهذا الاستهلال العظيم يوحي بما بعده؛ لأنه سوف يتوجَّه بالتوبيخ والعتاب للشاردين عن الله.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها البشر[6].

ويحتمل أن يكون هنا وقف، ثم جاء ما بعده مستأنفًا: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢٦٥)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٩)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٣/ ٢٨٥).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٥)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٥٣)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٠١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٦)، و«المصباح المنير» (١/ ١٤٩) «ح م د».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٥).

(٦) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٢)، والمصادر السابقة.

ويحتمل أنه كلام متصل كالجملة الواحدة، **وبين المعنيين فرق**[1]:

وعلى قراءة الفصل يكون المعنى: أن الله تعالى خلق الناس، ثم بعد ذلك استأنف خبرًا جديدًا، وهو أن الناس أقسام؛ منهم الكافر ومنهم المؤمن، وعلى هذا لا إشكال.

أما على قراءة الوصل فالمعنى: أن الله تعالى خلقكم مختلفين، منكم الكافر ومنكم المؤمن، والمؤمن أشرف وأعظم منزلة، فكان المظنون أن يبدأ به، لكن الله تعالى بدأ بالكافر؛ لأنه حال أغلب الناس، كما في آيات كثيرة ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولأن سياق السورة في معاتبة وتوبيخ صنف من الكافرين، ودحض حججهم وادعاءاتهم، فكان من المناسب أن يبدأ بذلك تمهيدًا لما بعده[2].

وليس في الآية ما يدل على أن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا مشيئة؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن للأمر بالإيمان معنى، والله تعالى ضمَّن السورة نفسها الأمر بالإيمان: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التغابن: ٨]، وحذَّر من الكفر، وأن مَن كفر فإن الله تعالى غني عنه، وتوعَّد الكافرين، مما يدل على أن الإيمان أو الكفر هو اختيار العبد لنفسه، وإن كان الله علم ماذا سوف يحدث من العباد جملة وتفصيلًا.

فهو عليم بصير خبير لا تخفى عليه خافية[3]، وقد ثبت أن الله لو شاء ما أشركوا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠٠]، فلو شاء الله أن يجبر الناس على الإيمان لأكرههم عليه فكانوا مؤمنين كلهم، أو جعله جِبلَّة فيهم لا مندوحة

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٨٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١).

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٤).

لهم عنها كشأن الملائكة، ولكنه أراد بحكمته أن يجعل لهم مشيئة وإرادة، وهي ضرورة نفسية يعرفها كل أحد، أنه إن شاء أن يرفع هذا الإناء أو يضعه أو يشرب أو يقرأ أو يقوم أو يقعد أو يتكلم أو يسكت... وقد يأخذ شيئًا ثم يعزف عنه ويقول: لا أريده، هذا أمر مستقر معلوم، وكذلك ما يتعلق بالأخلاق والدين الأصل فيها أن الإنسان كائن مختار وحسابه على ضوء ما اختار لنفسه.

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهر، فبعد ما ذكر أن التسبيح يصدر من السماوات والأرض وما فيها على سبيل الفطرة والجِبلَّة، انتقل إلى خصوص الكائن المختار الذي بمقدوره أن يسبِّح أو يكفر وهو الإنسان، فبيَّن أن خلق الناس خاصة توجد فيه صفة أن يكون كافرًا أو مؤمنًا، وأن كثرة الكفر لا تضر الله شيئًا، ولله عوالم وملائكة تسبِّح دون فتور ولا كفور!

* ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾:

ومن الحقِّ: إتقان خلق السماوات والأرض، ووجود النظام والسنن والنواميس الضابطة لحركة الأفلاك، فلا يبغي بعضها على بعض، ولا تصطدم، وكلها تسير بمقدار يحقِّق مصالح الذين يعيشون على ظاهرها[1].

ومن الحقِّ: أن الله تعالى خلقها لحكمة في الدارين، ولإرادة تتعلق بإنزال الكتب وإرسال الرسل وابتلاء الناس؛ ولهذا ذكر عن المؤمنين تسليمهم ويقظة قلوبهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[2].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أعطى كل إنسان صورته[3].

---

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٥٦)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٣١٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«تفسير المراغي» (٢٨/ ١١٩)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٨٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٥٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، والمصادر السابقة.

ولهذا من أسمائه سبحانه: الخالق، البارئ، المصوِّر، فهذه معانٍ متسلسلة نهايتها التصوير، وهو ظهورك للحياة بهذه الصورة التي أنت عليها[1].

والله تعالى يمتن على الإنسان بحسن الصورة، واعتدال القوام وجمال الوجه والثغر والشعر واللسان والعقل والحركة، وفيه دليل على أن حسن صور الناس أمر مقصود، وكلها من أسرار الخلقة الربانية للإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وهذا يصنع إدراكًا لفضيلة الإنسانية، فهو بشر ومختار، وصورته أحسن صورة، ولو شاء الله لجعله كسائر الحيوان، كما قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٨]، وما يطرأ على هذه الصورة من نقص، فإن الغالب أنه من فعل الناس وتعدياتهم على الأجنة، كتسربات نووية إشعاعية، وهو خلاف الصورة المألوفة العامة بين الخلق كلهم، ومع ذلك هو لا يؤثِّر على أصل الصورة وجمالها، وإذا قارنت الإنسان بالحيوان، وجدت الفرق الكبير في الجمال والاعتدال والأشكال والنظرة والابتسامة والتفاهم، ومع تفاوت الناس في الصورة إلا أنهم يشتركون في حسن الخلقة.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: وهو إلماح إلى أن العمل من إيمان أو كفر سوف يرى ويحاسب عليه[2].

* ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾:

فعلمه سبحانه محيط بكل شيء، فيعلم ما تعلنون من الأعمال وما تسرون من العقائد والنوايا، ويعلم ما تظهرون وما تسرون، وما سوف يقع منكم من هذا وذاك

---

(١) ينظر ما تقدم في آخر «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ...﴾ [الحشر: ٢٤].

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«روح البيان» (١٠/ ٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«تفسير المراغي» (٢٨/ ١٢٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٦).

في المستقبل مما لا تعلمونه الآن[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: صاحبة الصدور التي لم تغادرها، كالأشياء المستكنة في الصدر، ومنها الشعور الخفي الذي لا يحس به صاحبه والعقل الباطن (اللاواعي) الذي يحتوي على مخزون المشاعر والانفعالات والبواعث والذكريات التي لا يشعر بها صاحبها[٢].

* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾:

أي: من قبلكم من الأمم السابقة الذين عُذِّبوا، ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عاقبة كفرهم في الدنيا بالاستئصال والنكال، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة[٣].

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أصابهم في الدنيا وينتظرهم في الآخرة، ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ كيف يرسل الله بشرًا مثلنا لهدايتنا[٤]؟ وفيه ازدراء للإنسانية.

فاستنكروا أن ينتمي النبي إلى جنس البشر، ولو عقلوا لعرفوا أن غاية تكريم

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٣).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٨)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١).

البشرية أن يكون من بينهم مَن يختاره الله للرسالة والنبوة[1].

والبشر لا يهديهم إلا نبيٌّ مثلهم، فلو جاءهم مَلَك ما استطاع أن يتعامل معهم كما يتعاملون هم، ولا يعرف طبائعهم وتكوينهم وعاداتهم وما جُبلوا عليه؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]؛ فكونه بشرًا أدعى للتأثير والاقتداء؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومن الحكمة في الدعوة أن يكون من كل أمة دعاة من أنفسهم، ولذا فالأبلغ أن يكون الدعاة في الولايات المتحدة الأمريكية من شعبها نفسه، وأن يكون دعاة الأوربيين منهم، وأن يكون مَن يدعو العجم من العجم، ومن الفرس الفرس؛ لأن كونه من جنسهم أدعى أن يكون أعرف بثقافتهم وخطابهم ولغتهم، وأقدر على معرفة طريقتهم في التفكير وأكثر فهمًا واستيعابًا لهم.

فاستنكارهم أن تكون هدايتهم من بشر عين الخطأ والإزراء بالإنسانية، ولذا قال: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ كفروا بالرسل والأنبياء، وأعرضوا عنهم وعن دعوتهم[2].

﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: والله تعالى غني بكل حال، ولكن يذكر الغنى بمناسبة وقوع الكفر، كما في قوله سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أوَّلَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكُم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»[3]. وذلك إشارة إلى أنه حينما دعاهم لم يكن ليستكثر بهم من قلة ولا ليستعزَّ بهم من ذلة، وإنما دعاهم لأنفسهم وأمهلهم وأقام عليهم الحجج وصبر عليهم، وهو الغني وهم الفقراء، ومع

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٨/ ١٢٢)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقرهم وكفرهم وغناه سبحانه فإنه يصطفي قومًا غيرهم من المؤمنين العارفين ثم لا يكونوا أمثالهم.

ومعنى استغنى: غَنِيَ، أو استغنى عن تكرار الدعوة لهم، فبعدما رفضوا الدعوة عوقبوا، وهو سبحانه غني عمَّن عصاه حميد لمَن أطاعه[1].

* ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾:

والزَّعْم هو: حكاية قول مظنته الكذب[2]؛ ولهذا جاء في الحديث: «**بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجلِ: زعموا**»[3]. وفي سنده ضعف[4]، **ومعناه**: أن يحدِّث بكل ما سمع، ولا يتحقَّق من أخباره[5].

ومن معانيه: الادِّعاء دون بينة[6]، ومنه زَعْم الذين كفروا هنا؛ فقد ادَّعوا أَلَّا بعث ولا نشور، **والمقصود**: كفار مكة ومَن كان على ديانتهم الوثنية[7]، أما غيرهم كأهل الكتاب فهم يؤمنون بالبعث، وإن لم يكن بالصورة الصحيحة السالمة من الخرافات.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٠) «ز ع م»، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤٨٨)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٠٧٥)، وأبو داود (٤٩٧٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٢، ٧٦٣)، وغيرهما من حديث أبي مسعود الأنصاري، أو حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «المهذب اختصار سنن البيهقي» للذهبي (٨/ ٤٢٦٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٥٥١)، و«الإصابة» (١٢/ ٤٢٣)، و«النكت الظراف» (٣/ ٤٥- ٤٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٨٦٦).

(٥) ينظر: «معالم السنن» (٤/ ١٣٠)، و«فيض القدير» (٣/ ٢١٤)، و«عون المعبود» (١٣/ ٢١٤)، وما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

(٦) ينظر: «الكليات» للكَفَوي (ص٤٨٨)، والمصادر السابقة.

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

ولما كان زعم الذين كفروا باطلًا قال الله لنبيه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾: أقسم عليهم بأن ما زعموه باطل، وأن الله تعالى سوف يبعثهم[1].

وهذه آية من ثلاث آيات في القرآن الكريم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه ﷺ أن يُقسِم فيها.

وفي «سورة يونس»: ﴿۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي «سورة سبأ»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وفي هذه السورة أقسم على حقيقتين: **الأولى**: البعث، وهي القضية الأهم التي مَن يؤمن بها سيلزمه الإيمان بما بعدها من الحساب.

والثانية: أن الإنسان سوف يُنبَّأ بما عمل: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، وليس المقصود مجرد الإخبار والكشف، بل المحاسبة والجزاء بالخير والشر[2].

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: وما له لا يكون يسيرًا عليه سبحانه، وهو الذي إذا أراد شيئًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

* ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: والمخاطَبون ربما زعم بعضهم أنهم يؤمنون بالله، ولكن الله يريد أن يكون إيمانًا حقيقيًّا موافقا لما جاءت به الرسل، وأن يتحول من مجرد إيمان نظري عقلي أو لفظي إلى إيمان عملي، فبعض الناس يؤمن بوجود الله، ولكن لا يعبده، ولا يلتزم بشرائعه مطلقًا، ولا يدين بها، فلا ينفعه هذا الإيمان، حتى يتحول إلى إيمان حقيقي والتزام واقعي.

﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن؛ بقرينة الإنزال[3]. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٣).

* ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: يجمع أعضاءكم، ثم تعود الروح إلى الجسد، ويخرج الناس من قبورهم، فهذا يوم القيامة، **ومن أسمائه**: يوم الجمع[١].

وسُمِّي: يوم الجمع؛ لأن الناس كلهم يجتمعون فيه[٢]، وتجمع لكل نبي أمته[٣] كما قال سبحانه: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وفيه جمع أعضاء الإنسان بعدما تفرقت؛ وذاك سمي: يوم الجمع، كما قال سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾[٤] [الشورى: ٧].

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: ولم يرد في القرآن الكريم لفظ ﴿التَّغَابُنِ﴾ إلا هنا، وهو مأخوذ من **الغَبْن**، وهو: أن يبيع الإنسان سلعة بأقل من ثمنها، ويكون الفرق فاحشًا[٥].

ووصف ذلك اليوم بـ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، والأصل أن التغابن يكون بين طرفين، كما تقول: تضاربا، أو تقاتلا[٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٤).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للحربي (١/ ٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٣١٧)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٨١).

(٦) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ١١٥)، وينظر: «شرح ابن عقيل» (٤/ ٢٦٤)، و«همع الهوامع» (٣/ ٣٠٤)، و«جامع الدروس العربية» (١/ ٢٢٠).

والوجه الآخر: أنه ما من مكلَّف إلا ويقع له غَبْن يوم القيامة، ويتمنى أن يُعاد إلى الدنيا، إن كان مسيئًا حتى يستعتب ويتوب، وإن كان محسنًا حتى يزداد إحسانًا[١]، فيكون الغَبْن لكل أحد من الناس، حتى الصالح الذي عمل الخير يتمنى أن يعود ليعمل أفضل، وإذا رأى ما عند الله من الفضل والكرامة تمنَّى المزيد، كما جاء في الحديث: «**يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثوابَ لو أن جلودَهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض**»[٢]. ولا تغابن حقًّا إلا في ذلك اليوم.

﴿**وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ**﴾: فيه إشارة إلى علاج الغَبْن بالمبادرة إلى التوبة وعمل الصالحات مما يكون سببًا في تكفير الذنوب[٣]، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ [هود: ١١٤]، وفي استطاعتك يا عبد الله أن تنقذ نفسك من مغبة الغَبْن والتغابن يوم القيامة بأن تبادر للعمل الصالح والثبات على الإيمان.

﴿**وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا**﴾: والجنات بالنظر إلى مجموع المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وكل امرئ منهم له جنته.

والآية دليل على الخلود الأبدي السرمدي الذي لا يحول ولا يزول ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾**﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿**ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ في مقابل ﴿**ٱلتَّغَابُنِ**﴾، فهذا هو الفوز في الجنة[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٨)، و«الوجيز» للواحدي (ص١١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٢)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠٢)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٢٤١)، والخليلي في «الإرشاد» (٢/ ٦٦٦)، والبيهقي (٣/ ٥٢٦)، وفي «شعب الإيمان» (٩٤٥١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٠٢- ٢٠٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «علل الدارقطني» (١٣/ ٣٤٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٠٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٩)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٠١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٨٢).

* ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾:

ولم يقل ﴿أَبَدًا﴾، ومن هنا أخذ بعض أهل العلم أن ثمتَ فرقًا بين خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، وأن خلود أهل الجنة سرمدٌ لا نهاية له، وخلود أهل النار هو المكث الطويل، وهذا ما يُفهم من كلام ابن تيمية في بعض كتبه، وابن القيم، وحكاه شارح «الطحاوية» قولًا في مذهب أهل السنة، واختاره رشيد رضا من المتأخرين، وألّف فيه الصنعاني.

واختلف أهل العلم في هذه المسألة اختلافًا كبيرًا، والمسألة ليست من مسائل الإجماع، ولا من القطعيات، بل هي من مواطن الخلاف، ومَن أخذ بقول منها فلا حرج عليه[1].

* ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾:

الحديث عن المصائب بعد الحديث عن الإيمان والكفر، قد يكون متعلّقًا بمصائب سببها الكفار بعدوانهم على المؤمنين بالتعذيب أو الأذى أو القتل أو مفارقة الأهل والديار، كما تعرَّض له المؤمنون بمكة، أو تكون المصيبة أحيانًا في كفر قريب، كأب أو أم أو أخ، فيغتم لذلك قريبهم المسلم الذي حاول هدايتهم فلم تنفعهم الذكرى.

والمصيبة هي: ما يصيب الإنسان[2]، ولكن جرى العرف اللُّغوي على أنها لا تستخدم إلا في الشر، كما هنا، والمصيبة وإن كان لها سبب معلوم غالبًا، إلا أنها مكتوبة من قبل، ولذا ذكر الإذن الإلهي، وهو العلم والقدر المكتوب عند الله تعالى.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾: يقول علقمة بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الرجلُ تصيبه

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٩).

المصيبةُ، فيعلمُ أنها من عند الله، فيسلِّم لذلك ويرضى»[1].

ويقول بعض السلف: يَهْد قلبه إلى أن يكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

ويقول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «يَهْد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[3].

فمَن يؤمن بالله ويعلم أن المصائب بإذنه وأنه يُؤجر على الصبر ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾.

وفي قراءة بفتح الدال وبعدها همزة ساكنة: (يَهْدَأْ قَلْبُه)[4]، أي: يصبح قلبه هادئًا في مواجهة المصيبة؛ لأن المصائب تجعل القلب يضطرب ويرتبك، ويفقد الإنسان قدرته على الاتزان، فمَن آمن بالله رُزق الهدوء عند المصيبة، فيرضى ويسلِّم ويلجأ إلى ربه فيذكره ويسترجعه.

وقد كتب ابن القيم «عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وكتب أبو يحيى الغرناطي «جَنَّة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى»، وكتب كثيرون مؤلفات عن الصبر على البلاء والمصاب وفضله وحسن عاقبته.

ويُروى أن ذا القَرْنين لما نزل به الموت، وحزنت أمه حزنًا شديدًا، قال لها: يا أم، إذا أنا مت فاصنعي وليمة وادعي إليها الناس، واطلبي أَلَّا يحضر إلى الوليمة أحدٌ أُصيب بمصيبة. فعملت وليمة ودعت الناس إليها وقالت: كل مَن أُصيب بمصيبة فلا يأت. فلم يحضر أحد، قالت: أين الناسُ؟ قالوا: وضعتِ شرطًا لا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣١٤)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٢)، والبيهقي (٤/ ١١٠)، وفي «شعب الإيمان» (٩٥٠٣). وينظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٢).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩- ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٩٠- ٢٩٢).

يتحقَّق في أحد. فعلمت أنه أراد تسليتها بعد موته[1]!

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: فيما قدَّر من المصائب، وفيما يقع من الناس من التسليم أو الاحتجاج أو الاعتراض، فمَن تذكَّر علم الله تجلَّد وصبر، ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾:

أمر بطاعته سبحانه، ثم أمر بطاعة رسوله ﷺ، وأعاد فعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾، ولم يكتف بالعطف فقط، مع أنه يغني، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]؛ ففي إظهار فعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ هنا إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة، فكما يُطاع الله فيما أمر ونهى، كذلك يُطاع الرسول ﷺ فيما أمر ونهى؛ فتجب طاعته فيما يأمر به، ولو كان غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهَّم السامع أن طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلِّغه عن الله دون ما يأمر به غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير[2]. ولهذا قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمة أن السنة النبوية الثابتة حجة مستقلة بذاتها، وقد تنفرد بتشريع أحكام لم ترد بنصها في القرآن، كما في تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها[3]، وأنه يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب[4]، وتحريم كلِّ ذي ناب من السباع، وكلِّ ذي مِخْلَب من الطير[5].

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: فمهمة الرسول ﷺ البلاغ،

---

(١) ينظر: «الاعتبار وأعقاب السرور» لابن أبي الدنيا (ص٨٢)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٧٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٥/ ٩٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥١٠٨، ٥١٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٠٨).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٤٥، ٥٢٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٤٤، ١٤٤٥).

(٥) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٣٤).

والهداية بيد الله يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، فليس على الرسول ﷺ هدايتهم، وإنما عليه أن يقيم الحجة والبلاغ(1)، وأضاف الرسول إلى ذاته العلية سبحانه، فقال: ﴿رَسُولِنَا﴾ تشريفًا لمقامه وتعظيمًا لقدره(2).

* ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾:

تذكير بكلمة التوحيد، ووحدانية الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هي التي لأجلها بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب، فليس أحد من الرسل بمعبود، بل المعبود هو الله وحده، وليس لأحد شيء من الأمر، فالأمر كله لله.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: فإذا كان المرء موحِّدًا لله، فيلزمه أن يتوكَّل على الله الحي الذي لا يموت، **والتوكل معنى قلبي**، لا تفي به العبارة، وهو جمع بين فعل السبب الممكن وبين الاعتقاد الجازم بأن الأمر بيد الله، وأن ما يفعله الله فهو خير للعبد مما يتمنى.

والتوكل قرين الإيمان: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾:

هذه الآية مدنية، وسبب نزولها- كما قال ابن عباس وعكرمة وغيرهما(3)- أن أناسًا من المسلمين بمكة أرادوا أن يهاجروا، فمنعهم أولادهم وأزواجهم، فتركوا الهجرة، فلما هاجروا بعد ذلك وجدوا الناس سبقوا وتعلَّموا وحفظوا وفقهوا في الدين، فهمَّ هؤلاء أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا سببًا في تأخر

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨١).

(2) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ١٢٦)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤)، و«جامع الترمذي» (٣٣١٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٣).

هجرتهم، فأنزل الله الآية.

وعبَّر هنا بـ﴿أَزْوَٰجِكُمْ﴾، ولم يقل: «زوجاتكم»؛ حتى تعم الكلمة الرجال والنساء، وكذلك الأولاد تعم الأبناء والبنات.

و﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض، أي: أن بعض أزواجكم وبعض أولادكم عدو لكم[١].

ومفهوم العداوة هنا ليس منصرفًا للعداوة في الدين فحسب، بل يشمل الصد عن الخير والإلهاء عنه بأي سبيل، فيكون معنى العداوة أن يكون أثره عليك كأثر الأعداء.

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾: فلم يقل سبحانه: «ضارّوهم»، أو: «عاقبوهم»، وإنما قال: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: احذروا أن يبلغ بكم الحب للزوجة أو الولد أن يرتكب المؤمن الإثم بسببهم أو بترك الطاعات.

﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾: **ذكر ثلاثة أشياء**: أن يعفوا عنهم، فتعفوا عمن ظلمكم، وأن تصفحوا عن الجاهل، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وأن تغفروا للمسيء، **فهي ثلاث درجات**[٢].

ويحتمل أن يكون **العفو** أَلَّا تُؤاخذ أحدًا بالعقوبة، وإن جرى منك عتاب له، **والصفح** أن تضرب صفحًا عنه، والصفح درجة أعلى من العفو، وأما **الغَفْر** فمن معانيه: السَّتْر[٣]، فلا تذكر ما فعله أولادك وزوجتك من الأعمال السيئة[٤].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: فهذه من أسمائه الحسنى، والمغفرة والرحمة

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٩)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٥)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢٤٧) «غ ف ر».

(٤) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ١٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٥)، والمصادر السابقة.

من صفاته، والله يحب من عباده أن يغفروا ويرحموا؛ وهو جميل يحب الجمال، وغفور يحب المغفرة، ورحيم يحب الرحماء، وعفو يحب العفو، فمَن أراد أن ينال رضى الله فليتخلق بهذه الأخلاق النبيلة.

* ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

وهذا لفظ عام، ولم يأت ما يدل على التبعيض كما في الآية السابقة[١].

وبدأ بالأموال؛ لأن الغالب أنها إذا توفرت شغلت حتى عن الأولاد[٢]، وفتنةُ الناس بالأموال ظاهرة لا تحتاج إلى استدلال، وقد يُشغل الإنسان عن ولده ولا يُشغل عن ماله، والأولاد يعم الأبناء والبنات وأولادهم وأحفادهم، وفي هذا يقول الشاعر[٣]:

لَـوْلا بُنَيَّاتٌ كَزُغْـبِ القَطـا[٤] ... رُدِدْنَ مـن بَعْـضٍ إلـى بَعْـضِ
لَـكـانَ لِـي مُـضْـطَـرَبٌ واسِـعٌ ... في الأَرْضِ ذاتِ الطُّـولِ والعَرْضِ
وإنَّـمـا أوْلادُنـا بَـيْـنَـنـا ... أَكْبادُنـا تَمْشـي علـى الأَرْضِ
لـو هبَّـتِ الريـحُ علـى بعضِهـم ... لامتنعـتْ عينـي عـن الغمـضِ

وكان أبو حَكِيم المُرِّي- وهو شاعر جاهلي- يحب أن يعيش من أجل ولده حَكِيم، وكان يقول[٥]:

يَقَـرُّ بعينـي وهـو يُنقِـصُ مدَّتـي ... مـرورُ الليالـي كـي يَشِـبَّ حَكِيـمُ
مخافـةَ أن يغتالنـي المـوتُ قبلَـهُ ... فيغشـى بيـوتَ الحـيِّ وهـو يتيـمُ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٢).

(٣) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ١٠٩)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٠٢)، و«جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (٢/ ٢٦٩) منسوبًا إلى حطان بن المعلَّى.

(٤) **الزُّغب**: أول ما يطلع من الريش، **والقَطَا**: طائر معروف.

(٥) ينظر: «حماسة الخالديين» (ص٩٨)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٤٣٤)، و«التذكرة الحمدونية» (٩/ ٣١٧)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٥٢).

والفتنة هي: الابتلاء والاختبار[1]، وليس في هذا ذم للمال ولا للأولاد.

والمقصود أن وصف الولد والمال بالفتنة لا يعني الترغيب في التخلص مما في اليد من المال ولا في إهمال الولد، وإنما هو تحذير وطلبُ ترشيد للعاطفة في هذين المحبوبَيْن، وأكثر الناس إذا اغتنى طغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦- ٧]، فأصبح يتوسع ويتأوَّل، أو يجترئ على الحرام، ويزداد تعلقه بالدنيا.. هذا حال أكثر الناس.

ومن الناس مَن يعطيه الله المال، فلا يزيده إلا إيمانًا وطاعة وتصدقًا وتواضعًا وقربًا ومزيد شكر.

ومثل هؤلاء مَن عناهم بعض الصحابة بقوله: إن فقراء المهاجرين أَتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهلُ الدُّثُور بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم! فقال: «**وما ذاك؟**». قالوا: يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتقونَ ولا نُعتقُ! فقال رسولُ الله ﷺ: «**أفلا أعلِّمُكم شيئًا تُدركونَ به مَن سبقكم، وتسبقونَ به مَن بعدكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكم إلا مَن صنعَ مثلَ ما صنعتم؟**». قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «**تسبِّحونَ، وتكبِّرونَ، وتحمدونَ دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثينَ مرة**». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسولُ الله ﷺ: «**ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ**»[2].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تذكير لهم أَلَّا ينسوا أجر الآخرة، فإن الدنيا لا تعدّ شيئًا في مقياس الآخرة[3]، كما قال ﷺ: «**والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٣، ٦٣٢٩)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٦).

أحدُكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظرْ بمَ ترجعُ؟»[1].

* ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)**﴾:

ولهذه الآية شواهد، كقوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهي تدل على أن المؤمن لا يكلّف إلا قدر طاقته[2].

وكيف نوفِّق بينها وبين قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]؟

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية ناسخة، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما نزلت: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ شقَّ ذلك عليهم، فأنزل الله سبحانه التخفيف بقوله: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾. ونُقل هذا عن الحسن البصري.

والراجح الذي اختاره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأكثر المفسرين: أنه ليس في الباب نسخ بمعنى إبطال الحكم الأول بالثاني، ولكنه التخصيص لذلك العموم، أو التبيين لذلك المجمل، فالآية الثانية بيَّنت وأوضحت الآية الأولى، وأن تقواه حقَّ تقاته لا تدل على أنه يحمِّلكم فوق قدرتكم، فلا تكليف بما لا يُطاق، وإنما المقصود استيعاب التقوى فيما تقدرون عليه، وفيه تحفيز للنفوس على التقوى[3].

ولاشك أن من تقوى الله حقَّ تقاته أن يعرف الإنسان حدود الاستطاعة؛ لأن تكليف النفس فوق طاقتها خلاف التقوى، وتكليف الزوجة والأولاد فوق طاقتهم خلاف التقوى، والمرء يعرف طاقة نفسه جيدًا، مثل تطبيقه لما جاء في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨١- ٣٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٨)، و«فتح القدير» (١/ ٤٢٠).

«**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنب**»[1].

وثمتَ نوع من الاستطاعة فقهه خفي، وكثير من الفتن تقع بسببه، وهو ما يتعلَّق بالمجموع، كالأسرة والمؤسسة والمدرسة والوزارة والشركة، ففيها قدر من الاستطاعة يراعى؛ لأن تجاهله يحدث مفسدة أكثر مما يرجى فيه من المصلحة، فحمل الناس عليه ليس من التقوى التي أمر بها الشرع، فربما قصَّروا في كثير من الطاعات والعبادات بسبب المشقة، وسياسة المجتمعات أدق وأحوج إلى الفقه، ولذا ينبغي لمَن يخالط الناس بقصد الإصلاح أن يستوعب «فقه الممكن»، فلا يحمل الناس على ما لا يطيقون، وهذا مَزْلق يقع فيه المسؤول أو الوالي الذي يغفل عن طاقة الناس وإمكانيَّاتهم، ويقع فيه الداعية أو المصلح الذي يقودهم إلى المستوى المثالي، دون أن يراعي رغباتهم وهممهم وانفعالاتهم.

ومحمد ﷺ كان هو الأسوة في تحقيق التقوى، ولذا لما حاصر الطائف ولم ينل منهم شيئًا قال: «**إنا قافلونَ إن شاء الله**». فثقُل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه! فقال: «**اغدُوا على القتال**». فغَدَوْا فأصابهم جراح، فقال: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**». فأعجبهم، فضحك النبيُّ ﷺ[2].

وحمل الناس على الصعب والوعر وعلى العزائم لا يطيقه إلا أولو العزم من الناس، وهم قليل، ولهم في فعل الرسول ﷺ في صلح الحُدَيْبِيَة أسوة حسنة مع الشروط التي رضيها ﷺ وأمضى المعاهدة بها، وكانت فتحًا للمسلمين وتيسيرًا لهم، رغم كرههم لها أول الأمر، وإذا كانت الاستطاعة مشروطة في العبادات، فالاستطاعة فيما يخص أمور المال والدنيا والتعليم والسياسة آكد وألزم.

﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾: **والمراد:** اسمعوا لله، واسمعوا لرسوله، وأطيعوا الله، وأطيعوا رسوله[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٨).

﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾: والأمر بالإنفاق ليس أمرًا بالتخلِّي عن المال برمته، فإنه لا يُؤمر بالإنفاق إلا الواجد للمال الذي عنده ما يزيد عن نفقته ونفقة مَن يعول من أهله.

ومعنى الآية: أنفقوا إنفاقًا يكون خيرًا لأنفسكم، أو أنفقوا شيئًا يكون خيرًا لأنفسكم[1].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: هذه من الآيات العظيمة التي تُساق مساق المثل، وفيها إشارة جلية إلى موطن الخلل في نفس المرء، فعلى الإنسان أن يتوقَّى شحَّ نفسه، ليس في المال فحسب، وإنما في كل شيء[2].

وكان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في طوافه: «اللهمَّ قني شُحَّ نفسي». لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: «إني إذا وُقيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزنِ، ولم أفعل شيئًا»[3].

والفلاح الذي يبتغيه الناس ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ هو بأن يوقى الإنسان شح النفس ويسلم من الأَثَرة.

ولا يشق على المتأمِّل المخالط للناس أن يلمح التشاح بينهم في الطعام والشراب ومواقف السيارات والطريق، وعند الطبيب وفي كل اصطفاف، ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فمَن أحبَّ أن يُزحزحَ عن النار، ويُدْخَلَ الجنةَ، فلتأته منيَّتُهُ وهو يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر، ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه»**[4].

ولهذا كان من أفضل ما مُدح به أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها خلصت نفوسهم من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤- ٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥١٤- ٧٥١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦- ٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٧).

(٣) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٢٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥٣٠)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٤/ ٤١١)، وابن عساكر (٣٥/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حظ نفوسهم.

* ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

والمقصود: الصدقة، وفيها تأكيد للأمر بالإنفاق، فإن تنفقوا صدقة فكأنكم تقرضون الله، وإنما تقرضون مليئًا سبحانه، وسيوفي لكم ما أنفقتم أضعافًا مضاعفة(١).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾: ﴿شَكُورٌ﴾ يشكر لعباده أعمالهم الصالحة، كما قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، و﴿حَلِيمٌ﴾ على العصاة، فلا يعاجلهم بالأخذ والنكال(٢).

* ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾:

تتميم للتذكير بعظمة الله تعالى، مع مناسبتها للترغيب والترهيب اللذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها؛ لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يُفِيتُ شيئًا من الجزاء عليها بما رتَّب لها.

ولأن ﴿الْعَزِيزُ﴾ لا يعجزه شيء، و﴿الْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها، ونَوْط الأمور بما يناسب حقائقها(٣).

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩١).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

❁ تسمية السورة:

اسمها الغالب: «**سورة الطَّلاق**»، وهو المتداول في كتب التفسير، والسنن[(١)].

وتُسمَّى: «**سورة النِّساء الصغرى**»[(٢)]. أما «**سورة النِّساء الطُّولَى**» فهي المستفتحة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[(٣)] [النساء: ١].

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود وأبيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنهما كانا يسمِّيانها: «**سورة النساء القصرى**»[(٤)]، يعني: القصيرة.

❁ عدد آياتها: اثنتا عشرة آية **وقيل:** إحدى عشرة آية، **وقيل:** ثلاث عشرة آية[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٣)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٣٥٥)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص١٨٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥١٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٢١١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٢/ ٦٨١).

(٣) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٢١١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٢/ ٦٨١).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٣٢، ٤٩١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٢٠١).

(٥) واختلافها في ثلاث آيات: قوله: ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [الطلاق: ٢]، و﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾، و﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الطلاق: ١٠]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤- ٣١٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٤).

* **وهي مدنية** إجماعًا[١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: الخطاب موجَّه له ﷺ، إلا أن المقصود الأمة كلها؛ ولهذا لم يقل: «إذا طلقت»، وإنما قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾[٢].

والنبي ﷺ لم يقع منه الطلاق المفارق إلا مرة واحدة؛ وهي قصة ابنة الجَوْن التي استعاذت منه ﷺ، فقال: «**لقد عُذتِ بعظيم، الحَقِي بأهلك**»[٣]؛ وذلك لأنه ﷺ كان يكره الطلاق، وقد جاء في حديث: «**أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطلاقُ**»[٤]. والصواب إرساله[٥]، ويغني عنه ما في «صحيح مسلم»، أن الشيطان يبعث سراياه، وأقربهم إليه هو مَن يقول له: ما زلتُ به حتى فرَّقت بينه وبين امرأته[٦].

فالطلاق كسر لنفس المرأة، وتفريق للزوجية، وشتات للأولاد، وهدم للبيوت،

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٥٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم (٢/ ١٩٦)، والبيهقي (٧/ ٥٢٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) رجَّح إرساله: أبو حاتم والدارقطني وغيرهما.

والمرسل أخرجه أبو داود (٢١٧٧)، وغيره، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٢٩٧)، و«معالم السنن» (٣/ ٢٣١)، و«علل الدارقطني» (١٣/ ٢٢٥)، و«المحرر» لابن عبد الهادي (ص٥٦٧)، و«البدر المنير» (٨/ ٦٥- ٦٧)، و«المبدع» (٦/ ٢٩٣)، و«إرواء الغليل» (٢٠٤٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨١٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومدخل من مداخل الفساد إن لم يقع موقعه الصحيح، والفتنة للرجل والمرأة بسبب الحرمان من الإشباع بعد أن تعوَّدا عليه، وكسر بعض الحواجز التي كانت تحول بين الإنسان وبين المعصية؛ ولهذا فالطلاق مكروه لغير حاجة، وقد يكون محرَّمًا أو جائزًا أو واجبًا بحسب الحال(١).

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: في قُبل عدتهن(٢)، فـ«اللام» هنا لام التوقيت(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: طلقوهنَّ الطلاق الذي تبدأ بعده العدة مباشرةً.

والعدة هي: المدة التي تقضيها المرأة بعد الطلاق ممنوعة فيها من الزواج(٤).

وهذا يقتضي أَلَّا تطلَّق الزوجة إلا وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه، فهذا طلاق السنة(٥)؛ حتى تكون مستقبلة لعدتها مباشرة.

والحامل تُطَلَّق في أي وقت؛ لأن عدتها تبدأ فور الطلاق(٦).

والطلاق البدعي هو: أن يطلقها في الحيض، أو في طهر جامعها فيه(٧).

وثمة طلاق لا يوصف بأنه بدعي ولا سني؛ وهو طلاق الصغيرة والآيسة التي

---

(١) ينظر: «المغني» (٧/ ٣٦٣- ٣٦٤)، و«الفقه على المذاهب الأربعة» (٤/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٤٧)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٢/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٥).

(٤) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ١٩٠)، و«مغني المحتاج» (٥/ ٧٨)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٢٩/ ٣٠٤).

(٥) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٥/ ٢٨٢)، و«مواهب الجليل» (٤/ ٣٨)، و«مغني المحتاج» (٤/ ٤٩٩)، و«المغني» (٧/ ٣٦٤).

(٦) ينظر: «المدونة» (٢/ ٤)، و«الأم» (٥/ ٢٢٩)، و«المحلى» (٩/ ٣٧٤).

(٧) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ٩٣- ٩٤)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٢/ ٣٦١)، و«المجموع» (١٧/ ٧٣)، و«المغني» (٧/ ٣٦٦)، و«المحلى» (٩/ ٣٧٧).

لا تحيض، ومَن لم يدخل بها زوجها بعد[1].

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾: من **الإحصاء**؛ وهو: الضبط والإتقان، فلا تزيد ولا تنقص؛ لأن النقص ضرر على الزوج، والزيادة ضرر على المرأة[2].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾: أمر بالتقوى، وكرَّر الأمر في السورة كثيرًا؛ لأن أعظم ما يحجز الإنسان عن المضارة والإساءة هو الخوف من الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: النساء المطلقات[3]، فالمطلقة الرجعية التي يحق للزوج أن يراجعها دون إذنها ولا إذن وليها؛ فلها ما للزوجات من حقوق إلا المبيت؛ لأنها ما زالت زوجة، وإنما أضاف البيت لهن في قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ لأن لها حق الانتفاع بالسكنى فيه[4]، فلا يجوز للرجل أن يطردها من البيت كما يقع كثيرًا.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: حتى لو وجدت إحداهن بعض المضايقة في البيت فعليها أن تبقى في منزلها.

والبقاء له مقاصد عظيمة: منها: أنه ربما رأى الزوج منها ما يدعوه إلى مواقعتها، فيحصل بذلك رجعتها.

ومنها: أنه قد يكون لها أولاد منه فيحتاجون إلى رعايتها، وإذا خرجت من البيت قد لا تجد مكانًا يؤويها، وربما استشرفتها العيون ووقعت لها حالات من المضايقة والابتزاز.

والفاحشة التي تسوِّغ خروجهن هي الفعل الشنيع، والغالب أن الفاحشة إذا جاءت معرَّفة بـ(ال) فالمقصود بها: الزنى ونحوه، كما قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا

---

(١) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٥/ ٢٨٨)، و«اللباب في الفقه الشافعي» (ص٣٢٨)، و«المغني» (٧/ ٣٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٧- ٢٩٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٩).

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، أما إذا جاءت نكرة وبدون إضافة، كما هنا، وكما في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، **فالمقصود بها**: الفعل الشنيع أو السيِّئ[1]، وليس خصوص الزنى، كما في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: ٢٨]، وكما في آية الطلاق هذه، على أنه قد نصَّ بعض الصحابة والتابعين والمفسرين أن المقصود هنا: الزنى، وهو قول الحسن وعطاء وغيرهما[2].

وقال آخرون: المقصود أن تكون سليطة اللسان على أهله، فتفحش في القول وتسب وتخوض في عرضه وعرض محارمه، كأمه وأخواته، أو أن تكون ناشزًا ترفض حقه، فإذا وُجد شيء من ذلك، فإن المصلحة حينئذ متعينة في إخراج هذه المرأة من بيت الزوجية إلى بيت آخر، وهذا مروي عن أُبي بن كعب وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: **والحدود** جمع: حدٍّ؛ وهو الشيء الفاصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل[4]، فهذه حدود الله فيما يتعلق بعقد الزوجية من الإمساك والطلاق، وبقاء المعتدة في بيتها لا يجوز العبث بها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾: فالذي يخرج المرأة من بيتها قد

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٧٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١١/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣)، و«الدر المنثور» (٨/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠١).

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٢١) «ح د»، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص٤٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٤).

ظلم نفسه قبل أن يظلمها، بتحميلها آثام ظلم الآخرين، ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وهذا ليس خطابًا للنبي ﷺ، وإنما هي لغة جارية عند العرب في مناسبات كثيرة، أي: لا تدري بعد الطلاق أن يُحدث الله تعالى أمرًا، فيقلب البغض إلى محبة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقيل: إن الآية تحتمل معنى أن يراجعها زوجها، وذلك في الطلاق الرجعي فتكون مراجعتها هي الأمر الذي أحدثه الله سبحانه[١].

ويمكن أن يكون سبب الطلاق هو عدم وجود الأولاد؛ فربما تحمل المرأة أو تنجب، وقد يكون سبب الطلاق الفقر وثقل النفقة، فيُحدث الله أمرًا من السَّعة والغنى، وهذا يفتح آفاق المستقبل ويُدرِّب على نظرة التفاؤل، والمقصود: أمرًا طيبًا حسنًا، خلاف ما كان في السابق[٢].

وهو تلقين من الله الذي بيده المقادير أن نتربَّى على التفاؤل ونظرة الإشراق والأمل.

وكم أمرٍ تُساءُ به صباحًا ... وتأتيك المَسَرَّةُ بالعَشِي
إذا ضاقت بك الأحوالُ يومًا ... فثِقْ بالواحد الأحد العلي[٣]

* ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربت أن تنتهي عدة المطلقة[٤]؛ وهي ثلاثة قروء، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. **والقروء**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٣/ ٩٩٦)، و«الشقائق النعمانية» (ص٣٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٣١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٨).

جمع: قرء، **قيل**: هو الطهر[1]، فتعتد المرأة ثلاثة أطهار بعد طلاقها، فإذا خرجت من الطهر الثالث فقد خرجت من العدة.

وقيل هو: الحيض[2]، فإذا طلقها في الطهر الذي لم يجامعها فيه بدأت العدة بعد الحيضة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، فإذا طهرت من الحيضة الثالثة واغتسلت خرجت من العدة، وإذا كانت غير ذات قروء فسيأتي حكمها.

وليس المقصود: انتهاء العدة؛ لأنها إذا انتهت لا يجوز للزوج أن يراجعها؛ بل المقصود: شارفن على نهاية العدة، فله الخيار بين أن يمسكها بمراجعتها أو يترك ذلك فتبين منه، بخلاف المعنى الوارد في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، أي: انتهى منه وخرج[3]، ولذا عبَّر هنا ببلوغ الأجل، وعبَّر في قصة موسى بقضاء الأجل.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾: وغالبًا ما يظن الرجل أن المرأة هي المخطئة، وتعتقد المرأة أن الرجل هو المخطئ، ولذا يجد المصلح صعوبةً في إقناع كل من الطرفين أن يغض الطرف عن أخطاء الآخر، ويحاول تصحيح أخطائه هو، فالزوج يلوم الزوجة، والمرأة تلوم الرجل، وبهذا لا يمكن تحقيق الإصلاح.

والله تعالى يعالج المشكلة بتربية حكيمة تحقق الخير للأزواج المتشاكسين بقوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾، والخطاب هنا للرجل بأن يُحسن إليها فلا يعاتبها ولا يوبِّخها ولا يزجرها ولا يقصِّر معها، و«المعروف» نكرة يشمل كل خير، كالنفقة وحسن المعاملة وأداء الحقوق[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٩٥)، و«زاد المسير» (١/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٠٨)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (١/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٢٣٥)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٨٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٢٥٢)، و«تفسير النسفي» (١/ ١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٠٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٤٧)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٢٠٥)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٣٦٣)، و«التفسير المظهري» (٧/ ١٦١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٨٣).

﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾، والفراق بمجرده مؤلم، وهو مما تتألم له النفوس، فإذا كان ولا بد فليكن بمعروف دون تعيير ولا فضح ولا تشهير، ومن كرم الرجل أن يُظهر ألمه على فراق زوجته ولا يذكرها إلا بخير، وقد أخذ الشافعي هذا المعنى فقال[1]:

وعاشر بمعروف وسامح مَن اعتدى ودافـــع، ولكن ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾: ظاهر الآية: وجوب الإشهاد على الرجعة، والإشهاد على الطلاق، وبهذا قال كثير من الفقهاء ونُسب إلى بعض الصحابة، وهذا هو أحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد[2]، وإذا وقع الطلاق أو وقعت الرجعة بدون إشهاد صحَّ[3]، وعليه أن يُشهد حتى لا يقع تجاحد أو احتكام، وحتى لا تدَّعي المرأة على زوجها أنها قد خرجت من عدتها، وقد يتوفَّى أحدهما فيقع التردد هل يرثه الآخر أم لا؟ فالإشهاد يقطع دابر التنازع.

وهذا مما يخاطب به ولاة الأمر والقضاة المسؤولون عن مثل هذه القضايا؛ أن يكون ثمة نظام منضبط لتوثيق الرجعة والطلاق وبالشهود، وأن يُشدَّد في هذا الأمر، فكثيرًا ما يذهب بعض الرجال إلى المحكمة لاستخراج صك الطلاق فيجعل تاريخ الطلاق متقدِّمًا أو متأخِّرًا عن الواقع والمرأة لا تعلم، وقد يسافر بها ويعاشرها دون أن يخبرها بوقوع طلاقه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾: معتدلة واضحة لا لبس فيها، ولا مجاملة لأحد، وأن تكون لله، وذلك بضبط الشهادة خوفًا من الله لا من أجل الزوج أو الزوجة أو القرابة[4].

---

(١) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١٦٣).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٦٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٨).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٠).

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى الوصايا والأوامر والتوجيهات[1]، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾، فقرن السياق بين الأحكام التشريعية التي هي قوانين واضحة، وبين الوعظ والتذكير وغرس التقوى في النفوس، والقانون إذا وجد وحده لم يلتزم به الناس؛ فإن المجتمعات تنحرف، ولا بد من وازع الدين والخلق.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾: وهذا حافز على التقوى، ولهذه الآية معنى خاص مباشر؛ وهو تقوى الله في شأن الطلاق، بأن يوقعه كما أمر الله، فيطلِّق طلقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه عند تأكد الحاجة إلى الطلاق من غير طيش ولا تسرع ولا قصد إضرار، وهو يحسب أن الطلاق خير للمرأة وخير له من بقاء عصمة الزوجية، فمَن امتثل حكم الشرع في أمر الطلاق فقد جعل الله له مخرجًا في ذلك بأن يمكنه مراجعتها[2]؛ لأنه لم يطلقها إلا واحدة، ولا تتطلَّب الرجعة إلا أن يتلفظ بها ويشهد على ذلك عدلين، بخلاف مَن لم يتق الله فطلَّق ثلاثًا جميعًا، أو طلَّقها في حيض، أو في طُهر جامعها فيه، أو على غير السنة مما أوجد عنده نقصًا في التقوى، ومما يدل على تسرعه وكثرة إيقاعه للطلاق لأتفه الأسباب، فهذا يصعب عليه المخرج، وقد لا يجد مفتيًا يخرجه من ضائقته بعد ندمه.

وثمة معنى عامٌ في الآية؛ وهو أن مَن يتق الله في سائر أموره يجعل الله له مخرجًا وفرجًا من كل ضيق، سواء أكان ذلك في شأن أسري أو اقتصادي أو سواهما[3].

والآية تلهم المصلحين أن يحرصوا على تحقيق الرضا والتوافق الاجتماعي، وإذا استطاعوا أن يصنعوا السعادة في بيوتهم فسيجدون أنهم أصبحوا أكثر نجاحًا في حياتهم وأكثر توفيقًا في تجارتهم؛ بل وأكثر طاعة لربهم، ومن هنا فإن من أعظم مهمات المستشار والمصلح الاجتماعي السعي في إيجاد السكن والاستقرار في

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٦)، والمصادر السابقة.

البيوت.

* ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾:

غالب معاناة الناس هي من نقص المال، أو قلة ذات اليد أو الدَّين، وبعض الأزواج يتغيَّر على زوجته بسبب الضائقة المالية، ويصبح متبرِّمًا متلوِّمًا غضوبًا كثير النقد والتأفُّف.

و﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من جهة لم تخطر على باله[1]، وهو داخل فيما يسميه بعضهم: بالتفكير خارج الصندوق، فقد يرزقه الله القناعة، وهي كنز، وهي خير ما يُرزقه المرء، فيتصرف في ماله بطريقة راشدة من غير إسراف ولا تقتير، وقد تكون المرأة سببًا للرزق؛ إما لقرابتها الأغنياء، أو لحسن مشورتها، أو لغير ذلك.

وهذه الحقيقة يجب أن يسلِّم لها المسلم من غير تردد ولا شك، وأن يحسن ثقته بالله حتى يتحقَّق له موعوده، ولا يترك الأسباب منتظرًا الفرج من الله من غير عمل ولا بذل سبب، فإن العمل وبذل الجهد والسبب هو من تقوى الله، على أن يكون في يدي الله أوثق منه فيما يده.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: وهذا هو البعد الإيماني في الرزق، وهو غائب عن كثير من الحضارات والثقافات والمشروعات؛ ولذلك تقع الأزمات والنكبات بسبب اعتماد الناس المحض على الحسابات المادية، في حين أنهم لو توكلوا على الله حقَّ توكله، لرزقهم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بطانًا[2]، فهي لم تقبع في وكورها تنتظر «الرزق»؛ بل ذهبت غدوًا ورواحًا، ولكنها لا تعلم

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٢١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣٠).

(٢) كما في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لو أنكم تتوكلونَ على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتروحُ بِطانًا**». أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤)، وسيأتي في «سورة الملك»: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

على وجه اليقين مكان رزقها ولا نوعه، بل الله يسخر لها من فضله فلا تكاد تموت جوعًا!

وقد ذكر ابن القيم فئتين انحرفا في هذا السبيل؛ من يعملون الأسباب المادية ويغيب عنهم الدعاء والتوكل، ومن يقعدون ولا يعملون، وقد يلجأ أحدهم إلى الدعاء أو الصلاة، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وكمال الإيمان والعقل والحزم فعل السبب مع التوكل على الله، وألَّا يقول الإنسان كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾: فما أراده الله تعالى سوف يبلغه ويحقِّقه[١].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾: فكل شيء عنده بمقدار، والناس يحلمون أحلامًا بعيدة المنال، أو هي على خلاف السنن الربانية، دون أن يبذلوا لذلك أسبابًا.

* ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾: هذا حكم جديد في شأن العدة يخص مَن انقطع حيضها أو لم تحض بعدُ، واليائسة هي الكبيرة التي توقَّف عنها الحيض، وهذا قد يكون في سن الستين أو الخمسين، كما قاله الفقهاء من الشافعية وغيرهم[٢]، والصواب: أنه يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى عصر، والله تعالى قرنه بالإياس من المحيض؛ وهو انقطاع الحيض انقطاعًا كليًّا دون نظر للسن، فهذه عدتها ثلاثة أشهر بدل ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار[٣].

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾: مثل الجارية الصغيرة التي لم تحض، فعدتها ثلاثة أشهر

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٦)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٢/ ١٥).

(٣) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ١٩٥)، و«مواهب الجليل» (٤/ ١٤٣)، و«المجموع» (١٨/ ١٤١)، و«المغني» (٨/ ١٤٢).

أيضًا[1].

وقد أخذ بعضهم من هذه الآية جواز تزويج الصغيرة التي لم تحض بعدُ، وجواز الدخول بها ومواقعتها[2]؛ لأن غير المدخول بها لا عدة عليها أصلًا.

على أن المسألة لم يأت فيها حكم شرعي قاطع بسن معين للزواج؛ ولكن مدار الأمر فيه على تحقيق المصالح ودفع المفاسد، وولي الأمر ينبغي أن يراعي أحوال الناس، وما هم عليه من التقوى والإيمان والحرص، أو ضد ذلك من الشره والغفلة والطمع بالمال.

وقد ظهر اليوم أن بعض الآباء والأولياء يدفعه الطمع إلى أن يزوِّج الصغيرة التي لم تبلغ، فيقدِّم مصلحته على مصلحتها، وإذا فعل ذلك سقطت ولايته عليها؛ لأن عماد الولاية هو الرشد في العقد، وهو أن يزوِّجها بالكفء المناسب الذي تتحقَّق مصلحتها في الزواج به، فلا بأس حينئذ أن يوجد تحديد يمنع الأولياء من أن تكون البنات الصغيرات سلعة تباع وتشترى.

وأحيانًا يقصد بتزويجها مضارة أمها المطلقة وحرمانها من حضانتها، فناسب أن يُمنع من ذلك من باب السياسة الشرعية، ويكون إنفاذ الحالات العادلة التي لا مضارة فيها ولا طمع بواسطة إذن قضائي إداري استثنائي.

﴿**وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾: والآية تدل على أن عدة الحامل: وضعها لحملها[3]، وسياقها في غاية الدقة؛ فإن الله تعالى لم يقل: «أن يلدن»؛ بل قال: ﴿**أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾؛ لاحتمال أن يكون في رحمها أكثر من ولد، فلا تخرج من العِدة إلا بوضع حملها كله، ولاحتمال أن تضع حملها قبل أن يكتمل نموه، ويسمى: ولدًا[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 563)، و«التحرير والتنوير» (28/ 319).

(2) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (2/ 68)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال (7/ 247)، و«أحكام القرآن» للكيا الهراسي (2/ 314)، و«المجموع» (16/ 168).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 54)، و«تفسير القرطبي» (18/ 165)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 149)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 166)، و«فتح القدير» (5/ 289).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 563).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، وهذا عود إلى التقوى والتحفيز عليها للأزواج وللزوجات؛ لأن من النساء مَن قد تعاني ما تعاني في الطلاق، وقد تشعر بالقهر والحرمان والحزن على فراق بيت الزوجية، والبعد عن الأولاد، فهنا خير عزاء للمرأة تذكيرها بالتقوى، وحفظ اللسان والفرج، والصبر، فلعل الأمر الذي ضاقت به ذرعًا أن يجعله الله عاقبته يسرًا: إما برجعة تعود بها الأمور أحسن مما كانت عليه أو بزوج آخر ينسيها آلام الأول وعذاباته.

* ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾:

هذه الأوامر والنواهي والتعليمات والأحكام والمواعظ هي أمر الله الشرعي الواجب الإنفاذ والرعاية لمصالح العباد[1].

وفي هذه الآية أعظم العزاء للمبتلَى، ليعلم أن تقوى الله موجبة لرحمته وتكفير السيئات ومضاعفة الحسنات ورفعة الدرجات، وقد يكون ما وقع من طلاق وفراق بسبب ذنب يصيبه الزوج أو الزوجة أو هما معًا، فيقع الطلاق عقوبة، ولا يمنع أن تكون العقوبة المعجَّلة تكفيرًا للسيئات، وقد تحمل المصيبة الزوج والزوجة على تقوى الله ومراجعة النفس، فهذا يداوي الإنسان من الشعور بالكآبة على أمر مضى وانقضى.

* ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ٦﴾:

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾: أمر إلهي واجب لكل مطلقة رجعية يؤكِّد لها حق السكن؛ لأنها لا زالت زوجة ما دامت في العدة، حيث يسكن الزوج فيه، وعلى حسب حاله يسارًا أو فقرًا.

والوجد هو: الموجود أو المقدور، وتُنطق بضم الواو أو كسرها أو فتحها، فهي

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٤).

مثلثة، ومعناها واحد، أي: مما تجدون[١].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾: **والمضارة**: أن يتعمَّد الرجل أن يضرَّ المرأة أو يؤذيها أو يضيِّق عليها بأي طريقة[٢]، وقد تقع المضارة من الزوجة، ولكن القرآن وجَّه النهي للرجل؛ لأنه يملك من وسائل المضارة في شأن الطلاق أو الحضانة ما لا تملكه المرأة.

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾: وذكر الحامل هنا على وجه الخصوص ليس لأن للحامل حكمًا خاصًّا؛ ولكن لأن الحامل تطول عدتها بطول حملها؛ فقد تكون تسعة أشهر، وربما استثقل بعض الأزواج النفقة، ولذلك جاء التأكيد والتذكير بأن الإنفاق على الحامل يجب أن يستمر حتى تضع حملها؛ ولأنه ينفق عليها ويرعى حملها الذي هو ولده[٣].

﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: وهنا انتهت عقدة الزوجية وبقى تنظيم الأمر لما بعد الطلاق، فبيَّنت الآية حق المطلقة أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من طليقها مع أنه من رحمها[٤]؛ ولكن لا يجب عليها إرضاعه إلا بأجر على والده.

﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي: تآمروا، أي: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف، أو تشاوروا فيما بينكم بالخُلق الكريم[٥].

﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ واختلفتم ولم تطيعوا الله في الائتمار بمعروف ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٥)، و«تاج العروس» (٩/ ٢٦١) «و ج د».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٧).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٣).

﴿أُخْرَىٰ﴾، وفي هذه الآية إعجاز وإيجاز؛ فالتعريض بـ﴿أُخْرَىٰ﴾ تأديب للمرأة أَلَّا تبالغ فتكون سببًا في تولِّي امرأة أخرى إرضاع ولدها، وفيها تأديب للزوج أَلَّا يتشدَّد؛ لأنه إن لم يدفع أجرة للأم دفع أجرة لامرأة أخرى ترضع ولده، والأم أحنُّ وأرحم وأنصح[1].

* ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾: هنا تقرير قاعدة عامة في شأن الإنفاق على الأهل والولد- وإن كان سياق الآية في شأن أجرة الإرضاع- أن النفقة من الرجل مطلوبة بحسب قدرته إذا كان غنيًّا ينفق نفقة الغني[2].

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ضُيِّق عليه[3]، ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: فاتقوا الله ما استطعتم.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: وهذا متعلِّق بالمال قبل غيره؛ لأن السياق عن النفقة، وتأمَّل كيف جاء بالعسر واليسر منكرتين: ﴿بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، ولم يقل: «بعد العسر يسرًا»، في حين قال سبحانه في «سورة الشرح»: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾، فذكر أن اليسر مع العسر في الوقت نفسه وليس بعده، وهذا أقوى وأبلغ؛ لأن السورة كلها في سياق أشياء معنوية ليست مادية، فقبلها ذكر انشراح الصدر، ووضع الوزر؛ وهو الهمُّ أو الذنب، ورفع الذكر بين العباد، وفيهما معان عظيمة تتعلق بالنبوة والدعوة والعلم، فاليسر موجود في ذلك السبيل مع العسر وليس بعده؛ لأنه يعتمد على الله، ويتفاءل بالخير، وينتظر الفرج، وقد يُحرم من شيء فيعوَّض بخير منه، كما يقولون: انظر إلى النصف المليء من الكأس.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٦٢)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ١٠١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٠- ٣٣١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٨)، والمصادر السابقة.

إنه حديث في شأن النبوة والمعاني الروحانية العالية التي يستشعر فيها أصحاب مقاماتها فضل الله في كل عطاء أو منع أو شدة أو رخاء.

أما هنا فالقصة تتعلق بجانب مادي، ولأناس يتفاوت إيمانهم قوة وضعفًا، وتؤثِّر فيهم الأشياء المادية، وقد تكون متصلة برجل ليس عنده غداء أو عشاء الليلة، أو لديه مشكلة في توفير السكن أو في توفير الطعام أو القوت أو اللباس لأولاده، فهو يشعر بمعاناة، فمن هنا لم يقل سبحانه: «إنه مع العسر»؛ لأنه يحس بعسر، وقد يضعف إحساسه باليسر معه، وإنما بعده يعني: هنا عليك أن تنظر إلى المستقبل، وأن تنتظر اليسر والفرج.

وهذا وعد من الله وتحفيز للنفوس أن تكون متفائلة، والتفاؤل ثبت علميًّا أنه مما يعين على الشفاء من المرض ومقاومته، فتكون قابليته للعلاج قوية، بخلاف المتشائم.

* ثم بعد بيان بعض أحكام الشريعة المتعلِّقة بشؤون الأسرة؛ من طلاق وعدة وحضانة ورضاع ونفقة- وكلها من أحكام الشريعة الواجب امتثالها- كان من المناسب أن يعقِّب بما يتضمن الوعيد لمَن خالف الشريعة وتعدَّى حدود الله، فقال سبحانه: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾**﴾:

والمقصود: عذاب الاستئصال في الدنيا الذي ذكره الله تعالى عن الأمم السابقة[1]، كما ذكر عن قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو غيرهم ممن عاقبهم الله وحاسبهم حسابًا شديدًا، وكأن الحساب الشديد كان هو مقدمات العذاب التي تأتيهم ثم يُنزل عليهم عذابًا منكرًا فظيعًا شديدًا تنكره النفوس، ولا يكاد الناس أن يصدِّقوه لهوله وفظاعته.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٧٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٤).

* ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ⑨﴾:

﴿فَذَاقَتْ﴾ تلك القرية ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، وهم كانوا يطلبون الربح لكن في غير محله، ولذا كانت عاقبتهم الخسارة التامة؛ خسارة النفس والمال والأهل والدنيا والآخرة.

* ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ⑩ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ⑪﴾:

وهذا عذاب الآخرة[1]، فجمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: تذكير بالتقوى في سورة تذكر أحكام الطلاق، ولن يفقه هذا إلا مَن هو على اطلاع على مشكلات الأسر وأحوال البيوت وما يجري فيها، **وأولو الألباب**: أصحاب العقول[2] الذين يُخاطَبون بالإيمان، وهم أهل التكليف، وهم أيضًا مَن ينتفعون بالنصح، وتدرك قلوبهم مقاصده فتلين للحق وتذعن وتنقاد.

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو القرآن[3]، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ولكن عقَّب بقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾، فهل «الذِّكر» هو الرسول؟

قال بعضهم: إن ﴿رَّسُولًا﴾ هنا بدل اشتمال من ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنه إنما أصبح رسولًا

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٥- ٣٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٧).

بنزول الذكر عليه الذي هو من الوحي[١].

ويجوز أن يكون في المسألة تقديرٌ؛ أي: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، وهو القرآن، وأرسل إليكم ﴿رَّسُولًا﴾، وهو محمد ﷺ؛ ولكنه حُذف للعلم به[٢].

أو أن المقصود بـ﴿رَّسُولًا﴾: جبريل[٣]، وهو رسول ملكي ينزل بالوحي.

ولكن هذا بعيد؛ لأن السياق هنا عن الرسول ﷺ، وهو الذي يصدق عليه وصف إخراج الذين آمنوا وعملوا من الظلمات إلى النور.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾: وقُرئ بكسر الياء وفتحها: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾، و﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾[٤]، فهي شديدة الوضوح، وهي مبيِّنة للناس ما أَشْكَل عليهم، ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وهم كانوا في الظلمات قبل أن يكونوا مؤمنين، لكن وصفهم بصفتهم التي صاروا إليها بعد؛ وهي أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، فأخرجهم الله تعالى من ظلمات الكفر والشرك والجهل والمعصية إلى نور الطاعة والإيمان.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾، ذكر تعالى الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا يتصور وجود إيمان بلا عمل صالح يمتثل به تكاليف الشرع، وبقدر قوة الإيمان تكون قوة العمل، وهنا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ١٠١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٧١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٤).

(٤) ينظر: «حجة القراءات» (ص٤٩٨، ٧١٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص١٦٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص١٩٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٨، ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٥١٢).

أذكِّر بأن المؤمن يؤجر على إيمانه كل يوم؛ بل كل ساعة، حتى ولو لم يكن في عبادة؛ إذ الإيمان هو أعظم الطاعات والقربات.

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: ذكر تعالى في كتابه السماوات السبع كثيرًا، ولكن ذِكْر الأرض يأتي عادة مفردًا دون النص على أنها سبع، وهنا قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، فهل المعنى أن الأرض سبعٌ كالسماوات؟

نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه يقول: إنها سبع أراضين تفصل بينها البحار[1].

فعلى هذا كأنها بقع أو قطع من الأرضين متفاوتة تفصل بينها البحار كالقارات، وليست طبقات بعضها فوق بعض.

وذهب الأكثرون إلى أنها طبقات مثل السماوات، بعضها فوق بعض[2]، فقد يكون هذا ما ذكره علماء الجيولوجيا من وجود طبقات الأرض؛ لكن أولئك العلماء لا يتكلمون عن سبع طبقات؛ بل دون ذلك، فهل هم لم يصلوا إلى العلم الحق؟ أو أن ثمة مزيدًا يتعلق بمعرفة طبقات الأرض هو المقصود؟

الله تبارك وتعالى أعلم، ونؤمن بما قال الله على مراد الله، وقد ورد في حديث: «**مَن ظلمَ قِيدَ شبر من الأرض**- يعني سرقه أو أخذه من الأرض- **طُوِّقه من سبع أَرَضينَ**»[3]. وهذا معناه أنه يعاقب بأن يحمله من سبع أراضين، فأخذ بعضهم من هذا دلالة على أن الأرضين سبع، وجاء في هذا حديث نصه: «**ربُّ السماوات السبع**

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٠).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٨٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٥)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٠، ١٦١٢) من حديث سعيد بن زيد وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٦١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

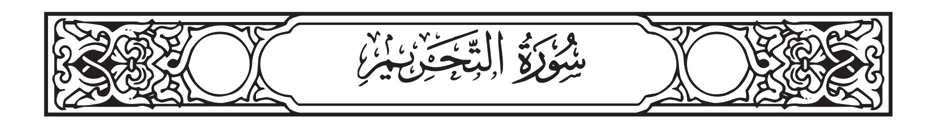
وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقللن»[1].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل الأمر بين السماوات وبين الأرض، والمقصود هنا أمر الوحي[2]، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، ومن قدرته خلق السماوات وخلق الأرض، ومن إحاطته بالعلم سبحانه تنزيل الوحي وأحكام الحلال والحرام، وهكذا يتوافق الخلق مع الأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

❍❍❍

(١) أخرجه البزار (٢٠٩٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٧٦، ١٠٣٠١)، وابن خزيمة (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، والحاكم (١/ ٤٤٦)، (٢/ ١٠٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٦٥)، والضياء في «المختارة» (٨/ ٧٢) (٦٩) من حديث صُهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٥٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٠).



سورة التحريم

❊ **تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة التحريم**»[1].

وفي «صحيح البخاري»- في إحدى النسخ-: «**سورة** ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾»[2]؛ بالنظر إلى أولها.

وسماها بعضهم: «**سورة النبي** ﷺ»[3]؛ لذكره في مطلعها.

❊ **عدد آياتها:** اثنتا عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[4].

❊ **وهي مدنية** باتفاق أهل العلم. **وقيل:** إن فيها آيتين مكيَّتين في آخرها، **والأرجح** أنها مدنية كلها[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٣)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «التعديل والتجريح» (٢/ ٩٢٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٩)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٤٧)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٠)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«الإتقان» (١/ ٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾:

يُناديه باسم النبوَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وفي القرآن الكريم نُودي بعض الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأسمائهم الصريحة، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: ٤٨].

ولكن النبي ﷺ نودي باسم النبوة؛ لمزيد شرفه ومكانته، ونودي أيضًا بالرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾(١) [المائدة: ٦٧].

والفرق بينهما على القول المختار: أن **النبيَّ** هو: مَن نُبِّئَ ولم يوحَ إليه بشرع جديد، **والرسول** هو: الذي أوحي إليه بشريعة جديدة(٢).

ولهذا كان الأنبياء أكثر من الرسل، وهم كثرةٌ في بني إسرائيل، حيث جاؤوا مجدِّدين لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دون أن يأتوا بشريعة جديدة.

والخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته، وما ثبت له من الأحكام يثبت لغيره، إلا إذا دلَّ دليل على استثنائه(٣).

على أن في الآية عتابًا من الله لنبيه ﷺ في تحريم ما أحلَّ الله له، وهو متضمّن للنهي، وليس المقصود به التحريم الشرعي بمعنى أن النبي ﷺ حرَّم في دين الله على الناس ما أباحه الله لهم، **كلا!** ولكنه ﷺ حرَّم على نفسه شيئًا كان حلالًا عليه في الشرع، كما قال سبحانه: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾(٤) [آل عمران: ٩٣].

وهذا الذي حرَّمه ﷺ على نفسه هو العسل.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الشرح»: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾.

(٢) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (٢/ ٤٢٥)، و«روح المعاني» (٩/ ١٦٥)، و«الجموع البهية للعقيدة السلفية» (٢/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٣) ينظر: «المسودة في أصول الفقه» (ص٣١).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٦).

يدل على ذلك: ما جاء في «الصحيحين»، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسولَ الله ﷺ كان يشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويمكثُ عندها وقتًا طويلًا، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فغرتُ وقلتُ: أما والله لنحتالنَّ له، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أن أَيَّتُنا دخلَ عليها فلتقلْ له: أكلتَ مَغَافيرَ، إني أجدُ منك ريحَ مَغَافيرَ[1]. فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وكان ﷺ يكره أن تُوجد منه رائحة كريهة، فلما دخل على سَوْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد لقَّنتها عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتمَّ ترتيب الموقف بإحكام، تقول سَوْدَةُ: والذي لا إله إلَّا هو، لقد كِدْتُ أن أُبادئه بالذي قُلتِ لي وإنه لعلى الباب فَرَقًا منكِ[2]. فلما دنا منها قالت له: يا رسولَ الله، أكلتَ مغافيرَ؟ قال: «**لا**». قالت: فما هذه الريحُ؟ قال: «**سقتني زينبُ شربةَ عسل**». قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، أي: أن ذلك النحل قد أكل نوعًا من النبت المعروف في الصحراء الذي توجد فيه هذه الرائحة[3].

فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك، ثم دخل على صفيةَ فقالت مثل ذلك، فقال ﷺ: «**شربتُ عسلًا عندَ زينبَ، فلن أعودَ له**». فتركه وحرَّمه على نفسه.

قالت سَوْدةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سبحان الله! والله لقد حَرَمناه». شعرت بشيء من الحزن، لتسببها في حرمان النبي ﷺ من شيء يحبه، فهمزتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت لها: «اسْكُتِي»[4]. أي: دعِ الأمر يمر على ما هو عليه.

وورد في سبب التحريم قصة أخرى، عند النسائي، وغيره- وصحَّح إسنادها الحافظ ابن حجر- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم

---

(١) **المغافير** جمع: مغفور، وهو: صمغ حلو كالناطف، وله رائحة كريهة، ينضحه شجر يقال له: العُرْفُط، يكون بالحجاز.

(٢) أي: خوفًا منك.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠/ ٧٦)، و«فتح الباري» (١٢/ ٣٤٣- ٣٤٤).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٣١٦، ٢٥٨٥٢)، و«صحيح البخاري» (٤٩١٢، ٥٢٦٧، ٥٢٦٨، ٦٩٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٤).

تزلْ به عائشةُ وحفصةُ حتى حرَّمها على نفسه، فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ...﴾ إلى آخر الآية[1].

وحديث تحريم العسل أصح إسنادًا؛ فهو في «الصحيحين»، ولذا رجَّح الخطَّابي والقاضي عياض- كما سيأتي- أنه سبب النزول.

وذهب بعضهم إلى أن السبب هو مجموع القصتين، كما قال الحافظ ابن حجر: «الصحيح أنه نزل في كلا الأمرين»[2].

وكما هو ظاهر من سياق الآية، ودلالة الحديث أن تحريم النبي ﷺ العسل على نفسه إنما كان لترضية أزواجه؛ لأن بعض أمهات المؤمنين وجدن في نفوسهن أن يمكث فترة أطول في بيت زينب؛ ليشرب عندها العسل، ولكن جاء في العتب ما يبرئ النبي ﷺ أن يكون تحريمه ما أحل الله له لمصلحة نفسه ومنفعتها الخالصة، حيث قال سبحانه: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

والأزواج جمع: زوج، وهو يُطلق على الذكر وعلى الأنثى[3]، وتسمَّى المرأة: زوجة، والأفصح تسميتها: زوجًا، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكما في قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وتسمية المرأة والرجل: «زوجًا» فيه معنى الكفاءة، وهو الأصل، إذ إنهما على قدم المساواة في التكليف وفي الأجر والمثوبة، كما قال الله سبحانه: ﴿أَنِّى

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٧١)، وفي «الكبرى» (٨٨٥٧، ١١٥٤٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٣)، والضياء (٥/ ٦٩- ٧٠) (١٦٩٤، ١٦٩٥)، والبيهقي (٧/ ٥٧٨). وينظر: «فتح الباري» (٩/ ٣٧٦)، و«لباب النقول» (ص١٩٩).

وأخرج الهيثم بن كُليب في «مسنده»- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٩)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦١٤- ٦١٥)- ومن طريقه الضياء (١/ ٢٩٩- ٣٠٠) (١٨٩) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه. وصحَّح إسناده ابن كثير. وينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٤٣٣- ٤٣٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩- ٣٣٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٥٧)، (٩/ ٢٨٩- ٢٩٠، ٣٧٥- ٣٧٦)، (١٢/ ٣٤٣)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٤٢٢).

(٣) ينظر: «المخصص» (٥/ ١٤٧)، و«مشارق الأنوار» (١/ ٣١٣) «ز و ج».

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأكَّد على حقوق المرأة في نصوص كثيرة، وأن المرأة لا يُكرمها إلا كريم، ولا يهينها إلا لئيم، وهكذا الأصل في العقوبة والجزاء الدنيوي إلا ما دلَّ الدليل على استثنائه، وكذلك ما يتعلق بأمر العلاقة بين الرجل والمرأة.

والإنسان في البيئات التي لم تستنر بنور الوحي أو غلبت عليها عادات الجاهلية ولو كانت مسلمة، ينظر إلى المرأة على أنها مخلوق من الدرجة الثانية، فيزدريها ويمتهنها وكأنها موضع لقضاء الوطر فحسب، والشيء اللطيف أن يكون تكريس الله لهذه الحقوق في سياق هذه السورة التي جرى فيها ما جرى من أمهات المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وعادة ما يجمع الله تعالى بين المغفرة والرحمة.

والمغفرة هي: السَّتْر، يُقال: غَفَرَ، أي: ستر، ومنه المِغْفر، وهو غطاء الرأس الذي يحميه في الحرب[1]. **فالمعنى:** أن الله تعالى يغفر الذنوب، أي: يسترها ويمحوها عن العباد، وليس يمحو الذنب فحسب، بل يرحم المذنب فيُبدِّل سيئاته حسنات، ويتقبل منه صالح ما عمل ويتجاوز عنه، فمن هنا جمع بينهما[2].

وفي ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين عناية رفيعة بمقام النبي ﷺ؛ لأنه بدأ بوصفه بالنبوة، ثم عاتبه العتاب الرقيق اللطيف: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ثم بالمغفرة والرحمة الدالة على عفوه وتجاوزه سبحانه عما حدث وجرى، مع أنه

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مطالع الأنوار» (٥/ ١٦٢) «غ ف ر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧).

لم يكن من النبي ﷺ الأمر الذي يكون عليه معصية أو إثم، حاشاه من ذلك، ولم يتجاوز أن حلف أَلَّا يأكل العسل مرة أخرى ترضية لأزواجه.

* ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾:

هنا انتقال الخطاب من النبي ﷺ إلى الأمة، و﴿فَرَضَ﴾: بيَّن ووضَّح وأنزل وحكم بتحلة **الأيمان**[1]، وهي جمع: يمين، وتحلتها في «سورة المائدة» في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، فإذا حلف أَلَّا يفعل شيئًا، وأراد أن يفعله، كفَّر عن يمينه، ثم لا حرج عليه أن يفعل ذلك الشيء ما دام مباحًا.

وفي «الصحيح» قال ﷺ: «**وإني والله- إن شاء الله- لا أحلفُ على يمين، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلا كفَّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خير**»[2].

بخلاف اليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم، والتي بها يأكل المرء حقوق الناس بغير حق، وهي الحلف على أمر ماضٍ باطل، كأن يحلف أنه باعه وهو لم يبعه، أو أن هذه السلعة له وليست له، فلا كفارة فيها[3]، وهي أعظم من أن تُكفَّر، وإنما فيها التوبة والاستغفار، فإن أكل بها حق أحد وجب عليه رد الحق إلى أهله، وجاء في الوعيد عليها قوله ﷺ: «**لا يحلفُ على يمينِ صَبْرٍ يقتطعُ مالًا وهو فيها فاجرٌ، إلَّا لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ**»[4].

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: تأكيد لرفقه سبحانه بالنبي ﷺ وأهل بيته وصحابته، وقربه منه،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هذا هو مذهب الجمهور، خلافًا للشافعية. ينظر: «العناية» (٥/ ٦٠)، و«االبناية شرح الهداية» (٦/ ١١٣)، و«مواهب الجليل» (٣/ ٢٦٦)، و«مغني المحتاج» (٦/ ١٨٨)، و«المغني» (٩/ ٤٩٦)، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٤٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٨٣)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمولى هو: الولي، وهو القريب الرحيم[1].

﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ فيما شرع لكم، فهو العليم بأحوالكم وحاجاتكم، وهو الحكيم في تشريعه المبني على هذا العلم؛ ولهذا جمع بين الاسمين الكريمين[2].

* ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾**﴾:

الإسرار المشار إليه هنا هو قوله ﷺ لحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما قالت: أجدُ منك ريحَ مَغَافيرَ، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وقد رُوي في الإسرار المذكور قصة أخرى، وهي أن النبيَّ ﷺ خلى بمارية القبطية- أم ولده إبراهيم- في بيت حفصة في غيبتها في بيت أبيها، وأنها لما عادت إلى بيتها وجدت النبيَّ ﷺ ومعه مارية، فغضبت، وقالت: أتفعلُ هذا في بيتي وفي يومي، ما صنعتَ بي هذا من بين نسائكَ إلَّا من هواني عليك! فقال لها النبيُّ ﷺ: «**فإنها عَلَيَّ حرامٌ، ولا تُخْبِري بذلك أحدًا**»[3].

ولكن القصة ضعيفة بهذا السياق؛ فهي مروية بأسانيد ضعيفة أو مرسلة، مع نكارة في متنها، ولذا قال الخطَّابي: «إن يمين النبي ﷺ إنما وقعت في تحريم العسل، لا في تحريم أم ولده مارية القبطية، كما زعمه بعض الناس».

وقال القاضي عياض: «الصحيح أنه في أمر العسل، لا في قصة أم إبراهيم،

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨).
وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٨٥) «و ل ي».

(٢) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (١٧٠٧)، و«طبقات ابن سعد» (١٠/ ١٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٤- ٨٥)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٢٣١٦، ٨٧٦٤)، و«المعجم الكبير» (١٢٦٤٠)، و«سنن الدارقطني» (٥/ ٧٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٧٤٨٩)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٥٧٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٨- ٤٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ٢٥٣)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٥٩- ٦١)، و«الإصابة» (٨/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

كما جاء في غير «الصحيحين»، ولم يأت بتلك القصة طريق صحيح».

ونقل النووي كلام القاضي عياض، ثم قال: «وهذا أحد الأقوال في معنى السِّرِّ، **وقيل**: بل ذلك في قصة مارية، وقيل غير ذلك»[1].

فالصحيح أن الإسرار كان في أمر تحريم العسل[2].

وإسرار الرسول ﷺ إلى بعض أزواجه بالحديث جاء على وفق طبيعة البشر، فما أكثر ما يسر الزوج بالحديث لزوجته ويستودعها من شؤونه الشخصية بحكم خصوصية العلاقة بينهما وحميميتها؛ فإن كلًّا منهما لباس للآخر.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: لما أفشتْ حفصةُ السِّرَّ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[3]، أخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بذلك، كما يدل لذلك قوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أظهر الله نبيَّه ﷺ على إفشاء حفصة بالسِّر لعائشة، فجاء الوحيُ بإخباره ﷺ بذلك، فدخل على حفصة معاتبًا، فعرَّف بعض الكلام وأعرض عن بعض، أي: عاتبها على بعضه، وعرَّفها بعضًا مما أخبره الله تعالى به[4].

ولهذا قيل: «ما استقصى كريمٌ قطُّ»[5]. أي: أن الرجل الكريم لا يستقصي الأمور مع زوجته أو شريكه أو ولده أو صديقه فضلًا عن غيرهم، ولا يُبالغ في

---

(١) ينظر: «معالم السنن» (٤/ ٢٧٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٩٢- ٢٩٣)، و«إكمال المعلم» (٥/ ٢٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠/ ٧٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٦٧- ٢٦٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٠)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ١٠٢٧ – ١٠٣٨)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٣).

(٥) ينظر: «المجالسة» (١/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٦)، و«البخلاء» للخطيب (ص٧٨)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٣).

الاستقصاء والتحري والإحصاء، فهو أسلوب مُنَفِّرٌ لا يزرع الثقة، ولا ينمي الوازع الديني والرقابة الذاتية، ولذا نهي عن التجسس.

وقيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، تسعةٌ منها في التغافل». فقال: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، كلها في التغافل»[1].

وكان الشافعي يقول: «الكيِّس العاقل هو: الفطن المتغافل»[2].

فالحَصيف لا يقف عند الأشياء الصغيرة، ولا يتتبَّع كل الأمور، كما فعل الرسول ﷺ في هذه القصة؛ حيث ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، فعاتب حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على شيء، وسكت عن شيء.

وما الذي عاتبها عليه، وما الذي سكت عنه؟ لم يُبيِّن القرآن هذا؛ لأن المقصود العبرة، ولذا كان من الحكمة الإلهية ألَّا يأتي القرآن على ذكرها وتفصيلها؛ لأنها من جزئيات العلاقة الخاصة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾: لما أخبر النبيُّ ﷺ حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعاتبها على إفشائها سِرَّه، تعجبت وقالت: مَن أخبرك؟ وربما ظنت أن مَن أنبأته هي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنها الطرف الثالث في القصة، ولكن حفصة تستبعد أن تفعل عائشة ذلك؛ لما بينهما من التعاهد على السِّرِّ؛ ولهذا تعجَّبت كيف علم النبي ﷺ بذلك وتساءلت، ومع أنها في موقف محرج، إلا أنها وجدت الجرأة على أن تسأل الرسول ﷺ هذا السؤال!

ولو كان المسؤول أحدنا لغضب أشد الغضب، وأرغى وأزبد، وأعرض عن الجواب بكبرياء، ولكن الرسول ﷺ يجيبها عن ذلك بحلم وأناة: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: ولم يقل: «الله»؛ لأن من المناسب الإشارة إلى شمول علمه وسعته وإحاطته بكل الدقائق، فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يخفى عليه شيء[3]؛ ﴿مَا

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٢٨).

(٢) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٦٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٣٠)، وابن عساكر (٥٦/ ١٣). ورُوي عن غيره أيضًا.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥).

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فهذا العليم، وهو الذي يحيط بالدقائق والأسرار، والتذكير بهذا الاسم العظيم هنا له مزيد معنى وإلفات إلى كمال خبرته بخلقه، **ومن هنا ندرك أن الخبرة أخص من العلم**[(١)].

وفي هذه القصة كشف لشيء من أحوال بيت النبوة، وهو بيت تظلِّله السكينة، والقوامة فيه لأفضل البشر ﷺ، إلا أنه لم تخرج عن حدود الطبيعة البشرية، والرسل بشر من البشر؛ يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويقع في داخل بيوتهم المشكلات ثم يتدرجون في حلها وإزالتها.

* ﴿**إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾**﴾:

ثم يأتي العتاب لحفصة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿**إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾[(٢)]، ومجرد ذكر التوبة معناه أنه قد صدر منهما ما يستدعي التوبة[(٣)].

والتوبة تكون من الكبائر ومن الصغائر، ومن اللَّمم، ومن فعل المكروه، أو ترك المستحب، فهو باب واسع، والله تعالى يقول: ﴿**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [النور: ٣١]؛ لكن ها هنا المبادرة بذكر التوبة وعرضها يوحي بأنه قد صدر منهما ما يستوجب ذلك؛ وهو إفشاء سرِّ النبي ﷺ.

و«صغو قلوبهما»، أي: ميلها[(٤)]. **والآية تحتمل معنيين:**

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٨٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

١- إن تبتما فقد مالت قلوبكما إلى الحق[١]، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

٢- إن تبتما إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما إلى غير الحق[٢].

وهنا لم يقل: «قلباكما» مع أنهما اثنتان، لما في اللفظ من الشدة والصعوبة في النطق فيما يتعلق بذكر مثنيين في كلمة واحدة، والاثنان أقل الجمع عند العرب[٣].

﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي: إن تُصرَّا على مثل هذا، ويتكرر منكما هذا الفعل في حقه ﷺ، فما العاقبة؟

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: حسبه وكافيه وحافظه ومتولِّي أمره[٤]، فما بالك بمَن يعاديه أو يؤذيه؟! إن معنى هذا أن كل مَن يؤذيه أو يضاره بشيء فقد عرَّض نفسه لعقاب الله.

﴿وَصَـٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: الصالحون من المؤمنين أولياء له[٥].

وبعض المفسرين قال: إن المراد هو: أبو بكر رضي الله عنه[٦]، ولا شك أن أبا بكر مولى للنبي ﷺ، وفي الآية ثناء عليه؛ لأنه كان يعاتب عائشة، ويقف في حقِّ النبي ﷺ في كل مشهد.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦- ٣٥٧)، و«شرح الكافية الشافية» (٤/ ١٧٨٧)، و«حاشية الصبان» (٣/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٩٨- زوائد عبد الله)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٤).

وبعضهم قال: إن المراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، وهو من صالح المؤمنين، وكان يدخل على النبي ﷺ، فإذا وجد حفصة قد أغضبت النبي ﷺ في شيء عاتبها ووبَّخها وطالبها بأن تلتزم طاعة النبي ﷺ وخدمته وتيسير أمره وجعل بيته سكنًا، حتى إن قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ في الآية التي بعدها كانت من موافقات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للشرع، فكان يقول لحفصة ولغيرها من أزواج النبي ﷺ: «عسى ربُّه إن طلَّقكنَّ أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن». فنزلت هذه الآية[2].

وفي الآية إثبات لفضل أبي بكر وعمر، ولفضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم من صالح المؤمنين، فوصفهم الله تعالى بالإيمان والصلاح، وهم الموالون لرسول الله ﷺ والمجاهدون معه المؤمنون به الذَّابُّون عنه.

و﴿وَصَٰلِحُ﴾ هنا وإن كانت مفردًا، إلا أنها تعني الجمع[3].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾: واللفظ صريح في العموم، فالملائكة كلهم ظَهِير له ﷺ، و﴿ظَهِيرٌ﴾ وإن كان مفردًا إلا أنه مثل قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، لا يُقصد به رفيق واحد بل رفقاء[4]، فكل هؤلاء مع النبي ﷺ.

وفيه دعوة لأمهات المؤمنين أن يكنَّ في هذا الصف؛ الصف الذي فيه الله تعالى وجبريل وصالحو المؤمنين والملائكة، وتقديم «صالح المؤمنين» قد يستدل به مَن يرى فضلهم على الملائكة.

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣١٩٩٦)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (٣٠٥، ٣٣٣- زوائد عبد الله)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩، ٢٣٩٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣١٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩١- ١٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٩).

وفي هذه الآيات بيان لمقام أزواج النبي ﷺ، حتى ولو حصل منهن بعض الهنَّات، فلله في ذلك حكمة، وهن قد شرفن بالاقتران بالرسول ﷺ، وكونهن زوجاته في الدنيا وفي الآخرة.

وفيه تكريس لعظمة بيت النبوة وجلالة قدره، وأن كل ما يؤثِّر فيه يؤثِّر في المسلمين جميعًا، حتى ينزل القرآن من السماء يتحدث عن بعض حوادثه اليومية.

* ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾:

﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، فهو أمر متحقّق؛ ولكن الأمر هنا معلَّق بشرط، وهو الطلاق[(١)]، والنبيُّ ﷺ لم يُطلِّق، وإنما آلى من نسائه شهرًا، أي: حلف ألَّا يدخل عليهن شهرًا، فلما تمَّ تسعة وعشرون يومًا دخل ﷺ على نسائه، فقيل له: إنك حلفتَ أن لا تدخل شهرًا؟ فقال: «**إن الشهر يكون تسعةً وعشرين يومًا**»[(٢)].

ويحتمل أن يكون الخطاب متوجَّهًا لأزواجه كلهن تحفيزًا لهن على الطاعة، وتحذيرًا من مخالفة النبي ﷺ، والإشقاق عليه.

ويحتمل أن يكون خطابًا لحفصة وعائشة اعتبارًا بما حصل منهما[(٣)].

وفي الآية إثبات الخيرية لأمهات المؤمنين؛ ولهذا نقول: إن محبة أزواج النبي ﷺ إيمان، والمؤمن الذي يحبُّ رسول الله يحبُّ أصحابه وأزواجه أكثر مما يحبُّ أمه وأباه؛ لأنهن أزواج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، فنحبهم لحبِّ الله ولحبِّ رسول الله ﷺ.

والنيل من زوجة أي أحد بالبهتان أو الوقيعة أو التنقص في كتاب أو مجلس أو موقع أو قناة فيه إساءة وحط من قدر الزوج، ما دامت باقية في عصمته ومات عنها،

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٨، ١٩١٠، ٢٤٦٩، ٥٢٠١)، و«صحيح مسلم» (١٠٨٣- ١٠٨٥).

(٣) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٤٩- ٣٥٠).

فكيف بالنبي ﷺ الذي مات وهو عنها راضٍ، بل مات وهو راضٍ محب، بل مات بين سَحْرِها ونَحْرِها، كما حدث للصِّدِّيقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]، فالنيل من أزواج النبي ﷺ هو نيل من مقام النبوة ومن قدر النبي ﷺ، وفي الآية وصف لهن بأنهن خيِّرات؛ ولكن توعَّد إن طلقهن أن يبدله خيرًا منهن وأفضل.

ثم شرع في سرد الصفات التي تحقَّقت في هؤلاء النساء، وتتحقَّق في مَن يبدله الله تعالى لو طلقهن:

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾: بدأ بالإسلام، ويُطلق على الأعمال الظاهرة.

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: وثنَّى بالإيمان، وهو الأعمال الباطنة.

وقد يكون الإنسان مسلمًا، ولا يكون مؤمنًا، فالإسلام درجة والإيمان درجة أعلى وأكمل، فإذا ذُكر الإسلام والإيمان معًا دلَّ الإسلام على عمل الظاهر، ودلَّ الإيمان على عمل القلب.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: **والقنوت**: زيادة العبادة والطاعة[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وقال بعضهم: القنوت: قيام الليل. وهذا من باب التفسير بالمثال، وإلا فإن المقصود بالقنوت: أن يكون القلب موصولًا بالله تعالى.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: تعريض وتذكير بوجوب التوبة على مَن حصل منهن ما حصل مما كان سببًا في نزول الآيات[3]، فإن لم تتبن يأت الله تعالى بمَن هو خير منكن وأصدق توبة.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: يشمل ألوان العبودية لله تعالى بما هو أوسع وأعم من النُّسك والصلاة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: وقد تكون السياحة: الصوم، كما قال بعض المفسرين.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

وقال آخرون: السائحات هن: المهاجرات[1]، والمهاجرات أفضل من غيرهن، مَن هاجرن إلى الله ورسوله إلى المدينة[2].

ثم قال: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، وجاء قوله: «أبكارًا» معطوفًا على «ثيبات»، ولم يرد حرف العطف فيما سبق؛ ليؤكِّد أن هذه الصفات كلها متحقِّقة في كل امرأة، فليست بعضهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾، وبعضهن ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، وبعضهن ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ على سبيل التنويع، كلا، بل كل واحدة متحقَّق فيها كل هذه الصفات، فهي مسلمة مؤمنة تائبة عابدة سائحة قانتة[3].

ثم قد تكون ثيِّبًا، وقد تكون بِكْرًا، فهو للتنويع؛ منهن ثيبات ومنهن أبكار[4]، وذلك أن في أزواج النبي ﷺ ثيبات، وهن غالب نسائه ﷺ، حتى خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد تزوجت قبله، وإنما تزوج النبي ﷺ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وحدها بِكْرًا[5].

وفي ذلك دليل على أن زواجه ﷺ لم يكن على سبيل التلذُّذ بالتنويع، وتطلُّب المزيد من المتعة، وإن كانت المتعة جِبِلَّة لا يُلام الإنسان في طلبها فيما أحلَّ الله، **وإنما كان ذلك لمقاصد عظيمة، من أهمها:** نقل خصوصيات الرسالة في داخل البيت وأحوال الزواج وأحوال المعاشرة والوضوء والغسل وغيرها مما لا تستطيع القليل من النساء أن تقوم به، بخلاف قضايا الحياة العامة، فإن كل أصحاب النبي ﷺ يتوفرون على معرفتها ونقلها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠١- ١٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠)، و«تفسير القاسمي» (٧/ ٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٥٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾:

انتقل الخطاب إلى نداء رباني عام لكل المؤمنين؛ بأن يتقوا النار بفعل الطاعة وترك المعصية، ويسعوا في وقاية أزواجهم وأولادهم؛ بأن يوصوهم بذلك، ويحثّوهم عليه ويرغِّبوهم فيه.

وقوله: ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: نكَّرها للتعظيم والتهويل[1]، وهي تسعر بالعصاة والكفار والمجرمين.

والحجارة: قيل: هي حجارة الكبريت؛ لأنها تزيد النار اشتعالًا[2]. **وقيل**: هي الحجارة التي كانوا يعبدونها[3]، كما يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهي كقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، فكأن الإنسان حينما يُرمى في النار صار مثل الحجارة، لم ينتفع بشيء من عقله وقلبه وحواسه، فكأنما هو بلا شيء من ذلك.

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ في خلقتهم وقوتهم، فهم غلاظ أقوياء في الخلقة، شِداد على مَن أُمروا به، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾: **وصفهم بصفتين**:

الأولى: أنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي: يطيعون الله تعالى، وهذا يشمل قيامهم بالعبادة كما أمرهم الله؛ فإنهم يعبدون الله قائمين وراكعين وساجدين، ويشمل طاعة الله تعالى فيما كُلِّفوا به.

الثانية: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فهم لا يرتكبون المعصية، ولا يفعلون إلا الطاعة.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٧)، و«فتح القدير» (١/ ٦٣)، و«روح المعاني» (١/ ٢٠١)، و«أضواء البيان» (١/ ١٨).

وفيه نفي الكسل والعجز عنهم، فالله تعالى زوَّدهم بالقدرة التي تجعلهم يفعلون كل ما أُمروا به، وهم خزنة جهنم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾:

وهذا التفات في الخطاب بعد انتقال من المؤمنين إلى الكافرين.

وكأن هذا من كلام الملائكة يخاطبون أهلَ النار من الكفار؛ ليكون مشهدًا حاضرًا متصوَّرًا يراه الناس، ويرون الملائكة الغلاظ الشداد يخاطبون أهل النار حين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيكبتونهم ويوبِّخونهم ويقطعون طريق الكلام عليهم بأن وقت المعذرة قد ذهب وولَّى: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾:

جاء الأمر هنا عامًّا للمؤمنين بعد أن أمر به بعض أمهات المؤمنين.

والتوبة النصوح هي: أن يترك الذنب، ويعزم على أَلَّا يعود إليه حتى يعود اللَّبَن في الضَّرْع، كما قال عمر وأُبيٌّ ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٢)، فهي توبة صادقة لا تردد فيها.

وقد نُقل عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره أن من شروطها: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم الصادق على عدم العود، وأن يُجهد نفسه في طاعة الله كما

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٦- ٣٦٧).

(٢) ينظر: «العظمة» (٤/ ١١٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٠٩)، (٩/ ٣٥٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢١٣)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣١٦)، و«الدر المنثور» (٨/ ٢٢٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٢).
ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

أجهد نفسه في معصية الله، وأن يرد الحقوق إلى أهلها[1].

وفي هذا يقول ابن المعتز[2]:

خـلِّ الـذنـوبَ صغيرَها وكبيـرَهـا ذاك التُّـقى
واصنـع كـماشٍ فـوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقـرنَ صغيـرةً إن الجبـالَ مـن الحَصَى

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة[3]، فهذا الوعد الطيب الصادق، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

والتعبير بنفي الخزي عن النبي ﷺ والمؤمنين تقرير لفوزهم الأخروي بعد فوزهم الدنيوي، كما قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ: «والله لا يخزيك الله أبدًا»[4]. وهو تعريض بالمشركين الذين جاءهم الخزي بالنار التي وقودها الناس والحجارة[5].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ حاضرون في الموقف، فإما أن يكون قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يعني: في الدنيا، **أو يكون المعنى:** إن الذين آمنوا هم معه في ذلك الموقف لا ينالهم الخزي[6]، و﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، فهنا ثناء على الذين آمنوا مع النبي ﷺ، وهم أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٩)، والمصادر السابقة.

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٠).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾: «**النور**» مقابل «**النار**»، فالكفار محشورون في نارٍ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، أما هؤلاء الأنبياء والذين آمنوا فإن لهم النور الذي يخرج من كتبهم، فهم يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، وهذه الكتب فيها من أعمال الخير ما يجعلها نورًا لأصحابها؛ فيظهر نورهم ويمضي.

والعادة أن الإنسان يأخذ الأشياء بيمينه ويعطيها بيمينه، وهؤلاء مؤمنون فيُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم بخلاف الكافرين، نورهم يسعى أمامهم ويسعى من عن يمينهم، أما عن شمالهم فكأن ثمة ظلمة والله أعلم؛ ظلمة الكفر والكافرين والنار؛ فلذلك لم يشر إليها، فهؤلاء المؤمنون يمضون وهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: إما أن يكونوا يخافون أن ينطفئ، وهم يرون الناس في كرب القيامة، فينادون ربهم ويدعون بهذا الدعاء الخاشع الملهوف، وما دعوا به إلا أن الله تعالى ألهمهم إياه.

فالمؤمن في مثل ذلك الموقف، وقد جاءه النور وهو ينادي ربه بهذا النداء الجميل: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، مثلما كان ينادي في الدنيا: يا مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي على طاعتك، يا مصرِّفَ القلوب صرِّف قلبي على دينك. ما ألهمهم الله تعالى هذا الدعاء في هذا الموقف إلا وهو يريد أن يتم لهم نورهم ويوصلهم إلى رضوانه.

كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»[1].

وربما كان هذا إذا انطفأ نور المنافقين، فاستعاذوا بالله أن يكونوا مثلهم.

ويحتمل أن يكون الدعاء من بعضهم، وليس منهم جميعًا؛ لأن نورهم متفاوت على قدر إيمانهم، كحال عبورهم الصراط[2].

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: وكأنهم يَبْرؤون من حولهم وقوتهم، وأن الأمر موقوف على رحمته سبحانه.

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة الرحمن»: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠١- ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠- ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧١).

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾:

أمره بالجهاد، ويشمل ألوان الجهاد؛ ولهذا ذكر الكفار والمنافقين، فأما الكفار المحاربون فجهادهم باللِّسان وبالسِّنان وبالقوة وبالحجة والمال، وبكل ممكن، كما ذكر أهل العلم، وأما المنافقون فإن هدي النبي ﷺ وسيرته في جهادهم أنه بالحجة، وما اقتضاه مقام البلاغ والرسالة من البيان والتحذير من أقوالهم وأعمالهم، كما في «سورة المنافقون»[١].

* ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

ختم السورة الكريمة بأربعة أمثلة ضربها للناس متصلة بالقصص السابقة في بيت النبوة:

أما الأول والثاني: فقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾.

وهذا المثل يخاطب به الذين كفروا؛ ليُبيِّن لهم أن قرب الإنسان من أحد أولياء الله لا ينفعه، وإنما ينفع الإنسان عمله، فهاتان امرأتان تحت نبيين عابدين صالحين: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾: والمقصود بالخيانة عند أكثر المفسرين: خيانة الدين[٢].

وقد ذُكر أن امرأة نوح ركبت معه السفينة، ثم طُوي ذكرها بعد ذلك، فهل هي امرأته الخائنة لرسالته، أم هي امرأة له أخرى؟ الله تعالى أعلم[٣].

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٠٤)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٣- ٢٢٤)، وما تقدم في «سورة المنافقون»، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٩٥)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٤٢٩)، (٢٣/ ١١١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٤- ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

والمقصود هنا امرأة لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن على دينه، خانته بذلك، وكذلك امرأة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصتهما معروفة، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مع قربهما.

﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: دليل على إهمالهم وإخماد ذكرهم، وأنه لا شأن لهم ولا قيمة ولا اعتبار، فإنها تدخل النار ضمن العديد من أهلها دون اعتبار، وفي ذلك تحذير أن يستبدل الإنسان الضلالة بالهدى، أو يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

* ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾:

والمثلان الآخران هما: قصة امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو موجَّه للمؤمنين أنه لا يضرك أن تكون مع قوم كافرين إذا أطعت الله تعالى واتقيته[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: وضرب الله مثلًا من الذين آمنوا؛ فإن امرأة فرعون كانت من المؤمنين.

والأقرب أن ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هذا هو فرعون الذي أُرسل إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

وكانت امرأته يقال: إنها كانت آسيوية، وفي «الصحيحين» أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أن اسمها: «**آسية**»، وفي بعض الروايات: «**ابنة مزاحم**»[3].

وهذا الاسم يبدو أنه عربي، وذكر المؤرِّخون أنها كانت على غير دين أهلها وقومها المصريين آنذاك، وكانت على ديانة التوحيد، وقد آمنت بموسى، وبلغ

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٦)، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧)﴾.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢٦٦٨، ٢٩٥٧)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٣٣٦، ١٥٧٦)، و«صحيح البخاري» (٣٤١١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣١)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠١٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٧، ٥٧٥، ٥٩٤)، و«المختارة» (٧/ ٢١- ٢٢) (٢٤٠٠، ٢٤٠١)، (١٢/ ١٦٧- ١٦٨) (١٨٧- ١٩٠).

الخبر فرعون فعذَّبها وعاقبها، ويبدو أنه آخر الأمر طردها وأبعدها عمَّا يسمونه: الحضرة الملكية والقصر؛ ولهذا قال: ﴿... ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فبدأت بالجار قبل الدار، ودعت الله تعالى أن يبني لها عنده ﴿بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ لأنها حُرمت من القصر والبيت الذي كانت تعيش فيه، والفراعنة لهم مدافن في قصورهم[١].

وهنا تلحظ كيف أن امرأة تتحدَّى بطش الفرعون وتتمرَّد عليه بإيمانها بالله، وتصبر وتصابر حتى تُطرد أو تُقتل، وكل ما تقوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، وتدعو ربها أن ينجيها منه ومن عمله الذي أعظمه الشرك بالله تعالى.

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المحيطين به من البطانة والأعوان، وربما من أولئك الذين يعذِّبونها[٢]، فقد ورد أنهم عذَّبوها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حتى ماتت[٣]، **هذا المثل الثالث.**

* **والمثل الرابع:** ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾:

جاء ذكرها بالاسم صريحًا، ولم يرد في القرآن من أسماء النساء سواها، وأنزل تعالى سورة خاصة باسمها؛ وفي ذلك إشادة بها.

﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: **الإحصان:** هو جعل الشيء حَصِينًا، ومنه نقول: مدينة

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٧).

(٣) ينظر: «مسند أبي يعلى» (٦٤٣١)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«المطالب العالية» (٣٧٦٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٥٩٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٥٠٨).

حَصِينة، أي: مَنِيعة الأسوار، ليست قصيرة يتجاوزها كل أحد أو يقفز عليها[1].

ومن النساء مَن لا يكون عندها هذا السور، فيؤثِّر فيها الحديث والوسوسة والكلام والإغراء والغزل، فتلين بعد تمنَّع، كما قال أحد الشعراء[2]:

عُسْـرُ النِّسـاءِ إلـى مُيَاسَـرَةٍ وَالصَّعْبُ يسلس بَعدَما جَمَحَا

ويشمل إحصان الجسد كله، فالعفة ليست في الفرج فحسب، وإنما عفة الوجه، والعين، واليد، والقلب ذاته، كما قال المتنبي[3]:

ولا عِفَّـةٌ فـي سَـيفِهِ وسِـنانِهِ ولكنها في الكفِّ والفَـرجِ والفَمِ

فعفة اليد: الكف عن الحرام، **وعفة الفَرْج**: أَلَّا يقع الإنسان في الفواحش ومقدماتها، **وعفة اللسان**: التوقف عن الكلام الذي لا يجمل ولا يليق.

والفَرْج يُطلق على جيب الدِّرْع[4]؛ وهو ثوب المرأة الذي تلبسه يكون فيه جيب عادةً من الأمام، وكل فتحة في الثوب تسمى: فَرْجًا، كما في قوله تعالى عن السماء: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

فالفُرُوج هي: الفتحات[5]، والثناء عليها يشمل إحصان جسدها في هيئتها ولباسها وكلامها وقلبها، ومن باب أولى وأكمل فرجها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: حيث جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فنفخ في جيب درعها النفخة السريعة التي تحولت بقدرة الله إلى حمل بصورة خارقة غير معهودة،

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٩)، و«تاج العروس» (٣٤/ ٤٣٥) «ح ص ن».

(٢) ينظر: «طبقات الشعراء» (ص٢٥)، و«العقد الفريد» (٨/ ١٠٤)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص٩١٧)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٢/ ٤٦٨) منسوبًا إلى بشار بن بُرد.

(٣) ينظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ١٠٥٥)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٥٠٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٣- ٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٠)، و«التفسير اللغوي للقرآن» (ص٦٢٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٧).

وولدت من ذلك **عيسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)].

ومن تشريف الله لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ إسناده النفخ في فرجها لروحه، وهو يعني أن تكون منسوبة إليه، نسبة الخلق والتشريف والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، أو يكون المقصود: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)].

﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ**﴾: **ومن كلماته: عيسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فهو** ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن كلماته: الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين، فهي صدَّقت بكلمات ربها كلها، وكتبه المنزَّلة على أنبيائه[(٣)].

وهذا يعني أن الله أثنى عليها بالعلم، وهو دليل على شرف العلم وفضله؛ لأنه لا يقع التصديق بكلمات الله وكتبه إلا مع العلم بها ومعرفتها.

ومن العجيب أنك تجد في بعض الآثار والنصوص الضعيفة تحذير المرأة من الكتابة؛ كحديث: «**لا تعلموهنَّ الكتابةَ**»[(٤)]، وهو حديث مكذوب لا يصح.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«أضواء البيان» (٣/ ٣٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧١٣)، والحاكم (٢/ ٣٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٢٧)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٣/ ٣٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٣٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٦٨- ٢٦٩) من حديث ابن عباس وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة» لابن القيسراني (ص٢٤٨)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٢/ ٨٧٩)، و«إتحاف المهرة» (١٧/ ٣٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٨)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٠١٧).

في حين أن الله تعالى يثني على سيدة نساء العالمين بأنها صدَّقت بكلمات ربها وكتبه، فهي إذًا على اطلاع بالكتب ومعرفة وإيمان بها، والإيمان هنا ليس تقليدًا؛ بل فهم راسخ للحقائق ومعرفة وحجة.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: **والقنوت** هو: الطاعة، وطول القيام في العبادة، **وقيل**: قيام الليل.

وهذا من باب التفسير بالمثال، فجمع الله لها بين العلم الصحيح، والعمل الصالح[1].

وقد كانت متبتِّلة في طاعة الله تعالى ورضوانه، كما وعد الله نبيه ﷺ بالنساء القانتات، وأمر نساءه أن يَكُنَّ كذلك.

وضَرْبُ المثل بمريم دعوة لنساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين لامتثال هذه الأخلاق العلمية العملية.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨))، وما تقدم في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

سُورَةُ المُلْكِ

✽ تسمية السورة:

اسمها المشهور: «**سورة المُلْك**»، وهو الذي في المصاحف، وكتب الحديث، والتفسير[1].

وسماها رسولُ الله ﷺ: «**المنجية**»، في قوله: «**إن سورةً من القرآن ثلاثونَ آيةً شفعت لرجل حتى غُفرَ له، وهي: سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»[2].

وفي حديث آخر: «**هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنجِيه من عذاب القبر**»[3].

وبعضهم يسمِّيها: «**سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»[4]، كما في الحديث السابق.

وتختصر إلى: «**سورة ﴿تَبَٰرَكَ﴾**»[5].

ويُسمَّى الجزء كله: «**جزء تبارك**».

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٥٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٧٥)، وعبد بن حميد (١٤٤٥)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، وابن ماجه (٣٧٨٦)، وابن حبان (٧٨٧)، والحاكم (١/ ٥٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم، وابن الملقِّن في «البدر المنير» (٣/ ٥٦١- ٥٦٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٤٠).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٧)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (٢/ ٦٤٢).

(٥) كما في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم. وينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٣).

ومن أسمائها- كما في الحديث السابق-: «**المانعة**»؛ فهي تمنع عذاب القبر عن صاحبها(١).

وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سماها: «**المجادِلة**»؛ لأنها تجادل عن صاحبها يوم القيامة(٢).

وعدَّ بعض أهل العلم لها نحوًا من ثمانية أسماء، وغالبها صفات(٣).

* **عدد آياتها:** ثلاثون آية(٤)، كما في الحديث السابق.

* **وهي مكية** عند جميع المفسرين(٥).

* **وموضوع السورة:** آيات الله في الأنفس والآفاق، والأرض والسماء والنجوم والطيور وغيرها، وإقامة للحجة على الكافرين بدلائل السمع والبصر والعقل.

* ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾:

تستفتح هذه السورة بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي: تعاظمت بركته، وعظم خيره وعطاؤه وفضله.

و﴿تَبَٰرَكَ﴾ مأخوذ من البركة، **وتعني:** الخير الكثير الدائم(٦)، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو

---

(١) وكما رُوي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَن قرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلَّ ليلة، منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسمِّيها: المانعة، وإنها في كتاب الله سورة، مَن قرأ بها في كل ليلة، فقد أكثر وأطاب». أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٧٩)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٥/ ٥٠- ٥١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد (٦٠٣).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥- ٧).

(٤) وقيل: إحدى وثلاثون؛ باعتبار قوله: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٩] آية. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٢)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٨).

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (١/ ٣٢٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١١٩) «ب ر ك».

صاحب الخير والفضل والإحسان والمَنِّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فخيره كثير لا يُحصى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩]، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢]، وما رِزْقُ أهل السماء والأرض، والبر والبحر، والأملاك والأفلاك، إلا قطرة في بحر جوده وكرمه، فهو ذو الخير الكثير، وهو ملجأ العبد في ملماته وأحواله وضروراته.

أقـــولُ لـعـبـد الله لـمَّـا لقيتُه ... وقدْ شـدَّ أحلاسَ المَطِيِّ مُشـرِّقا:

تتبَّـعْ خبَايـا الأرضِ وادعُ مَليكَها ... لعلَّـكَ يومًـا أنْ تُجـابَ فتُرزقـا

سـيؤتِيكَ مَـالًا واسـعًا ذا مثابـةٍ ... إذا مـا مِياهُ الأرضِ غارتْ تدفقا[1]

فالخير من الله دائم لا ينقطع، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: ٣]، فهو جَوَاد يرزق المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، وخيره يشمل أهل الدنيا وأهل الآخرة، لا يمل مع إلحاح السؤال، ولا ينفد ملكه مع كثرة النوال[2].

اللهُ يغضـبُ إن تركـتَ سُـؤَاله ... وبُنَـيُّ آدمَ حيـن يُسـأَلُ يَغْضـبُ[3]

وجاء في القرآن الكريم لفظ يشبه لفظ ﴿تَبَٰرَكَ﴾، وهو: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، كما في قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ

---

(١) رُوي أن ابن شِهاب الزُّهْري خاطب بها أخاه عبد الله، وقيل: إنه قالها لعبد الله بن عبد الملك ابن مروان، وقيل: لعبد الله بن عبد الله بن الحارث، ورُويت من قول عُروة بن الزُّبير، وصحَّح الزمخشري أنها لعمر بن أبي الجدير العجلاني. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٤٣٢- زوائد عبد الله)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٣٠٣، ٣٠٧)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ص٤١٣)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٢١١)، و«أسماء شيوخ مالك» لابن خلفون (ص١٩٥)، و«بهجة المجالس» لابن عبد البر (١/ ٢٣)، و«تاريخ دمشق» (٢٩/ ٣٥٠)، (٤٣/ ٥٥٣)، و«ربيع الأبرار» (١/ ١٦٩- ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٠٦).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم».

(٣) نسبه الخطَّابي في «العزلة» (ص٦٧) إلى الخُزَيمي، ونسبه ابن رجب في «نور الاقتباس» (٣/ ١٢٦- مجموع رسائل ابن رجب)، وابن عبد الهادي في «آداب الدعاء» (ص١٠٢)، وفي «مراقي الجنان» (ص٣٦٣) إلى أبي العتاهية.

﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقد جمع النبيُّ ﷺ بينهما في دعاء الاستفتاح، حيث كان يقول: «**سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتبارك اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرُكَ**»(١). أي: علت منزلتك، وعظم ملكك وسلطانك(٢).

فـ﴿تَعَالَىٰ﴾ معناها: علا وارتفع(٣)، والله له العلو المطلق؛ علو القدر، والقهر والغلبة، وعلو الذات، فهو العلي الأعلى بذاته وأسمائه وصفاته وجلاله وعظمته(٤).

وجاء فعل ثالث، وهو: «تقدَّس»، وإن لم يكن ورد في القرآن، لكنه جاء في حديث متكلَّم فيه: «**ربَّنا اللهُ الذي في السَّماء، تقدَّس اسمُكَ**»(٥).

و«**تقدَّس**» مثل ﴿تَبَارَكَ﴾، و﴿تَعَالَىٰ﴾، وفيه إثبات القدسية له سبحانه، و«القدُّوس» اسم من أسمائه، وهو المنزَّه عن كل عيب ونقص، المثبت له كل

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٥٧)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٤)، والنسائي (٢/ ١٣٢)، وابن خزيمة (٤٦٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦)، وابن خزيمة (٤٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٢٨٨)، و«البدر المنير» (٣/ ٥٣٢- ٥٣٣، ٥٣٧- ٥٣٩)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٤١٥- ٤١٦)، و«نتائج الأفكار» (١/ ٣٩٦- ٤٠٥)، و«إرواء الغليل» (٣٤٠، ٣٤١)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦)، و«فقه العبادة» (٢/ ١٦١).

(٢) ينظر: «النهاية» (١/ ٢٤٤)، و«حاشية السيوطي على سنن النسائي» (٢/ ١٣٢)، و«مرقاة المفاتيح» (٢/ ٦٧٧)، و«فيض القدير» (٥/ ٩٩).

(٣) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٥٤)، و«النهاية» (١/ ٢٤٤)، و«شرح أبي داود» للعيني (٣/ ٣٨٨).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص١٦٣).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٧)، والحاكم (٤/ ٢١٨) من حديث فَضَالة بن عُبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٠)، والبزار (٤٠٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٨٢)، والحاكم (١/ ٣٤٣) من حديث فَضَالة، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي إسنادهما ضعف. وينظر: «المجروحين» (١/ ٣٠٨)، و«الكامل» (٤/ ١٤٥)، والتعليق على «مسند أحمد».

كمال[1]؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح**»[2].

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: كل شيء ملكه سبحانه، فهو المَلِك الآمر الناهي، الذي ليس فوقه مَلِك ولا سلطان، وهو يأخذ السماوات والأرض بيمينه يوم القيامة، ويقول: «**أنا المَلِك، أين ملوكُ الأرض؟**»[3].

ومن أسمائه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، و﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يُعجزه شيء، فله القدرة التامة، والقدرة تدل على العلم.

* وإن من مظاهر قدرته سبحانه خلق السماوات والأرض والأكوان؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾:

واستفتح السورة بهذا الاستهلال الذي فيه التنزيه والتعظيم، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: هذا من بركته وملكه، فالدنيا والآخرة، والموت والحياة، هي خلقه وتدبيره.

وابتدأ بـ«الموت» قبل «الحياة» لوجهين:

١- أن الموت سابق: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالناس كانوا أمواتًا، والأرض كذلك: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

٢- للإشارة إلى أن الإنسان يصير إلى الموت بعد الحياة، وأن عليه أن يذكر الموت فلا ينساه ما دام حيًّا؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**أكثروا ذكرَ هاذمِ**

---

(١) ينظر: «مع الله» (ص٧١- ٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) وهي قراءة سبعية، كما تقدم في «سورة الفاتحة»، وينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣- ٤٦)، و«مع الله» (ص٦٥).

اللَّذَّاتِ»[1]. وهاذم اللَّذَّات: قاطعها[2]. وفي الروايات الأخرى: «**هادم**»[3]، أي: يهدم اللَّذات، لكن المقصود «**هاذم اللَّذَّات**»، أي: لذات أهل الدنيا، فيأتي الموت على الإنسان فيقطع لذته، أو أن يتذكر الموت فيكدِّر عليه لذته ومتعته، ويحمله على الانقطاع عنها.

إنَّ الحياة انتصار على الموت؛ ولذا فهي الباقية وإن اعترضها الموت، وإنما يخاطب بالشريعة الأحياء، والقرآن ذاته حياة، وذِكْرُ الموت يقمع الغرور والاندفاع، ولكنه لا يعكِّر جمالية الحياة ومتعتها الحلال: «**إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ**»[4].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: فالابتلاء مرتبط بخلق الموت والحياة، ويقع على الإنسان ما دام حيًّا، أما قبل أن يكون حيًّا فليس محلًّا للابتلاء والمحاسبة والسؤال.

وفي هذا دليل على شرف الحياة وفضلها، فالإنسان فيها يذكر ربه ويعبده، ويقدِّم لنفسه عملًا صالحًا، كما قال ﷺ، وقد سُئل: مَن خيرُ الناس؟ فقال: «**مَن طالَ عمرُه، وحسُنَ عملُه**»[5]. وقال: «**وإِنَّه لا يزيد المؤمنَ عمرُهُ إِلَّا خيرًا**»[6]. فلو مُدَّ لأحدنا ساعة في الأجل، فتصدَّق وصلَّى وذكر الله كثيرًا، لكان له بذلك الخير والأجر العظيم.

إن الحياة دار عمل، وفرصة للتزوُّد بأجور الطاعات والقربات، وما دام هذا النَّفَس يتردَّد، فبإمكان الإنسان أن يستثمر الحياة بجلائل الأعمال: و«**كلُّ معروف**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والنسائي (٤/ ٤)، وابن حبان (٢٩٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٥/ ١٨١)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٢٠٧)، و«إرواء الغليل» (٦٨٢).

(٢) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٣٦) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٥٦٠- ٥٦١)، و«مرقاة المفاتيح» (٣/ ١١٦٠)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٨٩).

(٣) وهي رواية ابن ماجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الطيالسي (٩٠٥)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، والحاكم (١/ ٣٣٩)، والضياء (٩/ ٤٣) (٢٠) من حديث أبي بَكْرة وعبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صدقةٌ»[١]، و«**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**»[٢].

ولو تصوَّر الإنسان حجم الخير والإحسان الذي يمكن أن يقدِّمه لنفسه وللقريب وللبعيد ما دام حيًّا لشمَّر عن ساعد الجِدِّ.

وأبواب الخير كثيرة وواسعة، حتى اللُّقمةُ يضعها الرجل في فمِ امرأته له بها أجر[٣]، بل يتجاوز ذلك إلى الإحسان إلى الحيوان[٤].

وفي الحديث المرفوع عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مثلُ الَّذي يذكرُ ربه، والَّذي لا يذكرُ ربه، مثلُ الحيِّ والميت**»[٥]. فشبَّه الذاكر الله تعالى بالحيِّ، وشبَّه الذي لا يذكر الله تعالى بالميت، وبينهما فرق كبير.

ويرد كثيرًا في تعبير القرآن وَصْف المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر: ٢٢]، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ٥٢﴾ [الروم: ٥٢].

فالمؤمن يفرح بالحياة الطيبة ويحتفل بها، ليس لمجرد المتعة، ولكن أيضًا لما فيها من فرص الخير والبذل والعمل.

فالابتلاء مداره على العمل طيبًا كان أو سيئًا، والآية فيها إيجاز بليغ يدفع للتنافس والاستباق إلى الخيرات، فمَن كان عمله حسنًا فهو إلى الجنة، ومَن كان عمله سيئًا فهو إلى النار.

وذكر الجانب الحسن؛ حثًّا للناس وتحفيزًا إلى حسن العمل، وفي ذلك إشادة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٥٣٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٨٦- ٢٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

بالعمل وقيمته وأهميته، وأنه ضرورة للنجاح في الدنيا والآخرة.

ولم يجعل كثرة العمل ميزانًا للتفاضل، بل جعل الميزان في إحسان العمل وإتقانه، فدل على أن المطلوب هو الإحسان والإتقان؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن اللهَ يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يتقنه**»(١).

وهنا لم يحدِّد نوع العمل؛ كـ«أيكم أحسن صلاة»، أو: «أحسن عبادة»، وإنما قال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ ليشمل العمل كله، فالمدار على إحسان العمل، سواءً كان دينيًّا أو دنيويًّا، اكتسابًا أو بذلًا.

ومن أحسن ما قيل في ذلك: ما ورد أن الفُضيل بن عِياض سُئل عن أحسن العمل، فقال: «أخلصه وأصوبه». ثم قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، فلا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا»(٢).

والعمل الخالص هو ما أُريد به وجه الله، والمقصود عمل الآخرة، وأما عمل الدنيا فيكفي فيه أَلَّا يُراد به مقصد سيِّئ، فلو أحسن إلى فقير أو مسكين، ولم يستحضر نية التقرب إلى الله، لكنه لم يعمله رياءً وسمعة، وإنما بدافع حُبِّ الخير أو العطف، فهذا يُؤجر عليه، كما نص عليه أهل العلم، وجاءت دلائله في الكتاب والسنة(٣).

وأما العبادة والقربة المحضة، فلا بد أن يكون مرادًا فيها وجه الله سبحانه.

والشرط الثاني في العمل هو **الصواب**، والصواب في مجال العبادات هو

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٧)، وابن عدي في «الكامل» (٨/ ٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٢٩- ٤٩٣١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١١٣).

(٢) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٥٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣٢٠، ٢٣٦٣، ٢٦٣١، ٣٤٦٧، ٦٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (٣٥، ١٥٥٢، ١٥٦٠، ٢٢٤٤، ٢٢٤٥)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٥- ٦٦)، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، و«سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

اتِّباع النبي ﷺ، ولزوم طاعته وطريقته؛ كالصلاة والصيام وسائر العبادات[1].

وأما في المصالح العامة وأمور الدنيا، فأصوب العمل فيه هو ما كانت مصلحته أعظم، وضده ما كانت مفسدته أعظم.

وإنما يَعرف قدر المصلحة مَن رزقه الله البصيرة والعقل، والفهم والإدراك، ومعرفة مآلات الأمور.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾: وما أجمل هذا الختام لهذه الآية! أي: منكم مَن يُخفق في هذا الابتلاء فيعصي، وينحرف، فهذا يُقابله قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ فإن الله عزيزٌ قويٌّ منتقمٌ ممن عصاه، فإيراد اسم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يناسب حال مَن أخفقوا في هذا الابتلاء تعمدًا للضلال واختيارًا لطريقه.

وأما قوله: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ فيناسب حال مَن أحسنوا في العمل، ونجحوا في الابتلاء، وعرض لهم في ثنايا ذلك ألوان من الغفلة أو التقصير، فإن الله تعالى غفور لهم، كما قال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[2] [طه: ٨٢].

* ثم يقول سبحانه في سياق تعداد النعم، وإقامة الحجة على العباد: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾:

والسماء هي هذه القبة التي يراها الناس فوق رؤوسهم[3]، والقرآن خاطب الناسَ بمقتضى ما يعرفون، فالقرآن ليس كتابًا خاصًّا للفلكيين في مختبراتهم ومعاملهم، ولا بالفلاسفة، أو أهل العلوم الدقيقة، بل هو عام لكل الناس؛ للعلماء والفلاسفة والمختصين، وللبادي في باديته، وللمزارع في حقله، وكون هذه

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«العبودية» (ص٧١)، و«تجريد التوحيد المفيد» (ص٤٢)، و«فتح المجيد» (ص٣٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥- ١٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾.

السماوات مجرات أو نجومًا أو غير ذلك مما يشاء الله تعالى، فمسألة لم نتعبَّد بها، وإنما نؤمن بأن فوقنا سبع سماوات، وأنها ﴿طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض(١).

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ فهي في غاية الإحكام والدِّقَّة والإتقان؛ ولهذا تشقَّق يوم القيامة وتفتح وتكون أبوابًا وتتصدَّع(٢).

وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ ليس خطابًا خاصًّا بالنبي ﷺ، وإنما هو خطاب لكل أحد(٣)، فانظر بعينيك أيها القارئ والسامع، فالله قد أعطاك بصرًا، فانظر في هذه السماوات، هل ترى فيها من ﴿تَفَاوُتٍ﴾؟

والتفاوت: الاختلاف، أو العيب، أو الخلل(٤).

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أي: انظر إلى السماء مرة أخرى، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى من شُقوق أو صدوع في السماء(٥)؟

وهذا يُدرَك بالحِسِّ، وهو لفت إلى معنى الجمال والزينة في الخلق، وأنه من المقاصد العظيمة.

* ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾:

وليس المقصود مرتين فقط، بل مرة بعد مرة(٦)، مثلما تقول لِمَن ناداك: لبيك

---

(١) ينظر: «العين» (٥/ ١٠٨) «ط ب ق»، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦).

(٢) كما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٨٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢١)،)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٣٥) «ف و ت»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٤٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾.

(٦) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

وسعديك. أي: أُجيبك إجابة بعد إجابة مرة بعد أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١، ٣]. ليس المقصود أن تقرأ مرتين، ولكن مرة بعد مرة[(١)]، وتكرارها هنا ليس مثل قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإنه سبحانه عند ما يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي: ليس بثلاث، فالثالثة تبين بها المرأة[(٢)].

﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ﴾: لم يقل: «يرجع»؛ لتجنب التكرار مع قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾، فلم يناسب أن يقول: «يرجع إليك البصر»، وإنما قال: ﴿يَنقَلِبۡ﴾؛ لأن النظرة الأولى كانت من الإنسان ابتداءً، فقيل له: كرِّرها، وارجع وانظر مرة أخرى، ثم ارجع مرة أخرى؛ لينقلب، وكأنه يرجع ويرتدّ إليك مكرهًا، فإن الإنسان نظر باختياره مرة أولى، وباختياره مرة أخرى، وكأنه يبحث عن صدوع وتفاوت[(٣)].

﴿خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: منقطعًا عن ذلك[(٤)].

* ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾:

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ مع الجودة والقوَّة والمتانة والإحكام للسماوات السبع، فالجمال مقصود، وأنت عند ما تشاهد النجوم بالليل- خاصة في الصحراء- بإشراقها وتألقها الذي طالما تغنَّى به الشعراء، ووجد الناس فيه من الجمال الشيء العظيم؛ تشعر بالذهول والانبهار.

وعند ما تدخل قُبَّة فلكية تحكي السماء، تصبح أكثر وعيًا واندهاشًا.

الجمال والزينة في السماء وفي الأرض وفي الخلق، كما يشهد قوله:

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ٩٧)، و«عمدة الفقه» (ص١٠٥).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩).

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [النحل: ٦]. وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ [ق: ٦- ٧].

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم(١)، وقد جرت العادة أن يُزيِّن الناسُ قبابهم وسقوفهم بالمصابيح، ويسمونها: الثُّريَّات؛ تشبيهًا لها بالسماوات، على أنها تبدو كلعب الأطفال صغيرة حين تُقارن بالنجوم والمجرات، وهي معلَّقة محكمة بالسلاسل والحديد، في حين أن هذه المصابيح والشموس والأقمار والنجوم والكواكب الضخمة، التي لا يقدر قدرها ولا يحصي عددها إلا الله، لا شيء يمسكها إلا هو: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: والمصابيح ثابتة، كما هو معلوم، ولكن تنفصل منها الشُّهب التي تُرجَم بها الشياطين حينما يحاولون استراق السمع(٢)، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن: ٩]، وقال: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر: ١٨].

وكان قتادة يقول: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمَن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به»(٣).

وليس مقصود قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها لم تُخلق إلا لهذه الثلاث، ولكن هذه الثلاث وردت في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وقال سبحانه:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩١٣)، و«العظمة» (٤/ ١٢٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٦)، و«شرح السنة» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، وقال في «سورة النحل»: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾، لكن هذا لا يمنع أن يكون الله خلق النجوم لمصالح أخرى مما نعلم وما لا نعلم.

وإنما مقصوده التشنيع على المنجِّمين وأدعياء علم الغيب، وبعض الفلاسفة وبعض الفلكيين في العصور السابقة، الذين ينسبون إلى النجوم من القوة والتأثير في الأقدار ما ليس لها[1].

وأما ما ثبت من مصالح النجوم غير هذه، فهذا لا تثريب فيه، فالشمس- مثلًا- فيها مصالح للإنسان والأرض والنبات والحيوان، لا يعرف البشر منها إلا القليل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة[2]، ويتكرر عند ذكر الشياطين الوعيد لهم بعذاب السعير، و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ هي النار، أو دَرَك من دَرَكاتها[3].

أو يقال: إن ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو الذي يُعذَّب فيه مردة الجنِّ والشياطين، كما في قوله سبحانه في قصة الجنِّ: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾[4] [سبأ: ١٢].

ويجوز أن يكون المقصود: النار عامة؛ كما في «سورة الجن»: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾، **وجهنم**: من أسماء النار[5].

* ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾:

فالعذاب ليس خاصًّا بالجنِّ أو مردة الشياطين، بل هو شامل للعصاة من بني

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٨٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٧).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٥٩٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٨٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٣٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٨٢٨).

آدم؛ ولهذا عقَّب بقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: من بني آدم[1]، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فهو بئس المصير على بئس العمل، كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، فمظهر العزة أن الله تعالى يُعاقب هؤلاء الكافرين بعذاب جهنم، وبئس المصير.

وبدأ الجملة بذكر وصف الكفر؛ تنويهًا بالعدل، فهم الذين اختاروا هذا المصير المؤلِم، باختيارهم الكفر والجحود، والظلم والعدوان، وهو تمهيد لما سيرد من اعترافهم باستحقاق هذا المصير.

* ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾:

أي: إذا ألقتهم الملائكة في النار، فهم مقهورون، يُرمون فيها رميًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣١].

والشَّهِيق هو: صوت النفس عند خروجه من الحلق، ويجوز أن يكون صوت النار، وأن الله تعالى يجعل لها يوم القيامة من الصفات ما ليس للنار في الدنيا، فيكون لها صوت وشَهِيق، وهذا هو ظاهر النص، **وهو أقرب وأولى**[2].

وقال بعضهم: إن المقصود بالشَّهِيق: صوت مَن دخل النار قبل هؤلاء[3]، كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٦- ١٠٧].

ويُضعِّف هذا القول أن السياق في وصف النار، وما بعده يؤكِّد اختلاف نار الآخرة عن نار الدنيا، حتى تصبح كأنها حيٌّ يتملَّكه شعور الغضب من هؤلاء

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٧٧)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٦).

البشر الشاردين عن الإيمان!

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: وهي تغلي بمَن فيها[١].

* ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ أي: تكاد تتقطَّع[٢]، فمع أنها متصلة بعضها ببعض، إلا أنها تكاد تتقطَّع من شدة الغيظ والحَنَق على الكافرين.

وهذا أيضًا مما ينبغي أن يُحمل على ظاهره؛ فإن الله تعالى يجعل هذا في النار يوم القيامة، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»[٣]. فالعذاب في الآخرة ليس كما في الدنيا، وجهنم ليست كما يتخيَّله أحدنا!

والتعبير بالتميّز- وهو التقطّع- كناية عن شدة الغضب، كما يقال: إن فلانًا غضب، حتى خرج منه شعبتان: شعبة إلى السماء، وشعبة في الأرض. ويقصد من وراء ذلك شدة الغيظ والحَنَق[٤].

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾: ﴿كُلَّمَآ﴾ تدل على التكرار، **والمعنى**: أنه يُلقى في النار فوجٌ بعد فوج، وكلُّ فوج يحدث له هذا، فكما أن المؤمنينَ يُحشرونَ إلى الجنة أفواجًا، فإن الكفارَ يُحشرونَ إلى النار أفواجًا، كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧١]، والتفويج يكون بحسب الأمم، أو بحسب درجة الكفر، أو بحسب نوع الضلالة التي ارتكبوها،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٠).

(٣) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه وكيع في «نسخته عن الأعمش» (١)، وهنَّاد في «الزهد» (٣، ٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، والضياء (١٠/ ١٦) (٦)، وصحَّحه غير واحد. ينظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ٣١٦)، و«الفتوى الحموية الكبرى» (ص٥٤٤)، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٣/ ٤٤٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤).

فالوثنيون طبقة، وعبدة النار طبقة، ومكذبو الرسل طبقة، والملحدون الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى طبقة، والله أعلم.

والفَوْج: هم الجماعة من الناس[1].

والخَزَنة جمع: خازن، وهم الملائكة الموكَّلون بالنار، القائمون عليها[2]، **والمقصود**: أنهم قائمون على ديمومة وقود النار، وعلى عذاب أهل النار، وبقائهم فيها، كما في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

فخَزَنة جهنم يردُّون على أهلها، كما في قولهم ردًّا على طلب التخفيف، فيقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٥٠].

وفي هذا السياق ذكر تعالى أن الخَزَنة تقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أمَا جاءكم رسول؟ أما قامت عليكم الحجة؟ أما سمعتم بنبي؟ أما جاءكم كتاب؟

وهو سؤال لإقامة الحُجَّة والبلاغ؛ ولهذا يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يَهْلِكَ الناسُ حتى يَعْذِرُوا**- أو: **يُعْذِرُوا- من أنفسهم**»[3]. أي: لا أحد يدخل النار ويقول: أنا مظلوم، كما هو الحال في الدنيا، فلو زرت سجنًا من السجون لوجدت كل مسجون يقول: أنا مظلوم[4]، كما قال الشاعر[5]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٢)، و«روح البيان» (٦/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥)، والمصادر الآتية.

وينظر أيضًا: «العين» (٦/ ١٩٠)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٤٨٩)، و«الصحاح» (١/ ٣٣٦) «ف و ج».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥١٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١١)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٤٨)، وابن الجعد (١٢٨)، وأحمد (١٨٢٨٩، ٢٢٥٠٦)، وأبو داود (٤٣٤٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١)، والبغوي (٤١٥٧) من حديث أبي البَخْتري، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾.

(٥) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ١١٦)، و«الحيوان» (٢/ ٣٠٧)، و«عيون الأخبار» (١/ ١٤٩)، (٢/ ١٣٢).

ما يدخلُ السجنَ إنسانٌ فتسألُه: ما بالُ سجنك؟ إلا قال: مظلومُ

* ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾:

وهذا دليل على أن أهل النار هم مَن بلغتهم الحجة، وجاءهم النذير والرسول، وجاءهم القرآن والبلاغ، فأصرُّوا وكذَّبوا واستكبروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، أما أهل الفَتْرة الذين ماتوا قبل الإسلام، أو ماتوا بعد الإسلام، ولم تبلغهم الرسالة والحُجَّة، ولم تصل إليهم الدعوة، فهؤلاء لا يُحكم عليهم بهذا المصير، وإنما يكون أمرهم إلى الله فيما يقتضي كرمه وعدله جل وعز، وفيهم الأقوال المتداولة بين أهل العلم[1].

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: جاءنا رسولٌ يُبلِّغ عن الله، فكذَّبنا به وقلنا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أبدًا، وهذا نفي مطلق، فكذَّبوا الرسل والكتب والشرائع جميعًا؛ لأن ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾، تدل على استغراق جميع الأشياء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]. فهذا اعتراف لفظي، حيث ظلوا يستذكرون ما جرى في الدنيا ويحكونه بالتفصيل، ويقرُّون على أنفسهم بوصول الحجة إليهم وقيامها عليهم، وتكذيبهم لها ورفض سماعها.. وإنما سماه هنا: ﴿نَذِيرٌ﴾؛ لمناسبة النِّذارة لحال العذاب الذي يقاسونه، كما يسمى: ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾: يجوز أن يكون هذا من تمام كلامهم، وأنهم كانوا يسخرون بالنذير، ويقولون له ذلك في الدنيا[2].

ومع كونه نذيرًا واحدًا، فقد عبَّر هنا بلفظ الجمع: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ إشارة إلى النذير ومَن آمن به، أو يكون لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ معبرًا عن الجنس، أي: النُّذر، ومَن

(١) ينظر: «أضواء البيان» (٣/ ٦٥- ٧٥)، و«أهل الفترة» لموفق أحمد شكري (ص٧٠)، وما بعدها.

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٩/ ٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١١).

كذَّب برسول فقد كذَّب بالرسل أجمعين؛ لأن دعوتهم واحدة، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[1] [الشعراء: ١٠٥].

ومن الإعجاز أن هذا الكلام نفسه يصلح أن يكون من كلام الخَزَنة للكفار[2]، أي: فهذا الكلام الذي كنتم تقولونه للرسل في الدنيا ينطبق عليكم الآن: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: كيف يأتيكم رسل الله بالبينات والهدى والحجج، ثم تكذِّبون وتقولون: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إنْ أنتم يا أهل النار إلا في ضلال، أي: ضياع عن الجادة والطريق والمنهج، ووصفه بأنه ﴿كَبِيرٍ﴾ أي: بعيد[3]، وليس مجرد انحراف يسير يمكن تداركه.

* ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾:

رجع الكلام هنا لأهل النار؛ ولذا كرَّر كلمة: ﴿وَقَالُوا﴾، ويلاحظ أنهم قدَّموا السمع على العقل، وهذا دليل على قوة حجة السمع[4].

والسمع: الوحي الذي أقام به الرسل الحُجَّة على الناس، وهم كانوا يسمعون، لكن لم يكن سمعهم المستفيد، كما قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٢]، فهؤلاء كان لهم آذان، ولكنها غير واعية، ومن هنا تأسَّفوا وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى أن العقل من أعظم النعم، ولا يخاطب بالديانة أصلًا إلا مَن لهم عقول؛ فإن العقل هو مناط التكليف، ومناط الحُجَّة على العباد، وغير العاقل غير مكلَّف، والإسلام جاء ليخاطب العقول، ويحتج على الناس بدلالاتها وأحكامها الصحيحة، ويأمرهم بتحريكها والانتفاع بها، والتبصُّر والنظر في السماوات والأرض، كما قال سبحانه في أول السورة: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٥).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥).

(٤) ينظر: «التفسير المظهري» (١٠/ ٢٣).

﴿فُطُورٍ ③﴾، فهذا بصر، ولكنه لا يفيد، إلا مَن كان له عقلٌ يتدبَّر ويعتبر.

وقد نفوا العقل عن أنفسهم، وربما كانوا يعقلون في أمور الدنيا، وفي المصالح المادية، والمكر والكيد والتخطيط، ولكنه عقل محدود، لم يخترق حُجُب المادية، ولم يرشد أصحابها إلى أن يعملوا لآخرتهم، كما يعملون لدنياهم، وأن يحرصوا على أن يحسنوا العمل الصالح الرباني، كما يحسنون العمل الصالح المادي.

* ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ⑪﴾:

و«الاعتراف سيد الأدلة»، وهو من كمال العدل الإلهي مع الإنسان، وليس بعد الاعتراف شيء، فبأي شيء يُعذرون، وقد اعترفوا بذنبهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿فَسُحۡقٗا﴾ أي: بُعدًا وذَهابًا وهلاكًا وبوارًا ودمارًا[1]، ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فصاروا أصحاب السعير، وصارت لهم وهم لها، يُكونونَ ويُصْلَونَ فيها.

فأصحاب السَّعير هم: العصاة والكفار، الذين أخفقوا في الابتلاء، وأساؤوا في العمل، فانتقم الله منهم؛ لأنه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾.

ومن معنى كونهم أصحاب السَّعير: أنهم باقون خالدون فيها لا يخرجون.

* وأما الذين أحسنوا ونجحوا في الابتلاء، فأحسن اللهُ إليهم، وغفر لهم؛ لأنه ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾؛ ولهذا ناسب أن يثنِّيَ بذكر الصالحين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ⑫﴾:

أي: يخافون الله تعالى بالغيب[2]، والله غيب لم يروه، وإنما قامت الحجج والبينات الكونية والعقلية والسمعية على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته.

أو يكون معنى ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: في خلواتهم، بعيدًا عن عيون الناس، فليس فعلهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٣).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٣١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢٥).

ذلك تظاهرًا بالخوف، ولا رياءً، ولا مجاملةً، ولا نفاقًا[1]، فهؤلاء ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾ من ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، والغَفْر: السَّتْر[2]، فستر ذنوبهم وأخفاها، ولم يؤاخذهم بها؛ لأنهم ليسوا من أصحاب الضلال الكبير البعيد، بل ممن سدَّدوا وقاربوا، وأخطؤوا بالليل ليتوبوا بالنهار، أو زلُّوا بالنهار ليتوبوا بالليل، وعلموا أن لهم ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ولهم أجر كبير، ولو اقتصر على المغفرة، فقد يُفهم منها محو الذنوب والتسامح عنها فحسب، لكن لما قال: ﴿وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ﴾ دلَّ ذلك على أن لهم زيادة على مجرد العفو، إما مقابل حسناتهم، أو المقصود سيئاتهم التي تابوا منها، فأبدلها الله لهم حسنات[3].

* وفي قوله: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إشارة إلى عظمة الإيمان بالغيب الذي لم يروه، فناسب أن يقول: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾:

أي: سواء كان الإنسان في الملأ أو منفردًا، فالله تعالى مطَّلع عليه، وإذا تكلم العبدُ سرًّا أو جهرًا، فالله يسمعه: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، وقد كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في طرف الحجرة، لا تدري ما تقول هذه المجادِلة، ولكن سمعها الله من فوق سبع سماوات، فأنزل قوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٥) «غ ف ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢/ ٥٥٩)، (٦/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٣)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٣٥٦).

(٤) كما في «مسند أحمد» (٢٤١٩٥)، و«صحيح البخاري» معلقًا (٩/ ١١٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٨، ٢٠٦٣)، و«سنن النسائي» (٦/ ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨١)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «الحمدُ لله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزل اللهُ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾، وتقدم في أول «سورة المجادلة».

[آل عمران: ١٨١].

وفي قصة الثلاثة الذين قال أحدُهم: أترونَ أن اللهَ يسمعُ ما نقولُ؟ وقال الآخرُ: يسمعُ إن جهرنا، ولا يسمعُ إن أخفينا. وقال الآخرُ: إن كان يسمعُ إذا جهرنا، فهو يسمعُ إذا أخفينا. فأنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ الآية[1].

ومعنى الآية: أن السرَّ والجهرَ عند الله سواء، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]؛ لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فهو عالم بما في قلبك، حتى قبل أن تنطق به، بل هو عالم به قبل أن يكون في قلبك[2].

وهو سبحانه يعلم الوسوسة التي في خاطرك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عليم بالحاجة التي ما زالت في الصدر لم يبح بها صاحبها[3]، كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]. وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وأخفى من السِّرِّ الذي لا يعلم به صاحبه ما لم يكن سرًّا، ولكنه سوف يكون سرًّا، فالله تعالى يعلمه، فمن هنا قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ﴾[4].

وهذه الرقابة الإلهية التي لا يفوتها شيء، حريٌّ أن تجعل المؤمنَ يستحضر رقابة علَّام الغيوب في حركاته وسكناته، وعلانيته وخلوته؛ فإن ذلك يحفِّزه إلى الطاعة ويزجره عن المعصية.

وكان من مناسبة هذا السياق أن بعض المشركين كانوا يسخرون من المؤمنين، ويقولون: إن الله تعالى يسمع كلامنا إذا جهرنا، ولا يسمع إذا أسررنا، فاهمسوا، حتى لا يسمعكم إله محمد. ففضحهم تعالى، وبيَّن أنه يسمع هذا الهمس، ويعلمه،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٩/ ٦)، و«أضواء البيان» (٢/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٧)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٤٢)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٧٦).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحديد»: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى[1].

* ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾:

كيف لا يعلم وهو الخالق؟ فقوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ أي: أفلا يعلم الله سبحانه السِّرَّ وهو الخالق وهو اللطيف؟

بلى، فهو خالق الإنسان والعقل والقلب والروح والسِّرَّ والخطرة واللسان والأذن والحركة والهواء الذي ينتقل به الصوت وكل شيء؛ ولذا قال: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ ولم يحدِّد مخلوقًا، فهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ويحتمل المعنى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: أَلَا يعلمُ اللهُ مَن خلق؟ فكيف لا يعلم الخالق مَن خلق؟ هذا شيء خلاف العقل؛ لأنه إذا كان هو الخالق للإنسان بكل تفاصيله ودقته، فمقتضى ذلك قدرته عليه، وأن يكون عليمًا مطَّلعًا على كل شيء منه وفيه[2].

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ من اللُّطف، وهو الشأن الخفي[3].

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الذي يعلم دقائق الأشياء وتفاصيلها ومعانيها ومفرداتها، وهذا من خصوص معنى ﴿ٱللَّطِيفُ﴾.

و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: صاحب الخبرة التامة، ومن خصوص معنى ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: الذي يعلم الأشياء قبل وقوعها وحدوثها[4]، والخبرة في البشر هي التي تؤهلهم لتوقع المستقبل وحساباته واحتمالاته، وتسمَّى بعض دوائر البحث: «بيوت الخبرة».

وختام الآية بهذين الاسمين مناسب لقوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، فالله لطيف يعلم السِّرَّ ويعلم الجهرَ، ويعلم الدقيق والجليل، والكبير والصغير، ويعلم كلام الاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة، وخبير يعلم ما سيقع من سر أو علانية،

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٢)، وما تقدم في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١).

(٤) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٤٥، ١٥١).

ومن خاطرةٍ أو حديث نفس قبل أن تقع.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

وهذا من نعمته وفضله وحجَّته سبحانه على عباده، فهي نعمة تحتاج إلى شكر، وآية توجب الإيمان.

والأرض هي محل التكليف بالخلافة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، والمخاطبون هم البشر؛ مسلمهم وكافرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ١٠]، ووصفها هنا بوصف عجيب، وهو ﴿ذَلُولًا﴾[1]، كما تقول: بَعِير مذلَّل، أي: مسخَّر، فالبعير المذلَّل يركبه الصغير والكبير، وربما ضربه أو استعجله وهو مطرق، وعادة ما يُطلق على البعير المخصَّص للسفر والترحال، حتى صار اسمًا، لا وصفًا، فيقال: هذا ذَلول فلان، يعني: بعيره، وأصله مأخوذ من الذُّل والتذلُّل، فكذلك الأرض جعلها الله مسخَّرة، يحفر الناس فيها ويدفنون ويزرعون ويبنون، ويتحركون عليها ويمشون، فهي قابلة لكل ما يصلح حياة الناس، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٧]، ففي السياق معنى التسخير، وينطوي تحت هذه الكلمة كل نواميس التسخير التي وضعها الله في الكون لخدمة الإنسان.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: وهذا إذن وإباحة يتضمن أمرًا شرعيًّا أو مصلحيًّا؛ أن يسير الناس في مناكب الأرض وفجاجها؛ لمصالح الدين والدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠]، فقد ينتقل الأمر للاستحباب أو الوجوب، كما هو

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٥٨)، و«لسان العرب» (١/ ٧٧٢).

الشأن في السفر، حيث تجري فيه الأحكام الخمسة[1].

والمَنْكِب: الكتف، وللأرض مناكب، وهذه المناكب قد تكون هي الجبال، كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنها مرتفعة في الأرض مثل المناكب[2].

وقد تشمل الطرق المذلَّلة المعبَّدة للسير، **والأقرب** أن المقصود: جهاتها وأطرافها ونواحيها.

وهو دليل على أن الأصل جواز السفر والتنقل في الأرض، ولا ينتقل الحكم عن ذلك إلا بدليل صحيح صريح، وأن من حقوق الناس أن يضربوا في الأرض ويتنقلوا بين أقطارها.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما يخرجه لكم من هذه الأرض، أو ينزله لكم من السماء، أو يكون مشتركًا بينهما، وهو دليل على أن الأصل في المأكول والمشروب الحلّ والإباحة، ولا ينتقل الحكم عنه إلا بدليل.

والرزق هنا يشمل ما أودعه الله في الأرض من المزروعات والنباتات واللحوم، ويشمل المركب الذي يصنعه الإنسان ويسخِّره، فجميع ذلك من رزق الله.

وأطيب المأكول ما أخرجه الله لنا من الأرض من الطيبات، فهو أهنأ وأبرأ وأمرأ وأصح وأنفع للبدن، وإذا اعتاد المرء عليه صار ألذّ، وإن انصرفت عنه أجيال تأثرًا بالصنعة المغرية القائمة في الأطعمة الجاهزة والوجبات السريعة.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فهو وإن مشى وأكل وشرب، فعليه ألَّا ينسى أن الحياة إلى نهاية، **والنَّشْر**: البعث، كما قال الأَعْشَى[3]:

لو أَسْنَدَتْ مَيْتًا إلى نحرِها ... عاش ولم يُنقلْ إلى قابرِ

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا ... يا عجبًا للميت الناشرِ

---

(١) ينظر: «الحاوي الكبير» (٢/ ٣٥٨)، و«البناية شرح الهداية» (٣/ ٣٥)، و«مواهب الجليل» (٢/ ١٣٩- ١٤٠)، و«الشرح الممتع» (٤/ ٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٧- ١٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٩).

(٣) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩).

أي: المنشور، و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ هو: الحياة بعد الموت[1]، كما جاء في أذكار الاستيقاظ من النوم: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشورُ**»[2].

* ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾:

أي: أيها الناس، هل أمنتم عذاب الله حين غفلتم عن عبادته، بأن يخسف بكم الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: ترتجّ[3]؟ كما هو فعل الزلازل، فما هي إلا ثوانٍ معدودة، فإذا بناطحات السحاب تتساقط، وإذا بالمباني تتهدَّم، وإذا بالبحار تصطفق وتضطرب، وقد يحدث لها طوفان على الأرض، كما في «تسونامي» الذي ضرب بعض بلاد شرق آسيا[4].

* ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾:

وهذا نوع آخر من العقاب، فالأرض لو سكنت، فالله تعالى قادر على أن يبعث عليكم ريحًا قاصفًا، فيهلككم بهذه الريح التي تضرب وجوهكم بالحصباء والحجارة، سواء كان هذا الحاصب من السماء أو من الأرض نفسها.

والتعبير بـ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عظيم، فيه إشارة المهابة والجلال للربِّ المدبِّر القدير، وفيه تأكيد العلو؛ علو القهر وعلو القدر وعلو الذات[5]، وفيه إلماح إلى جنوده تعالى في أكوانه، الذين سخَّرهم لمصالح الحياة، ويسخرهم للبطش والعقاب والتنكيل بالمفسدين.

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: حين ترون هذه الآيات العظيمة كيف يكون نذير الله تعالى لكم، فقد أنذركم ذلك وحذَّركم منه، وأمركم بطاعته، وقال: ﴿ظَهَرَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٩)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٣٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣٢٥) من حديث حذيفة وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٠)، والمصادر السابقة.

(٤) ومن ذلك ما حصل من المد البحري في إندونيسيا، وذلك عام (٢٠٠٤م)، والذي خلَّف مئات الآلاف بين قتيل وجريح.

(٥) ينظر: «التدمرية» (ص٨٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ١٤٤).

ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

* ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾:

فقبل تكذيب العرب بالنبوة كذَّبت أممٌ رسلَ الله عَزَّوَجَلَّ، فكان نَكِير الله تعالى عليهم بتكذيبهم نكِيرًا شديدًا وأخذًا وَبِيلًا، **والمعنى**: تهديد هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم(١).

* ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾:

وما أكثر الذين يغفُلون بسبب الإِلْف والعادة! فقد اعتادوا أن يمشوا على الأرض، ناسين ذاهلين عن نعمة بسطها واستقرارها، وكذلك ما يشهدونه في ملكوت السماوات(٢).

ولم يقل تعالى: «ألم يَرَوْا الطير»، بل عدَّى الفعل بـ﴿إِلَىٰ﴾، وكأنه ضمَّنه معنى: ﴿يَنظُرُوا۟﴾(٣).

وبين الرؤية والنظر فرق، وهو أن النظر أمكنُ في القصد، فيقال: نظر إلى كذا، أي: تعمَّد وقصد الرؤية، بخلاف «رأى»، فقد تقع قصدًا أو اتفاقًا دون إرادة، وهنا استعمل «يرى» عوضًا عن «ينظر»؛ لأن في السياق تحفيزًا إلى مشاهدة الطير، ومعرفة سرِّ الإبداع والخلق فيها، وإشارة إلى تكرار حدوث النظر منهم إليها؛ لأنها من المشاهد المتاحة.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: تصف بأجنحتها عند الطيران في السماء(٤)؛ فإن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧).

(٣) كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦).

الطير إنما يكون طيرانه من خلال صف هذه الأجنحة، بمقتضى ما جعل الله تعالى من تكوين جسمه، ومن قدرته على الطيران، ومن تسخير الهواء وقابليته لذلك.

والأصل أنهن خلال الطيران صافَّات، ولكنهن أحيانًا يقبضن؛ ليساعدها هذا على سرعة الطيران واستمراره، والناس إذا رأوا شيئًا لأول مرة اندهشوا منه، فالذي يرى الفيل لأول مرة يندهش لخلقه ويتعجب منه، فإذا تعوَّد على رؤية البعير أو كان في بيئته منذ أن كان طفلًا، فإنه لا يلفت نظره، فالعادة تحرم الإنسان من كثيرٍ من الاعتبار[(١)].

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فبإرادته ظلت هذه الطير صافَّات بأجنحتها في السماء، كما بإرادته أمسك السماوات والأرض أن تزولا.

واختار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأن من رحمته وضع نواميس الخلق الجارية، ومن رحمته الصبر على عباده، وعدم معاجلتهم، وتصريف الآيات لهم، وفيه- فوق هذا- الإلماح إلى الرحمة بالمخلوقات، و«**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[(٢)]، «**والشاةُ إن رحمتها رحمك اللهُ**»[(٣)].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾: والبصير معناه: المبصر، الذي لا يفوته شيءٌ، فهو يرى كل شيء[(٤)].

ومن معاني ﴿بَصِيرٌ﴾: عليم بما يصلح الشيء، كما تقول: هذا الإنسان بصير بهذا العمل، أو بصير بهذه الآلة، أي: أنه صاحب معرفة بها[(٥)].

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧).

(٢) كما في «مسند أحمد» (٦٤٩٤)، و«سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«جامع الترمذي» (١٩٢٤)، و«المستدرك» (٤/ ١٥٩)، و«الآداب» للبيهقي (٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

(٣) كما في «مسند أحمد» (١٥٥٩٢، ٢٠٣٦٣)، و«الأدب المفرد» (٣٧٣)، و«مسند الرُّوياني» (٩٤٢)، و«مكارم الأخلاق» للطبراني (٤٩)، و«المستدرك» (٣/ ٥٨٦) من حديث قرة بن إياس المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص١٤١).

(٥) ينظر: «تاج العروس» (١٠/ ١٩٨) «ب ص ر».

* ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾:

والمعنى: هل لكم جند خاص ينصركم من دون الله؟ وهل جندكم من الشياطين والأوثان التي تعبدونها ينصرونكم من دون الله؟ وهو سؤال إنكار واستنكار(١).

وتكرر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في السورة أربع مرات، **وكأن المعنى هنا**: إذا خذلكم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فمَن ينصركم؟ وإذا لم تسعكم رحمته العظيمة، فأي أرض تُقِلُّكم، وأي سماء تُظِلُّكم؟

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ فهم مخدوعون، لا يُفيقون من الخديعة إلا عند الموت، أو عند قيام الساعة.

* ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: إذا أمسك الله تعالى عنكم الرزق، فهل ثَمَّ أحدٌ غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ كلا.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى ينزل عليهم المطر الذي تقوم عليه حياة الأرض والنبات: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وأهل مكة كانوا يعتمدون كثيرًا على الآبار، ولو أن السماء توقفت عن المطر لجفت هذه الآبار؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: أصرُّوا وأمعنوا، **فعاب الله عليهم أمرين**(٢):

١- العتو، وهو الكبرياء في نفوسهم، والاغترار بالمال والولد والأهل والجاه والمنزلة في الدنيا.

٢- النفور، وهو الإعراض، فهم لا يحبون أن يسمعوا تذكيرًا ولا وعدًا ولا وعيدًا ولا خيرًا، ولا أن يغيِّروا ما هم فيه من الضلالة، فهم مصرون عليه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٤)، والمصادر السابقة.

* ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

وهذا مثال، **والمعنى**: هل الإنسان الذي يمشي قائمًا على قدميه، معتدل الجسد والرأس، على صراط مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، أفضل، أم مَنْ هو مُكِبٌّ على وجهه، مطأطئ الرأس، كأنما يبحث عن معالم الطريق على الأرض، وهو يمشي في طريق غير واضح؛ ولهذا يعثر، فهو في كل حين ينكبُّ على وجهه، يكاد يسقط على وجهه؛ لأن الطريق ليس معبَّدًا ولا مستقيمًا؟

وهذا هو الفرق بين طريق المؤمنين وطريق الكافرين، والله تعالى يضرب لهم هذا المثل، ويدعوهم إلى التأمُّل: هل المضيِّع لطريقه الذي لا يهتدي أفضل وأهدى، أم مَن يمشي سويًّا على صراط مستقيم؟

ويحتمل معنى آخر، وهو: أن الإكباب على الوجه، يعني الخُرور ومواجهة الأرض بالوجه؛ كحال المُحْدَوْدَب الذي لا يقدر على الاعتدال.

والمقصود: ضرب المثال في عالم المعنى، والمقارنة بين المؤمن السائر على الطريق المستقيم ومَن يتوهم ذلك، وهو ليس على شيء، والله أعلم[1].

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ تأكيد لمعاني النعم والآيات يستدعي الشكر والاعتبار.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم طفلًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ومنكم مَن يرد إلى أرذل العمر، وكنتم لا تعلمون شيئًا، ولا تقدرون على شيء، حتى كبرتم واستغنيتم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ﴾ وهذه الثلاثة: ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ﴾ هي: وسائل المعرفة، وهي أدوات حسية ملموسة قائمة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وبها يهتدي

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٧٩- ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨١).

الإنسان إلى الحق والإيمان؛ ولذا قال أهل النار- كما تقدَّم-: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

ومن أسرار إفراد ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: أن العادة أن الإنسان يسمع شيئًا واحدًا سماع تيقظ وفهم، وإذا تداخلت عنده الأصوات تشوَّش وفقد التركيز، بخلاف العين، فهي ترى أشياء كثيرة وعديدة في وقت واحد وتستوعبها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لحال أكثر الناس من قلة الشكر على النعم السابغة، ولو قَضَوْا حياتهم كلها شكرًا لله سبحانه، ما أَدَّوْا حقيقة الشكر، ولكن الله يرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمده عليها، أو يشربَ الشربةَ فيحمده عليها[1].

إِذا كان شُكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مِثلها يَجِبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إِلَّا بفضله ... وإِن طالت الأيامُ واتصلَ العُمرُ[2]

فالشاكرون من الناس قليل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

والشكر من هؤلاء الشاكرين قليل في جنب النعم والعطايا.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي: نشركم[3]، وهذا دليل على نشر عظيم متكاثر، فالله تعالى وزَّعكم ونشركم في الأرض التي خلقها لكم، وسخَّرها لكم، وجعلها مذلَّلة معبَّدة ساكنة.

فمن مجموع الآيتين- هذه الآية وما قبلها- يتحصل أن الله خلق الأرض مزوَّدة بكل مصالح العباد، وخلق الإنسان مزوَّدًا بأدوات المعرفة والاكتشاف، وسلَّطه وجعله سيِّدًا ممكَّنًا في الأرض إلى يوم الوقت المعلوم، وهو الحشر.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكير بالغاية العظمى التي لأجلها بُسطت الأرض، وأُسبغت

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا (٨٣)، و«الفاضل» للمبرد (ص٩٥)، و«فضيلة الشكر لله» للخرائطي (٤٥)، و«ربيع الأبرار» (٥/ ٢٨٤) منسوبًا إلى محمود بن الحسن الورَّاق.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٥٥).

النعم، فالخلق لم يُخلقوا عبثًا، ولم تذلَّل لهم الأرض لأجل أن يعيشوا فيها فحسب، بل ذلك لغاية عظيمة، هي عبادة الله وطاعته، وإعمار الأرض بإقامة شريعته.

* ولكنَّ الكافرين لا يريدون أن يذكِّرهم أحد بالآخرة، ويقولون: أكثرتم علينا بذكر الموت والبعث والجزاء والحساب، فمتى هذا؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: ولو كانوا يؤمنون به ما سألوا هذا السؤال؛ لأن سؤالهم على سبيل التعجيز والإنكار، وإلا فإن الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وهو يقول: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ كان يسأل سؤال مستفهم مستعلم، فقال له النبيُّ ﷺ: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله! فقال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»(١).

ولا يعلم موعد القيامة إلا الله، ولا فائدة من السؤال، ولا من الجواب؛ لأنه إذا فُرض ضرب موعد، فلن يتم التحقق من صدقه إلا عند حصوله، وعند حصوله ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولن يشاهده إلا مَن كان على قيد الحياة آنذاك، فالناس ليسوا بحاجة إلى موعد مضروب، بل إلى إيمان واستعداد وعمل يقوم به الخلق جيلًا بعد جيل، ورعيلًا بعد رعيل.

* ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: ليس إليَّ تحديد وقت الساعة ولا أمرها، فلا أحد يعلمها إلا الله، حتى النبي ﷺ يقول له ربه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ويقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. فالنبي ﷺ هنا يقول: لا أدري متى الساعة، فما أنا إلا نذير، مهمتي النِّذارة وإقامة الحجة عليكم والبلاغ، وعبَّر بـ«المبين»؛ إشارة إلى أنه قام بمسؤوليته التي كُلِّفها خير قيام، وهذه شهادة من الله له بالبلاغ والنِّذارة(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٩).

* ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: رأوا هذا الأمر الذي ينكرونه ويتساءلون متى يكون، أمام عيونهم مُزْلِفًا قريبًا سِيئَتْ وجوههم(١).

والزُّلْفة هي: الشيء القريب(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣]، أي: قُربت لأهلها؛ حتى يدخلوها.

والضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يجوز أن يكون المقصود به الموت، أو عذاب يوم بدر، أو العذاب الذي يلحق الكافرين والمشركين والمعاندين.

أو يكون المقصود: الآخرة والبعث، وأنهم إذا حدث هذا الحدث ورَأَوْه زُلْفة سِيئْتْ وجوههم، أي: ضُربت بالسوء(٣).

وذكر الوجه؛ لأنه هو الذي تظهر على قسماته المضمرات من المشاعر والانفعالات والمخاوف.

وهذا رد على سؤالهم عن الوعد ومتى هو.. وبيان أن العبرة في صدق الأمر بذاته وحتمية تحقيقه، أما متى، فهو سؤال غير ذي معنى.. حتى لو فرض قيام الجواب عليه؛ لأن المشكِّك إذا رأى الأمر سِيَءَ وجهه، ولم يعد أمامه فرصة للعمل.

وقد يكون سؤال ﴿مَتَىٰ﴾ مشعِرًا بالاستبطاء وتأخر الموعد؛ ولذا قال: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: قالت الملائكة لهم: هذا الشيء الذي كنتم به

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٦).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٥)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٧٠)، و«تاج العروس» (٢٣/ ٤٠٠) «ز ل ف».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٥)، والمصادر الآتية.

﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبونه وتستعجلونه[1]، كما في قول الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ [المعارج: ١]، وكما حكى الله عنهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

أو يكون معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾: تكذِّبون وتشكِّكون[2].

* ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ خطاب للنبي ﷺ؛ ليسأل هؤلاء القوم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فنحن عَبيده، وهو ربنا، آمنا به، وعليه توكلنا، ولا تشغلوا أنفسكم بنا: ماذا نريد؟ وما نوايانا ومقاصدنا؟ وما مصيرنا؟ لكن أنتم مَن يُجيركم من هذا العذاب الأليم؟ فالخير لكم أن تفكِّروا بأنفسكم ومآلكم.

لأنهم كانوا يقولون: إن نزل عذاب سوف يصيبكم كما يصيبنا، وإن كانت الآخرة، فسيكون لنا ما ليس لكم من الجنات والأنهار والنعيم.

والتقدير: أمرُنا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحن عَبيده، وسواء أهلكنا كما تتمنَّون وتدَّعُون، وتتوعدون، أو رحمنا، كما نأمل ونرجو، فمَن يجيركم أنتم من العذاب الأليم[3]؟

وهذا الردُّ يكشف أن أعداء الحق في كل زمان ومكان ينصرفون عن الموضوع إلى الشخص، ويُعرِضون عن مناقشة الحجج والبينات إلى مهاجمة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٦٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٨٢- ٥٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٦- ٥٩٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥١- ٥٣)، والمصادر السابقة.

الرسل وأتباعهم، والتشكيك في تطابق أقوالهم وأعمالهم، أو في حُسن نواياهم، أو مصيرهم وعاقبتهم.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾:

فنحن آمنا بربنا وتوكلنا عليه، وظننا به ظنًّا حسنًا أنه لن يُهلكنا، ونأمل أن يرحمنا بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٤]، لكن أنتم ليس لكم ذلك، ولم يواجههم بالخطاب، فيقول: «فمَن يجيركم»؟ من باب عدم القطع عليهم بسوء المصير، وفتح باب الرجوع، وحتى لا تتحول الدعوة إلى حلبة صراع، ليس فيه روح الدعوة والهداية، فأنتم أيها المخاطَبون يمكن أن تؤمنوا وتكونوا مع الناجين الفائزين.

وجمع الله بين الإيمان والتوكل؛ إشارة إلى تحقيقهم للعبادة وللعمل والتوكل، وأن التوكل ليس قعودًا ولا نكوصًا ولا نكولًا، وإنما هو العمل، والإيمان من التوكل، والدعاء من التوكل، وعمل الدنيا من التوكل، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكَّلونَ على الله حقَّ توكُّله، لرزقتم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا، وتروحُ بِطانًا**»(١).

فهذه الطير توكَّلت على الله، لكنها لم تقعد في أعشاشها، وإنما غدت وراحت، وبحثت عن الرزق، فرزقها الرزَّاق سبحانه الذي يرزق الحياتَ في جُحُورها، والبشر في بكورها، كما قال النبيُّ ﷺ: «**اللَّهمَّ بارك لأمتي في بُكُورِهَا**»(٢). أي: العمل المبكِّر أول الصباح، بأن تستقبل الحياة بالعمل والإنجاز، وليس بالقعود،

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥١)، وأحمد (٢٠٥، ٣٧٠، ٣٧٣)، وعبد بن حميد (١٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» (١)، وأبو يعلى (٢٤٧)، وابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (٤/٣١٨)، والضياء (١/ ٣٣٤) (٢٢٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

(٢) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم من حديث صخر الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾.

فالإسلام دين يأمر بالعمل، ويجعل بذل كل الأسباب من التوكل.

ولأن غالب الناس في الحوار العقائدي يغلبهم الهوى والعصبية، لما ألفوه من ديانة ومعتقد، ناسب أن يجعلهم في مواجهة مع أنفسهم بدل المواجهة مع الداعين، وترك الأمر للمستقبل الموعود؛ ليعلموا هم بأنفسهم مَن هو الصادق والكاذب، ومن هو الناجي والهالك، فقال: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

* ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾:

أي: إذا جفت آباركم، ولم يُنزل الله تعالى المطر من السماء، فمَن الذي يأتيكم بالماء المَعِين؟

والمَعِين: العذب الذي يُرى بالعيون[1].

والأصل أن هذا الماء من السماء، فإذا قحط المطر، وأجدبت الأرض؛ جفَّت الينابيع، وقد حدث شيء من هذا لقريش لما دعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأصابتهم سبع سنوات عِجاف شِداد من القحط والجوع وقلة الماء[2].

ذكر الزمخشري عن رجل سماه أنه قُرئت عليه هذه الآية، فقال: «تأتي به الفؤوس والمعاول». يظن أن بذل الأسباب كافٍ في تحقيق المطلوب، فلما أصبح وجد أنه قد ذهب ماء عينه، فعمي، وهذا من مكر الله تعالى بالمستهزئين[3].

وختام السورة يناسب ما سبق من وجوه:

١- التسخير المشهود في الكون للإنسان، وأن الله لو شاء لمنعه وحرمه منه.

٢- أن الدنيا والآخرة من الله وإليه، فبيده المصلحة والهداية والضرُّ والنفع، وهو الذي إن شاء رحم وإن شاء عذَّب، فاعبدوه واشكروا له.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٦٠).

وينظر أيضًا: «العين» (٢/ ٢٥٥)، و«تهذيب اللغة» (٣/ ١٣٣) «باب العين والنون»، و«لسان العرب» (١٣/ ٤١٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٨٣).

٣- الجمع بين التوكل وفعل السبب، فالماء الغائر يحتاج إلى حفر ومعالجة؛ حتى ينبثق ويُرى، ولكن ذلك لا يكفي حتى يوافق عونًا من الله، كما قيل[(١)]:

إذا لـم يكـن عـون مـن الله للفتى ... فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده

والله أعلم.

○○○

(١) ينظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ١٧٧)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٥٣٢)، و«صيد الأفكار» (١/ ٩٠) منسوبًا إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ القَلَمِ

❊ تسمية السورة:

اسمها المشهور: «**سورة** ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾»، وهو الذي في معظم كتب الحديث والتفسير[1].

وأحيانًا تُختصر، فيقال: «**سورة** ﴿نٓ﴾»، بالحرف الأول منها[2].

وهي إحدى ثلاث سور تبدأ بحرف واحد، مع «سورة ﴿صٓ﴾»، و«سورة ﴿قٓ﴾».

وسُمِّيت في بعض المصاحف: «**سورة القلم**»، إلا أنه يلتبس مع «سورة العلق»، التي يسميها البعض: «سورة القلم»؛ لذكر القلم فيها: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾[3].

❊ عدد آياتها: اثنتان وخمسون آية بالاتفاق[4].

❊ وهي مكية بإجماع المفسرين، حكاه ابن عطية[5].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢).

(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٤)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٦٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٣).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٢)، و«الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص٢٠١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٥).

ونُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجماعة: أن أولها مكيٌّ وآخرها مدنيٌّ[١].

والجمهور على أنها مكية، وهو المناسب لسياقها وموضوعاتها، وقد نزلت في أول البعثة، ونزل قبلها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] يقينًا، وربما «المدثِّر» و«المزمِّل»، فهي الرابعة أو الثالثة في ترتيب النزول[٢].

وإذا أردت أن تتدبَّر السورة، فحاول أن تستحضر الفترة التي نزلت فيها، فإنه لم يكن نزل من القرآن في ذلك الوقت إلا الشيء اليسير، وكانت دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أولها عُرضة للهمز واللَّمز والأقاويل من كل جانب، يتجرَّأ عليه صناديد الكفر؛ كالوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن كَلَدَة، والأَخْنس بن شَرِيق، وأبي جَهْل؛ ليرموه بأبشع الألقاب والأوصاف، فينزل القرآن مدافعًا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يوم لم يكن يملك الدفاع عنه أحدٌ من الناس، وقد وضعوا سَلَا الجَزورِ[٣] على ظهره وهو يصلِّي[٤]، وضربوا أصحابه، بل ضربوه هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليدافع عنه، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٥] [غافر: ٢٨].

وينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي إلى النبي المَكْلوم بما يقذفونه به من أقبح

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لقتادة (ص٥٢).

(٣) السَّلاَ: اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ١٥١).

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٢٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلِّي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوسٌ، وقد نُحرت جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقومُ إلى سَلَا جَزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعثَ أَشْقَى القوم فأخذه، فلما سجدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا، وجعلَ بعضُهم يميلُ على بعض، وأنا قائمٌ أنظرُ، لو كانت لي مَنَعةٌ طرحتُه عن ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجدٌ ما يرفعُ رأسَه، حتى انطلقَ إنسانٌ فأخبرَ فاطمةَ، فجاءت- وهي جُوَيْرِيةٌ- فطرحته عنه، ثم أقبلتْ عليهم تشتِمُهم...».

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٣٨٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الألقاب والصفات؛ ليواسيه بهذه الكلمات الإلهية النورانية ويثبِّت جنانه، وما أشبه الليلة بالبارحة! فالتواصي والإطباق الإعلامي على كلمة سواء في الحملات التشويهية التي يتعرض لها المصلحون، إنما تواجه باستحضار الموقف النبوي، وتلاوة الذكر الحكيم الملائم لها بإيمان وثقة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٨].

* ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾:

﴿نٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، وتنطق: «نون»، وإنما كُتبت: ﴿نٓ﴾؛ لأن القرآن ليس كتابًا فقط، وإنما هو كتاب وقرآن، كتاب للمكتوب وقرآن للمقروء، فلا بد أن يتواطأ فيه السمع والبصر.

وفي قوله: ﴿نٓ﴾ إشارة إلى عدة معان(1):

١- إعجاز القرآن، فهذا الحرف من صدر السورة من جنس ما تنطقون به أيها العرب، وهذا من الإعجاز اللُّغوي الذي تحدَّى اللهُ به أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان، فبُهتوا.

٢- فيه إشارة إلى أهمية اللغة، وأن من نعمة الله تعالى على العباد أن مكَّنهم من اللغة، وأقدرهم عليها قراءة وكتابة، وجعلها خصيصة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم خلقه، أن زوده بالمَلَكَات والمهارات اللُّغوية العظيمة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١- ٤]؛ ولذا تسمى البهائم بالعجماوات؛ لأنها لا تنطق ولا تفصح، أما الإنسان فالله تعالى ميَّزه باللغة، وما يترتب عليها من الفهم والتفاهم والحوار والذوق والمعرفة والعقل والإدراك.

٣- فيه تحفيز إلى التعلم والتعليم؛ ولهذا قال بعضهم: إن المقصود بـ﴿نٓ﴾: الدواة.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«تفسير التستري» (ص١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ١٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٨)، و«الإعجاز البياني للقرآن» (ص١٦٢)، و«الموسوعة القرآنية المتخصصة» (١/ ٣٢٩)، والمصادر الآتية.

وسواء أصح هذا القول أم لم يصح، إلا أن بداية السورة بـ﴿نٓ﴾، ومثلها: ﴿قٓ﴾، و﴿صٓ﴾، فيها تحفيز إلى القراءة.

وقد بُعث النبيُّ ﷺ في أمة أمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، والعلم كان عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجاء القرآن في أول ما جاء ليقول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وثالث ما جاء: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾، فبداية الوحي متضمِّنة للتأكيد على أهمية القراءة والكتابة والقلم والعلم، فما جاء الإسلام ليربِّيَ الناس على التقليد، ولا على الهوى، ولا على العاطفة المجرَّدة، لكن جاء ليجعل المعرفة من أهم الأسس في الحضارة[1].

لقد كان من البداهة أن يحارب الإسلام التقليد؛ لأنه عدوه، ولن يؤمن بالتوحيد والرسالة إلا مَن تحرَّر من سطوة العادات والتقاليد وموروثات الآباء والأجداد: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فالإسلام دين العلم، لا يعاديه، ولا يخشى على حصونه منه، ولا يتوجس من العقل والتفكير، فليس في الإسلام أسرار ولا مشكلات، بل هو دين واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، والعلم والمعرفة والعقل والفهم كلها أدوات تعزِّز الإيمان، إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة.

وبعض المفسرين يذكرون أن ﴿نٓ﴾ هو: الحوت الذي خلقه الله، وجعل الأرض عليه، فيزعمون أن الأرض على ظهر حوت، وبعضهم يقول: ثَوْر[2].

ومن الطريف أنهم يقولون: إن الثَّوْر إذا تعب نقل الأرض من قرنه الأول إلى قرنه الثاني، فيحدث بسبب ذلك الزلزلة[3].

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٣٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٧/ ٤٦١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٥- ١٨٦)، و«تفسير ابن رجب» (١/ ١٠٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٦٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٨).

(٣) ينظر: «المنار المنيف» (ص١٣٨).

وهذه أخبار إسرائيلية، جرت عادة بعض المفسرين بنقلها، استئناسًا أو حكاية مجردة، من باب ذكر جميع ما قيل في الآية.

ولكن الناس بحاجة إلى تهذيب كتب التفاسير وتنقيتها من هذه الخرافات، وألَّا تساق الأقوال والروايات المضحكة في معاني كلام الله؛ لأن كلام الله مقدَّس، فلا يُنسب إليه ما هو من قَبِيل المحالات والخرافات، وما هو مدعاة للسُّخرية والاستهزاء.

والعقلاء كلهم- حتى قبل البعثة- يعرفون أن الأرض ليست على قرن ثور أو ظهر حوت، وإنما هي في الفضاء معلقة، وهذا لفظ القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١]، فليس ثمة ثَوْر ولا حوت، وإنما هي قدرة الله التي تمسك الطير في السماء، وتمسك النجم والشمس والقمر والأرض والأفلاك كلها، والأرض ليست أكبر هذه الأفلاك، وإنما هي جِرْم صغير بالقياس إلى الشمس وغيرها من الأفلاك.

﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾: يُقسم سبحانه بالقلم؛ إشادة به، وتذكيرًا بأهميته، وقد يكون المقصود هنا القلم الذي كتب اللهُ تعالى به مقادير الخلائق، كما في الحديث: «**أولُ ما خلقَ اللهُ القلمَ، ثم قال له: اكْتُب. قال: وما أكتب؟ قال: القدر. فكتبَ ما يكونُ، وما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة**»(١).

وليس القلم هو أول المخلوقات، لكن أول خَلْقه له، وفي هذا إشارة إلى علم الله تعالى، أو هو القلم الذي يعرفه الناس، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾(٢) [العلق: ٤- ٥].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، وأحمد (٢٢٧٠٥، ٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٣)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٦)، والضياء (٨/ ٢٧٤، ٣٥٠) (٣٣٦، ٤٢٦) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٣، ٣١٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٨)، وما سيأتي في «سورة العلق».

والقلم أثره كبير في بناء الحضارات ورقيها، ولو نظرتَ إلى آثار العلم والكتابة والكتب، لوجدتها عظيمة، والأمم التي كانت تستهدف إسقاط غيرها كانت تستهدف ثقافتها، كما فعل التتار بكتب المسلمين في بغداد حين تعمَّدوها بالإتلاف[1]، والنعمة ليست بخلق القلم، أو صناعته فحسب، بل بإلهام الإنسان أن يكتب، وأن يقرأ، وأن يبحث، وأن يتطور، وقد مر القلم بمراحل تطور، ابتداءً بالكتابة، ثم الوسائل الحديثة من الطباعة وغيرها، ولما تردد المسلمون في استخدامها والإفادة منها تخلفوا، ثم جاءت التقنيات الحديثة الإلكترونية التي فتحت للإنسان مجالًا واسعًا لجمع المعرفة وتوظيفها وتنظيمها والاستفادة منها.

وهذا كله ليس إلا ومضةً من مدلول قوله سبحانه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، سواء كان الذي يسطرونه ما يكتبونه في سطور اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ [الطور: ١-٣]، أو ما يكتبه الأنبياء مما يملونه على أتباعهم من الكتب المقدَّسة والوحي الإلهي، كما كان للنبي ﷺ كُتَّابٌ للوحي، يملي عليهم فيكتبون، أو كان قَسَمًا بكل ما يُكتب؛ إشادة بأهمية الكتابة والتدوين.

وها هي البشرية تتوارث الكتب السماوية وشروحها، إضافة إلى نوادر المؤلفات البشرية التي بقيت بجودتها وتجديدها وإبداعها، ويحسن هنا استذكار القوائم المخصصة لأكثر الكتب طباعة عبر التاريخ الإنساني.

فهو قَسَمٌ بكل ما يُكتب، سواء كتبه أهل السماء، أو أهل الأرض الأقدمون أو المتأخرون، في خير أو شرٍّ، في حقٍّ أو باطل.

* ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾:

وهنا تناسب رائع، فيقسم اللهُ تعالى بالعلم والمعرفة والقلم واللغة والمعاني الحكيمة على ضلال ما يدَّعيه المشركون من التُّرَّهات، التي لا تستند إلى برهان، ولا إلى علم، ولا إلى هدى، ولا إلى كتاب منير، ويزكِّي عقل النبي ﷺ وعلمه.

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٦٦٣)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٥١).

والأمر المقتضِي للقَسَم: أن المشركين لما كفروا بالدعوة، طاروا كل مُطَيَّر، وقالوا كل ما يخطر على بال، مما لا تقبله العقول ولا الأذواق ولا الأخلاق.

ومن ذلك أنهم وصموا محمدًا ﷺ بهذه الفرية البذيئة، فقالوا- كما سيأتي-: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾، وأن هذا الذي يقوله محمد هذيان تمليه عليه الجن، قصدًا إلى صرف الناس عنه وعن دينه، حتى إن بعضهم وضع القطن في أذنيه؛ خشية أن يسمع شيئًا من كلام النبي ﷺ؛ لكثرة ما سمع عنه[1].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بما أنعم الله به عليك، فهي مثل قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]، أي: وأنت متلبِّس بما أنعم به عليك من العلم والمعرفة والوحي والرسالة والفضل[2]، فهو ﷺ أفضل البشرية كلها بإجماع العقلاء والمنصفين من المؤمنين وغيرهم، وقد فضَّله الله تعالى على جميع ولد آدم[3]، وهو أول مَن يدخل الجنة[4].

وهم إنما وصفوه بالجنون بعد الوحي، **فكأن المعنى**: إن هذه الرسالة التي اختصك الله تعالى بها وميَّزك لست فيها بمجنون، وإنما هي نعمة تفضَّل الله بها عليك.

وكان هؤلاء القوم يستكبرون أن يعترفوا بأنه يُوحى إلى النبي ﷺ، فيقولون: إن الذي يأتيه الشيطان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٨٢)، و«طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١- ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١- ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٨٧).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أنا سيِّدُ ولد آدمَ يومَ القيامة**».

(٤) كما في «مسند أحمد» (١٢٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٩٦، ١٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٠)، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

وليس المقصود هنا مجرد نفي الجنون، بل نفي كل ما لا يليق بمقامه الشريف، والدفاع عن كمال عقله وعلمه وصدقه ومنزلته ﷺ في جميع المقامات، وكفى بذلك فخرًا.

والرد والنفي هنا جاء بوحي منزَّل؛ لأن الأمر لا يتعلق بمنزلة إنسان عادي، بل هو متعلِّق بصميم الرسالة والإيمان والتوحيد، مثلما نفى الله عن ذاته العلية ما تقوَّله المتجرِّئون من ادِّعاء الصاحبة له والولد والتعب والبخل، وما زيَّنت لهم الشياطين من الكذب، كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فيكون من كمال إيضاح الرسالة وبيانها وإقامة الحجة أن ينص على نفيها، ويثبت ضدها.

* ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾:

بُدئت السورة بالتأكيد بالقَسَم، ثم النفي القاطع لدعوى النقص، وهو الجنون، ثم إثبات للفضيلة هنا، مؤكَّدة بـ«إنَّ»، واللام، وبالتنكير الدال على سعة الأجر وعظمته، وأنه يفوق الوصف، ثم تقرير لديمومته دون انقطاع، فالنبي ﷺ له الأجر في الدنيا وفي الآخرة، وله الرفعة والثواب والجنة والرضوان(١).

فـ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ تحتمل أن هذا الأجر ليس من الناس، فيمنُّون به عليك، ويتبعون ما يقدمونه بالمَنِّ والأَذَى(٢)، كما كان الناس يفعلون في الجاهلية، فقد كانوا يمدحون أنفسهم بما تفضَّلوا به على غيرهم، كما قال النابغة(٣):

عليَّ لعمروٍ نعمةٌ بعدَ نعمةٍ ... لوالِده ليستْ بذات عقاربِ

أي: لا يتبعها المَن والأذى والقيل والقال، فالله سبحانه يذكر أنها نعمة من الله، ليس فيها منٌّ ولا أذى، أو أن هذا الأمر غير مقطوع، بل هو أجر دائم(٤).

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٢- ٦٣)، وما تقدم في أول «سورة الملك».

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣١٩).

(٣) ينظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٢٩)، و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢/ ٢٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٣).

وهذا من الإعجاز بالإخبار بالغيب الذي صار شهادة، فحين نزلت عليه هذه السورة كان أتباعه يعدون على الأصابع، لكننا اليوم نرى مظان هذا الأجر غير المنقطع، فقد دعا ﷺ إلى الهُدى؛ فله من الأجر مثل أجور مَن تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء[(١)]، وسَنَّ سُننًا حسنة، فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة[(٢)]، ولا أحد من المسلمين يمنّ على رسول الله ﷺ، بل المنة لله ورسوله، كما قالت الأنصار عند ما سألهم النبيُّ ﷺ[(٣)].

فالله تعالى هو الذي مَنَّ علينا أن هدانا للإيمان، وللنبي ﷺ في أعناقنا مِنن بعد مِنن، بما علَّمنا وأرشدنا، وسنَّ لنا السُّنن، وبيَّن لنا الطرائق، ونصحنا أصدق النصيحة وأكملها وأوفاها، فالمنة لله ورسوله.

وهو غير مقطوع ما بقي في الأرض مَن يقول: الله الله. ولأجر الآخرة خير وأكمل وأوفى، فإن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب ليجود ويغدق، وقد وعد نبيه بما هو خير وأبقى، حتى أنه أعظم الناس منزلة، وقد قال ﷺ: «**ثم سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل ليَ الوسيلةَ حلَّت له الشفاعةُ**»[(٤)]. فيُشرع عقب كل أذان أن يقول السامع: «**اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْهُ مقامًا محمودًا الذي وعدته**»[(٥)].

* ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

تأكيد آخر بـ«إنَّ»، وباللام، وبحرف «على»، فلم يقل: «إنك لذو خُلق عظيم»، وإنما قال: ﴿لَعَلَىٰ﴾، و«على» تعني التمكن، كما تقول: فلان راكب على الفرس،

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٠١٧) من حديث جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ابن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يعني أنه متمكِّن فوقها، فكأن الخلق العظيم شيء مجسَّد، والنبي ﷺ متمكِّن عليه[1].

إن خُلقه العظيم ﷺ ليس شيئًا متكلَّفًا مصطنعًا، أو في حال دون حال، كأن يكون على خُلق عظيم في حال الضعف والمسكنة، حيث لا يستطيع شيئًا فوق ذلك، ولهذا يقول الحكماء: «الأخلاق تبين عند القدرة»، ولقد وصفه ربه بذلك، وهو ما يزال في مكة يعاني ظلم ذوي القربى وإيذاء كفار قريش وسخريتهم، ثم لما نصره الله وتمكَّن من التشفِّي والانتقام يوم فتح مكة قال لمشركي قريش: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ**»[2]. وهكذا كان خُلقه ﷺ لا يغيِّره اختلاف الأحوال ولا تعاقب الزمان.

إن من الناس مَن ترى أخلاقه في غاية الدَّماثة والحسن، لكنه مع أهله وولده وخدمه سيِّئ الخلق، ضيِّق العَطَن، سريع الغضب، أما هو ﷺ فكان خير الناس لأهله، يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون في مهنة أهله[3]، وما ضرب امرأةً ولا خادمًا ولا أحدًا، إلا أن يُقاتلَ في سبيل الله[4]، وكانت المرأة من نسائه ترفع صوتها عليه، وقد تهجره إلى الليل، فما تتغير أخلاقه[5]، وهو بذلك رسم للمؤمنين سبيل التعامل مع أهلهم وذويهم.

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٣).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢- ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠- ٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٩٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧- ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٥٨- ١٨٥).

(٣) كما في «مسند أحمد» (٢٤٧٤٩، ٢٤٩٠٣، ٢٦١٩٤)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣)، و«صحيح ابن حبان» (٦٤٤٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٧١).

(٤) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٣٥٦٠). وينظر أيضًا: «صحيح البخاري» (٢٧٦٨، ٦٠٣٨، ٦٩١١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن الناس مَن يكون على خُلق عظيم مع الموافق من أصحابه وأصدقائه، لكن إذا اختلف مع أحد تغيَّر حاله وتنكَّر ونسي جميله، أما هو ﷺ فكان عنوان الوفاء، كما في قصة خَدِيجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]، وكما في شهادته لأبي العاص بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وفي حفاوته بأصحابه، وتعاهدهم في السفر والحضر، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والحياة والموت.

وكان ﷺ من خُلقه العظيم أن يصبر عليهم حين قالوا عنه: ﴿شَاعِرٌ﴾.. ﴿سَاحِرٌ﴾.. ﴿كَاهِنٍ﴾.. ﴿مَجْنُونٌ﴾، بل كان يدعوهم إلى الله ويتحمَّل الأذية، فربه سبحانه يعزِّيه عن ذلك.

وهذا فيه إشارة إلى أن الأخلاق من المعاني التي عظَّمها الإسلام وأولاها اهتمامًا منذ أول البعثة؛ ولهذا كان من خُلقه العظيم ﷺ الدعوة إلى الأخلاق، كما قال: «**إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**». وفي رواية: «**لأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق**»[3]، ولما سُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلقه ﷺ قالت: «كَان خُلُقُهُ القرآنَ»[4].

ومن الناس مَن قد يتكلم عن الخُلق بلسانه، لكن عند ما تسأل عنه المحيطين به؛ تجدهم يشتكون من فظاظته وغلظته وسرعة غضبه ونَزَقِه وبخله وكذبه، أما محمد ﷺ فقد زيَّنه الله تعالى بالأمرين معًا، فجاء دينه يحث على معالي الأخلاق، وكان في سلوكه وتطبيقه العملي خير قدوة لذلك.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٨١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذبح الشاةَ يقولُ: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خَدِيجة**».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣١١٠، ٣٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٩) من حديث المِسْور ابن مَخْرَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٣)، والبزار (٨٩٤٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١- ١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي إسناده اختلاف أشار إليه البيهقي، وقد صحَّحه الحاكم، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٣- ٣٣٤)، وفي «الاستذكار» (٨/ ٢٨٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١)، ومسلم (٧٤٦).

وفي هذا حجة علينا نحن المسلمين، أن نقتدي به ﷺ في أخلاقه، كما نقتدي به في صفة صلاته ونسكه، وهذا الخلق العظيم واسع لا يمكن قصره على بعض الأخلاق والأحوال؛ ولهذا يقول ربنا: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧]، فجزء كبير من الخير يعرفه الناس بالفطرة، ولا يلزم فيه تفصيل وبيان؛ لأنه مما توارثه الخلق من أصول الأخلاق؛ كالكرم والصدق والعفاف والشجاعة والإحسان والوفاء والعدل.

* ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾:

أي: سترى بعينك أو تعلم[١]، ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ هم أيضًا ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾: سوف ترون أيكم الذي هو مفتون، أنت أم هم؟

وهذا رد على قولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، ولم يقل: «بأيكم المجنون»؛ لأن من معاني الفتنة: الجنون[٢]؛ لأنهم يقولون: فلان فتنته الجن، يعني أصابته بالجنون.

وفيها التربية على الذوق والأدب واللُّطف في الرد، حتى على السفهاء والسبَّابين، وكأن الله تعالى لا يريد أن يقول: إنهم مجانين؛ لأنهم سيكونون غير مكلَّفين ولا مأمورين ولا منهيين ولا محاسبين ولا ملومين، فالجنون أمر يخرج الإنسان عن تبعة التكليف[٣].

والفتنة أصدق وأصح؛ فهي تدل على المعنى الواسع، أي: أيكم الذي وقع في

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٥).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢١٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٦٩٢)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٩٢) «ف ت ن».

(٣) كما قال ﷺ: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظَ، وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ، وعن المجنون حتى يعقلَ**». أخرجه أبو داود (٤٤٠١- ٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٢٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢)، وابن خزيمة (١٠٠٣)، وابن حبان (١٤٣)، والحاكم (١/ ٢٥٨) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطيالسي (١٤٨٥)، وأحمد (٢٤٦٩٤)، والدارمي (٢٣٤٢)، وأبو داود (٤٣٩٨)، وابن ماجه (٢٠٤١)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن حبان (١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وله شواهد كثيرة، وقوَّاه غير واحد. وينظر: «كتاب الحج من شرح بلوغ المرام» (ص٦٦) (ح٧١٤).

الفتنة والضَّيْر والنقص والهوى والضلال، أنت أم هم؟ وإلا فليسوا هم مجانين، وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: ٢٤]، وكما قال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق: ١١- ١٤]، وقوله في «سورة الملك»: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾، ويسمى بالتنزل للخصم، أي: انتظروا واصبروا وسوف تبصرون، فكأن المعنى ستعلمون بأيكم وقعت الفتنة.

إن مثل هذه السياقات تدرِّب على الهدوء في المجادلة والمناظرة، وعدم اللَّجاج الذي لا يفضي إلى بيان حق ولا دحض باطل، بل هو مجرد انتصار للنفس، ومحاولة إثبات لصواب المتحدِّث وخطأ الآخر؛ ولذا يقال: كسب الأشخاص أهم من كسب المواقف؛ لأن عينك هنا هي على محاولة هداية الخصم دون يأس، وليست على محاولة للتغلب والانتصار عليه.

* ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾:

وفي هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ ومَن معه هم المهتدون، وأن هؤلاء القوم قد ضلوا عن سبيله وما كانوا مهتدين، ولكنها كسابقتها، لا تنصيص فيها على المهتدين ولا على الضالين، بل فيها رد الأمر إلى الله، ولكن التعبير بـ﴿رَبَّكَ﴾ يوحي بهذا، والتعبير بالضلال والهدى يؤكِّد أن النزاع ليس بين العقل والجنون، بل بين الخير والشر، والحق والباطل.

* ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨﴾:

وهذا من دلائل النبوة، فالنبي ﷺ يقرؤه، ويلقِّن أصحابه نهيَ الله تعالى له وتحذيره من طاعة المكذِّبين، وقد كان الكفار يقولون له: اترك هذه الدعوة، ولا تفنِّد عباداتنا، ولا تنتقد الشرك والوثنية، ونحن نكف عن تعييرك ووصفك بأنك شاعر أو ساحر أو كاهن أو مجنون، ومرة قالوا له: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة. فإذا كان الذي تفعله صوابًا نكون أخذنا جزءًا منه، وإذا كان ما نحن عليه صوابًا تكون قد أخذت شيئًا منه، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾[1] [الكافرون: ١- ٣]، فالديانة والعبادة والعقيدة ليست قابلة للمساومات والتنازلات، بل هي قضية مبدأ لا يتحول.

* ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾:

أي: ودَّ كفار مكة أن تسكت فتطاوعهم فيما يريدون، ليسكتوا هم أيضًا عن محاربتك وإيذائك، وفي الآية نهي صريح عن المداهنة.

والمداهنة غير المداراة[2]، فـ«مداراة الناس صدقة»، كما قيل[3]؛ لأنها لا تجاوز حدود المجاملة بما يدرأ شر الطرف الآخر، دون تنازل عن شيء من أصول الدين وقطعياته.

ومعظم الناس قد لا يدركون هذا، فيخلطون بينهما، وربما أغلظوا في القول وأساؤوا في الخُلق، وظنوا هذا من الديانة والقوة والغيرة، وربما فرَّط آخرون وتنازلوا عن حكم شرعي بغير سبب يقتضي ذلك، وداهنوا في دينهم، وظنوا هذا من السياسة الشرعية، في حين أن بينهما فاصلًا واضحًا، والله تعالى لما أرسل موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون أوصاهما بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]، وقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فاللُّطف والسماحة والهدوء النفسي والأخلاقي والعبارة الجميلة مداراة حسنة، وسبب لكسب القلوب، وهو من هَدْي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والإِدْهان والمُداهنة هي قلب الحق باطلًا، وقلب الباطل حقًّا؛ من أجل رئيس

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٦١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧١١)، وما سيأتي في «سورة الكافرون»

(٢) ينظر: «صحيح ابن حبان» (٢/ ٢١٨)، و«الغرباء» للآجري (ص٧٨)، و«التوضيح» لابن الملقن (٢٨/ ٥١٤)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٥٤، ٥٢٨)، (١٣/ ٥٢- ٥٣).

(٣) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٥٠٨).

أو وجيه أو متبوع أو مرغوب أو مرهوب.

وثَمَّ درجة ثالثة، وهي باب المصالح والمفاسد؛ كما في **عقد الحُدَيْبِيَة** الذي لم يكن ادْهانًا، بل تقديرًا صحيحًا للموقف، وتطبيقًا لشرعية الاستطاعة، وهذا الباب شديد الالتباس لدى الناس، وهو يتأثر بالحماس وبالطبع، وبشمولية الرؤية وبكمال التجرد، والله المعين.

* ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾:

هذا تأكيد للمعنى الأول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم: ٨]؛ ليبيِّن شناعة ما هم عليه، فوصفهم بعشر صفات.

والآيات قيل: نزلت في الأَخْنس بن شَرِيق، **وقيل**: في الأسود بن عبد يغوث، **وقيل**: في أبي جهل، **وقيل**: في الوليد بن المغيرة[١]، وعلى كلٍّ فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ومن صفات كل واحد من هؤلاء المعاندين المستكبرين أنه ﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، بالحق وبالباطل، وبمناسبة وبغير مناسبة، وهذا دليل على عدم تعظيمه للحلف؛ لما في قلبه من الفجور، ويكشف عن شعوره بأن الناس لا يصدقونه، فيكثر من الحلف؛ ولهذا ذُكر من معاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]: أي: لا تجعلوا اليمين مبتذلة في حق وباطل، **وقيل**: لا تستكثروا من اليمين بالله؛ فإنه أهيب لقلوبكم؛ ولذا قال: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾. وكانت العرب تمتدح بقلة الأيمان، حتى قال قائلهم[٢]:

قليلُ الألَايا حافظٌ ليمينه ... وإنْ صدرتْ منه الأَلِيَّةُ بَـرَّتْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٧٢)، (٢٣/ ١٦٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧١).

(٢) ينظر: «أنساب الأشراف» (٦/ ٣٣٣)، (٨/ ١٢٤)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٣٢١)، و«تاج العروس» (٣٧/ ٩٤) «أ ل و» منسوبًا إلى كثير بن عبد الرحمن الخزاعي.

وفي ذلك تعظيم للعهد والميثاق والحلف عند الصادقين المؤمنين، بخلاف مروِّجي الأكاذيب بالادِّعاء والحلف المزيَّف[1].

و﴿مَّهِينٍ﴾: من المهانة، وهي الحقارة، فالصفة الثانية كونه مهينًا حقيرًا في نفسه وضيعًا لا شأن له:

وما المَـرءُ إِلَّا حيثُ يجعلُ نفسَـه ... ففي صالح الأعمال نفَسَك فاجعلِ

فاهتماماته وانشغالاته رديئة ساقطة، وشخصيته واهية، مطعون في صدقه وأمانته، ولا يعنيه هذا؛ لأنه استمرأ المهانة وتقبل الإهانة.

* ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾:

والهمَّاز: الذي يكثر من همز الناس، أي: يعيبهم، فلا يكاد يمر عليه أحدٌ إلا لمزه بلسانه أو بإشارته أو تقاسيم وجهه.

وأصل الهمز بالأعضاء؛ باليد أو الرِّجْل أو اللِّسان، والغرض من ذلك أذية الآخرين، وعيبهم بأي طريقة كانت[2].

ولا شك أن هذا الفعل الذميم متضمِّن للكِبر، فمن الكِبر احتقار الناس، كما قال ﷺ: «**الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[3].

ويدخل فيه الهمس بالعيب والتنقص؛ لأنه لا يجرؤ على الإعلان بذلك لحقارته، فيجعله سرًّا بينه وبين جليسه، وهو مستعد للإنكار والنفي والحلف على ذلك إذا سُئل!

وهو يحاول أن يفسد العلاقة الاجتماعية بين الناس، فقوله: ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ يعني كثير المشي بالنَّمِيمة، وهي: «**القالة بين الناس**»[4]، ينقل كلام هذا في هذا، وكلام هذا في هذا، على سبيل الوقيعة.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٩٧)، وما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو يغتاب الناس، وقد قال الله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويخرج الغيبة بمخارج ومسوِّغات باطلة، ويمشي بالنميمة، فيفسد ما بين الناس من الوُدِّ وحسن الصحبة.

والتعبير بـ﴿مَّشَّآءِ﴾ يدل على كثرة ذلك منه، حتى أصبح كأنه عادة له بكثرة التكرار توصم به شخصيته الخاوية، وقد قال ﷺ في الذي يعذَّب في قبره: «**فكان يمشي بالنَّمِيمة**»[١]. وقال أيضًا: «**لا يدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ**»[٢]. أي: نَمَّام[٣].

* ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾:

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ صيغة مبالغة، فهو شديد المنع[٤]، **والخير**: المال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾[٥] [العاديات: ٨].

وهنا لم يصفه بالبخل؛ لأن البخل يتفاوت، لكن حينما يصفه بأنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، فهذا يعني شدة بخله، حتى لكأنما وضع على الخير أبوابًا موصدة، فلا يصل من خيره إلى الناس شيء.

بل في الوصف ما هو أشد، فهو يمنع الخير من نفسه ومن غيره، فلو وجد إنسانًا يريد أن يتصدَّق أو ينفق، لحاول أن يصرفه عن ذلك، ويمنعه من المضي في بذل الخير بأنواع المعاذير.

على أن هذا الموصوف بهذا الوصف الذَّميم لم يبخل بماله فحسب، بل هو مَنَّاع لكل خير من مال وغيره، فهو يَحولُ بين الناس وبين الإيمان، ويحاول أن يصدَّهم وأن يصرفهم وأن ينشر قَالَةَ السوء عن المؤمنين؛ حتى يمنع الناسَ من

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦١)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في رواية أخرى للحديث.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٩)، وما سيأتي في «سورة العاديات».

الخير.

﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾: فمن شأنه أن يعتدي على الناس، ففيه أَثَرة، ونَزَق، وظلم، وطَيْش؛ ولهذا يبغي على الناس بالمال إن كان تاجرًا، وبالعلم إن كان عالمًا، وبالديانة إن كان ظاهره التدين، ويبغي عليهم إن كان شريكًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص: ٢٤]، وكثيرًا ما يبغي المختلفون بعضهم على بعض، ويتجاوزون حدود العدل والإنصاف والأخلاق؛ ولهذا قال الله: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: ٧- ٩].

فأساس علاقته مع الناس الاعتداء والتجاوز، أما علاقته مع الله، فأساسها الإثم؛ ولهذا قال: ﴿أَثِيمٍ﴾، ومَن ارتكب إثمًا يقال له: آثم، مَن أكل الرِّبا فهو آثم، ومن زنا فهو آثم، لكن الله وصفه بأنه ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم[1]، وهذا معناه أن الإثم لم يعد مجرد حالات خاصة، فإن المؤمن قد يُخطئ، وقد يعصي، وقد يستزله الشيطان، أو تستزله النفس الأمَّارة بالسوء، ولكنه سريع الأَوْبَة، لا يقيم، ولا يصر على المعصية، أما هذا، فالإثم مطبوع عليه، حتى أصبح جزءًا من خُلُقه وشخصيته، ودخل فيمَن وصفهم الله بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: ٨١].

وفي تقديم وَصْفه بأنه ﴿مُعۡتَدٍ﴾ على وصفه بأنه ﴿أَثِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى عظم شأن حقوق الناس، وأن الدين جاء بحفظ الحقوق والأمر بها، ووعده بأعظم الأجر على أدائها، وتوعَّد بأعظم الوعيد على الإخلال بها، وهذه معانٍ يحتاجها الناس الذين يقرؤون القرآن، فيتعلَّمون أن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة[2]، وأن من غير المفهوم أن يكون فرد ما أو مجتمع

(١) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٤).

(٢) ينظر: «المنثور في القواعد الفقهية» (٢/ ٥٦)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤/ ٢٤١).

متصفًا بالتدين التعبدي، محافظًا على قرباته، ثم هو يستخف بالحقوق الإنسانية، ويعتدي عليها، ولا يقيم لها وزنًا، ولا يعترف- ولو نظريًّا- بالكثير منها!

* ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

﴿عُتُلٍّ﴾- بضم العين والتاء وتشديد اللام-: غليظ الأخلاق[1].

وفي ذلك إشارة إلى أن من علامات التدين والإيمان: الرفق والسماحة، فلا تكن فظًّا ولا غليظًا ولا عبوسًا، بل تواضع وابتسم وطيِّب كلامك.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إضافة لما سبق في الآية قبلها من اعتدائه على الناس، وجرأته على حدود الله، فهو غليظ قاسٍ، لا ينِدَى ولا يلين ولا يتأسف ولا يتراجع، وكأن هذا السياق يفسِّر نمطًا من الطِّباع المرذولة والأخلاق الفاسدة في فِئام من الناس تبين عند الأزمات، فيتسلطون بغير حق، ويهاجمون ويكذبون ويزوِّرون ويمعنون في إجرامهم، بلا تردد ولا ضمير ولا خوف من الله، ولا من عباده، ولا حساب للعواقب!

﴿زَنِيمٍ﴾: **والزَّنَمة**: قطعة صغيرة من اللحم معلَّقة برقبة الحيوان أو أذنه[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه ملحق بقومه، وليس منهم[3].

وقد ورد أن الوليد بن المغيرة ادَّعاه أبوه وعمره ثماني عشرة سنة، أما النضر ابن الحارث بن كَلَدَةَ فقد ورد أنه لم يكن من قريش، وإنما كان من ثَقِيف أو غيرها، ثم جاء إليهم وأصبح حَلِيفًا لهم.

وليس المقصود هنا التعيير بالنسب، وإنما معاملته بنقيض ما يدَّعي، فبعدما قطع عنه الفخر بالأخلاق وبالدين، قطع عنه الفخر بالنسب، وقال: إنه ملحق

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٢).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١١/ ٤٢٣)، و«تاج العروس» (٢٩/ ٤٢٥) «ع ت ل».

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٢٧٥)، و«تاج العروس» (٣٢/ ٣٣٥) «ز ن م».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٦٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١- ٣٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٣).

بهؤلاء القوم، وليس منهم أصالةً، فلم يعد له ما يفخر به من أمر الدين ولا من أمر الدنيا.

وجرت العادة أن الملحَق بالقوم وليس منهم أصالة يكون مزايدًا على ما يذهبون إليه، فيكون ملكيًّا أكثر من المَلِك- كما يقال- لأنه يريد بهذا إثبات رسوخه وولائه، أو الحصول على موقع متقدِّم، بسبب حاجة المجموعة التي ينتمي إليها، لسلاطة لسانه وجرأته في مهاجمة الخصوم، وهو أمر يتكرر في حِقَب التاريخ.

* ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

هذا على سبيل الاستنكار، أن يكفر ويعاند لكونه ذا مال وولد، وقد ورد في قصة الوليد بن المغيرة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ [المدثر: ١٢- ١٤]، فبدلًا من أن يشكر كفر[1].

وقد يكون المعنى: أن كفره وإيغاله في الشر والتنقيص من صاحب الرسالة وأتباعه، هو للحفاظ على مكاسبه من المال، وتحقيق الفرص التي يحتاج إليها للمزيد من لُعاعة الدنيا[2] له ولبنيه! ولذا يُوصف المال والولد بأنه فتنة، وكم من عقل رشيد ضل وتجاهل الحق لأجل منصب أو رئاسة أو فرصة تجارية.

* ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إذا قُرئ عليه القرآن يكذِّب، ويزعم أن قصصه وأخباره أساطير مأثورة عن السابقين، والوليد هو أول مَن قال: هذا ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[3] [المدثر: ٢٤]، وبعد ذلك تلقَّفته عنه أفواه زعماء الكفر والضلالة، فصاروا يقولون: هذه ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، **والأَسْاطير** جمع: أُسطورة، وهي الأُكذوبة، **وقيل**: هي كلمة عربية مأخوذة من

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢١- ٤٢٢)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

(٢) أي: الشيء القليل منها.

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٢)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

السطر والكتابة[1]، أو كلمة رومية معرَّبة[2].

* ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾:

أي: سنضع له وَسْمًا مثل ما يُوسم الحيوان، والعادة أن وَسْم الحيوان يكون في أذنه ليُعرف، أما هذا فوَسْمه على الخرطوم، **والخرطوم**: الأنف، وغالبًا ما يُستخدم للحيوان، مثل خرطوم الفيل، **والمقصود** هنا: أنف الإنسان[3].

وذكره هنا مناسب لقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، ففيه إشارة إلى غياب الجوانب الإنسانية فيه، وظهور الجوانب البهيمية والحيوانية من جنس الشَّرَه في الأكل والشرب، والعدوانية، وتميزه عنها بإرادة الشر ومنع الخير والتسلط على الناس، فهذه صفات بارزة فيه.

وقد حدث هذا يوم بدر، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: إن صاحب هذه الآية ضربه المسلمون يوم بدر على أنفه، فكان وَسْمًا فيه إلى أن مات، وأصبح الناسُ يعرفونه به[4].

وهذا مناسب لسياق الوعد، فإنه لم يكن وقت نزول الآية موسومًا، بل توعَّده الله بذلك.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٧)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٥٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٧)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٢٩)، و«لسان العرب» (٤/ ٣٦٣) «س ط ر».

(٢) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٩/ ٤٣٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٦/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٦)، (٣٠/ ١٩٨)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾، و«سورة الفيل»: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٧٩) «خ ر ط».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٨)، والمصادر السابقة.

قصة أصحاب الجنة:

بعد المواجهة مع الملأ المشركين المتمرِّدين العُتاة، ينتقل السياق إلى قصة لم تُذكر في غير هذه السورة، وقد ضربها الله مثلًا لزعماء قريش، كما سيضرب المثل بصاحب الحوت للنبي ﷺ.

* ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم بالمال والولد والزرع والإيمان والكفر[(١)]، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: وهذه جنة كانت في اليمن، قريبة من صنعاء، في قرية اسمها: ضَرَوانُ، قيل: كان صاحب البستان رجلًا كريمًا، يعطي الفقراء والمساكين والمحتاجين، وكان له ثلاثة من الولد، فلما تُوفِّيَ تغيَّرت طريقتهم، وقرَّروا أن يمنعوا الفقراء والمساكين حقَّهم؛ فعاقبهم الله تعالى عقابًا عاجلًا، فأحرق جنتهم، فأصبحت كالصَّريم[(٢)].

وَضَرْبُ الله تعالى المثَلَ في هذه القصة إشارة إلى أن أهل مكة إن أصرُّوا على كفرهم وجحودهم، فسوف يصنع الله تعالى بهم كما صنع بأصحاب الجنة[(٣)].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: حلفوا ليَصْرِمُنَّها صباحًا، وفي آية سابقة قال: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ١٠]، وهؤلاء أقسموا، وقال في آية سابقة: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢]، وهؤلاء منعوا الخير، فهنا تشابه، وقد تقاسم هؤلاء الإخوة فيما بينهم على قطع ثمار الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: أول الصباح، قبل أن يأتيهم الفقراء والمساكين؛ قصدًا إلى حرمانهم من ثمارها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦١٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٧).

والصِّرام: قطف الثمرة من النخل في موسم معروف[1].

* ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾:

ما قالوا في قَسَمهم: إن شاء الله؛ لأنهم واثقون بقدرتهم على ذلك، ولم يستثنوا حق الفقراء والمساكين؛ لأنهم قصدوا أن يصرموها أول الصبح؛ حتى لا يعلم بهم أحد[2].

* ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

والطائف غالبًا يأتي بالليل، ومنه يقال: الطَّيْف، يعني الحُلُم الذي يراه الإنسان في المنام، وهذا الطائف نار أحرقتها وهم نائمون، كانوا يظنون الأمور على ما يرام[3].

* ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾:

والصَّريم: الليل المظلم[4]، الذي ليس فيه برق ولا نور، فأصبحت المزرعة كالليل المظلم، وهم لا يعلمون بذلك.

وبين **الصَّرْم**- الذي هو القطف- **والصَّريم**- الذي هو الليل- تناسب لفظي، وفيه تعجيب وسخرية من حالهم وجهلهم وسوء تدبيرهم.

* ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

نادى بعضُهم بعضًا آخر الليل، وكلٌّ واحد يستعجل الآخر: إذا كنتم عازمين على الصِّرام فهيَّا عجِّلوا.

---

(١) بكسر الصاد وفتحها، وأصل المادة الدلالة على القطع، ومنه: الصُّرم والصَّرم، وهو القطيعة. ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٤١٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٨٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٣٨).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص١٧٥)، و«لسان العرب» (١٢/ ٣٣٤) «ص ر م».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٤)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٧٤٤) «ر ص م».

وهذا لا يُقصد به الشرط، وإنما يُقال على سبيل الاستبطاء والحث على التعجيل[1].

والغُدُوُّ: الذهاب المبكِّر في أول النهار[2]، والعادة أن أصحاب المصالح يبادرون إليها؛ ولذا عدَّ النبيُّ ﷺ الغدوةَ في سبيل الله أو الرَّوْحةَ خيرًا من الدنيا وما فيها[3]، وقال: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها**»[4]. فرايات المبادر إلى الخير أو الشر تُرفع وتتنافس أول النهار مع أشعة الشمس الأولى أو قبلها، حيث تتجدَّد الحياة في الكون وما يحتويه.

* ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤﴾:

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ وهذا يوحي بالسرعة والعجلة، ومع الانطلاق هم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ كل واحد يهمس في أذن الثاني[5]، في حين يخبرنا الله العليم بماذا يتخافتون، فعلم بهم أول الأمة وآخرها، القاصي والداني، وأنهم كانوا يقولون: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ أي: لا يدخل عليكم مزرعتكم أو حديقتكم أحد من المساكين، فأَحْكِموا الإغلاق.

* ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾:

وأقرب معاني الحَرْد هنا: المنع، فهم يظنون أنهم قادرون على أن يمنعوا الفقراء والمساكين، وما كان بينهم وبين الوصول إلى الحديقة إلا يسير.

ومن معاني الحَرْد: الحقد والمقت والغضب، فهم غاضبون على الفقراء

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨١- ٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ١١٦)، و«القاموس المحيط» (ص١٣١٧) «غ د ا»، و«فتح الباري» (٦/ ١٤).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٦٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤).

والمساكين، ناوون بهم شرًّا[1].

وهكذا هو الإنسان الجحود، يظن أن بيده تدبير الأمور، فهذه أمواله يتصرف فيها ويُعطي ويمنع، وهذه أرضه، وهذا قراره.. فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، وغالبًا ما يحمله الغرور على تكرار حماقاته دون اعتبار، وقليلًا ما يفيق ويرعوي ويستغفر ويتوب.

* ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: أخطأنا طريق جنتنا[2]، ثم أدركوا أن هذا عقاب الله تعالى لهم، وأنهم قد ضلوا حينما منعوا الفقراء حقهم؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: أن الله تعالى أراد حرماننا ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، و«الجزاء من جنس العمل»، فلما حرموا الفقراء والمساكين رأوا المصيبة والنكبة، وجرى بينهم حوار أشبه ما يكون بالمراجعة والنقد للنفس والتبكيت لها.

* ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: سنًّا، وأعقلهم، وأعدلهم، وأكثرهم إيمانًا، وأفضلهم رأيًا[3]، ويبدو أنه لم يكن على رأيهم، بل كان معترضًا، ولكنه رآهم مصرِّين على ذلك، فوافقهم وانطلق معهم؛ ولهذا كان أسرعهم أَوْبة وإفاقة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تسبحون الله تعالى فتعطون المساكين حقهم ولا تبخسونهم[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٣- ٣٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٢١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٩)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩١)، والمصادر السابقة.

* ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ ﴾:

سبَّحوا ربهم بعد ما رَأَوْا العاقبة، واعترفوا بذنبهم، وهذا دليل على إيمانهم[1].

* ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ ﴾:

واللَّوم درجة وسط دون التوبيخ وفوق العتاب، فأنت تعاتب ثم تلوم ثم توبِّخ، فهم كانوا ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ ويقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، لكن هذا التلاوم مفيد؛ لأنه تضمن اعترافًا بمسؤولية كل فرد منهم، وكل واحد منهم يُلْقي باللائمة على نفسه ويقول: أنا كنتُ ظالمًا، أما التلاوم غير المفيد فهو التلاوم الذي يُقصد به إلقاء التَّبِعة على الآخرين، وتبرئة النفس من ذلك، والتهرب من المسؤولية.

* ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ ﴾:

آمنوا بالله واعترفوا بالخطأ؛ ولذلك أبدلهم الله تعالى خيرًا منها؛ لأنهم أنابوا[2].

وهي حال قليلة الحدوث، فالغالب هو الإصرار حتى نزول العذاب، كما في قصة صاحب الجنتين في «سورة الكهف»[3].

وسرد هذه القصة بخاتمتها الطيبة الإيجابية فيه عظة وعبرة وزجر وتحذير لا

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٧)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٨).

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.

يحمل على اليأس والقنوط.

* ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

يعني: هذا جزء من عذاب الدنيا بذهاب المال[١]، وفيه تعريض أن يصيب الله كفار مكة بعذاب، وإن كانوا في نعمة فارهين، وقد حدث هذا، فلما استكبروا دعا عليهم النبيُّ ﷺ وقال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسفَ**»[٢].

* ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾:

بعد أن ذكر جنة الدنيا والمال والبنين ذكر أنه أعدَّ للمتقين ما هو خير من ذلك، وقد كان أولئك القوم يقولون للنبي ﷺ: نحن خيرٌ منكم في الدنيا، وسوف نكون خيرًا منكم في الآخرة، كما قال صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦]، أما أصحاب الجنة فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ٣٢].

فقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فيه تذكير وبيان أن جنة الآخرة ليست كجنة الدنيا الزائلة التي لا يُؤمن عليها الآفات والطوفان والجفاف[٣].

* ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

كلا والله، لا يكون هذا! بل بينهم البون الشاسع ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾[٤] [السجدة: ١٨].

* ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: بأي ميزان، وبأي منطق حكمتم بأنكم سوف تكونون أفضل من المؤمنين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠٧، ٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ». وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٩٢).

في الآخرة؟!

هذا حكم جائر لا يقوم على اعتبار العمل والإيمان والأخلاق، بل على اعتبار شرف النسب أو السمعة أو المكانة العابرة في الدنيا.

* ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

هل بنيتم هذا الحكم على كُتب درستموها، فأوصلتكم إلى هذه الحقيقة؟!

وفي ذلك إشارة إلى أهمية العلم والمعرفة، وأن أي دعوى يدَّعيها الإنسان بدون علم وحجة فهي مردودة عليه، وكما قال ﷺ: «**لو يُعطَى الناسُ بدَعْواهم، لادَّعى ناسٌ دماءَ رجال وأموالَهم، ولكنَّ اليمينَ على المُدَّعى عليه**»[1].

وهم كانوا أُمِّيِّين، لا كتاب لهم، فمعظم ما وقعوا فيه سببه الجهل والعماية والتقليد الراسخ في عقولهم لموروثهم، وكانوا يعرفون أهل الكتاب، ويعتقدون بفضلهم، ففي الآية تعريض بجهلهم.

فهذا المدَّعِي أنه سيكون في الآخرة أفضل من بلال وعمار وصُهيب رضي الله عنهم، أين يجد البيِّنة على ذلك؟ أله كتاب درس فيه ذلك؟ أله حجة وبرهان؟

* ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

يعني: هل هذا الكتاب الذي تدرسون فيه على هواكم، فيه الشيء الذي تختارونه، وفيه أن لكم الجنة والمجد والفضيلة والرفعة، حتى في الآخرة؟

وهذا سخرية منهم، واستضعاف لعقولهم، وكأن هذا الكتاب الذي يدرسونه جعل لهم كل ما يختارونه، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل: ٦٢].

* ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وهذا سؤال تهكُّمي، **والمعنى**: هل جاءكم نبيٌّ أو رسولٌ بأَيْمان مغلَّظة من عند الله بعقود وعهود لكم خاصة يا معشر قريش؟!

لقد كانوا يقولون: نحن أهل الحرم وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية وأهل بيت

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٢)، ومسلم (١٧١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الله، فهل لهم أَيْمان إلى يوم القيامة- وليس فقط في الدنيا- بأن تكون لهم الدنيا، ولهم الخير، حتى يوم القيامة؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كأن الحكم صار لكم في الدنيا، وصار لكم في الآخرة، في حين أن أحدكم لا يستطيع أن يتحكَّم في نفسه.

ولغة الغالب المتسلِّط المغرور تقول له: إن لك الدنيا وأنت فيها بمَعْزِل عن الهلاك والزوال، وكلما ذهب منك جيل ورث السُّؤْدُد جيل آخر يجدِّد أمرك، وكأنك استثناء من سنن الله ونواميسه في كونه.

وتقول له: إن لك الآخرة أيضًا، خاصة حين ينخدع بزخرف المدح والثناء والإطراء وتسويغ ما يقع منه وإلباسه لبوس العمل الصالح.

وقريش كانت تغتر بقيامها على البيت الحرام وخدمة الحجيج، وترى لها بذلك فضلًا على سائر العرب!

* ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: اسألهم يا محمد: مَن هو الذي يكون زعيمًا لهم بهذا؟ **والزعيم** هو: القائد أو الكفيل، كما قال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾[١] [يوسف: ٧٢]، مَن الذي يتكفَّل عن جماعته وقومه بأن يعطيهم هذه الوعود في الدنيا والآخرة؟ لم يكن لهم كتاب يدرسون فيه، ولا عندهم عهود ومواثيق من الله بالغة إلى يوم القيامة، وما عندهم كفيل يكفل لهم ذلك ويتعهَّد لهم به، فما سر ثقتهم وطمأنينتهم إلى مستقبلهم، وكأنه لا يعنيهم، أم أنهم حاصلون على أمان قاطع؟

* ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾:

فهل لهم أحد ينصرهم من الأوثان والأنداد والمعبودين؟

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾: ليأتوا بهم في الدنيا؛ ليثبتوا هذا الأمر، أو ليأتوا بهم يوم القيامة[٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٥٣)، (٢٣/ ١٨٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٣).

إن السياق يحاصرهم بكافة الاحتمالات والوجوه بأسئلة صريحة لا ينتظر منهم إجابتها، بل عليهم أن يواجهوا بها أنفسهم؛ علَّها أن تقودهم إلى الحقيقة.

* ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: سوف تبين حقائقهم ومصايرهم في ذلك اليوم العظيم، يوم الشدة العظيمة، والعرب كانوا يعبِّرون عن الشدة بهذا[١]، كما صحَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: عن شدةٍ[٢]، والشاعر يقول[٣]:

قد شَمَّرتْ عن ساقها فشُدُّوا ... وجَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا

لأن الناسَ في الشدة يكشفون عن سُوقهم، والمرأة تكشف عن ساقها للخدمة، والرجل يكشف عن ساقه للقتال أو للهرب أو للانشغال عن ستره وملاحظته.

وصحَّ من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يوضِّح هذه الشدة؛ ففي «الصحيحين»، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة، فيبقى كلُّ مَن كان يسجدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجدَ، فيعودُ ظهره طبقًا واحدًا**»[٤].

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ حين يتجلَّى ربنا سبحانه، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يملكون السجود في ذلك اليوم، وهم يخاطَبون الآن حيث يستطيعون، وبمقدورهم أَلَّا يكونوا من أهل ذلك الموقِف العصيب.

---

(١) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٨٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٣٦) «س ا ق».

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٩)، و«فتح الباري» (١٣/ ٤٢٨).

(٣) ينظر: «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ٢٩٨)، و«تاريخ دمشق» (١٢/ ١٣٠)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢١/ ٢٠٨) منسوبًا إلى الحجَّاج الثقفي.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٩، ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

* ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾:

هذا خشوع اضطراري بسبب الانتكاسة التي يشعرون بها، والذِّلة التي تغشاهم من كل مكان، وقد كانوا في الدنيا سالمين، أصحاء الأبدان، أقوياء الأجسام، الواحد منهم عُتُلٌّ طويل عريض، فيستكبرون عن السجود، أما الآن فهم يريدونه فلا يمكنون منه[1].

* ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾:

أي: اتركني معهم، واتركهم لي، ولا تحمل لهم همًّا، ولا تقلق منهم، ولا تدخل معهم في شيء، دعني وإياهم.

وفيه تسلية للنبي ﷺ، وتطمين له بأن يمضي في دعوته ويصبر، وفيه تهديد ووعيد شديد لهم؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ صاحب القدرة التامة والعلم والملك يتوعدهم بأنه لهم بالمرصاد وإن أمهلهم[2].

والمقصود بـ﴿هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾: القرآن، أو حديث الآخرة والغيب والجنة والنار[3].

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: وفي هذا وعيد شديد، والاستدراج أن تُنزل عدوك درجة بعد درجة، فتتدرَّج معه، وتمهله وفق خطة محكمة يقع في نهايتها في الفخ أو المصيدة بعدما ظن أنه فاز أو نجا!

ومن أي طريق سيستدرجهم؟ من الجهة التي لا يعلمونها ولا يدركونها، مثل مَن يتوقع أن يأتيه العدو من هذه الجهة، وعنده يقين بذلك، فيفاجأ به وقد خَتَله[4] من الجهة الأخرى التي لم تكن تخطر على باله، ولو كان يعلم لاتَّقى

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٧٢)، والمصادر السابقة.

(٤) أي: خدعه.

ذلك الاستدراج، لكن إذا كان البلاء سيصيبهم من حيث لا يعلمون، فكيف لهم بتلافيه؟ اللهم ارحمنا ولا تكلنا إلى أنفسنا.

وهذا وإن كان وعيدًا للكفار، إلا أنه يمنع المرء المسلم أن يغتر بعطاء الله، فقد يكون ذلك استدراجًا لا رضًا، كما قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، فقد يعطيك الله المال والولد والسُّمعة والرئاسة والجاه والمنصب والزوجة والسكن والعافية، فلا تقل: هذه النعم دليل على أن الله راضٍ عني، فالله يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، حتى العلم بالشريعة أو التعبد والصلاح قد يكون استدراجًا، إن لم يصاحبه صدق إيمان وخضوع وانكسار وتواضع لله.

والله يستدرج الكافرين في الدنيا من حيث لا يعلمون، كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد نشأ في حِجْر فرعون، وكذلك قريش كادوا للنبي ﷺ، فأنقذه الله منهم، وحماه وأظهر دعوته.

* ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾:

الإملاء: الإمهال، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٧]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، أي: أمهلهم وأَنْظرهم وأعطِهم الفرصة بعد الفرصة[١].

والمرء من طبعه العجلة في الدعاء وتوقع التغيير ونزول العذاب ونصرة المؤمنين والمظلومين، ولكن الله لا يعجل لعجلة خلقه، ولا يستجيب لرغبات البشر السريعة التي ربما يندمون عليها بعد وقوعها!

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: الكيد هنا في مواجهة كيد الكائدين وكفر الكافرين؛

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٢٠٠)، و«الكشاف» (٢/ ٥٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٢).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٧٧)، و«النهاية» (٤/ ٣٦٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٩٠) «م ل ا».

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، فكيدي في مقابل كيدهم ومكرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿مَتِينٌ﴾ يعني: ليس ككيدهم وكيد أنصارهم من الشياطين، فكيدهم ضعيف، كما قال الله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

ووصفه بأنه ﴿مَتِينٌ﴾ يُوحي بأنه بطيء؛ ولكنه مؤكَّد راسخ عصي على التدارك(١).

* ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: هل أنت تسألهم أجرًا، فتريد منهم أن يعطوك مقابل دعوتك مالًا؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: يقولون: العطاء ثقيل علينا، هذا هو المَغْرم، والنبيُّ ﷺ كان يستعيذ بالله من المأْثَم والمَغْرَم، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسولَ الله من المَغْرَم! فقال: «**إنَّ الرجلَ إذا غَرِمَ حدَّث فكذبَ، ووعدَ فأخلفَ**»(٢).

وفي هذا دليل على أنهم أصحاب أموال، وفيه تعريض بمنعهم للخير، وحبهم الشديد للمال، فهل تكذيبهم بسبب أنه كان يطلب منهم أجرًا؟ كلا، فالنبي ﷺ يقول: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩].. وهكذا جواب الرسل جميعًا، فالدعوة ليست خاضعة للمساومات المالية، ولا تتطلَّب من المدعوين ضرائب وأموالًا باهظة، بل هي دعوة التطهر والصلاح، والغالب أن أهلها هم الفقراء والضعفاء والمساكين، فهل هؤلاء من الدَّيْن مُثْقَلُون، يقولون: لن ندفع ما يترتب على دعوتك من تبعات واستحقاقات مالية؟!

* ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

فيعلمون كل شيء، ويطَّلِعون على الغيب وينقلون منه، ليس الأمر كذلك، فهم لا يعلمون، ولا يكتبون، ولا يقرؤون!

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٩/ ١٩٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والنبيُّ ﷺ نفسه لا يعلم الغيب، فهل عندهم من الغيب ما ليس عنده؟!

* ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾:

كما ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة مَثَلًا لقريش، وتهديدًا لهم بأنهم إن كفروا سيعذِّبهم؛ ذكر لنبيه ﷺ قصة ذي النُّون[1].

والمقصود بقوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: لقضائه وقدره[2]، وإن كان الحكم يشمل أيضًا الأمر الشرعي، فالله يكتب ما يشاء، ويعجِّل ما يشاء، ويؤجِّل ما يشاء؛ فاصبر لحكم الله بالمرض والصحة، والقوة والضعف، والغنى والفقر، فلا بد من الصبر على القَدَر، واصبر لحكم الله الشرعي، فإذا أمرك الله بالصلاة فَصَلِّ، وإذا أمرك بالإعراض فأعرِضْ، وإذا أمرك بالهجر فاهجرْ هجرًا جميلًا، وإذا أمرك بالصبر فاصبر صبرًا جميلًا.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي: فلا يقع منك ما وقع لصاحب الحوت، وهو يُونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان في العراق في نِينَوَى[3]، فضاق ذَرْعًا بقومه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أي: أن لن نضيِّق عليه، وأنه لا يلزمه دعوة هؤلاء القوم[4]، فخرج مغاضبًا، وركب السفينة، فعطبت وأُلقي في البحر: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، يعني: آت بما يُلام عليه[5].

﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾: نادى ربه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾

---

(١) النُّون: الحوت.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٣٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (١١/ ٢٩٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٨)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٣٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٥/ ١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٩٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٣٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٦).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٦٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨)، و«التفسير المظهري» (٨/ ١٤٤)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٧١).

[الأنبياء: ٨٧]: ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[1]، وقد رُوي أن الملائكة كانوا يقولون: يا ربَّنا، هذا صوت معروف من مكان غير معروف![2].

والكظم يكون في داخل الإنسان ولا يبوح به، فكان يُونس ضائقًا بما جرى من قومه، وهو أيضًا مكظوم في بطن الحوت بما صار إليه الأمر، نادمٌ على ما جرى منه، عالمٌ أنه لا يزيل عنه هذا الكرب إلا الله، كما قال سبحانه عن يعقوب: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

* ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾:

فقد جعل الله تعالى الحوت يلقيه بالساحل، فأخرجه الحوت، كما في قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، فتداركته نعمة الله وعنايته، فسلم من الذم والعقاب، وتحقَّق له الاجتباء وحسن المآب، فعلى الإنسان أن يسبِّح الله إذا عصى مثلما سبَّح أصحابُ الجنة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك: ٢٩]، وكما ألهم الله يُونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التسبيح والاستغفار: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾: يعني أتى بما يذم عليه[3]، وهو قد نُبذ بالعراء، ولكنه غير مذموم، فالله تعالى غفر له.

أو أن المعنى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لبقي في بطن الحوت، كما في قوله: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤]، ولكن ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فأخرجه من بطن الحوت، وأخرجه بعفو ومغفرة.

* ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

يعني: أرسله إليهم مرة أخرى، واختاره واصطفاه، فآمن قومه، ومتَّعهم الله

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٣٥١)، و«زاد المسير» (٣/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٣٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٨)، و«الدعاء» للطبراني (٤٧)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١٠٧٩)، و«الدر المنثور» (١٠/ ٣٥٩)، (١٢/ ٤٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٣- ٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٠٦).

إلى حين.

فهي دعوة لرسول الله ﷺ بالصبر، وعدم الاستعجال للمكذِّبين، وتفويض الأمر لرب العالمين، فالأمر منه وإليه، وهو ولي الصالحين بالعاقبة الحسنة، ومتوعِّد المفسدين بالنَّكال، لكن متى؟ وكيف؟ وأين؟ فهذه موكولة إلى الجبار المدبِّر، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وقد يقع كثيرًا للمصلحين والغيورين استبطاء التغيير والفرج، والانزعاج من تقلب الظالمين في البلاد، وتَلَعُّبهم بالعباد، ويرون أنهم يدعون ويدعون، ولا يُستجاب لهم، وفي مثل هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥].

* ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾:

أي: ينظرون إليك نظرًا حديدًا[1]، ويقولون فيك قولًا شديدًا، ويحاولون أن يؤثِّروا في دعوتك، وأن يجعلوك تنزلق عن الطريق وتنحرف ولو قليلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال قبل: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: ٩].

ومن معاني هذه الآية أنهم بشدة نظرهم إليه وحِدَّته يحاولون أن يسقطوه عن الطريق، فلا يدعوه يمشي ﷺ.

وحمله بعضهم على المعنى الحِسِّي، واستدلوا به على إثبات الإصابة بعين الحاسد[2]، **والأقرب** أن المقصود معنوي.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾: وهذا قد نفاه ربه في أول السورة[3]، فأعاد ذكره في آخر السورة؛ توبيخًا لهم، وتعجيبًا منه بعدما ساق في السورة من المعاني والقصص

---

(١) من الحدة. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ١٤٢)، و«تاج العروس» (٨/ ١٠) «ح د د».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠١).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾.

والأمثال ما فيه مقنع للعقلاء.

* ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾:

في صدر السورة أثنى الله على النبي ﷺ بكمال العقل، وصدق الدعوة، ونفي تهم الأدعياء والأغبياء، وفي آخر السورة قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ إشارة إلى أن الأمر بالنسبة للمشركين لم يكن متعلِّقًا بشخص رسول الله ﷺ، وإنما كان متعلِّقًا بهذا القرآن، فمنذ أن سمعوه بدؤوا يشرقون ويغربون ويقولون ما لم يقولوه من قبل، فمشكلتهم ليست مع شخصه، بل مع دعوته التي تسلبهم ملكهم ورياستهم، وتكسر عاداتهم وتقاليدهم الشركية، وتعيد تشكيل عقولهم وأديانهم وعلاقاتهم وعاداتهم، وهي خير لهم عاجلًا وآجلًا، وعز وشرف، ولكنهم لا يفقهون: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهم يحاصرونه في مكة، ويلاحقونه من بيت إلى بيت، ويقولون: أسلم من بني فلان رجل، وأسلم من بني فلان اثنان، وأسلم أبو بكر، وأسلم علي، وأسلم مصعب. والأمر أعظم وأوسع، فهي رسالة الله للبشر، ومهما حاصروها فهي إلى انتشار وانتصار.

وهذه رابع سورة في القرآن فيها: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، ففيه أن هذا القرآن سيشرق ويغرب، ويسمع به الناس، ويرتفع صوت الأذان بـ«أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» في جميع أرجاء الأرض، فلا يبقى في الأرض بيت مَدَرٍ ولا وَبَر إلا أدخل الله تعالى فيه هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليل[2].

وهذه القوة والعزة التي وعد الله تعالى بها تحقَّقت، وهذا من الأجر غير

---

(١) كما هنا، و«سورة يوسف» (١٠٤)، و«سورة ﴿صٓ﴾» (٨٧)، و«سورة التكوير» (٢٧).

(٢) كما في حديث تميم الدَّاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ**». وتقدم تخريجه في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾.

الممنون، فحقَّق الله تعالى ما وعد به رسولَه ﷺ من الخلود والفلاح والنجاح، ولم يقبضه حتى نزل عليه: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾ [النصر: ٢].

والحمد لله رب العالمين.

○○○

سُورَةُ الحَاقَّةِ

❊ تسمية السورة:

اسمها عند عامة المفسرين والمحدِّثين والعلماء: «**سورة الحاقة**»[1].

❊ **عدد آياتها:** اثنتان وخمسون آية[2].

❊ **وهي مكية** بإجماع العلماء[3].

❊ **وقد ورد في فضلها** حديث مشهور: «**شَيَّبتني هودٌ، وأخواتها:** ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، و﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[4]. ولا يصح[5].

❊ ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١﴾:

يستهل ربنا سبحانه هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ بالمد المثقَّل، فكأن الإنسان عند ما يمد الحاء يرتفع إلى علو شاهق بقدر طاقته، ثم تأتي القاف

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧١)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٤١٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٠).

(٢) وقيل: إحدى وخمسون آية؛ باعتبار قوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ الأولى ليست رأس آية، واختلف في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٦] أيضًا. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٨٠٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكثر طرقه لا تذكر: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾.

(٥) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٩٣١)، وما تقدم في أول «سورة الواقعة».

المشدَّدة، فكأنه ينزل بثقل، وكأنك تسمع صوت ارتطام شديد وضربة مُدوية؛ هي: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، واستفتح تعالى السورة بهذا اللفظ المعبِّر، ولم يبيِّن ما هي ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، فـ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصف لموصوف محذوف، وقد لا يُعرف أول الأمر ما هي.

ومن معناها:

١- أنها مأخوذة من الحقِّ، فهو شيء يحق، أي: يقع؛ ولهذا سماها تعالى بـ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ فقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ①﴾ [الواقعة: ١]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ⑮﴾ [الحاقة: ١٥]، ومنه قوله سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ⑦⓪﴾ [يس: ٧٠].

٢- أنها حقٌّ من حيث إن كمال العدل يقتضي البعث، فيقتص من الظالم للمظلوم، وينتصر للمغلوب الضعيف المستضعف من الغالب المعتدي.

فهي حق بمقتضى العدل والحكمة الإلهية التي قد لا تظهر بتمامها في الدنيا.

٣- وهي حقٌّ؛ لأن الله يحق فيها الحق، ويبطل فيها الباطل، ففي الدنيا جدل كثير وأسئلة ومنازعات وخصومات، وكل أمة قد زُيِّن لها عملها، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ومن حكمة الله أن جعلها كذلك؛ لأن هذه المنافسات من أسباب ديمومة الحياة وتدافع القوى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[١] [البقرة: ٢٥١].

ومن حكمة الله أن جعل للبشر في هذه الدنيا طرقًا شتى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ⑪﴾ [الجن: ١١]، و«**كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له**»[٢]، وأقام على الجميع حجته البالغة التي قد تظهر وقد تخفى، لكنه في الآخرة يحق الحق ويبطل الباطل، وينتصر للحق،

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٢٨- ١٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٤).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٤٥، ٤٩٤٩، ٧٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧- ٢٦٤٩) من حديث علي وجابر وعمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ويقيم القسط والميزان.

وهي ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهي ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، وهي ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، وهي ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، وهي ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، وهي ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾.

وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمَّى وطوله وتنوعه وكثرة أحداثه، ولا تجد هذا في أسماء ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في القرآن الكريم.

* ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾:

وهذه صيغة قرآنية متكرِّرة، مثل قوله: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾ [القارعة: ٢]، وهو سؤال تعظيم وترهيب، يذهب بالعقل كل مذهب، ويحرِّك الخيال؛ لتصوُّر معنى ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، واستحضار أحداثها؛ لأن الإيمان بالآخرة لا يكفي فيه قيام حجة العقل أو الشرع ليكون مؤثِّرًا، بل ينبغي أن يلامس المشاعر والأحاسيس، ويداعب الخيال، وأن يعيش المرء فيه على سبيل التوهم، حتى يصبح كالحقيقة القريبة.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾:

قال سُفيان بن عُيينة: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به»(١).

وهذا في الغالب؛ فقد جاءت: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرة، كلها أخبره بها، إلَّا ما في هذه السورة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾، وما عداها فقد أخبره بها، وهي:

في «سورة المدثر»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾، وفي «سورة المرسلات»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾، وفي «سورة الانفطار»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾، وفي «سورة المطففين»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾، وأيضًا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾، وفي «سورة الطارق»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾، وفي «سورة البلد»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾، وفي

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣/ ٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٣)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٢٠٤- ٢٠٥)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٥)، و«عمدة القاري» (١١/ ١٣٠)، و«إرشاد الساري» (٣/ ٤٣٠).

«سورة القدر»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾، وفي «سورة القارعة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾، وأيضًا: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾، وفي «سورة الهمزة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ فكلها أخبره عنها، إلا ما في «سورة الحاقة».

أما ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فقد جاءت ثلاث مرات: في «سورة الأحزاب»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾، وفي «سورة الشورى»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧﴾، وفي «سورة عبس»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، فلم يخبره فيها صراحة، إلا أنه في الثالثة قد يكون أخبره؛ لأنه قال: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، فهو وإن لم يصرِّح هل هو تزكَّى أم لا، إِلَّا أن «لعل» من الله تعالى للتحقيق[1].

والمقصود التعظيم والتهويل، وتوجيه الإنسان إلى أن يسأل: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لأن لغة البشر عادةً تقف عاجزة، وتقصر عن التعبير عن بعض المعاني التي لا نظير لها فيما يرى ويشاهد ويلمس، فالناس يعرفون أشياء؛ لأنهم رأوها بأعينهم، أو بمقايستها بشبيهاتها، أو بالشهود الذين يصفونها، لكن أمر ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ شيء عظيم، فما رَأَوْهُ ولا رَأَوْا مثله، ولا رآه أحد من الناس فيصفه لهم، فإنه من أمر الغيب، وهو أمر بالغ في الهول مبلغًا لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: لا تدري ولا أحدٌ يدري[2].

وعادةً ما يرد بعد هذه الصيغة ما يشبه الجواب الذي يزيد الأمر مهابةً وعظمة.

أما إذا جاء اللفظ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ بصيغة المضارع، فإن الأمر يختلف، وقد يدل على نفي العلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ٣]، أي:

---

(١) باختصار من تتمة «أضواء البيان» (٨/ ٤٩١- ٤٩٢)، وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٤٤)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٥- ٢٥٦)، و«الإتقان» (٢/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٤).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٦٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٣).

لست تدري(١)، وعادةً تكون متضمِّنة لإثبات جواب، مثل قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]، ففيه إشارة إلى أن الساعة قريبة.

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾:

و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ هي ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾، لكنه ذكر لها اسمًا آخر؛ زيادة في تهويلها، وملء العقول والأسماع والقلوب بهولها، فلم يقل: «كذَّبت ثمودُ وعادٌ بها»، ولم يقل: بـ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾؛ لأن التكرار إذا زاد على ثلاث فهو غير مستساغ في لغة العرب؛ ولهذا نوَّع سبحانه في اللفظ، فجاء باسم جديد يكشف عن صفة من صفاتها الرَّعيبة، وهو القرع، أي: الضرب بشدة على الأسماع والقلوب(٢).

وذكر الله ثمودَ وعادًا؛ لأنها قبائل من العرب العاربة الذين كانوا ثم بادوا، وهم معروفون بمساكنهم القريبة نسبيًّا من مكة في جزيرة العرب، وقد كان العرب يمرون على مساكنهم، فيشاهدون آثارهم القائمة، ولم تغن عنهم قوة أجسامهم وعمارتهم حين جاءهم العذاب، وفي ذلك العبرة والعظة لغيرهم.

وفي ذلك تنبيه لقريش أنكم لستم أكثر منهم عددًا ولا أقوى منهم، فهم ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩].

وفيه تسلية للنبي ﷺ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤]، فإن آمنوا وإلا فإن العقاب ينتظرهم.

* ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

وديار ثمود تقع في الحِجْر، شمال الجزيرة العربية، وهم قوم صالح، وما زالت آثارهم موجودة على الطريق بين الحجاز والشام، وكانت قريش يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام، ومر بها النبيُّ ﷺ في طريقه إلى تبوك(٣)، وقد كانوا أشداء أقوياء: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢]، فذكر الله هنا أنهم

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة عبس».

(٢) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٧٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٩٢)، و«روح البيان» (١٠/ ٤٩٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٧٨، ٣٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٠).



أُهلكوا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى جريمتهم، وهي الطغيان، والجزاء من جنس العمل؛ فلأنهم طغوا وكفروا وكذَّبوا نبيَّهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧]، وفي هذا التحدِّي طغيان ظاهر، فكان عقابهم بـ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ التي قضت عليهم وأهلكتهم عن بَكْرة أبيهم، وترك الله تعالى بيوتهم وآثارهم عِبْرة تدل عليهم.

وفي عذابهم أقوال أخرى[١].

* ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦﴾:

﴿وَأَمَّا﴾ للتقسيم والتنويع، و﴿عَادٌ﴾ كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية[٢]، وقد كانت العرب تسمع أخبارهم، وترى آثارهم، وآثار قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

والريح الصَّرْصَر العاتية: الريح الشديدة، التي لا تذر شيئًا أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم، و﴿صَرْصَرٍ﴾ **تحتمل عدة معان**:

أنها التي تَصِرُّ، فيُسمع لها صوت، والرياح إذا عصفت بالأبواب والنوافذ يكون لها صوت مخيف وصفير مرعب.

أو أنها الريح الباردة، زيادة على شدتها التي تحدث صوتًا[٣]، واجتماع هاتين الصفتين يجعلها أكثر شدة وقسوة؛ ولذلك كانت العرب تقول: «الريح الصِّر تهلك الحرث والنَّسْل»، كما قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وكان العربي[٤] يقول لغلامه:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٧- ٢٠٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٦٠- ٧٦٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٣)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٠٤)، و«في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٦٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩﴾.

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قرٌّ والرِّيحُ يا واقدُ ريحٌ صِرٌّ
علَّ يرى نارَك مَن يمرُّ إنْ جلَبَتْ ضيفًا فأنت حُرُّ

ووصفها بكونها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: بالغة في الشدة مبلغها[1]، وهو مناسب لحال القول، فإنهم عَتَوْا عن أمر ربهم، فعُذِّبوا بالريح العاتية.

* ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾: الأصل أن الرِّياح مسخَّرات للناس، ومبشِّرات بالخير والمطر، وفي القرآن مواضع كثيرة يذكر الله تعالى فيها هذا المعنى، لكنه هنا ذكر الرِّيح بالإفراد، وهذا دليل على أنها عَقِيم، كما في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: ٤١]، ليست رياحًا يهدِّئُ بعضها بعضًا ويعزِّز بعضها بعضًا، وإنما هي ريح واحدة، وقد رُوي أن النبيَّ ﷺ كان إذا عصفت الريحُ يقول: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا**». ولا يصح[2]، ولكنه ظاهر في لغة القرآن، فالقرآن يذكر ﴿ٱلرِّيحُ﴾ للعذاب، ويذكر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ في الغالب للرحمة، كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٤٦﴾ [الروم: ٤٦]، فهي بمجموعها مسخَّرة للبشر في الزرع والحرث والمطر والإنبات والتلقيح والتبشير، وأما الريح الواحدة فمسخَّرة للهلاك.

والتعبير بالتسخير فيه سُخرية، مثل التعبير بالتبشير بالعذاب، وبدل أن تكون مسخَّرة لهم صارت مسخَّرة عليهم.

﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾: وهنا تحديد مدة العذاب، ومعناه أن الريح بدأت في الصباح وانتهت في الليل؛ ولذلك صارت الأيام أكثر من الليالي.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٢١٧).

وأما قوله تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ فهو استعمال قرآني ليس مشهورًا عند العرب، **ومعناه:** أنها متصلة متتابعة غير منقطعة[١]، ومما يعرفه الناس أنه قد تعصف الرياح ثم تسكن ثم تعصف، لكن الأمر بالنسبة لهؤلاء كان متصلًا دون انقطاع أو هدوء أو توقف.

وقد رأينا آثار الدمار المرعب الذي خلَّفه إعصارات كثيرة، مع أنهم كانوا يرصدون حركته ويقدِّرون سرعته، فلم يستطيعوا له دفعًا ولا تحويلًا، وليست هذه الأعاصير في شدتها كالريح التي سُلِّطت على القوم المذكورين.

ومن معناه: أنها قاضية، **والحَسْم:** القضاء، ومنه تسمية السيف بالحُسام؛ لأنه يقطع[٢]، فالريح أبادتهم واستأصلتهم، ولم تستثن منهم أحدًا؛ ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾، وقد يكون الضمير عائدًا إلى أرضهم، أو يكون المقصود في هذه الحادثة العظيمة: فترى القومَ فيها صرعى مجندلين على الأرض.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: وفي «سورة القمر»: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾، وتقدَّم أن كل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[٣].

فقد شبَّههم بالنخل التي اجْتُثت من فوق الأرض، **والعَجُز:** نهاية الشيء[٤]،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٧)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٩)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (١/ ٥٣٤)، و«الصحاح» (٥/ ١٨٩٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٣٥) «ح س م».

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة القمر».

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٨)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «العين» (١/ ٢١٥)، و«لسان العرب» (٥/ ٣٧٠) «ع ج ز».

وهو تشبيه مبتكر مرعب، وأصبح الشعراء يستعيرونه في الحوادث العظيمة، ومنه قول يحيى البَرْمَكي للرَّشِيد[1]:

إن البَـرَامكـةَ الذيـ ... ـن رُمُـوا لديك بداهيهْ
صُفْرُ الوجوه عليهمُ ... خِلَعُ المَذَّلة باديهْ
فكأنهم مما بهم ... أعجازُ نخل خاويهْ

فأصبح مثلًا يُضرب، وسبحان الله! كم في ذكر الأعجاز من الإعجاز؛ لأنه أشار إلى اقتلاع النخل من جذوره، وهذا قلَّما يحدث؛ فإن النخلة قد تنكسر في الريح العاصف أو تميل، لكنها لا تنقلع؛ لتجذرها في الأرض، وهذا الأخذ الشديد يذكِّرنا بقول الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿خَاوِيَةٍ﴾[2]، **والأقرب** أنها: مقطوعة الرأس، وإذا كانت أصولها قد قُلعت، فأولى أن تكون رؤوسها قد تحطَّمت وقُطِّعت، فأصبحت جذوعًا مجتثة من فوق الأرض خاوية من رؤوسها.

وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء القوم لا ثمرة ولا بركة فيهم، وقد شبَّههم الله بأعجاز النخل الخاوية التي ليس فيها ثمر ولا عُسُب ولا شيء يُنتفع به.

ووجه الشبه بينهم وبين أعجاز النخل الخاوية الطول والثقل، من حيث الشكل وقلة النفع، فهم كانوا مقطوعي الخير والنفع.

* ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

هذا خطاب لغير معيَّن، ممن قرأ؛ ليعتبر وليتذكَّر جزاء مَن طغى وعصى، والعرب كانوا يعرفون ذلك، وفي هذا تلويح لهم وتهديد بالعقاب الإلهي.

---

(١) ينظر: «العقد الفريد» (٥/ ٣٢٧)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢٢/ ١٤٥)، و«سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (٣/ ٤١١).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٧- ١٦٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٥)، و «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤)، والمصادر السابقة والآتية.



إنه عذاب استئصال جاء عليهم عن آخرهم، ولم يترك مُخْبِرًا عنهم.

* ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾:

ذكر مختصر لـ﴿فِرْعَوْنُ﴾ وقومه، وقصته مفصَّلة في القرآن، وقبل فرعون أمم كثيرة؛ منها: أمة نوح، وإبراهيم، ولوط، وشُعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقوم عاد، وثمود.

وأما المؤتفكات: فهي التي جاءت بالإفك، وهو: الكذب أو الإجرام[1]، **والأقرب** أن المقصود قوم لوط، فقد ذكرهم الله تعالى في غير موضع بهذا[2].

وهم ثلاث قرى، **وقيل:** أربعون قرية في بلاد الشام، وكانوا يأتون الذكران من العالمين، وجريمتهم الكبرى تكذيب رسالة الرسل، وإمعانهم في الشرك والكفر، فلما دعاهم نبيُّهم إلى الطهارة والتوحيد رفضوهما، بل اعتبروا الطهارة جريمة، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦]، أي: لا يصلح أن يجلس أناس يتطهَّرون بيننا، وهذا مسخ في الفطرة؛ لأن الفطرة البشرية السليمة تَأْبَى مثل هذا العمل.

وكان لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ [الحجر: ٧١]، أي: انكحوا النساء كما أمركم الله وأحل لكم وشرع، وليس المقصود بناته فقط، وإنما بنات القرية والقبيلة، بأن يتزوجوهن[3]، ولكن الله أخبر عنهم أنهم ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]، والسَّكْرة: نوع من الإدمان وانتكاس الفطرة، والافتتان بالمتعة العابرة الحرام، وتطلبها مهما كلَّف الأمر، واستحسانها ولو كانت قبيحة[4]؛ لأن الإدمان يفسد الذوق أو يلغيه، ومثل هذه كثير من الحالات الشاذة التي تجد التشجيع

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢١)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٩١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٧)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٩١)، و«الكشاف» (٢/ ٥٨٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٦٧).

والترغيب والقانون الذي يحميها، وفي العالم الغربي شُرِّعت قوانين تسوِّغ الشذوذ، وهذا من مسخ الفطرة والانتكاس.

* **والخاطئة**: الفعلة الشَّنِيعة من تكذيب الرسل وسبِّهم ورد دعوتهم، فتعود إلى ما فعله فرعون ومن قبله من الأمم، وما فعله قوم لوط؛ ولذا فسر الخاطئة بما بعدها من عصيانهم لرسول ربهم: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾:

و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو: الرسول المرسَل إلى كل قوم من هؤلاء، فإفراد ﴿رَسُولَ﴾ أي: رسول لكل جماعة منهم، والإفراد هنا أجمل نظمًا من أن يقال: «فعَصَوْا رُسُلَ ربهم»، لما في إفراد ﴿رَسُولَ﴾ من التفنن في صيغ الكَلِم من جمع وإفراد؛ تفاديًا من تتابع ثلاثة جموع؛ لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل؛ لقلة استعمالها، فأن يأتي بجمع ثم مفرد ثم جمع أجمل في السياق(1).

وفي ذلك إشارة إلى أن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كأنهم رسولٌ واحد؛ لأنهم جاؤوا برسالة واحدة في حقيقتها؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «**الأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّات**(2)، **أمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»(3). فأصل الدين هو التوحيد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وكل الرسل بُعثوا بدين واحد، وهو التوحيد: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: 32]، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠﴾ [الشعراء: 160]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ [الشعراء: 141]، ولم يُبعث فيهم إلا رسولٌ واحد، ولما كذَّبوه صاروا في حكم من كذَّب الرسلَ جميعًا.

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: مرتفعة شديدة قوية، لا يحتاجون بعدها إلى غيرها(4).

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 121- 122).

(2) **أولاد العلاَّت**: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 119).

(3) أخرجه البخاري (3443)، ومسلم (2365) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 422)، و«تفسير الطبري» (23/ 218)، و«تفسير الماوردي» (6/ 79)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210)، و«التحرير والتنوير» (29/ 122).

* ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾:

﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾: ارتفع وزاد[1]، **والمقصود** هنا: الطوفان الذي أغرق قوم نوح، وقد يكون عمَّ الأرض كلها؛ ولهذا امتن الله تعالى على الناس الموجودين في زمن النبي ﷺ بأنهم نَجَوْا زمن الطوفان، فهم ومَن بعدهم من ذرية مَن كانوا محمولين في الجارية- وهي السفينة- مع نوح، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، أي: من ذرياتهم، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم.

وعلى هذا فالناس الذين عاشوا على الأرض وامتدوا فيها هم من ذرية نوح، وممن حمل الله تعالى مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

والتعبير بالحَمْل يذكِّر بحمل المرأة بجنينها، وكأن البشرية وُلدت من جديد بعد عصر آدم، وسَلِمت من الانقراض، والتعبير بلفظ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يعزِّز هذا؛ فإن لفظ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يُطلق على الأنثى.

* ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: القصة التي سقناها لكم تذكرة وعبرة.

فمن الاعتبار: الاعتبار بقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والاعتبار بآيات الله تعالى في الكون وفي النفس، والاعتبار بالتجارب والدروس التي تقع للإنسان أو لغيره؛ ولذا فعمر الإنسان لا يقتصر على السنوات التي عاشها فحسب، وإنما يمتد سنين طويلة مضت أخبره الله عنها خبر الصدق، وسنين طويلة قادمة في الدنيا ثم في الآخرة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾: وفعل: تَعِي، واسم الفاعل: واعٍ، و﴿وَٰعِيَةٌ﴾ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع، وهو اليوم من أكثر الأفعال استخدامًا في الدعوة إلى الفهم والإدراك والاعتبار من جهة، وفي الدعوة إلى الفعل والتصرف الملتزم

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠).

بالمنهج الشرعي الحق من جهة أخرى.

وكلا الأمرين مراد في الآية:

- فهم قصص السابقين وأسباب هلاكهم.

- الاعتبار بذلك، بفعل الخير المفضي إلى البقاء والمجد والعز، وتجنب ما يؤول إلى الشر والفساد والهلاك.

وعبَّر بالأُذُن؛ حفاوةً بالسماع، وتأكيدًا على الاهتمام بالوعي الذي يبدأ من الأُذُن، ولأن المرء إن غفل عن سماع الحكمة والعبرة، فهو عن تدبرها أغفل؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [ق: ٣٧]، ولأن المقام مقام حديث عن قصص السابقين، ولا سبيل إلى إدراكه ومعرفته إلا بالسماع.

وقوله: ﴿وَاعِيَةٌ﴾ أي: صاحبة وعي وإدراك وفهم[١]، وفي ذلك إشارة إلى العقول؛ لأن الأُذُن لا تَعِي بذاتها، فالأُذُن هي مجرى للصوت أو السمع، ولكن الوعي هنا هو لمدرك الحس، وهو العقل والفهم والفؤاد.

وفي ذلك دليل على عظيم نعمة الحواس والعقل، وأن من تقدير هذه النعمة الانتفاع بها، وقد حثَّ الإسلام على العقل والتفكر والتدبر والنظر والاعتبار.

* ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣﴾:

لم يبيِّن مَن الذي نفخ، ولا ما هو ﴿ٱلصُّورِ﴾؛ لأن المقصود وقوع النفخة، والناس غالبًا ما يسألون أسئلة تفصيلية لا تنفعهم كثيرًا، ويغفلون عن المعنى والأثر والاعتبار.

و﴿ٱلصُّورِ﴾ في لغة العرب هو: القَرْن[٢]، لكنه ليس كالقَرْن الذي نعرفه في الحيوانات، بل هو شيء غيبي، لا تحيط به عقول البشر.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٢).

(٢) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٤١٦)، و«تاج العروس» (١٢/ ٣٦٢) «ص و ر».

والنفخات في القرآن ثلاث:

النفخة الأولى: نفخة الفَزَع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

النفخة الثانية: نفخة الصَّعْق: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، فالناس كلهم يصعقون ويموتون.

والنفخة الثالثة: نفخة البعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيل: هما نفختان، والذي ينفخ هو: إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

وبعضهم يقول: ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع: صورة، أي: في صور الناس، وهذا من نتيجة النفخ في الصور، فإنه إذا نفخ في الصور المرة الأولى خرب الكون كله وتهدَّم بإذن خالقه ومنشئه[٢].

وأما النفخة الثانية، فهي التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، وتذهب كلُّ روح إلى جسدها وصورتها.

وهنا تساؤل: كيف نجمع بين الآيات التي تدل على حصول نفختين أو ثلاث، وبين هذه الآية التي تنص على ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؟

والجواب: ليس المقصود أنه لا يكون بعدها نفخة أخرى، إذ إن الأمر لا يستدعي أكثر من نفخة لتحقيق المراد، فالواحدة تكفي لهذا، فإذا نفخ في الصور حصل الدمار الذي يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي واحدة في وقتها لا تحتاج إلى تكرار، وفيه إشارة إلى ضخامتها وعظمتها وهولها[٣].

والنفخة الثانية هي أيضًا نفخة واحدة يقوم فيها الناس لرب العالمين، والأمر لا يتطلب التكرار.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٣٩)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٧٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠١)، و«روح البيان» (١٠/ ١٣٧).

* ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤﴾:

والإخبار هنا بدكِّ الأرض يوافق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: ١٤]، وما جاء في «سورة القارعة» من وصف الجبال يوم القيامة بأنها ستكون ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾، وكذلك مما يترتب على دَكِّ الجبال بسطها، فتصبح كما قال سبحانه: ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦﴾ [طه: ١٠٦]، وهذا من معاني الدَّكِّ؛ فإن العرب إذا قالوا: هذه الناقة دَكَّاء، أي: ليس لها سَنام، بل ظهرها مستوٍ[1].

ووصفها بأنها ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ يدل على أن ما جاء في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾، لا يعني التكرار، بل يعني التأكيد والقوة والشدة[2].

* ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥﴾:

أي: حدثت الحادثة الرهيبة، ذات الشأن المهيب، وما كان وعدًا في علم الغيب اليوم، هو واقع يُشاهد بالعيان ويُسمع بالآذان.

* ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾:

فهذه السماء المتينة القوية تنشق لهول ذلك اليوم العظيم، فالملائكة فيها نازلون صاعدون في المهمات الجسام والخَطْب الجَلَل.

﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي: ضعيفة رِخْوة[3]، ليست كعادتها.

* ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾:

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾: وليس المقصود مَلَكًا واحدًا، وإنما الملائكة كلهم أو جلّهم، فهو اسم جنس يشمل الجمع[4]، ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الكتابُ

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٣٢٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ١٥٠) «د ك ك».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٧٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٦)، والمصادر السابقة.

أكثر من الكتب»[1].

﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: قائمون على بقية أطراف السماء المتشققة، التي ما زالت باقية قائمة[2]، وهو جمع: رجا، أي: ناحية[3].

وقد يكون المقصود ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: على أرجاء الأرض وأرجاء الكون[4]، فحتى الملائكة في أمر عظيم، لا يتكلمون بسبب المشهد العظيم الرهيب.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾: وهنا موعد فصل القضاء، فيأتي الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، بما لا تحيط به العقول، ولا تدركه المدارك، ولا يعلم كيف هو سبحانه إلا هو، أما البشر فتأتي في عقولهم خيالات وتصورات وتهيؤات، و«كل ما خطر في بالك، فالله ليس كذلك»، فكل خيال يعرض فهو مجافٍ للحقيقة، ولا سبيل إليه لمعرفتها؛ لأن شأن الله أعظم من أن يحيط به عقل أو يلحقه خيال.

والعرش ورد ذكره في القرآن الكريم نحو عشرين مرة؛ منها: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

ووُصف بأنه «كريم»، و«عظيم»، و«مجيد»، فهو من الخلق الغيبي الذي لا يقدر قدره إلا الله، ولا تحيط به الظنون، ولا تبلغه الأوهام.

والعرش هنا ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾، يعني فوق الثمانية الذين يحملونه، وفوق الملائكة الذين هم على أرجائها، وفوق أهل الموقِف والمحشر كلهم، فالله تعالى أعلى من

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ١٤٩)، و«الكشاف» (١/ ٣٣١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٢/ ٧٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٧٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٤٦) «ر ج ا»، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٥).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٥٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٦)، والمصادر السابقة.

كل علي، وأعظم من كل عظيم.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: من الملائكة، والله أعلم بصفة كل مَلَك، وفي الحديث: «**أُذِنَ لي أن أحدِّث عن مَلَك من ملائكَة الله من حملة العرش: إِنَّ ما بين شَحْمة أُذُنِهِ إلى عاتِقِهِ مسيرةُ سَبعمائة عامٍ**»(١).

وقوله: «**سَبعمائة عامٍ**» هل هي سبعمائة عام من الأعوام التي نعرفها، أو من الأعوام التي عند الله؟ الله أعلم.

وقد يكونون ثمانية أصناف من الملائكة، أو صفوف، أو طبقات، أو ما شاء الله، كما قال الحسن البصري: «ما أدري: أثمانية أشخاص، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية صفوف، أو ثمانية عشرات، أو ما شاء الله»(٢). فالله أعلم.

وقد جاء من شعر عبد الله بن رَواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣):

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ ... وأنَّ النارَ مثوى الكافرينا

وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرش ربُّ العالَمينا

وتحملُهُ ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإلهِ مُسوِّمينا

وهذا من كلام ابن رَواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس فيه نص نبوي، ولا نص قرآني، والله غني عن خلقه، وغني عن العرش، ولكن هذا مما بيَّنه الله تعالى في كتابه، فنؤمن به كما بيَّنه، ونقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولا نشبِّه الله تعالى بشيء من خلقه، وكل هذه المشاهد الرهيبة المتتالية المقصود بها تحريك قلب الإنسان للتذكر، فينبغي أَلَّا يشتغل عنها بتتبع الإسرائيليات وغرائب المرويات في شأن ذلك وتفصيلاته.

* وأولى من الجدل الطويل حول غيب رمزت له هذه الآيات أن يتساءل القارئ: لماذا هذا العرش يُوضع؟ ومَن المقصود؟ مَن القاضي؟ ومَن المحاكَم؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٤٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥١).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٦).

(٣) ينظر: «تاريخ دمشق» (٢٨/ ١١٢- ١١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٨).

ومَن الشهود؟ وما النتيجة المحتملة لهذه المحكمة العادلة؟ وهذا ما وجهت إليه الآيات بعدها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾:

والخطاب للثقلين، يُعرضون على ربهم سبحانه، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾؛ لأن الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، فكما لا تخفى عليه منكم في الدنيا خافية، فكذلك في الآخرة[١].

ومن معاني الآية: أن ما كانوا يخفونه في الدنيا يظهره الله تعالى يوم القيامة، عيانًا أو كالعيان، كما قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾[٢] [غافر: ١٦].

وهنا صار الخطاب لهم جميعًا؛ لأنهم المقصودون بهذا الموقِف، والمجموعون للحساب، بخلاف الآية قبلها المتعلِّقة بذكر العرش وحملته، حيث كان المخاطَب فيها الرسولُ ﷺ، على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩﴾:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: بيده اليمنى، واليمنى هي علامة اليُمْن والبركة والفَأْل، والأمر على ظاهره أن المؤمنين يأخذون كتاب أعمالهم بأيديهم اليمين[٣].

﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾: ﴿هَاؤُمُ﴾ تنبيه للتأكيد، أي: خذوا! انظروا! اقرؤوا كتابي[٤]، يقولها لمَن حوله، وحُقَّ له ذلك؛ لأنه الفوز الأبدي.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٢).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٩)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٩٥٢)، والمصادر السابقة.

وينسى أن كل أحد مشغول بنفسه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٧]، وأن المرء يفر من أقرب قريب، ففرحته أنسته ذلك كله، فهو يعرض لهم كتاب نجاحه وفوزه، ويطلب إليهم قراءته، قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، غير جاحد رحمة الله وفضله.

* ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾:

أي: أيقنت، **والظَّن** يُطلق أحيانًا على اليقين[1].

وقوله هذا قد يكون استذكارًا لإيمانه الذي هو سبب نجاته، كما في موضع آخر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٦- ٢٧]، وهو بيان حسن؛ لأن تأهلهم لرحمة الله كان بسبب أعمال صالحة قدَّموها، ويعزِّزه قوله تعالى هنا: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ۝٢٤﴾.

* ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١﴾:

أي: مرضية[2]، ولكن العيشة نفسها راضية، فهي راضية بصاحبها، وصاحبها راض بها، وكأن الرضا انتقل من الشخص نفسه إلى العيشة، والإنسان حين يكون مرفَّهًا في سكنه ووظيفته وصحته وزوجته وأولاده وأموره كلها، يقول: حياتي راضية، أي: في رضا.

* ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢﴾:

عالية ذاتًا ومكانًا، فهي عالية الصفات والقدر، وفي مكانٍ عالٍ، وهذا من علو أصحابها[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣١)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤﴾.

وينظر أيضًا: «العين» (٨/ ١٥٢) «ظ ن»، و«التصاريف لتفسير القرآن» (ص٢٦٢).

(٢) ينظر: «العين» (١/ ١٣٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٥٥)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٢٧١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٣).

* ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾:

فمع أنها عالية، إلا أن قطوفها دانية، أي: قريبة المأخذ، مذلَّلة للآكلين[1].

والقَطْف هو ما يطيب من الثمر[2]، فإذا أراد قطفه دنا منه، وأطيب ما يكون المأكل حين يكون الآكل هو الذي اختاره في شجرته، ثم قطفه بيده.

* ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾:

وهذا أمر تكريم؛ لأن الآخرة ليس فيها تكليف.

وهنا تلحظ انتقال الخطاب من المفرد إلى الجمع، فقد كان السياق حديثًا بضمير الفرد، وهنا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، وكأن كل واحد منهم كان يضيَّف ضيافة خاصة، ويرحَّب به ترحيبًا خاصًّا، والأمر لا يتعلق بفرد بعينه، بل بكل ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾[3].

والهنيء: الطيِّب الذي لا يخالطه هم ولا غم ولا كَدَر ولا مرض، بخلاف مأكولات الدنيا، فمهما طاب الطعام في الدنيا، فإن التُّخَمة تفسد البطن، وأغلب العلل والأمراض من البطن[4].

والحكم الإلهي لهم بالهناءة بما أسلفوا، هو إشادة بعملهم، ولا شك أنهم دخلوا الجنة برحمة الله، كما قال ﷺ: «**لن يُدخلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ منه بفضل ورحمة**»[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٧٤)، و«الموسوعة القرآنية» (٨/ ٦١٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٦، ٢٨١٨) من حديث أبي هريرة وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ولكن أعمالهم جعلتهم أهلًا لهذه الرحمة؛ فرحمة الله قريب من المحسنين، وفي ذلك تذكير بالعمل، وأن أهل الجنة دخلوها بسبب أعمالهم، وأهل النار دخلوها بسبب أعمالهم.

فأهل الجنة ذهب عنهم التعب والعناء والجهد، وثبت الأجر، وأهل النار ذهبت عنهم اللذة، وبقي الإثم:

إنَّ أحلى عيشةٍ قضيتها ذهبتْ لذاتُها والإثمُ حَلْ[1]

و﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ تُقال في الدنيا على سبيل الدعاء والتمنِّي والتكريم[2]، لكنها في الجنة تُسمع من الملائكة المقرَّبين الموكَّلين، ومن الولدان، وغيرهم، وهي حكم قاطع من رب العالمين أنهم أفضوا إلى الدار التي لا يمرض أهلها ولا يموتون، ولا تتكدَّر نفسياتهم أو يحزنون، ولا يملون.

* ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: ١٠]، وهذا يحتمل أن بعض أهل النار يأخذ كتابه بشماله، وبعضهم يأخذه من وراء ظهره، والمعنى الآخر- وهو الأقوى- أن يجمع بين الآيتين، فيقال: يأخذ الواحد منهم كتابه بشماله من وراء ظهره[3].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: فهذا من شؤم عمله الخبيث، وعلامة خيبته وخسرانه، فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾: ليتني لم آخذ هذا الكتاب؛ لأنه يشعر بالعار والخزي والخسارة والهوان من حمله لكتاب الفضائح والقبائح حين تبين الأمور وينكشف المستور.

* ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾:

يا ليتني لم أعرف هذا الحساب ولم أُخلق، وليت الموت كان القاضي عليَّ

---

(١) ينظر: «عون الأطفال شرح لامية ابن الوردي» (ص١٤).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٦) «هـ ن أ».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٧٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٩)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٧٨).

ولم أُبعث، يا ليتني كنتُ ترابًا مدفونًا في التراب[1].

فلا يطمع في مصير المؤمنين ولا يحلم به: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، هو يتمنى الخلاص فحسب، أو أن يكون حجرًا أو شجرًا أو عدمًا.

* ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨)﴾:

لقد كان ذا مال في الدنيا، ولكن ماله لم يغن عنه شيئًا، بل هو من أسباب إخفاقه واغتراره، وغالب أتباع الأنبياء من الضعفاء والفقراء.

* ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾:

فقد كان ذا سلطان ورياسة، وجاه ومنصب، لكنها لم تنفعه، ولم يبق منها إلا خبر يتذكره في الموقف الصعب بحسرة وندم.

ومن معاني السلطان: الحجة[2]، فيكون المعنى: ذهبت عني حجتي، فلا حجة لي الآن ولا عذر[3]، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات: ٣٥- ٣٦].

* ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾:

وهذا أمر إلهي، ينفَّذ فورًا دون إبطاء ولا تأخير، وهو موجَّه لملائكة ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦].

ولعله كان يومًا يضع الأغلال في أطراف الضعفاء ويعذِّبهم ويستعلي عليهم، وربما كانت هذه اليد مُنعَّمة محلَّاة بالأساور الثمينة!

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٩٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٠).

وغلُّوه أي: ضعوه في الأغلال، فيُغل من يديه ورجليه[1].

* ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾:

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: أدنى دَرَكات النار[2]، أي: ضعوه فيها يصلاها بكل ذرة منه، ولعله كان لا يُطيق حر الشمس، ولا يحتمل لسعة الرَّمْضاء.

* ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾:

إنها سلسلة مرعبة محدَّدة الطول، ذرعها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، بذراع لا يعلمه إلا الله، فليس بذراعي ولا ذراعك، ويقال: بذراع المَلَك[3]، وقد يكون العدد هنا غير مقصود، وإنما كان تعبيرًا عن الكثرة، كما في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وكثيرًا ما يعبَّر عن الكثرة بعدد السبعين[4].

والأقرب أن العدد هاهنا مقصود؛ لأنه جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، وفي سياق الوصف، والله أعلم.

والمقصود الاعتبار، فالكافر يُسلك في هذه السلسلة، حتى تحيط به من كل جانب، فلا مطمع له من الخلاص منها؛ لأنه قيَّد نفسه بأغلال الشهوة، أو أغلال التبعية، أو أغلال الهوى، أو أغلال التقليد، أو أغلال المال والسلطان، وغفل عن ربه، فكان الجزاء من جنس العمل.

وذِكْر السلسلة يدعو إلى التيقظ لسلاسل الذنوب التي يمسك بعضها بنواحي بعض، حتى تحيط بالعبد: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٧)، و«التيسير في أحاديث التفسير» (٦/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٨٢)، و«فتح القدير» (١/ ٦١١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٥٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٨).

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وأكثر ما يرهق الناس في الضلال والخطأ، هو تلك الحلقات المتصلة من العادات السيئة بالذكريات الماضية التي يزينها الشيطان، والعلاقات التي يصعب الانفكاك منها.

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾:

إشارة إلى عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعِظَم جُرم الكفر بالله[1].

وذلك في مقابل المؤمن الذي قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

* ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾:

وتأمل كيف قرن الله بين تَرْك الإيمان بالله، وتَرْك إطعام المسكين.

ففي هذا تأكيد للمعاني الإنسانية لهذا الدين، وأن الإيمان من تجلياته وآثاره: الشفقة على الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل والأيامى والمعدومين، وليس احتقارهم أو ازدراؤهم أو نهب حقوقهم.

وما يقع اليوم في بلاد المسلمين من سلب للحقوق، واعتداء على أموال الضعفاء وأعراضهم وابتزازهم، فإنه مناف لتعاليم الدين، وغريب حال هذه الأمة تخالف تعاليم دينها، في حين تجد أن أُممًا أخرى تعظِّم حرمات الناس وتحمي حقوقهم، ليس بتأثير شريعة سماوية كشريعة الإسلام، بل بثقافة إنسانية وتجربة ميدانية.

وما نرى هذه المخالفات في بلاد الإسلام لآدابه وحرماته، إلّا شرًّا مؤذنًا بخطر عظيم، يوجب على كل عالم وداعية وخطيب ومُصلح أن يعظِّم من شأن هذه الحرمات في أعين الناس، كما يدعو الناسَ إلى الإيمان بالله العظيم، وإلا فإن الخطر داهم، والبوار قادم.

وقد ورد أنه لما رجعت مُهاجرَةُ الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا تحدِّثُوني بأعجبِ ما رأيتم بأرضِ الحبشة؟**». فقال فتيةٌ منهم: يا رسولَ الله، بينا نحن جلوسٌ،

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ٣٧٠).

مَرَّت علينا عجوزٌ من عجائزِهم، تحملُ على رأسها قُلَّةً من ماء، فمرَّت بفتىً منهم، فجعلَ إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتُها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: ستعلمُ يا غُدَرُ[1]، إذا وضعَ اللهُ الكرسيَّ، وجمعَ الأوَّلين والآخِرين، وتكلَّمَتِ الأيدي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، فسوف تعلمُ أمري وأمرَكَ عنده غدًا! فقال رسولُ الله ﷺ: «**صَدَقَتْ، ثم صَدَقَتْ، كيف يقدِّسُ الله قومًا لا يُؤْخَذُ لضعيفِهم مِن شديدِهم؟**»[2].

وقال: «**لا قُدِّسَتْ أمةٌ، لا يأخذُ الضعيفُ فيها حقَّه غيرَ مُتَعْتَعٍ**[3]»[4].

أي: غير متردِّد، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا رئيسًا، ولا ذا جاه، وإنما يأخذ حقه وهو مطمئن؛ لأن النظام يحميه والمجتمع يحميه.

والوعيد هنا هو على ترك الحضِّ على طعام المساكين، فقد بخل بماله وبخل بجاهه أو فصاحته وسماع الناس له، فلم يكن قدوة للآخرين في بذل المعروف، ولا محرِّكًا لهممهم في العطاء، وقد يعذر الرجل بعدم التصدق؛ لقلة ذات اليد، لكنه غير معذور في ترك الحض على طعام المسكين، وكذلك المجتمع بمؤسساته

---

(١) معدول عن: «غادر»؛ مبالغة في وصفه بالغدر.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠)، وأبو يعلى (٢٠٠٣)، وابن حبان (٥٠٥٨، ٥٠٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٤٩) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة» (٥٨٢)، والبزار (٤٤٦٤)، والبيهقي (٦/ ٩٥)، (١٠/ ٩٤)، وفي «الأسماء والصفات» (٨٦٠) نحوه من حديث بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أي: من غير أن يصيبه أذى أو يزعجه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢١٠٥)، وابن ماجه (٢٤٢٦)، وأبو يعلى (١٠٩١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٢٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٢٣٣) (٥٩١)، وفي «الأوسط» (٥٠٢٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٣١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٢٣٢) من حديث خَوْلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وله شواهد. ينظر: «المستدرك» (٣/ ٢٥٦)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٤/ ١٨٩٤- ١٨٩٧)، و«البدر المنير» (٩/ ٥٤١- ٥٤٥)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٣٨)، و«السلسلة الضعيفة» (١٤/ ٣٥٥- ٣٥٧) (٦٦٤٧).

وجمعياته ووسائل إعلامه، عليه السعي لإيصال الحقوق للفقراء والمساكين والمعوزين، وألا يعتبر هذا تفضلًا ولا منَّة، بل هو حق لهم على القادرين.

* ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾:

لأنه لم يقدِّم إيمانًا، ولم يقدِّم إحسانًا، فلا كان ممن آمن بالله، ولا كان ممن حضَّ على طعام المسكين، فكان جزاؤه ألَّا يجد اليوم صديقًا يقف معه أو يسانده.

* ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

لأنه كان لا يحض على طعام المسكين، فلن يجد هو طعامًا يشبعه إلا الغِسلين.

والغِسْلين: أحد أطعمة أهل النار، مثل الزَّقُّوم والضَّريع[1].

وقيل: هو: غُسالة أبدان أهل النار، أو هو: من شجر جهنم.

يقول قتادة: «هو شرُّ الطعام وأخبثه»[2].

والسياق يدل على خبثه من جهة أنه الطعام الوحيد لهم، ليس لهم طعام سواه، وكأنهم مضطرون إليه؛ لعدم وجود غيره، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٦- ٧]. فيجوز أن يكون الضَّريع والغِسْلين واحدًا[3]، **ويجوز أن يكون المعنى**: أنهم يقتصرون على هذا تارة وعلى هذا تارة، فهي أحوال لهم يتقلبون فيها، وكلها شرٌّ عليهم[4]، أو يكون هذا طعام طبقة، وذاك طعام طبقة أخرى[5].

* ومما يوحي بشدة قبحه ورداءته: قوله سبحانه: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾:

فهو طعام خاص بالخاطئين، لا يسيغه سواهم، ولا يتجرَّعه غيرهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٧)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٦٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٧).

(٤) ينظر: «الانتصار للقرآن» (٢/ ٥٩٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٢٢٢).

(٥) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٣).

وهذا كاف في تشنيعه وتبشيعه، وقال ابن زيد: «الغِسلين والزَّقُّوم لا يعلم أحدٌ ما هو»[1]. وهذا أجود من قول: إنه غُسالة أهل النار[2].

والخاطئ: المذنب، بعكس المخطئ الذي يفعل الشيء عن جهل[3].

* ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾:

قَسَم إلهي عظيم، قال بعض أهل العلم: هذا أعمُّ قَسَم في القرآن؛ لأنه سبحانه أقسم بكل شيء، فقال: ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾، والكون فيه المرئي وغير المرئي، وكذلك الغيب والشهادة[4].

وليس المرئي وغيره مقصورًا على المغيب، فثَمَّ في خلق الله العظيم مما حولنا ما تعجز العين عن إدراكه؛ لضآلة حجمه، وهو مع ذلك شديد الأهمية، حتى الذرات والجزئيات والنيترون والإلكترون والنانو.. تدخل في ذلك.

والعلم لا يزال يكتشف في الكون المحيط بنا عوالم هائلة لا نراها، فكيف بالأكوان كلها والمجرات والسماوات، فكيف بالآخرة، وبالملائكة والعوالم العليا.. فكيف بالجنة والنار.. وما يعلم الله ولا يعلم الناس؟!

إنه لقَسَم عظيم، وفيه تربية للعالم على التواضع، وترك الاستكبار، أو الغرور بالمعرفة، أو سرعة التكذيب بما لا يحيط به.

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾:

أي: هذا القرآن قول رسول كريم، إما النبي ﷺ، أو جبريل عَلَيۡهِ السَّلَامُ[5]، فسمَّاه:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٢٦)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٥٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٣/ ٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٧)، (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير الرازي» (١٨/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص١٧٥).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤١- ١٤٢).

رسولًا، وهو الرسول البشري محمد ﷺ الذي بلَّغه للناس، أو الرسول الملائكي وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، نزل به من رب العزة إلى النبي ﷺ، كما قال الله تعالى في السورة الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ١٩- ٢٢].

والأقرب أن ﴿رَسُولٍ﴾ هنا يشملهما معًا، على أن الله تعالى هو المتكلِّم بهذا القرآن على وجه الحقيقة، فالقرآن كلامه سبحانه، وإنما نسبه إلى الرسول لأنه بلَّغه، وليس في الأمر التباس؛ لأنه لما سماه رسولًا دل على أنه مرسَل بهذا الكلام المقدَّس، وليس منشِئًا أو مبتدعًا له من عند نفسه، وإلا لما كان رسولًا[1].

* ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: هو قول الله سبحانه، أوحى به إلى نبيه ﷺ، وليس كما تزعمون أن النبيَّ ﷺ تلقَّاه من شاعر، أو قاله من عند نفسه وهو شاعر، كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ﴾، كما قالت طائفة أخرى منكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

والمعنى- والله أعلم-: أنكم لا تؤمنون أصلًا، ولا تتذكَّرون، والعرب تقول: «قليل» للمبالغة في النفي، وأنه لا يوجد منه شيء أبدًا[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم أحيانًا يقع في قلوبهم بعض الإيمان، ولكنهم يقمعونه ويكبتونه؛ حفاظًا على أموالهم وأولادهم وسلطانهم ومصالحهم[3]، أو يكون المراد إقرارهم بالألوهية أحيانًا حين يُسألون: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله[4].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٧)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٦٦).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٨)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (١/ ١٩٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٤).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٤).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٥).

ونفى عن نبيه الشعر، كما قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وهم أدرى الناس بالشعر والشعراء، كما نفى عنه الكَهانة وسَجْعها وزَمْزَمَتها[1]، وهو ﷺ أبعد الناس منها، ولكنهم كانوا يقولون ذلك زجرًا للمغفَّلين عن التفكير في القرآن ودلالاته.

ولو تأملوا لوجدوا أن ما فيه من الأخبار والقَصَص والمواعظ والحِكَم والأسرار والوعد والوعيد والأحكام، ما لا يمكن معه وصفه بغير الوحي من الله العزيز العليم.

* ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

فهو من الله سبحانه، ليس من إنشاء هذا الرسول، ولا من جبريل، ولا من قول الشعراء ولا الكهان.

* ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: لو زاد هذا الرسول بعض القول والحديث ونسبه إلى الله تعالى[2]- وحاشاه ﷺ- ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، ويوحي الله هذا القرآن إلى النبي ﷺ بهذا التهديد، ولا يملك ﷺ وهو بمكة إلا أن يقرأه على الناس، ويحفِّظهم إياه، ويضرب بالحجة بين ظهورهم، مع أن التهديد موجَّه إليه هو، وهذا من عظمة القرآن وحفظه، وتكفَّل الله سبحانه بأن يقصم ظهر كل مَن ينسب إلى الله الكذب والزُّور، فمع محبة الله له واصطفائه واختياره، وعِلْم الله به سبحانه، يأتي هذا التهديد؛ إقامةً للحجة على المشركين بأن هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي موضع آخر توعَّد مَن يكتم شيئًا من وحيه، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥].

---

(١) زمزمة الكاهن: الكلام الخفي الذي لا يفهم. ينظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٢٠١) «ز م ز م».

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٨).

فهو إذًا مُبلِّغ، ليس عليه إلا البلاغ والبيان والدعوة والصبر حتى يحكم الله.

وهو دليل على عظمة القول على الله بغير علم، ووجوب التثبُّت والتحرِّي في الكلام في الديانة، وعدم التسرع أو الجزم إلا بحجة ظاهرة، ورحم الله الإمام مالك فإنه قلمَّا يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾[1] [الجاثية: ٣٢]، ولكن لا يقول: هذا حكم الله وهذا دين الله إلا في القطع الذي لا مِرية فيه ولا تردد، وما أكثر الجاهلين والمتقوِّلين!

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾: يجوز أن يكون المعنى- كما قال الحسن وغيره-: إن الله تعالى يأخذ منه بيده اليمنى، ثم يقطع رقبته[2]. والسيَّاف- أحيانًا- إذا أراد أن يضرب الإنسان بالسيف يأخذ بيده اليمنى، ثم يضربه من الأمام، أما لو أخذه بالشمال فربما ضربه من خلفه، فهذا أشد ما يكون من الأخذ.

ومن معاني قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة[3].

إذا ما رايَـةٌ رُفِـعَـت لِمَجدٍ ... تَلَقَّاهـا عَـرابَـةُ بِاليَميـنِ[4]

فقولهم: أخذ الشيء بيمينه، أي: بقوة، وليس بالضرورة أن يكون باليد اليمنى.

* ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿الْوَتِينَ﴾: عرق ممتد من القلب للرأس، وهو الذي يقطع من الذبيحة، فيسيل دمها فتموت[5]، والله سبحانه يقول هذا عن رسوله ومصطفاه، تأكيدًا على رسالته واختياره، وعلى صدقه وأمانته، فإن ربه أسرع له بكل خير، وأعطاه فأجزل، وكتب له الظهور والغلبة والنصر والفتح والعز.

---

(١) ينظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٤- ٦٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦٦).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٩٩٤)، و«مقاييس اللغة» (٦/ ١٥٨) منسوبًا إلى الشَّمَّاخ.

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٤٤١) «و ت ن».

وقد يحدث أن يدَّعي بعض الناس النبوة، ثم يمهلهم الله تعالى إلى أوان عقابهم، أو يعذِّبهم على يدي بعض أوليائه، كما حصل لمُسيلمة الكذَّاب والأسود العَنْسي، وأدعياء النبوة عبر التاريخ إلى زماننا هذا كثير، ولكن الله يفضحهم حتى لا يكادون يُعرفون، ولا يوجد لهم أتباع ولا شرائع، ولا تقوم لهم قائمة.

* ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

فلو فُرض أن تقوَّل على الله بعض الأقاويل؛ لفعل الله به هذا، ثم لا أحدٌ يحول بين الله تعالى وبينه أو يحميه أو يحجزه[1]، وهذه من أعظم دلائل النبوة، وقرآنية القرآن.

ومَن يريدون المجد والسؤدد وثناء الناس ينسبون الأشياء لأنفسهم، وقد يُخمِلون ذكر مَن أخذوا عنه؛ لئلا ينافسهم، أما أن يعلن الرسول ﷺ أنه ليس سوى مبلِّغ وناقل، وأنه ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يدري ما يُفعل به ولا بهم، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فإنها النبوة تتجلَّى في صدقها ووضوحها ونصاعتها، والحمد لله رب العالمين.

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

فحين أعرضتم عنه أنتم، ولم تتَّعظوا به وتتَّبعوه، فسوف يقيِّض الله له مَن هم جديرون بهذا الوصف من الأخيار الذين ربما ازدريتموهم واحتقرتموهم، ولكن الله فضَّلهم عليكم بتقواهم وصلاح قلوبهم[2].

* ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: أرسلنا هذا الرسول، وأنزلنا هذا القرآن، ونحن نعلم أن منكم مَن لن ينتفع بهذا الوحي، ولكن: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤٧).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤٨- ١٤٩).

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1] [الأنفال: ٤٢].

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

الحَسْرة: ما يتحسَّر عليه الإنسان بعد فوات الأوان، مأخوذة من: الحَسْر، فتقول: فلان حَسَر عن ثوبه، إذا رفع ثوبه قليلًا، أو حَسَر رداءه[2]، فهنا قال: «حَسْرة»؛ لأنهم يظهرون الألم بعد فوات الأوان:

نَـدِمَ البُغـاةُ ولاتَ سـاعةَ مَنْـدَمِ ... والبَغْـيُ مَرْتَـعُ مُبتغيـه وَخِيـمُ[3]

فهذا الكتاب المبين حَسْرة على الكفار في الدنيا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقاوموا حجته، ولا أن يردُّوه، وحَسْرة عليهم؛ لأن الله تعالى يكتب لأهله النصر والقوة والتمكين، رغم أنوف الكائدين، ثم هو حَسْرة عليهم في الآخرة؛ لأن الحجة قامت به عليهم[4].

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

وحقُّ اليقين: هو: العلم الصادق القاطع الذي لا شك فيه، وهو المقطوع به شرعًا بلا تردد ولا جدال، **والمقصود**: الوحي والقرآن.

أما عين اليقين فهي: المعاينة ورؤية الشيء الموعود حين يرى أهل الجنة الجنة وأهل النار النار عيانًا كفاحًا مواجهة[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٤)، و«مختار الصحاح» (ص٧٢)، و«تاج العروس» (١١/ ١١) «ح س ر».

(٣) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٣٧٧)، و«شرح الأشمونى لألفية ابن مالك» (١/ ٢٦٩)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٤/ ١٧٥) منسوبًا إلى غير واحد.

(٤) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٧٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير الرازي» (٤/ ١٨٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٤٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٠).

* ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾:

أي: سبِّحه بأسمائه الحسنى، ونزِّهه عما يقول الكافرون والظالمون، ووحِّده إذ جحده المشركون، واعترف بعظمته إذا نسبوا إليه الأنداد أو الصاحبة أو الأولاد.

ولمَّا نزلت هذه الآية قال ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». أي: قولوها في الركوع، تسبيحًا له وتنزيهًا، وإقرارًا بعظمته ومجده سبحانه، ولمَّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[1].

والركوع هو تحية الملوك والأكابر في الجاهلية، فيناسبه أن تقول: «سبحان ربي العظيم»، **والسجود** خضوع يذل فيه الإنسان جبهته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فناسب أن يقول: «سبحان ربي الأعلى»، فيناجي الأعلى فوق عرشه بالاعتراف له، والإيمان به، فيا أيها المؤمن الكريم، سبِّح باسم ربك العظيم تسبيح الحامد المؤمن المنتظر لثوابه الخائف من عقابه.

ooo

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾.

سُورَةُ المَعَارِجِ

❁ تسمية السورة:

أشهر أسمائها: «**سورة المعارج**»[1].

وتسمى بـ«**سورة** ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾»، كما في كتب السنن، والتفسير[2].

وقد تُختصر فيقال: «**سورة** ﴿سَأَلَ﴾»[3]؛ إذ ليس في القرآن الكريم من السور المفتتحة بفعل ﴿سَأَلَ﴾ إلا هي[4].

❁ **عدد آياتها:** أربع وأربعون آية[5].

❁ **وهي مكية** باتفاق أهل التفسير[6].

❁ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾:

ومعنى الآية: أن داعيًا دعا وسأل واستعجل العذاب الواقع.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٤٤)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٢).

(٣) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٥٥٦).

(٤) وذكرها أبو عمرو الداني في «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٣٥٤) باسم: «**سورة الواقع**».

(٥) وقيل: ثلاث وأربعون آية، وقد اختلفوا في قوله: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٣٥٤)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٦).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٨)، والمصادر السابقة.

والسؤال هنا يحتمل أنه سأل عن العذاب، والله تعالى لم يقل: «سأل سائلٌ عن العذاب»، وإنما قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ﴾، فهذا يدل على أن ﴿سَأَلَ﴾ ليست مجرد سؤال عفوي أو بريء، وإنما هو سؤال مقرون بالاستعجال والاستهزاء[1].

وقد ورد أن هذا السائل هو: النضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، وكان يقول: اللهمَّ إِنْ كان ما يقولُ محمدٌ هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارةً من السماء أوِ ائْتنا بعذاب أليم. فأنزل اللهُ هذه السورة[2].

وقد حكى الله تعالى عنهم هذا الاستعجال والاستفتاح في مواضع من القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

وهنا نلحظ التوافق في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾، وأما المؤمنون فهم ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، وقد افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، ثم بعد آيات قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، فأثنى على المؤمنين الذين يخافون ولا يستعجلون العذاب، ويعلمون أن العذاب عند الله، فيطلبون الإمهال والمغفرة.

ومن معاني ﴿سَأَلَ﴾: أنه دعاءٌ من السائل على نفسه بالعذاب، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقد كان الكفار كثيرًا ما يدعون على أنفسهم بالعذاب استهزاءً وسُخرية[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٦/ ٣١٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٦).

فهذا السائل سأل، بمعنى استفسر واستفهم، وقال: متى العذاب؟

ويقع أحيانًا أن يسأل أحدٌ أو يطلب العذاب على سبيل المباهلة، أن يعذِّب هو أو يعذِّب خصمُه؛ لشدة اعتقاده فيما يرى هو بصواب نفسه، أو لإظهار ذلك بقصد تثبيت الأتباع وعدم زعزعة ثقتهم به.

وليس المقصود أن النبيَّ ﷺ هو الذي سأل فاستعجل العذاب على المشركين، فهذا بعيد[1]؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يطلب إمهالهم وإنظارهم، وألَّا يُعاجَلوا، ولما عرض عليه المَلَكُ يوم العقبة أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبين، قال: «**بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَه لا يُشركُ به شيئًا**»[2]. وكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي، فإنهم لا يعلمونَ**»[3].

وأما ما ورد أن النبيَّ ﷺ لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسبعِ يُوسفَ**»[4]. أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدخان: ١٢]، فهذا ليس المقصود به العذاب، وإنما الشدة التي تضعفهم عن الصدِّ عن سبيل الله، وهذا هو الظاهر من السياق.

* ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾:

لقد سأل هذا السائل بالعذاب مستبعدًا مستعجلًا مستهزئًا، وفي الآية

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٤- ٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٩٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٤٨٨)، وابن حبان (٩٧٣)، والآجري في الشريعة (١٠٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٦٩٤، ٥٨٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧٦) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٧٢- ٣٧٣)، (٨/ ٥٠٨)، (١٢/ ٢٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٧٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٧٠٨٨)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾، و«سورة الشرح»: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾.

ذاتها جوابه الملائم لاستعجاله، فالعذاب آت لا محالة، وهو واقع في موعده المضروب، لا يقرِّبه استعجالهم ولا يؤخِّره، ولا يدفعه عنهم إلا تجنب أسبابه التي أساسها الكفر، إذ هو عذاب للكافرين، وهم المقصودون به، وقد يُصيب غيرَهم تبعًا، كما ورد عن النبي ﷺ لما سُئل: يا رسولَ الله، كيف يُخسفُ بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقُهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «**يُخسفُ بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثونَ على نياتهم**»(١).

وقد مضت سنة الله تعالى أنه إذا عذَّب قومًا أخذهم كلهم، فيردون موردًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، وقد يعم مَن ليس منهم تبعًا، فهذا أمر عام دلَّت النصوص عليه.

ثم هو ليس له دافع يدفعه عنهم، فإذا نزل فلا حيلة في دفعه ولا رفعه، كما عذَّب الله أقوامًا بالصَّيْحة أو الزلزال أو الطوفان، فإذا وقع فإنه لا يُرفع، وإن كان المقصود عذاب الآخرة فمن باب الأولى لا يدفعه أحدٌ عنهم إلا الله.

* ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾:

وكأنه يبيِّن لماذا لا يملك أحدٌ دفعه؛ لأنه من الله، ومَن ذا يرد عذاب الله؟ فالله هو الذي أرسله على الكافرين جزاءً وفاقًا.

و﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ جمع: مِعْرج، أو: مِعْراج(٢)، أي: ذو الرِّفعة والعُلو(٣).

وفيه تأكيد لعلو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، ولهذا كان من أسمائه: العلي(٤).

ومن معاني ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾: الطرق والمدارج التي تصعد بها الملائكة إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٣٢٢)، و«تاج العروس» (٦/ ٩٥) «ع ر ج».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«الإتقان» (٢/ ٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

(٤) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٠٨- ١٠٩)، و«مع الله» (ص١٦٣).

السماء[1]، كما في قصة المعراج، ووصفه سبحانه بهذا يؤكِّد أَلَّا مدفع لهذا العذاب، فذو المعارج هو صاحب السلطان الأعظم على خلقه وكونه، وصاحب العرش العظيم[2]، فكل ملوك الدنيا وجيوشهم وأجنادهم لا تنفع ولا تدفع عذاب الله في الدنيا، فضلًا عن الآخرة.

ومن باب آخر، فجنوده عظيمة، منها الملائكة التي لها طرق بين السماء والأرض، ولها القدرة التي منحها الله إياها في عذاب الكافرين في الدنيا، كما عذَّب قومَ لوط، وعذابهم في الآخرة، كما بيَّنه القرآن في مواضع.

* ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾:

والرُّوح المقصود به: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما خصَّه لشرف منزلته، كما قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾[3] [القدر: ٤].

وقد يجوز أن يشمل الرُّوح: أرواح بني آدم، فإن أرواحهم تصعد في النوم وعند قبض الرُّوح، على ما فصَّلته الأحاديث، كحديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الطويل[4]، وغيره، وخاصة أرواح المؤمنين[5].

وقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يجوز أن يكون المقصود مدة عروج الملائكة، أو مدة العذاب الواقع للكافرين في ذلك اليوم[6].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

(٤) كما في «مسند الطيالسي» (٧٨٩)، و«مسند أحمد» (١٨٦١٤)، و«سنن أبي داود» (٣٢١٢، ٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، و«المستدرك» (١/ ٣٧).

(٥) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢١).

(٦) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

وعلى المعنى الثاني أن العذاب إنما يكون في ذلك اليوم الطويل الذي هو يوم القيامة، فهي إشارة إلى أن الله تعالى لن يعذِّب هذه الأمة عذابًا عامًّا قبل ذلك اليوم، ولن يُسلِّط على هذه الأمة عذاب الاستئصال الذي سُلِّط على الأمم السابقة، كأمة نوح وهود وشُعيب وصالح وغيرهم من المكذِّبين الذين أرسل الله تعالى عليهم عذابًا أفناهم عن آخرهم.

وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**سألتُ ربي أن لا يُهلكَ أمتي بالسَّنة، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلكَ أمتي بالغرق، فأعطانيها**»[1]. فلما بُعث النبيُّ ﷺ أمنت أمته ذلك، وصار يأتيهم عذاب جزئي؛ ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾، وهذا شرف لمحمد ﷺ، فوجوده أمانٌ لأمم الأرض من العذاب التام المطبق، وهذا الأمان الأول، والأمان الثاني هو: الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[2] [الأنفال: ٣٣].

أما إذا كان المعنى أن عروج الملائكة والرُّوح إلى الله تعالى هو الذي يكون في ذلك اليوم، فيُشْكِل عليه أن عروجَهم يقع باستمرار، فالملائكة تصعد وتنزل في أمر الوحي، وفي أمر الموت والحياة، وفي شؤون كثيرة كلَّفهم الله بها، وأقدرهم عليها.

ويحتمل أن المقصود: كمال العروج في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس، فهو يختلف عما قبله.

وقد ورد أن الله تعالى يقول للناس في ذلك اليوم: «**إني قد أنصتُّ منذُ خلقتُكم إلى يومكم هذا، أسمعُ كلامكم، وأُبصرُ أعمالكم، فاليومَ أنصتوا إليَّ، فإنما هي صحفُكم تُقرأ عليكم وأعمالُكم، فمَن وجدَ خيرًا فليحمد اللهَ، ومَن وجدَ غيرَ ذلك**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩، ٢٨٩٠) من حديث ثوبان وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٥١)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨)، و«الدر المنثور» (٧/ ١٠٥).

فلا يلومنَّ غيرَ نفسه»[1]. فيسكت الناسُ ولا يتكلمون، قال الله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقد جاء أيضًا في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضبَ اليومَ غضبًا، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»[2]. فذلك يوم له ميزته وخاصته، ومنها كثرة نزول الملائكة فيه وصعودها.

وطوله منذ أن يُبعث الناس إلى أن يصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار خمسون ألف سنة، كما ذكر الله تعالى هنا، وكما قال النبيُّ ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامة، صُفِّحت له صفائحُ من نار، فأُحْمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَتْ أُعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار**»[3].

وقال بعضهم: إن المقصود لو أن أحدًا من الناس كان هو الذي يتولَّى الحساب

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٨٠)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦١١)، (٢٤/ ٣٨٦- ٣٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٨- ٢٩٣١)، والطبراني في «الأحاديث الطوال» (٣٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو حديث طويل، يُعرف بـ: حديث الصُّور. قال ابن كثير: «هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم مَن وثقه، ومنهم مَن ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة؛ كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلَّاس، ومنهم مَن قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلا أنه يُكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه، فغريب جدًّا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقًا واحدًا، فأُنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجَّاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنَّفًا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم». وينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٨٧- ٢٨٨)، و«البداية والنهاية» (١٩/ ٣٢٢)، و«فتح الباري» (١٠/ ٣٦٨- ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بموجب مقاييسهم وطرائقهم في الدنيا، لكان يستغرق هذه المدة، أما الله تعالى فإنه يحاسب الخلائق في ساعة من نهار(١).

وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر أن طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة من أيام الدنيا، ولكن الله تعالى يخفِّف هذا اليوم عن المؤمنين(٢).

وذكر طول اليوم مناسب لاستفتاح السورة بسؤالهم عن العذاب، واستعجالهم إياه.. فمقاييسهم ساذجة محدودة، وهم بمعزل عن إدراك الأمور العظيمة التي تنتظرهم؛ ولهذا ناسب أن يوجِّه نبيَّه إلى الصبر، وهو الجدير بمَن يعلم ما عند الله من الآماد والأحقاب التي تنتظر البشر: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤].

* ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾:

والصبر: حبس النفس على الشيء(٣)، فلا يستعجل، ولا يستجيب لمشاعره الشخصية، فالأمر بالصبر تربية ربانية كثيرة الورود في التنزيل، وجاء بالمصدر: ﴿صَبْرًا﴾ للتأكيد، ثم وصفه بأنه جميل، فالصبر خُلق جميل، وعند ما يصفه الله تعالى بأنه جميل، فالمقصود صبر ليس فيه تشكٍّ ولا جزع ولا استعجال ولا تسخط.

وبعض الناس قد يصبر، ولكن لا يكون صبره جميلًا، فيتذمَّر ويتكلَّم ويُفضي بالسر لبعض أقاربه وخلصائه، ويذكر لهم أنه تحمَّل من فلان شيئًا عظيمًا، وصبر عليه.

وهذا يؤكِّد على الخلق العظيم الذي لا يُتصور حصول النجاح إلا به، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»(٤). وكما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن يتصبَّرْ**

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٢).

(٣) ينظر: «مختار الصحاح» (ص١٧٢) «ص ب ر»، و«التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ١٣١).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) معلقًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، والحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

يُصبِّرْهُ اللهُ»[1]. فيكون صابرًا، ثم صبورًا.

والذين يواجهون العَنَت والأذى، يعرفون معنى الصبر الذي يحبس النفس عما لا يجمل بالأحرار، ويعرفون مستوياته ودرجاته، وأن الصابر قد يَضِيق أو يبوح لبعض خلصائه وخاصته، أو يتردد أو يشك، أما الصبر الجميل فبمَعْزل عن ذلك كله.

* ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾:

أي: يستبعدون العذاب بعقولهم فيجحدونه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق: ٣].

أو يستبعدون زمانه؛ ولذلك لا يقيمون له وزنًا؛ لأنهم مشغولون بالشيء القريب، وهو الدنيا[2].

وكثير ممن يطرقون طُرق الهلاك حين يسمعون الناصح والمحذِّر يضرب لهم الأمثال ويخوِّفهم ما قد يقع لهم من الأحوال، يشيحون بوجوههم، ويشعرون أنها مخاوف لا حقيقة لها، ولا تحملهم على تغيير طريقتهم أو تجنّب ما يفضي إلى العِثار.

* ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾:

أي: في الوقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: ٤٦]، وحكى أنهم يتساءلون ويتخافتون فيما بينهم: كم لبثنا في الدنيا؟ فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طه: ١٠٣]، فيقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾ [طه: ١٠٤]، فأعقلهم يؤكِّد أن لبثهم لم يكن سوى يومٍ واحدٍ، فإذا جاء يومُ القيامة تغيَّرت الموازين والحسابات تغيرًا كبيرًا، وقد كانوا من قبل يستعجلون به، فهم الآن يقولون كلامًا آخر، وقد كانوا في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

ينظرون إلى الآخرة المستقبلة بسخرية واستبطاء، فإذا هم في الآخرة ينظرون إلى الدنيا الماضية بتعجب وتقليل[١]!

* ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾:

المُهْل: المعدن المذاب، دُرْدِيُّ الزيت المذاب[٢]، أي: ما يبقى في أسفل الزيت من البقايا والحُثالة.

فهذا أحد تشبيهات السماء يومئذ، أنها تكون كالمعدن المذاب.

وقد جاءت صفات أخرى في شأن السماء؛ كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧]، أي: مالت إلى الحمرة[٣]، ولعل المقصود بالدِّهان هنا مثل قوله: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: الزيت أو دُرْدِي الزيت.

ويحتمل أن يكون المقصود أن هذا يقع مرة بعد أخرى، فيوم القيامة يوم طويل، مقداره خمسون ألف سنة، فتقع تحولات في أحوال السماء وألوانها وشكلها وهيئتها، وكذلك الأرض[٤].

* ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾:

العِهْن: الصوف، وغالبًا ما يُطلق على الصوف الملون المصبوغ[٥]، وقال سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، أي:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٤)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٣١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٧٢٨)، (٢٤/ ٢٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٤٣- ١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٧)، و«زاد المسير» (٢/ ٥٢٠)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١١١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٤١١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢١٣).

وينظر أيضًا: «العين» (١/ ١٠٨) «ع هـ ن»، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٧).

المفرَّق[1].

والجبال في الدنيا ملونة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٢٧﴾ [فاطر: ٢٧]، فمنها الأبيض والأحمر والأسود، فهكذا يوم القيامة تتغير حقيقتها وتذهب كثافتها وتصبح كالصوف المنفوش، ويكون فيها ألوان وطرائق مختلفة.

والمرء ينظر من حوله، فيرى الجبال من أعظم ما خلق الله، وبها يُضرب المثل في الشدة والقوة والرسوخ، ويرفع رأسه فيرى السماء في سموقها وإحكامها وجمالها.. ففي ذلك اليوم تتفتت الجبال، فتبدو كالقطن أو الصوف، وتضعف السماء، فتغدو كالمُهْل، فما بالك بالإنسان الضعيف الذي هو المقصود من وراء كل تلك الحوادث؟!

وعادة ما يلجأ الناسُ بعضهم لبعض عند حلول الحوادث، ويتبادلون الحديث مع معارفهم وأصدقائهم، ويقلِّبون وجوه الرأي، وطرائق الحياة، ولكن هيهات ذلك في موقف القيامة.

* ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾:

فكل إنسان مشغول بنفسه؛ لما يرى من الهول، ولا يعنيه أن يسأل عن حال أقرب قريب.

وقد أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري لما مات أبوه، ورثاه بقصيدة، فيها[2]:

فيا ليتَ شِعري هل يخفُّ وقارُه ... إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعِهْنِ؟

وهل يَرِدُ الحوضَ الرَّويَّ مبادرًا ... مع الناس أم يأبى الزّحامَ فَيستأني؟

يقول: هل سيزاحم مع الناس من أجل الحوض، أم أنه لا يريد أن يزاحم فيستأني؛ لأنه كان في الدنيا وقورًا قليل المخالطة للناس؟

---

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٢)، وما تقدم في «سورة الواقعة»، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣﴾.

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٤٤).

والحَمِيم: الصديق اللَّصيق الوثيق[1]، **والحَمِيم أيضًا**: الماء الحار، وكلاهما يرد في القرآن في حديثه عن الآخرة، في فرار الحَمِيم من حَمِيمه، وفي الماء الحَمِيم الذي يشربه أهل النار[2]، وقد جمع المعنيين الشاعر فقال[3]:

لا تَغْتَرِرْ ببني الزَّمان ولا تَقُلْ عند الشَّدائد: لي أخٌ ونَدِيمُ
جرَّبتُهم فإذا المُعاقِرُ عاقرٌ والآلُ آلٌ والحَمِيمُ حَمِيمُ

والمعنى ظاهر، ففي يوم القيامة لهول المطلع وكرب الموقف وانشغال كل امرئ بنفسه، يقول كل امرئ منهم: نفسي نفسي، ولا يسأل الصديقُ صديقَه عن حاله ولا عن شيء مما يجري: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٧]، ولم يبيِّن سبحانه متعلّق السؤال، أي: لا يسأل أي سؤال، لا عن نفسه، ولا عن أحد، ولا عما يجري.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يطلب منه شيئًا من باب المسألة، فلا مجال لمساعدة أو دعم أو إسناد أو شفاعة[4].

* ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١﴾:

كأن بعض الناس قال: كيف يسأله وهو لا يراه أصلًا؛ لكثرة الخلق المحشورين للعرض والحساب في صعيد واحد.

فكانت هذه الآية جواب التساؤل، أي: يجعل الله بعضهم يُبصر بعضًا على رغم ذلك، فيتمكنون من رؤيتهم، وقد يكون هذا من المؤمنين وهذا من الكفار، أو هذا في الجنة وهذا في النار، وهذا في مكان وهذا في مكان آخر، ومع ذلك يراه

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٤- ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٠).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [يونس: ٤]، وقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾ [النبأ: ٢٥]. ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢٠٧)، و«الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٠٠) منسوبًا إلى الحريري.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١).

ويُبصره، ويتعمَّد أن يصد عنه، ولا يسأله عن شيء.

ولا غرابة، فمع بُعد العهد وحدوث الحوادث العظيمة والتحولات الجسيمة، إلا أن ذلك الموقف كما وصفه الله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]، حتى الوالد لا يسأل ولده، والزوج لا يسأل زوجته، والأم لا تسأل ولدها، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

إنه تأكيد لمسؤولية الفرد عن نفسه، فلا يسأل أحدٌ عن أحد، ولا ينفع أحدٌ أحدًا، إلا بما أخبر الله به من الشفاعة.

هنا الفرد في مواجهة صارمة مع ذاته، كما كان في الدنيا مسؤولًا عنها؛ ولكنه مشغول عنها بالآخرين، حتى يصل الحال إلى أن المستحق للعقوبة يتمنى أن تنزل بأقرب قريب وأحب حبيب لينجو منها هو!

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١﴾: هذا المجرم هو الذي كان في الدنيا يستعجل العذاب، ويسأل: متى هو؟ فها هو في يوم القيامة يود لو يفتدي العذاب بأخلص أصدقائه وأقرب الناس له رحمًا، وربما هؤلاء الناس الذين يراهم ويبصرهم في عَرَصات يوم القيامة قد كانوا في الدنيا من أسباب ضلاله، وربما كان يستعرض أمامهم قوته وذكاءه وكبرياءه وسخريته، ومن أجلهم كذَّب أو كفر، لم يعد يلتفت إليهم، بل وَدَّ لو يفتدي نفسه بهؤلاء جميعًا، يود أن يخلص من العذاب، ويدفع فدية مقابل تخليصه من العذاب، ولو ﴿بِبَنِيهِ﴾ الذين خُلقوا من صلبه، وبدأ بالبنين؛ لأنهم أشد الناس علاقة به؛ فإن الولد بَضْعة من أبيه، وموضع حبه[1].

وثمة فرق بين النسب الذي تعزَّز وترسَّخ بالتقوى والإيمان، وما ليس كذلك،

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦١).

فكل نسب ينقطع يوم القيامة، إلا نسب النبي ﷺ وسببه، كما قال ﷺ[1].

* ﴿وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾:

والصاحبة: الزوجة[2]، وهي أقرب من الأخ لقلب الإنسان بعد بنيه؛ ولذا بدأ بها، ثم عطف عليها الأخ.

* ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾:

قال مالك: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾: أمه؛ لأنه يأوي بعد أن انفصل عنها[3].

والأكثرون على أن المقصود بـ«فَصِيلته التي تُؤْويه»: أفراد القبيلة القريبة منه، كما يقولون: القبيلة والفخذ والفصيلة، فهم الأقارب المحيطون بالرجل، مثل العم وابن العم، وهذا أقرب[4]، فيكون السياق بدأ متسلسلًا بالبنين، ثم بزوجته، ثم بأخيه، ثم بفصيلته، وهي الدائرة الأوسع.

والترتيب في «سورة عبس» عكس هذا؛ لأنه هنا يريد أن يفتدي بهم، فناسب أن يبدأ بالأقرب والأحب؛ إظهارًا لشدة حاجته واستعداده للفداء، ولذا قدَّم بنيه، ثم زوجته، ثم أخاه، ثم قبيلته، ثم الناس جميعًا، على معنى أن تقول: فلان قد هجر حتى أقربَ الناس إليه، فهم مضرب المثل، وهو لم يعد يبالي بأحد من الناس.

وجاء في «سورة عبس» عكس ذلك؛ لأن الأمر هناك أمر فرار: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾، فبدأ بالأخ، وانتقل إلى مَن هو أقرب: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾، ثم انتقل إلى الأقرب: ﴿وَصَاحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾. والفرار قد يعني التنصل من المساعدة التي

---

(١) كما في «مسند أحمد» (١٨٩٠٧)، و«المستدرك» (٣/ ١٥٨) من حديث المِسْور بن مَخْرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وإن الأنسابَ يومَ القيامة تنقطع، غيرَ نسبي وسببي وصِهْري**». وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٨٧- ٤٩٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦١).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦١).

جرت عليها العادة في الدنيا، أن الإخوة يساعد بعضهم بعضًا، وكثيرًا ما يحتاج الأبوان إلى المساعدة من الأبناء، أما الزوجة والأولاد فهم محل الضرورة، فكان الفرار تدريجيًّا، يبدأ بالأخ، ثم الأبوين، وأخيرًا يفر حتى من بنيه وزوجه، وقد يكون الاختلاف بين الموضعين للتنويع، ففيما يتعلق بالفرار بدأ بالأبعد ثم الأقرب، وفيما يتعلق بالافتداء بدأ بالأقرب، وهم الأبناء، ثم الصاحبة، ثم الأخ، ثم الفصيلة(١).

* ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾:

فليس عنده تردد أن يفتدي بالناس كلهم، فيعذَّبوا من أجل أن ينقذ نفسه، وهذا الكافر كان يمكنه في الدنيا أن يفتدي بأقل من ذلك، ولكن كانت السخرية والاستعجال تهكمًا وتحديًا يمنعه من ذلك.

وهل يقول الإنسان هذا الكلام بلسانه، أم بقلبه، ويدل عليه لسان حاله؟

السياق تعبير عما يود أن يكون، لكن لم يصرِّح بأنه يقول ذلك تلفظًا، وفي سياقات أخرى ما يدل على أنه يقول ذلك عند مناسبته، كما في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨- ٢٩]. وفي بعض نصوص السنة ما يرشد إلى ذلك(٢).

إن كشف هذا الموقف الجليل لا يحمل المؤمن على جفاء القرابة والتنكر لها في الدنيا، فالصلة والخُلُق الكريم قربة إلى الله، وسبيل إلى النجاة في الموقف العصيب، و«**الرَّاحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»(٣)، ومَن وصل رحمًا وصله الله(٤)،

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٥).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٣٤، ٦٥٣٨، ٦٥٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُقالُ للكافر يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ملْءُ الأرض ذهبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعم. فيُقالُ له: قد سُئلتَ أيسرَ من ذلك**».

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٥٩٨٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ولكنه يحمل على تقديم الحق والصواب ومرضاة الله على كل حبيب أو قريب؛ ليكون فراره إلى الله، ونعم بالله، وليس فراره إلى نفسه التي هي الأخرى تفر منه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾: ولم يقل: «فينجيه»، وإنما قال: ﴿ثُمَّ﴾، وهي تدل على الاستبعاد، أي: مع هذا كله يا ليت الأمر ينفع! ويا ليته ينجو، لكن هيهات!!

* ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة تقال للردع والزجر، تدل على النفي[1]، أي: لن يُنجيه قريب ولا بعيد ولا حميم ولا صديق ولا شفيع.

والضمير ليس إلى مذكور سابق، والعرب يقولون: هذا ضمير الشأن، ويقصدون به الإشارة إلى أنه إذا جاء أمر جَلَل، فإنه يُورد ضميره قبله، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: إن الأمر أو القصة أو الخبر أو الشأن يتعلق بشيء عظيم[2].

و﴿لَظَىٰ﴾ من أسماء النار، أو دَرَكة من دَرَكاتها، وهي مأخوذة من التلظِّي، وهو شدة الاشتعال[3]، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل: ١٤]، أي: تتوقَّد وتشتعل وتتلمَّظ، تريد هؤلاء الناس.

* ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾:

أي: تنزع الشَّوَى، فتأخذه أخذًا قويًّا شديدًا.

والشَّوَى: جلدة رأس الإنسان، **وقيل**: الأطراف[4]؛ فالصياد إذا ضرب ولم يصب الصيد في مقتل، وإنما أصاب أطرافه، يقولون: أشوى، أي: أصاب الأطراف[5]، ومنه قول العامة إذا كان الأمر المَخُوف أهون مما ظنوا قالوا:

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٣).

أشوى.. يعني: أسهل وأهون.

والذي يظهر أن المراد ليس أنها تنزع الجلدة من الإنسان، وإنما المقصود أنها تنزع الإنسان بجلدته وتنزعه بأطرافه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]، أي: يُحمل بأطراف يديه ورجليه وجلدة رأسه، ويلتقط التقاطًا[١].

* ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾:

أي: تنادي مَن كان في الدنيا قد أدبر وتولَّى عن قبول الحق والانقياد له، وليس ببعيد أن يكون نداءً حقيقيًّا[٢]؛ فقد ذكر الله تعالى عن النار أشياء كثيرة ليست من شأن النار في الدنيا، مثل التغيُّظ والزَّفير والتميُّز[٣].

وقال بعض الأئمة: إن المقصود هنا دعاء الخَزَنة الذين وكَّلهم الله تعالى بالنار، فعبَّر عن دعاء الخَزَنة ومناداتهم لهؤلاء القوم بأنه دعاء النار[٤].

والأول أقرب، وحقائق الآخرة والغيب ينبغي أن تبقى على ظاهرها، وألَّا تخضع لموازين العرف والعادة والمادة.

وهنا تناسبٌ بين قوله سبحانه في أول السورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾، والإخبار هنا عن النار بأنها ﴿تَدْعُواْ﴾، لقد كانوا في الدنيا يدعونها ويستعجلونها، ويوم القيامة هي التي تدعوهم وتستعجلهم، وتقول: تعالوا، هذا ما كنتم تُوعدون.

إن النار يوم القيامة ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، فهي لا تنادي الإنسان بنسبه ولا بحسبه ولا ببلده ولا بقبيلته، وإنما بعمله، وهذه الآيات تصف القوم المكذِّبين المستعجلين الذين تدعوهم النار، وقد أُعدَّت لهم، لا يستطيعون

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥).

(٣) كما في قوله تعالى في «سورة الفرقان»: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾، وينظر ما تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٤).

الافتداء منها، ولو بأقرب الناس إليهم، **والإدبار**: الإعراض، يقال: ﴿أَدْبَرَ﴾: إذا ولَّاك ظهره[1]، فهؤلاء أعرضوا أولًا ثم أدبروا، والإنسان قد يعرض فيكتفي بالسكوت، وقد يخالف الطريق ويعترض عليه.

وأصل التولِّي: الإقبال، ومنه المولَى، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[2] [الأنفال: ٤٠]، **والمعنى**: أن هذا الإنسان أدبر وأعرض عن الحق وتولَّى شيئًا آخر، أعرض عن الإيمان وتولَّى الكفر، لقد أدبر عن النور وتولَّى الظلام، فهو أدبر عن شيء وتولَّى ضده، وهكذا المرء لا يخلو: إذا هجر طريقًا انتقل بفطرته إلى ضده، فإذا لم يسلك الإنسان طريق الخير سلك طريق الشر، وإن لم يشغل نفسه بالخير شغلته بالشر، وإن لم يشغل وقته في طاعة شغله بمعصية.

فهذا الإنسان في الدنيا أعرض عن الإيمان ومقتضياته بطوعه واختياره، فإذا كان يوم القيامة نادته ﴿لَظَىٰ﴾ ليأتيها مكرهًا، وقد كان يمكن أن يأتي الحق والإيمان في الدنيا طائعًا مختارًا.

* ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ١٨﴾:

أي: جمع المال في أوعية، وأحكم إغلاقه[3].

وجمع المال ليس عيبًا لذاته، وإنما المذموم ألَّا يتورَّع عن الكسب الحرام، أن يبخل به عن إنفاقه على ما أوجب الله، فلا يُطعم منه المسكين، وقد عاب القرآن على المشركين إمساكهم عن إطعام المسكين، كما كان يعيبهم على الشرك بالله وتركهم للصلاة، وكما سجَّل عليهم إدبارهم وتوليهم عن الإيمان سجَّل عليهم أنهم جمعوا الأموال بكل سبيل، وجعلوها في أوعية، وأغلقوا عليها، فلا يُطْعم منها يتيم ولا مسكين، ولا يُؤدَّى منها حق، ولا يراعى ما لله تعالى فيها من الشكر الواجب.

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٧) «د ب ر».

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٨٦) «و ل ي».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥).

وفي القدر السابق من السياق تبدو طبيعة الإنسان المتناقضة، التي تستعجل العذاب وهو واقع، وتستبعد العقاب وهو قريب، وتنسى ما مرَّ عليها، حتى يصبح العمر كله عندها يوم القيامة وكأنه ساعة من نهار، وترفض الإيمان الاختياري، لتحتمل عذابًا قسريًّا قهريًّا يوم الدين؛ ولذا ناسب أن يسلط الضوء على هذه النفسية العجيبة!

* ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾:

والأقرب أن المقصود جنس الإنسان، وبعضهم يقول: المقصود الكافر، أو شخص بعينه، كالنضر بن الحارث بن كَلَدة، أو غيره من أعيان المشركين[1].

والصواب أن المقصود جنس ابن آدم[2]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومثل قوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس: ١٧]، ومثل قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفيها الإشارة إلى ما جُبل عليه الإنسان بالفطرة من ضعف أو عجلة أو ظلم أو جهل.

والله تعالى يُسجِّل على جنس الإنسان أنه ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾، وكلمة ﴿ خُلِقَ ﴾ تأتي أحيانًا بذكر الخلق الجسماني، مثل قوله: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ ﴾ [الإنسان: ٢٨]، يعني: قوة أجسامهم في الدنيا[3]، وتأتي أحيانًا لذكر الخلق النفسي والروحي، كما في هذه الآية.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٩- ٤١٠).

﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: جُبل بفطرته على الهَلَع[1].

والعلماء مختلفون في أجمع عبارة يُفسَّر بها الهَلَع[2]:

وأجمع وأجمل ما يقال في تفسيرها: هو ما بعدها في السياق، وقد سُئل ثعلب عن معنى ﴿هَلُوعًا﴾ عند العرب، فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[3].

والهَلوع: الضعيف المتهالك المسترخي عند الأزمات، فإذا صام بان عليه الجوع، وصار يترقَّب أوان الفطر، وإذا خاف انتفض واضطرب ولم تحمله قدماه، وإذا حلَّت به نازلة أو مصيبة جزع، وإذا توقَّع ضررًا أو مرضًا بالغ في التخوُّف والتحوُّط[4].

والتعبير بصيغة المبالغة: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾، يدل على هذه الطبيعة المتطرِّفة الغالية البعيدة عن الاعتدال[5].

ومع المال تجده مستعجلًا، يريد أن يجمعه بكل حيلة، فهو شديد الحرص.

والمقصود بـ﴿ٱلشَّرُّ﴾ هنا: الفقر أو الجوع أو المرض[6]، وهذه تُسمى في القرآن الكريم «سيئة» أيضًا، كما قال الله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فالمقصود الشر الدنيوي.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ والمقصود بـ﴿ٱلْخَيْرُ﴾: الرزق والعافية والسَّعة

---

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ٤٠٠)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٨٤)، و«روح البيان» (١٠/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٨).

(٣) ينظر: «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٠).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٧).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٣٢).

والمال والولد[1]، فإذا أصابه الخير فإنه يحبسه ويبخل به أن ينفقه على محتاج.

والتعبير بـ﴿مَسَّهُ﴾ عجيب؛ فهو يوحي بتأثير الأحوال في الإنسان عامة، وفي الهلوع خاصة، فهي تقترب منه وتحيط به وتداخله.

وهو يدل أيضًا على أن الأحوال لا تدوم، فهي تمسي اليوم بخير وغدًا بغيره، وتصبح على حال وتمسي على سواها، والعاقل الحكيم إن أصابته نعمة فرح وسُرَّ، ولم يخرجه ذلك إلى أَشَر وبَطَر ونسيان واعتقاد دوام الحال، وإن مسه ضرٌّ أو شرٌّ صبر وانتظر فراقه بالفرج والحول من الله، ولم يقنط أو ييأس.

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقد يتساءل البعض: إذا كان الله خلق الإنسان كذلك، فكيف يعاتبه على شيء جَبَله عليه؟

والجواب: إن الله تعالى خلق الإنسان على مقتضى حكمته في الدنيا لمصالح، وجبله على الشهوة، فهو يضبط هذه الشهوة فيصرفها في طريقها الصحيح الذي خُلقت له؛ لاستمرار دفة الحياة وحفظ النوع والتكاثر والابتلاء والامتحان، ويدافعها عن مراتع الهوى والهلكة، وإذا زل أو عثر، سارع بالتدارك مستعينًا بالله.

وإن وضعها الإنسان في خير أو في شر، فهذه مسؤوليته، وهكذا موضع الطباع الأخرى؛ كحب المال، فإذا سيطر حب المال وطغى صار مذمومًا لتجاوزه حد المباح.

والآية الكريمة تدل على أثر الإيمان في تهذيب الإنسان، وهي من أعظم الدلالات القرآنية على أن الإيمان والعبادات- ولا سيما الصلاة- ذات أثر كبير في تهذيب الأخلاق، فقد يكون الإنسان شرسًا سيِّئ الطبع، سيِّئ الخلق، بسبب التربية أو البيئة أو الطبائع الموروثة، أو الظروف التي ألـمَّت به؛ فتجده قاسيًا غليظًا جحودًا نَزِقًا طائشًا متسرِّعًا، ثم إذا به بالتقوى والإيمان والصلاة يُذعن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٠).

ويلين، والآية تؤكِّد هذا المعنى وتبرزه بقوة.

* ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

استثنى الله فئة من الناس وصفهم بالمصلِّين، وهم المسلمون، كما قال في «سورة المدثر»: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾، **والمصلُّون هنا** هم المؤمنون بالله[1]، وذكرهم بالصلاة؛ لأنها أخص الصفات الإيمانية العملية، فدلَّ على أن الإنسان يمكن بفعله وبمحاولته وبعبادته أن يُهذِّب كثيرًا من أخلاقه.

وهذا ما تجده في تربية النبي ﷺ لأصحابه؛ فقد كانوا على بعض أخلاق الجاهلية، فلما جاء الإسلام أَذْعَنوا ولانوا وذلُّوا وانقادوا، وفي قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ، وقال: أوصني. قال ﷺ: «**لا تغضبْ**». فردَّدَ مرارًا، قال: «**لا تغضبْ**»[2].

وهذا يتطلَّب أن يكون الإنسان رقيبًا على نفسه، أما الذي يسلِّط ملاحظاته على الآخرين ويعيبهم ويبحث عن مثالبهم، فهو يمضي قُدُمًا لا يلوي على شيء، منشغلًا بمثالب الناس عن عيوبه، فهو لا يصحِّح نفسه، ولا يرى لنفسه خطأً أصلًا، إلا على سبيل التواضع والتنظير!

ويكفي الصلاة شرفًا أن جعلها الله تعالى عنوانًا للإيمان وللأخلاق الكريمة والصفات النبيلة، ولا يُوصف الإنسان بالمصلِّي إلا إذا كان مداومًا على الصلاة، ومع ذلك أكَّد هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مستمرون عليها، لا ينقطعون عنها، ولا يضيِّعونها، لا يشغلهم عنها مال ولا أهل ولا ولد، ولا فرح ولا خوف ولا حزن، وهذا ملائم لسلامتهم من الهَلَع؛ لأنه كلما حزبهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما كان يفعل ﷺ[3]، ولأن الدنيا والتجارة والبيع لا تلهيهم عن

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٨٤٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «مسند أحمد» (٢٣٢٩٧)، و«سنن أبي داود» (١٣١٩) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى».

الصلاة، بل هذَّبت أخلاقهم، وربَّتهم على الإيمان تربية ربانية.

وكلمة «**الدَّوام**» لا تعني البقاء الأبدي، كما يتوهم بعضهم، فيقولون: الدَّوام لله[1]. وهذا معلوم قطعًا؛ فالله تعالى هو الحي الذي لا يموت، وإنما المقصود الدَّوام النسبي الذي يكون في أمر الدنيا، والعرب يسمون المطر المتواصل: دِيمة[2]، ولما سُئلت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن عمل النبي ﷺ قالت: «كان عملُه دِيمةً»[3]. أي: كان إذا عمل عملًا أثبته، كما في حديث آخر[4].

فالدَّائم هو: المستمر، وليس من صفات الله تعالى، وإن كان قد يُخْبَر به عن الله، لكن على سبيل الخبر لا على سبيل الاسم أو الوصف.

ومن معنى الدَّوام: الإقبال على الشيء المقصود[5]، فإذا صلَّى فإنه لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، فهو مداوم على استقبال القبلة لا ينصرف عنها، بل يظل مقبلًا على صلاته بكليته، بقلبه وجوارحه، ولا يكترث لشأن الدنيا ما دام في مناجاته لربه.

* ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾:

والزكاة تُقرن مع الصلاة في القرآن كثيرًا، فالصلاة حق البدن والروح، والزكاة حق المال، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة، والسُّدِّي، وغيرهم: «الحقُّ المعلوم هو: الزكاة»[6].

وهذه الآية نزلت بمكة قبل فرض الزكاة بمقاديرها وأنصبتها المعروفة، وقد

---

(١) ينظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص٦٢١)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٧٩٠).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٤٧)، و«الصحاح» (٥/ ١٩٢٤) «د ي م»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٢٣) «د و م».

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٦)، ومسلم (٧٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٧٠).

قرَّر العلماء أن في المال في أول الإسلام حقًّا يجب إخراجه للمساكين[1].

* ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾:

والسائل هو: الذي يسأل الناس ويمد يده، **وأما المحروم** فهو المتعفِّف، وهو نقيض السائل[2]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ ولهذا لا يعرفه الناس ولا يعطونه؛ لأنه لا يسألهم شيئًا، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن المسألة، فقال: «**مَن سأل الناسَ، وله ما يغنيه، جاء يومَ القيامة ومسألتُه في وجهه خُموشٌ، أو خُدوشٌ أو كُدوحٌ**»[3]. لأن المسألة تذل الإنسان، وتريق ماء وجهه، ومن الإيمان أن تُعطي المحتاج ولا تضْطَره للسؤال، أن تبحث عنه، لا أن يبحث هو عنك، ولكن قد يقع للناس ضرورات أو مجاعات أو أحوال نازلة مفاجئة تحمل بعضهم على أن يسأل الناس؛ ولذا اعتبر الله حاله فذكره في الآية.

وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «**للسائلِ حقٌّ، وإن جاء على فرسٍ**»[4].

على أنه إذا كان السائل متكثِّرًا، فلا ينبغي إعطاؤه؛ لأن في ذلك إغراءً له على الكسل، وامتهان السؤال، والخلود للدَّعة والراحة، وتعويدًا على البطالة، وكثيرًا ما تتحول المسألة إلى عادة وإدمان، حتى لو أثرى الإنسان واستغنى، فإن نفسه تميل إلى مد اليد والتعرُّض للسؤال.

ويدخل في المحروم ذلك المحارَف المتعثِّر، الذي كلما اشتغل في شيء

---

(١) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾، وما سيأتي في أول «سورة الأعلى».

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٧٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، وابن ماجه (١٨٤٠)، والنسائي (٥/ ٩٧)، والحاكم (١/ ٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٠)، وأبو داود (١٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٩٣) من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٣٧٨).

أخفق ولم يوفَّق، فدخل في التجارة وأسَّس المحل وأقام البناء، ثم خسر، وانتقل إلى شركة واجتهد وخسر، ثم دخل في الأسهم ونكب، وذهب للزراعة فلم يُوفق، فهذا يُسمى محارَفًا، أي: لم تقع في يده حرفة، وهو من صنف المحرومين[(١)].

وبعض الناس ربما يداومون على صلاتهم، ولكنهم لا يؤدُّون حقَّ الله في أموالهم، ويظهر فيهم البخل والشُّح والأَثَرة؛ ولذا جمع الله بين المحافظة على الصلاة وإخراج الزكاة للبراءة من الهلع؛ فالصلاة سكينة القلب، والزكاة طهارة المال والبراءة من تقديم حب الدنيا والعاجل على حب الله ورسوله.

* ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾:

و﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء والدينونة والحساب[(٢)]، فهم يؤمنون بيوم القيامة، والعادة جارية أن يعبِّر القرآن عن ذلك بالإيمان، لكن هنا عبَّر بالتصديق؛ ليبيِّن أن التصديق جزء مَكِين في الإيمان وأساس رَكِين، ولكنه لا يكفي حتى يصاحبه إحساس القلب بهذا التصديق.

* ولذا عقَّب بذكر الخشية والخوف والإشفاق: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: خائفون وجلون[(٣)]، وهذه الصفة أعلى من مجرد التصديق العقلي.

ميَّز الله بين أولئك المستبعدين المستعجلين عذاب الله، وبين الذين هم به مصدِّقون ومنه مشفقون، يدعون الله تعالى بأن يدفعه عنهم، كما قال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، فإذا صدَّق بيوم الدين فلا بد أن يخاف ويبتعد عن الكبائر، ويُؤْثِر ما عند الله، ويسرع بالتوبة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٣)، و«تاج العروس» (٢٣/ ١٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٣)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٧)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٧).

* ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

وإنما يأمنه المنافق والمكذِّب بيوم الدين، فهو يستبعده، بل وربما يستعجله تحديًا وسخرية، وقد سُئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن النفاق، فقال: «والله ما أمنه إلا منافقٌ، ولا خافه إلا مؤمنٌ»(١).

فعلى العبد أن يملأ قلبه من شعور الإشفاق من عذاب الله، وأن عذاب الله تعالى غير مأمون، وليعلم أن الرسل والأنبياء يقولون يوم القيامة: «**اللهمَّ سلِّم سلِّم**»(٢). فما بالك بمَن دونهم؟! ولعل هذا الخوف يكون سببًا في نجاة العبد، وفي مرضاة الرب.

وكرَّر في الموضعين ذكر ﴿رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: ﴿ٱللَّهِ﴾؛ إشعارًا بقربهم ورحمته بهم، ولذا فإن المؤمن جمع عملًا وخوفًا، والمنافق جمع إساءة وأمنًا، ووصف الربوبية فيه تلطف وتعطف، وإضافته إليهم لا تخلو من تأمين وتطمين، فـ«**مَن خاف أَدْلَج، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنزلَ**»(٣).

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

وهذا له اتصال بالإشفاق والخوف؛ فإنه لا شيء يردع الإنسان عن الشهوة كالخوف من الله؛ ولهذا يقول النبيُّ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»(٤). فالخوف من عذاب الله هو خير رادع عن الوقوع في الكبائر.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٨) معلقًا، والفريابي في «صفة النفاق» (٨١)، وأبو بكر الخلال في «السنة» (١٦٥٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٥٧) (١٠٥٧). وينظر: «فتح الباري» (١/ ١١١)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٥٣- ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «مسند عبد بن حميد» (١٤٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٤٥٠)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (١١٥)، و«الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٣٨٢)، و«المستدرك» (٤/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٥٤، ٢٣٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٧٢)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمقصود بحفظ الفروج: حفظها من الانكشاف، كما في حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**احفظ عورَتك، إِلَّا من زوجتكَ، أو ما ملكت يمينُكَ**»[١].

فالنظر إلى عورات الناس لا يجوز إلا لحاجة أو ضرورة[٢]؛ ولذا عُوتب آدمُ وحواءُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بكشف سوءاتهم، وامتنَّ الله على ذريته باللباس المواري لها.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: مع أزواجهم، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وملك اليمين: لفظ يُطلق على الرَّقيق، ويقصد بها هنا: الإماء، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وما أجمل هذا التعبير! فإن عادة الإنسان أنه قد يجد في نفسه بعض الاستقذار للعلاقة الجنسية لأسباب عديدة، والآية تنفي الملامة ما دامت العلاقة في حدود ما أباح الله، وهو معنى أخلاقي تربوي نفسي مهم للآباء وللأزواج وللمربِّين، ومهم للشباب وللفتيات؛ ليفرِّقوا بين الحياء المشروع والخجل المذموم، وبين التبجح المرذول وبين الفطرة السوية، وقد جعل الله للرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أزواجًا وذُرية، وجاء الإسلام ليُهذِّب الغرائز ويرتقي بها؛ حتى لا يشعر الإنسان أن العلاقة الجنسية شيء مستقذر أو ممقوت، ما دامت في الحلال، بل هي تحصين للنفس وللزوج، وقد سمى الرسول ﷺ ذلك صدقة، فقال: «**وفي بُضْع أحدكم صدقةٌ**». قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدُنا شهوته، ويكون له فيها أجرٌ؟! قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[٣].

* ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

والمقصود بـ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: كشف العورات والاندفاع وراء الشهوات المحرمة، و﴿ٱلْعَادُونَ﴾ هم الذين تعدَّوْا حدودَ الله تعالى، فعُوقبوا[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩).

(٢) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٤/ ١٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٢)، و«أضواء البيان» (٥/ ٣٠٩).

والتعبير بـ«العادي» يختلف عن «المعتدي»، فالمعتدي: المغتصب بالقوة؛ لأنه من العدوان، **أما العادي** فهو: الذي تجاوز حدًّا وخطًّا مرسومًا له، حتى لو كان بالتراضي بينهما، فالقوانين التي تجرِّم الفعل حين يكون اعتداء وتبيحه حين يكون بالتراضي، هي أحكام جائرة عادية معتدية على حدود الله.

والآيات كلها في صفة المؤمنين المصلِّين، ولكن سياق آية الفروج موجَّه إلى الرجال أصالة وإلى النساء تبعًا؛ لقوله: ﴿**إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ**﴾، والمرأة لا يحل لها ملك يمينها؛ وذلك لأن الرجال أكثر تطلبًا للوصال وجرأة عليه وقدرة ومالًا وتقلبًا وحركة وسفرًا، والمرأة وإن كانت طرفًا، إلا أن الغالب أنها مطلوبة وتابعة فيما يظهر، والله أعلم[1].

* ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾**﴾:

تشمل الأمانات: التكاليف الشرعية؛ كالصلاة والصوم والزكاة والغسل والوضوء، وحتى الإيمان فهو أمانة، وتشمل أمانات الناس من القيام بواجب السلطة أو الوظيفة أو أداء الأمانة، سواء كانت أمانة في المال أو السر أو العلاقة أو العهد والميثاق[2]، قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ [النحل: ٩١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**أَدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنك، ولا تَخُنْ مَن خانك**»[3].

وفي الأمانة يقول الله تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾**﴾

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٤١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٤١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧١).

(٣) أخرجه الدارمي (٣٦٣٩)، وأبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٨٤)، والحاكم (٢/ ٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أحمد (١٥٤٢٤)، وأبو داود (٣٥٣٤)، والبيهقي (١٠/ ٤٥٦) من حديث رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «الأم» (٥/ ١١٢)، و«علل ابن أبي حاتم» (١١١٤)، و«العلل المتناهية» (٩٧٣- ٩٧٥)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٤٥)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٧٧- ٧٨)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٠٩- ٢١٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٢٣).

[الأحزاب: ٧٢]، وهنا قال: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾؛ لأنهم مصلُّون؛ فاستثناهم من الهلوعين، أما الذي لا يراعي الأمانة فهو الظلوم الجهول الهَلوع، والإيمان يُربِّي الإنسان على حفظ العهد والأمانة، حتى مع الكافر والفاجر.

وقد تجد من المسلمين ومَن يتظاهرون بالصلاح مَن يكونون بين أقوام كافرين، فيستحلون دماءهم وأموالهم، ويدخلون بلادهم بموجب العهد والأمانة والميثاق والأوراق الثبوتية الرسمية، ثم يغدرون بهم ويسرقون ويغشُّون ويكذبون، وهم بذلك يزعمون أنهم مؤمنون!

ويا للعجب! كيف يسوّغ للمسلم أن ينقض العهود؟!

وكيف تدعو الناس إلى الإسلام وأنت تمد يدك لجيوبهم لتسرق ما فيها؟!

وكيف تدَّعي الإيمان وأنت تكذب؟!

وكيف تبرم للناس مواثيق ثم تخونها؟!

قد كان أشراف العرب في الجاهلية يأنفون من خَفْر الذمم ونقض العهد وخيانة الأمانة، كما في قصة أبي سفيان مع هرقل[(١)].

فهذا الأثر العملي للصلاة حين تطبع شخصية المؤمن، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَن لم تأمرْهُ صلاتُه بالمعروف، ولم تنهَهُ عن المنكر، لم يزددْ من الله إلا بعدًا»[(٢)]، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح[(٣)].

لكن جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾:

ومن أعظم الشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ومنها أن يكون المسلم قدوة لغيره في الأخلاق، فيشهد بحق على ما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٨٧٨)، وأبو داود في «الزهد» (١٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٩٤).

(٣) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢).

ومنها الشهادة بالحق الواضح لصاحبه، سواء أكان قريبًا أم بعيدًا، عدوًّا أم صديقًا، مسلمًا أم كافرًا، لا تحمله القرابة والصلة والعاطفة على تجاوز العدل أو كتمان الشهادة، كما قال سبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أعاد الصفة التي بدأ بها، وهي الصلاة، واستخدم فعل ﴿يُحَافِظُونَ﴾، وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار وتجدد الاهتمام بالصلاة، فهم يحافظون على الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها، والخشوع والإقبال على الله تعالى، والأذكار والقرآن والتسبيح والدعاء.

وأجد في هذا الموضع من الحفاوة بالصلاة ما لم أجده في غيره من القرآن؛ لأنه جعل اسمهم: ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ثم بدأ صفاتهم بدوام الصلاة، ثم ختمها بالمحافظة عليها، ولا غرابة ما دامت قلوبهم مشفقة وجلة عامرة بالإيمان(١).

* ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

ويا له من موعود عظيم كريم، وهو وعد يأتي في مقابل وعد أولئك المكذِّبين: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾، ولم يقل أنهم «في جنة»، بل قال: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، كما هو أسلوب القرآن في مواضع، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤]، وقد يعبِّر بالمثنى، كما في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهي أربع جنان أو أكثر، وقد يعبِّر بـ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾، كما في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. والمفرد على تسمية العموم، وهو الغالب، و﴿جَنَّتَانِ﴾ على إرادة درجاتها، كما هو مفصَّل في «سورة الرحمن»، و﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيضًا على إرادة طبقاتها، كما قال ﷺ لأم حارثة رضي الله عنها: «**إنها جنانٌ في الجنة، وإن ابنك أصابَ**

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٤)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٢١٦).

الفردوسَ الأعلى»[1]. وكما هم على صلاتهم دائمون، فهم في جناتهم خالدون؛ جزاءً من ربك عطاءً حسابًا.

وفي هذه الجنات من ألوان الكرامة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

* ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾:

لماذا هم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين؟! فالمُهْطِع هو الذي يمشي بسرعة، وهو رافع رأسه، إما على سبيل الكِبْر، أو على سبيل الاستهزاء أو السُّخْرية[2].

* فهم مهطعون في هذه المشية الغريبة المستنكرة: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾: بعضهم عن يمينك وبعضهم عن شمالك، أي: وبعضهم أمامك وبعضهم وراءك، فإنه قد يُكتفى باليمين والشمال عن الأمام والخلف، كما قال الشاعر[3]:

فلقد أراني للرِّماح رديئةً ... من عن يميني تارةً وأمامي

أي: أحيانًا أمامي أو عن يميني أو ورائي أو عن شمالي، فهؤلاء القوم يُحيطون بالنبي ﷺ من كل جهة.

وقوله: ﴿عِزِينَ﴾ جمع: عِزَة، أي: فئة، فمعنى ﴿عِزِينَ﴾: جماعات متفرِّقة، بعضهم هنا، وبعضهم هناك، وناس يتلفتون هنا، وناس ينظرون هناك[4]، كما ذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٧٠٦- ٧٠٧)، و«تفسير الماتريدي» (٦/ ٤٠٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٣/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٦).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٣٣)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٤٤٢)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

(٣) ينظر: «أمالي القالي» (٢/ ١٩٠)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ١٠٩٩) منسوبًا إلى قَطَري بن الفُجاءة.

(٤) ينظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٧٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٣٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٦٥) «ع ز ا»، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٧).

الله تعالى في «سورة المطففين»: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾.

* ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾:

استفهام تهكمي يهز الوجدان هزًّا، أكل واحد منهم ينتظر أن يكون له جنة نعيم وحده، فلماذا هذا الكبرياء؟! أليسوا هم الهلوعون الجزوعون المنوعون؟! أليسوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٧- ١٨]؟! أهذا يؤهِّلهم لجنة النعيم؟!

﴿كَلَّآ﴾ أي: لن يأتيهم هذا، ولن يتحقق لهم؛ فلقد تمادى طمعهم فتجاوز الدنيا إلى الآخرة، وقال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يدركون مم خُلقوا، وهو لا يؤهلهم لجنة النعيم؛ لأنه ماء مهين: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠]، خُلق الإنسان من نُطْفة ثم مُضْغة ثم عَلَقة، فهو شيء حقير صغير، ومع ذلك فقد اختاره ربه سبحانه واصطفاه ورقاه في المدارج، حتى أصبح ذا شأن ومكانة، فالرسل تُبعث إليه، والملائكة تنزل من أجله، والقرآن يُخاطبه، والرب سبحانه يناديه ويناجيه ويدعوه: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهو يعرض ويطغى ويسخر ويمضي في غيه دون ارعواء!

* ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾:

هذا قَسَم، مثل قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، فيقسم عَزَّوَجَلَّ بذاته العلية، وأنه رب المشارق والمغارب، أي: مشارق الشمس ومغاربها، وهي ثلاثمائة وستون مشرقًا وثلاثمائة وستون مغربًا، في كل يوم مشرق ومغرب لا يتكرر في العام[1]، أو مشارق الشمس والقمر

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧).

والنجوم ومغاربها[1]، وجاء بالجمع هنا؛ لأن الأمر يتعلق بالإعجاز والقدرة.

وأيضًا: يتعلق بهؤلاء الناس الذين لا يُحصي عددهم إلا الله، وتتنوع مساكنهم ومقارهم ومطالعهم ومغاربهم، وفي «سورة الرحمن» قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾؛ لأن «سورة الرحمن» كانت تخاطب الجن والإنس، وكل شيء ورد فيها مثنى مثنى، وفي الموضع الثالث قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] مفردًا؛ لأن المقام مقام التوحيد، وبيان وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾ [المزمل: ٩].

فالله عَزَّوَجَلَّ يقسم هنا بذاته العلية وربوبيته وبالمشارق والمغارب بالعموم الذي لا يند عنه شيء على قدرته.

وتضمين القسم ذكر المشارق والمغارب له صلة بالاستعجال الذي سجله عليهم في صدر السورة، وكأنهم لا يرصدون حركة الأفلاك والنجوم والشمس والقمر، والتي يقرب معها البعيد ويهرم معها الشاب ويضعف معها القوي، وأحيانًا يقوى معها الضعيف، فتقع حركة التبديل والإحلال، بزوال قوم ومجيء آخرين في حركة سنية ربانية لا تحابي..

* ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٤١﴾:

أي: قادرون أن نأتي بخير منهم بدلًا عنهم، ونبدلهم بهم، وتدور الأيام والليالي على سواهم[2]، أفكانوا يعتقدون أنهم خالدون؟! ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

ويحتمل أن يكون المقصود أن نأتي بهم يوم القيامة فنعيد خلقهم أقوى وأحسن مما خلقناهم في الدنيا[3]؛ كما قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ٢٨﴾

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧١)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٠).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٠).

[الإنسان: ٢٨]، ويكون المقصود بالخيرية هنا خيرية القوة والجسد، وليست خيرية الإيمان والتقوى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، **فالمقصود**: نُعيد خلقهم في الآخرة بطريقة أعظم مما في الدنيا[١]، فإذا كانوا يستغربون إعادة الإنسان كما هو، فالله تعالى يُعيدهم يوم القيامة بخلقة أعظم.

ومما يقوِّي هذا المعنى، وأن المقصود الإشارة إلى شيء سيقع فعلًا: أنه لم يقل: «وإن شئنا»، أو: «ولو شئنا» على سبيل الاحتمال، بل قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾، فكأنه شيء قادم ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: خلقناهم مرة أخرى بخلقة أخرى أقوى وأعظم[٢]، وقد ورد أنهم يُبعثون في صورة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣].

وابن القيم قال بهذا المعنى، ووافق الزمخشري، مع ما بينهما من التباعد في المعتقد![٤].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا أحد يُعجز الله سبحانه ولا يغلبه، وهو القوي العزيز الذي أمره بقول: ﴿كُن﴾، وله الجنود التي لا يعلمها إلا هو، لا تعصيه طرفة عين.

* ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: اتركهم ولا تأس عليهم ولا تحزن واصبر، وذرهم في خوضهم يلعبون، ولا تدخل معهم في مماحكات أو مجادلات لا طائل من ورائها ما داموا لا يبحثون عن الحق، ولذا سمَّى ما هم عليه: خوضًا ولعبًا؛ لأنهم غير جادين في حديثهم وسؤالهم.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٨٣- ٧٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٦١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٧)، (١٩/ ٩٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

(٢) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٧٣).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٧٥)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص١٩٨).

وهذا ليس أمرًا متعلقًا بقتالهم أو عدمه، فالبعض يقولون عن مثل هذه الآيات: هي منسوخة بآية السيف[1]، وزعم بعضهم أن آية السيف نسخت أكثر من سبعين آية[2].

وهذا فيه نظر ظاهر، حتى آية السيف لم يحصل اتفاق على تعيينها، وإنما هذه توجيهات إلهية للنبي ﷺ بأن يعرض عنهم، وأن يتركهم وما هم فيه، مع القيام بالدعوة.

والخَوْض هو: الكلام في الأمور التي لا يحسنها الإنسان[3]، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، فمَن تكلم بغير حجة، فهذا يسمى خائضًا[4].

وقوله: ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ كأن هذا اليوم كائن حيٌّ شاخص يلاقونه وينتظرهم وينتظرونه، وهو يسعى إليهم كما يسعون هم إليه، وفي بعض القراءات: **(يَلْقَوْا)**[5].

و﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ هو اليوم الذي يستعجلونه، وهو واقع بهم، وقد عاصروا في هذه الدنيا الكثير من الأيام، وشاهدوا المشارق والمغارب، وسمعوا كثيرًا من العبر والتحولات والأجيال التي حلَّت محل غيرها، ولكنهم ظنوا أنفسهم شيئًا مختلفًا، وأن السنة لا تجري عليهم.

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٨٠)، و«تفسير الرازي» (١٣/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٣)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٨).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ١٩٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٢)، و«تاج العروس» (١٨/ ٣٢٤) «خ و ض».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٥٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٧)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٥٩).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٢٠)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٤٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٩٠).

* ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

والمقصود بـ﴿الْأَجْدَاثِ﴾: القبور[1]، و﴿سِرَاعًا﴾ أي: سريعين مُهْطِعين[2]، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، **والنُّصُب**: التمثال والصنم[3]، فشبَّه إسراعهم بحالهم في الدنيا حينما يركضون إلى أصنامهم، **ومعنى** ﴿يُوفِضُونَ﴾: يركضون إلى هدف معلوم![4].

* ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

ولم يقل: «خاشعين»؛ إشارة إلى أن الخشوع هنا ليس خشوع الإيمان الذي كان يُطلب منهم في الدنيا في الصلاة، كما مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢]، وإنما هو خشوع الذل والاضطرار والخوف. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم وتغمرهم من كل مكان ﴿ذِلَّةٌ﴾، فمَن لم يذل في الدنيا لربه أذلّه الله تعالى يوم القيامة بالعذاب، ومَن ذل لله وعفَّر جبهته لجلاله واستغفره وصلَّى وخشع واعترف له بالوحدانية، فإن الله تعالى يحفظه يوم القيامة ويمنحه العز والأمن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى ما كانوا يستبعدونه، وهو يوم البعث والنشور، فها هو قد تحقَّق أمام نواظرهم، فتبدأ السورة باستعجالهم العذاب، وتنتهي بالإشارة إلى هذا اليوم الذي كانوا يستعجلونه حين يسمعون الوعد به، والله أعلم.

○○○

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٤٧)، و«روح البيان» (١٠/ ١٧٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٠٧) «ن ص ب».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٤).

سُورَةُ نُوحٍ

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة نوح**»، كما في المصاحف، وكتب التفسير(١).

وسُمِّيت- كما في «صحيح البخاري»-: «**سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾**»(٢)، أو: «**سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾**»، كما في بعض التفاسير(٣)، ويبدو أن هذا الاسم مشهور عند السلف.

*** عدد آياتها:** ثمان وعشرون آية باتفاق علماء التفسير(٤).

*** وهي مكية**(٥) نزلت بمكة، ونزل قبلها ما يزيد على أربعين سورة، والظاهر أنها نزلت جملة واحدة، فهي بهذا تشبه «سورة الجن» التي نزلت في سياق واحد غير منقطع.

*** موضوعها:** قصة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أول الرسل، كما جاء في حديث الشفاعة يوم القيامة، قالوا له: «**يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض**»(٦).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٣٩).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٥).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

وكان قبله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا مُكلَّمًا[1] مُعلَّمًا، وعلَّم أهله وذريته وأولاده الإيمان والتوحيد، وظلت البشرية بعد آدم قرونًا على الهدى والإيمان، ثم حصل التغيير، وكان أصله أنه لما مات الأولون من أهل الديانة والعبادة والتقوى والإيمان قال الشيطان لمَن بعدهم: لو نصبتم لهم نُصبًا، حتى تستعينوا بهم وتتذكروهم. فنصبوا لهم في محافلهم نُصبًا- أي: تماثيل- كالأصنام، فلم تُعبد، ثم اندرس العلم فعُبدت، كما جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

فبعث الله تعالى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مجدِّدًا لدعوة التوحيد؛ **ونوحٌ** ليس اسمًا عربيًّا، فلا معنى لقول مَن يقول: إنه مشتق من النَّوْح، أو ما أشبه ذلك، وإنما هو اسم أعجمي[3]، أرسله الله تعالى إلى قومه وكان عمره يوم أُرسل ثلاثمائة وخمسين سنة، على ما حكاه بعضهم[4]، **والأقرب** أن عمره كان أربعين سنة، كعادة الله تعالى في إرسال الرسل والأنبياء على رأس الأربعين[5]، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤].

وهذه السورة حكاية مجملة لعمر دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه، والتي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا.

---

(١) كما في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال للنبي ﷺ: أيُّ الأنبياء كان أولًا؟ قال: «**آدمُ**». قلتُ: ونبيًّا كان؟ قال: «**نعم، نبيًّا مكلَّمًا**». أخرجه الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٢١٥٤٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٩٨).

ونحوه من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وابن حبان (٦١٩٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٤٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٤/ ٢٤١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٥/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٦).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣٢).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٨)، والمصادر السابقة.

قيل: إن قوم نوح كانوا قلة[1].

ومن حكمة الله تعالى أنه لما كان البشر قليلًا كان الله يمد في أعمارهم؛ تعويضًا عن النقص الموجود في العدد، فقد كانت أعمارهم تطول، لاقتضاء حكمة الله أن يمتدوا وينتشروا.

* ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾:

الاستفتاح التحم بضمير العظمة؛ لتكريس مبدأ الربانية في دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وترسيخها في دعوة محمد ﷺ، وعادة ما يستخدم ضمير الجمع في هذا السياق فيما للملائكة فيه مدخل، فالرسالة تكون بواسطة مَلَك، كجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أو غيره، وكذلك التثبيت، ومثله العذاب للمكذِّبين.

وقد يكون المقصود بـ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾ عموم الناس في زمنه؛ لأنه لم يكن ثَمَّ يومئذ إلا قومه[2]، وعليه يكون الطوفان الذي أرسله الله تعالى قد اجتاحهم وعمَّ الأرض كلها، ولم ينج إلا مَن كان مع نوح في السفينة.

وقد يؤيِّد هذا المعنى حديث الشفاعة ومجيئهم إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقولهم له: «**يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض**»[3].

فيحتمل أن يكون نوح أُرسل إلى الخلق كلهم، ويحتمل أن يكون أُرسل لقومه، والطوفان عمَّ الأرض التي كان فيها قومه الذين كذَّبوه، ولا يمنع هذا أن يكون في مواضع أخرى من الأرض أممٌ وأقوام لم يُرسل إليهم نوحٌ[4].

وقد يعتضد هذا المعنى بقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثتُ إلى الناس كافةً**»[5]. ويتعزَّز هذا بظاهر سياق الآية

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٧)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٢١)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٧١٠).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٧).

(٣) تقدم قريبًا.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٨)، و«تفسير المنار» (١٢/ ٨٩- ٩١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكريمة.

وخلاصة هذه الرسالة ذكرها الله تعالى في صدر الآية عنوانًا للقصة كلها، فقال: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ أي: أنذرهم العذاب الأليم، والمعنى ظاهر، أي: ادعهم إلى التوحيد والإيمان بالله وطاعته واتِّباع رسله، حتى لا يُعذَّبوا.

وقد يكون العذاب الأليم: الطوفان الذي اجتاحهم بعد ذلك، أو هو العذاب الأليم في الآخرة؛ لأن الرسل جاؤوا كلهم جميعًا يُذكِّرون بالآخرة ويحذِّرون من عقاب الله تعالى لأهل معصيته[1].

والأقرب إرادة الأمرين معًا، فالأنبياء يحذِّرون أقوامهم عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، خاصة عذاب الاستئصال الذي كان ينزل بالأمم السابقة المكذِّبة، فيبيد خضراءها، ولا يكون معه مَدْفَع.

* ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾:

فيه دلالة على أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قام بهذه الدعوة بمجرد ما أوحى الله تبارك وتعالى إليه، من غير تلبُّث ولا تريُّث ولا تأخُّر، فقام إلى قومه فنادى بحرف (يا)، وفيه توجيه ولفت للأنظار، ثم وجَّه خطابه لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، والكسرة على الميم قائمة مقام ياء المتكلِّم[2]، وكأنه يقول: يا جماعتي، يا أهلي. وهذا تذكير بالرابطة التي بينه وبينهم، وأنه واحد منهم.

وكان من حكمة الله أنه يبعث النبيَّ من القبيلة نفسها؛ لأنه لو كان الرسول أجنبيًّا أو غريبًا، لرفضوه ونبذوه.

وهو سبحانه لم يبعث ملائكة، بل بشرًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

- لأن كون الرسول منهم يجعلهم يراعون القرابة والعلاقة بينه وبينهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٦- ١٨٧).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٢٢٢).

- ولأنه حين يكون منهم فإنه يتقن لغتهم ولسانهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

- ولأنه أعرف بعاداتهم وطرائقهم وأعرافهم، وما يمكن أن يؤثِّر في الدعوة قبولًا أو رفضًا.

- ولأنه مثلهم في العقل والفكر والشعور والإحساس والاحتياج، وهذا يُسهِّل المداخل في الدعوة، إذ كيف يدعو المرءُ جنسًا لا يعرف مواقع رضاه ولا غضبه ولا حبه ولا بغضه ولا احتياجه ولا استغناءه.

وهذا دليل على أن الداعية ينبغي أن يتحرَّى كل الأسباب والوسائل التي تكون مدعاة إلى قبول دعوته.

﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، و«إنَّ» من أدوات التوكيد، والنَّذير: منذر، كما يقال: فلان سميع، أي: مُسْمِع للناس، يُسْمِع الناسَ[1]، فليس المقصود أنه يَسْمَع، ولكن تأتي بمعنى أنه يُسْمِع، وبمعنى أنه جَهِير الصوت، كما قال عمرو بن مَعْدي كرب[2]:

أَمِن ريحانةَ الدَّاعي السَّميعُ ... يُؤَرِّقُني وأصحابي هُجوعُ؟

أي: الداعي المصوِّت الذي يصيح فيُسْمِع الناسَ.

و﴿مُّبِينٌ﴾: بيِّن النِّذارة، ونص على أنه لهم، فهم المقصودون بالرسالة، والمصلحة تعود لهم، كما قال النبيُّ ﷺ في دعوته قومه وصعوده على الصفا: واصباحاه، واصباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**إني أنا النَّذيرُ العُريان**»[3]. والنذير العُريان هو الذي كان ينذر الناس، ومن شدة حرصه يخلع ثوبه ويلوِّح به للناس إذا كانوا بعيدين، يحذِّرهم العدوَّ، وهذا مَثَلٌ يُضرب، فيقال: «النَّذير العُريان»[4].

(١) ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٦٤)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٨).

(٢) ينظر: «ديوان عمرو بن معدي كرب» (ص١٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ٤٨)، و«فتح الباري» (١١/ ٣١٦- ٣١٧).

* ثم شرع في تحديد ماهية الدعوة ولبابها وأساسها: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③﴾: **فذكر ثلاثة أمور:**

١- ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحِّدوه، ولا تعبدوا إلا إياه، وهم كانوا مشركين، قد تركوا عبادة ربهم، فهو يدعوهم إلى التوحيد، والعبادة هي التذلُّل[١]، كما يُقال: طريق معبَّد، أو بعير معبَّد، إذا كان مذلَّلًا[٢]، وطَرَفة بن العبد يقول[٣]:

إلـى أن تَحامَتنـي العَشـيرَةُ كُلُّهـا وأُفـرِدتُ إِفـرادَ البَعيـرِ المُعَبَّـدِ

أي: تُرك وحده ترك البعير الجرب، فالتعبيد هو الإطراق، والبعير المعبَّد هو الذي حُمل عليه كثيرًا حتى تعب وأجهد.

فالعبودية تعني الذل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والانقياد والاعتراف بألوهيته، وتقديم حقه سبحانه، وأساسه الإيمان بقوة الله وقدرته وكماله وعلمه وسائر صفاته، وأنه المدبِّر المصرِّف المستحق للعبادة.

٢- ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: والفرق بين التقوى والعبادة، أن العبادة هي فعل ما أمرنا الله تعالى بفعله، والتقوى ترك النهي[٤]، **والمطلوب في الإيمان شيئان:**

- **فعل الأمر**؛ كالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج.

- **ترك النهي**؛ كترك الفواحش والمُوبقات والقطيعة والرِّبا والزِّنا والفجور والشرك.

فهما ركنان لا بد منهما، وقد تكون المنهيات في زمن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قليلة، وكذلك المأمورات؛ لأن أصلها التوحيد، وما وُجد بعد ذلك في شريعة موسى أو عيسى أو في شريعة محمد ﷺ لم يكن قوم نوح مأمورين به، إنما كانوا مأمورين بالأصول العامة والكليات[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٥٨)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٢٩).

(٣) ينظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٥).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٢٠- ٢٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٩).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٩).

٣- ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: لأنه نبيٌّ مبلِّغ عن الله، فهم إذا آمنوا به وأطاعوه عبدوا الله واتقوه، ولو لم يطيعوا هذا النبي لم تتحقق لهم العبادة، أي: فيما آمركم به من طاعة الله.

* ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾:

وعدهم هنا بشيئين: دنيوي وأخروي، **والمغفرة**: السِّتر، ومنه المِغْفر الذي يستر به الرأس[1]، **فالمعنى**: أن يستر الله ذنوبكم عليكم، ولا يؤاخذكم بها، ولا يفضحكم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وتعني محو الذنب والعفو عنه.

وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: إما أن تكون ﴿مِّن﴾ بمعنى: ﴿عَن﴾، أي: يُسامحكم عن ذنوبكم[2]، أو تكون ﴿مِّن﴾ هنا للتوكيد[3]، وهذا جيد على طريقة نُحاة الكوفة، فهم يزيدون ﴿مِّن﴾ في الإثبات[4]، كما لو سألك إنسان: هل هناك مطر في البلد؟ فتقول: نعم، قد كان من مطر. أي: هناك مطر، ومطر قوي، فهكذا قول الله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم كلها، ولا يُبقي منها شيئًا، وهو في النفي أوضح، كما لو سألك أحدهم فقال: أجاء أحد إلى هذا المكان؟ فتقول: ما جاء من أحد.

ومثله قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ﴾ [المائدة: ١٩]، أي: ينفون مطلقًا أن يكون أتاهم بشير أو نذير، فهي للتوكيد، وأنه ما جاءهم من أحد.

ويجوز أن تكون للتبعيض[5]، أي: يغفر بعض ذنوبكم، وإن آخذكم ببعضها، وهذا متصوَّر وواقع أن الله يغفر للمؤمن ذنبًا برحمته، ويؤاخذه بذنب آخر بعدله؛

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٦٦٦) «غ ف ر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٢٩).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٦).

(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٣).

لحكم وأسباب تظهر أو تخفى[1].

وقد يُحمل المعنى على أن تُغفر لهم ذنوبهم التي كانت قبل إسلامهم؛ لأنهم كانوا على جهالة وعمى، والإسلام يَجُبُّ ما قبله، ثم إذا أذنبوا بعد الإسلام فلا تغفر لهم إلا بتوبة تتجدَّد منهم، وهذا تشجيع وتحفيز لهم إلى الإيمان؛ لتُمحى ذنوبهم.

وفي الآية فضيلة الاستغفار، وأنه لا ينبغي أن يُحتقر من الذنب صغير ولا كبير، وقد كان النبيُّ ﷺ يستغفر ربه، ويكثر من ذلك، كما في دعاء «سيد الاستغفار»[2]، وكان من استغفاره ﷺ: «**اللهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسِرَّه**»[3]. وكان يدعو ويقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنت أعلمُ بِه مني، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إله إلَّا أنت**»[4].

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾: **والتأخير** معناه دفع عذاب الدنيا الذي كان متوعَّدًا عليهم[5]، فهو كان نذيرًا لهم قبل العذاب الأليم الدنيوي والأخروي، فإن أطاعوا سلموا من عذاب الآخرة بالمغفرة، وسلموا من عذاب الدنيا بتأخيرهم إلى الآجال التي تنتهي فيها أعمار؛ كل منهم على حِدَة، وليس أن يعاجلوا بعذاب يأخذهم جميعًا.

ومن لطف دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ أن اختار لهم المعنى الإيجابي في الإنذار، فلم يقل: «إن لم تطيعوا فسوف يأتيكم العذاب»، بل قال: «إن أطعتم فسوف يُدفع

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٣١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (٧٧١) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٦).

عنكم العذاب»، فبدأ بالترغيب، وهو الأصل، والترهيب إنما يكون بعد ذلك لمَن أصرَّ، والدعوة عامة ينبغي أن تبدأ بجانب الترغيب، وإثارة المعاني الإيجابية في النفوس، ثم يكون الترهيب للمصرِّين والمعاندين والمكذِّبين والجاحدين.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾: **والأجل المسمَّى**: الأجل المكتوب المضروب[1]، فلهم أعمارهم المحدودة مهما طالت.

وغالبًا ما يُطلق الأجل على آجال الإنسان، كما قال النبيُّ ﷺ لأمِّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سألت طول العمر: «**قد سألتِ اللهَ لآجال مضروبة**»[2].

وفي ذلك إشارة إلى أن الدنيا قصيرة مهما طالت، كما قال الشاعر[3]:

إذا عاش الفتى مائتين عامًا   فقد ذهب اللَّذاذةُ والفَتاءُ

والذي سماه هو الله تعالى، وهو غير معروف للناس، وإنما يعلمه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولهذا قال سبحانه في ذكر الغيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، فهذا مما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمه؛ ولذا وصفه بـ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ على صيغة المبني للمجهول، الذي لا يعرفه صاحبه ولا غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ **يحتمل** أن المقصود آجالهم المسماة المضروبة، فلا يؤخَّر الأجل، فلا طاعة تدفعه ولا معصية تقرِّبه، فهو أجل مكتوب.

ويحتمل- وهو أوسع وأقرب- أن الأجل المسمَّى يشمل الأعمار، ويشمل آجال الله تعالى للأمم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فكما للأفراد آجال فللأمم آجال، فإذا جاء أجل الأمة حل بها عذاب الله وطُويت صفحتها.

وأجل الأمة يكون بالاستئصال بالطوفان أو بغيره، ويكون بتكاثر أسباب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٠)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٦٢)، و«مجالس ثعلب» (ص٥٩)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٠٣) منسوبًا إلى الرَّبيع بن ضَبْع الفزاري، وكان من المعمَّرين.

الضعف والشيخوخة والإهمال والتراخي، حتى تهلك الأمة وسط موجة من التلاوم والتشاتم وتبادل الاتهام.

ويحتمل أن ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ هو: يوم القيامة؛ لأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى التوحيد ذكَّرهم بالبعث والنشور والجزاء والحساب، والمشركون والكافرون والمكذِّبون آنذاك لا ينفعهم أن يطلبوا مهلة أو تأجيلًا أو إنذارًا أو رجوعًا[1].

وقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكونوا يعلمون؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين ولا مسلمين ولا عالمين.

* ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾:

والقرآن اختصر آمادًا طويلة في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يفهم أنه أُرسل في الليل، بل هو دعاهم زمانًا طويلًا، حتى كاد ييأس من إجابتهم.

فالذين يستدلون بها على جواز الدعاء على الكافرين عامة، عليهم أن يدركوا أن هذا لم يقع منه إلا بعد مئات السنين، فلا ينبغي للداعي الاستعجال، بل القصة تلهم الصبر والأَناة وطول النفَس.

ولا يُفهم من هذا أن دعوته كانت مستغرقة الليل والنهار، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل غيره يصلِّي وينام ويأكل ويشرب، وقومه كذلك، وليس المطلوب في الدعوة الإلحاح الذي يُنفِّر الناس، بل الاستمرار في تحيُّن الأوقات المناسبة، وعدم اليأس، ومراعاة التنويع، وتحرِّي أوقات الإجابة.

والمقصود أنه كان يتعاهدهم ويتخوَّلهم، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السآمة علينا»[2].

وهذه الآية تفيد أنه كان يُنوِّع الوقت، فأحيانًا يكون الليل أفضل، حيث الناس في سمر واجتماع، والأذهان في حالة صفاء واسترخاء، وأحيانًا يكون النهار أفضل.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٦)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

والدعوة ليست براءة للذمة فحسب أو إقامة الحجة، كلا، فالمقصود الفائدة والنفع؛ ولهذا يقول ربنا سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: ٩]، إن نفعت فذكِّر، أما إذا عرفت أنها لا تنفع، فاصبر وانتظر وقتًا آخر، كإنسان ليس لديه استعداد للسماع والقبول، فتؤجِّل الكلام معه إلى وقت آخر يكون عنده تأهّل وجاهزية للاستماع.

* ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾:

بدلًا من أن يزيدهم قربًا من الله سبحانه وإقبالًا على دعوته، والعجب أن يفر العبد من ربه مع أن مصيره إليه.

وكيف يفرُّ المرءُ عنه بذنبه إذا كان تُطْوَى في يديه المَراحلُ[1]؟

لأنهم كفروا بدعوته، وصاروا يسخرون منه، ويجمعون الأدلة والحجج على تكذيبه.

* ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾:

وفيها دليل على أن هذه أصبحت عادة لهم، فكلَّما دعاهم قابلوه بفعلهم ذلك، وجاء بقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ ليُبين العجب من هؤلاء القوم، فهو لم يدعهم إلى نفسه ولا إلى أمر يخصه، بل إلى مغفرة الله لهم.

والمغفرة من أثر الدعوة للتوحيد، ليكونوا أهلًا للمغفرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ولكن كان ردهم باستمرار هو إحكام غلق آذانهم وجعل أصابعهم فيها؛ خشية أن يتسرب إليها شيء من الحق.

والأذن لا تستوعب الأصبع كله، وهو لم يقل: «أناملهم»، وإنما قال: ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾؛ إشارة إلى مبالغتهم في ذلك[2].

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٥)، و«التفسير الواضح» (٣/ ٧٥٤).

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ زيادة على ذلك غطَّوْا وجوههم بثيابهم[١]، وغالبًا ما يقال: استغشى ثيابه، لمَن غطَّى وجهه ورأسه بثوبه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: ٥]، أي: الإنسان الملتحف المتلفِّف المتغطِّي، فهم يغطُّون عيونهم ووجوههم بثيابهم؛ حتى لا يرونه، فهم لا يريدون أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وربما فعلوا ذلك لأنهم لا يريدون أن يعرفهم بأعيانهم[٢].

وقاموا بذلك من أجل أمر آخر هو العناد والتكبر: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

والإصرار: العناد المُفْرِط، والمداومة على الشرك، ورفض الحوار بشأنه[٣]، عكس ما حكى الله عن المؤمنين: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥**﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فالمؤمن لا يصرُّ ولا يستكبر، بل إذا ذُكِّر تذكر، وإذا قيل له: استغفر. استغفر، حتى لو كان مغضبًا.

وفي الحديث قصة الرجل المغضَب الذي قال النبيُّ ﷺ: «**إني لأعلمُ كلمةً، لو قالها لذهب عنه ما يجدُ، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرَّجيم**». فقالوا له ذلك، فقال: أَتُرَى بي بأسٌ، أمجنُونٌ أنا؟ اذهب[٤].

فالمؤمن إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ولم يُصر، أما هؤلاء القوم فهم يُدعون ليغفر الله لهم فيُصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.

والاستكبار أنهم يرون في أنفسهم شيئًا لا يرونه في هذا النبي، فهم يحتقرونه ويزدرونه، ويقولون: نحن أكثر أموالًا وأولادًا وجاهًا، فكيف نُطيعه؟ وهذا هو ما

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥١)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٠)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالوه لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، فأنت واحد مثلنا، ليس لك ميزة علينا.

وأيضًا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا قال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٢- ٥٣].

ودعوة الله لا تميِّز بين الناس، بل هي لمَن سبق إليها؛ ولهذا لما قالت قريشٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل هذا، وقالوا له: اطرُد هؤلاء، قال له الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1] [الأنعام: ٥٢]، أي: لا تطرد أحدًا آمن، فقيرًا كان أو مسكينًا، ضعيفًا أو كَفِيفًا، عاجزًا معوقًا، ما دام مسلمًا.

فقوم نوح فعلوا أمرين حسِّيَّيْن، وهما: إغلاق الآذان والعيون، وترتب على ذلك أمران معنويان، وهما: الإصرار والاستكبار؛ ولهذا كان الكبر من أعظم أعداء الإصلاح والدعوة، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر**»[2]. والتواضع هو سيد الأخلاق.

❊ ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾:

يذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه راعى الوقت في قومه، فدعاهم بحسب المناسبة، ليلًا ونهارًا، وراعى الأسلوب والطريقة في مخاطبة الفرد والجماعة، وفي الإعلان والإسرار؛ للبحث عن مفاتيح تحرِّك قلوبهم وتحقِّق استجابتهم.

وكثير من الناس عند الصدمة الأولى يفقد صبره، وربما يعامل مَن لم يستجب له معاملة سيئة، وقد لا يكون الأمر يتعلق بدعوة إيمان وكفر وهُدى وضلال،

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنما بخلاف محتمل، أو بأمور ملتبسة، والكثير من الناس يسيطر عليهم الاندفاع والعدوانية والروح الغضبية، فهؤلاء ينبغي أن يتعلَّموا من مدرسة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الصبر والمصابرة والمرابطة.

وكأن نوحًا في أول الأمر كان يتعاهدهم سرًّا، واحدًا واحدًا؛ ليكون بعيدًا عن الناس، كما فعل النبي ﷺ في دعوته السرية، من باب التدرج؛ ولأن بعض الناس قد يرفض الدعوة مجاملة للآخرين، أو حياءً، وربما يؤثِّرون فيه، ويحرِّضونه على التمسك بدينه، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيهم واحدًا واحدًا، ثم انتقل إلى الجهار، كما في الآية الكريمة، وصار يغشاهم في الملأ والتجمعات، ويرفع صوته يدعوهم إلى الله.

* وفي المرحلة الثالثة راوح بينهما فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾:

فأسر، ثم جهر، ثم جمع بين الجهر والإسرار، وراوح وزاوج بينهما.

والأصل في الدعوة الإعلان والإجهار؛ لأنها تغيير لواقع الناس، وإقامة للحجة وبيانها؛ ولذا قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولتُفْشُوا العلمَ، ولتَجلسوا حتى يُعَلَّمَ مَن لا يَعْلَمُ؛ فإن العلمَ لا يَهْلِكُ حتى يكونَ سرًّا»[1].

وقد دلَّت الآثار والتجارب على أن تناجي مجموعات من الناس وسط المجتمع المسلم في مسائل من العلم واستسرارهم غالبًا ما يكون بداية فتنة؛ لأنه يُفضي إلى أن يعتنقوا آراء غريبة، بعيدًا عن عيون المجتمع والأمة وعامة الناس وخاصتهم.

أما أن يسر أعماله وشؤونه الخاصة، فهذا لا بأس به.

أما تعليم العلم في العقيدة والتفسير والفقه والحديث والآداب والأخلاق،

---

(١) وضُبطت أيضًا: «حتى يَعْلَمَ مَن لا يَعْلَمُ». ينظر: «صحيح البخاري» (١/ ٣١)، باب كيف يُقبض العلم، و«فتح الباري» (١/ ١٩٤- ١٩٥)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٨٨)، و«إرشاد الساري» (١/ ١٩٥- ١٩٦).

فيجب أن يكون علانية، وأن يبذل للناس كلهم، وألا يتناجى فيه قوم دون غيرهم من المسلمين.

ولهذا كان النبي ﷺ والرسل جميعًا يخالطون الناس ويصبرون على أذاهم، ويأمرون بمخالطة الناس وبالصبر على أذاهم.

وفي الآية دليل على أن وسائل الدعوة وطرقها ليست توقيفية، فيمكن أن يستخدم للدعوة كل وسيلة مباحة، في المسجد والشارع والنادي والسوق وفي المناسبات المختلفة، وكذلك الكتابة، فقد كتب العلماء المؤلَّفات والمصنَّفات، واستخدام القنوات الفضائية والإذاعات والصحافة والإعلام ومواقع الإنترنت، وكل ما يجد من الوسائل التي طرأت وأفاد الناس منها وأمكن الوصول إليهم من خلالها، والأمر في ذلك واسع، ووسائل الدعوة ليست توقيفية، بحيث لا يجوز لأحد أن يستخدم وسيلة إلا أن تكون منصوصًا عليها، كلا، وإنما هذه الوسائل مفتوحة ما لم يثبت الدليل بتحريمها.

وحتى على الزعم بأن الوسائل توقيفية، فبمقدور الداعية أن يدخل كل وسيلة جديدة تحت بند من البنود القديمة.

* ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾:

وهذا يوحي بطرائق دعوته لهم، فمع تنويعه في الأساليب والأوقات كان ينوِّع في الصيغ والعبارات وجوانب العرض، فمرةً يستخدم الترغيب، ومرة الترهيب، ومرة يعدهم بمرغبات دنيوية، ومرة بمرغبات أخروية؛ من أجل استمالتهم والتأثير فيهم.

وهو هنا يذكِّرهم بالاستغفار، ويذكر اسم الرب الذي هو الخالق المدبِّر، وينسبه إليهم، وهو أسلوب ترغيب.

وقد أمر النبي ﷺ أمته بالاستغفار[1]، ولما قال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٠٢) من حديث الأَغَرِّ المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**يا أيها الناسُ، توبوا إلى الله؛ فإني أتوبُ في اليوم مائةَ مرةً**».

رسولَ الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال ﷺ: «**قل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيمُ**»[1].

ورُوي عنه ﷺ: «**مَن لزم الاستغفارَ، جعلَ اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضيق مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسب**»[2].

فعلى المؤمن ألا يُفارق الاستغفار، ولو بعد الطاعات، بل هو أفضل الاستغفار، كما أثنى الله على المنفقين بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، فيستغفر بعد الطاعة؛ خشية أن يكون قد قصَّر فيها، وكان ﷺ بعد الفريضة يقول: «**استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ**»[3].

والاستغفار بعد العبادة مناسب، ولا يستغني العبد عن الاستغفار؛ فربما وقع في صلاته أو عبادته خلل وتقصير، فناسب أن يستغفر بعد الصلاة، وإن لم يحصل من ذلك شيء فلأجل أن يقطع على نفسه العُجب بالعمل، وإن كان على لهو استغفر؛ لأنه تلهَّى عن طاعة الله، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا خرجَ من الخلاء قال: «**غُفرانكَ**»[4]. يطلب المغفرة عن وقت ليس مناسبًا للذكر بحكم الضرورة، فيستغفر ربه عن ذلك الوقت، أو يستغفر عن التقصير في شكر النعمة[5].

* ﴿**يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾**﴾:

وهنا أغراهم بأمور دنيوية من ثمرات الاستغفار، فمثلما قال عن الآخرة:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والحاكم (٤/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٧٠٥).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٥٩١) من حديث ثَوْبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٢٢٠)، وأبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وابن ماجه (٣٠٠)، وابن الجارود (٤٢)، وابن خزيمة (٩٠)، وابن حبان (١٤٤٤)، والحاكم (١/ ١٥٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «إرواء الغليل» (٥٢).

(٥) ينظر: «معالم السنن» (١/ ٢٢-٢٣)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (١/ ٤١-٤٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أغراهم بمرغِّبات دنيوية، وقد كانوا أهل زرع وحرث وسَعة في الأموال والأولاد، فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: المطر والغيث[1].

والمدرار: المستمر الذي لا يُخشى معه قحط ولا جدب[2]، ومنه در الضَّرْع إذا تجمَّع فيه اللَّبَن[3].

وقد أخذ أهل العلم من ذلك أن الاستغفار سبب في نزول المطر، وقد ورد أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ استسقى بالناس، فصعِد المنبر، واستغفر الله تعالى، ثم نزل، فقالوا له: نسيتَ يا أميرَ المؤمنين، ما طلبتَ السُّقيا؟! فقال: «والله، لقد استسقيتُ بمَجادِيح السماء»[4].

والمَجادِيح: نوء يعرفه العرب وقت الغيث[5]، وكأنه يقول: استسقيتُ بأعظم وأوثق وسيلة لطلب السُّقيا؛ لأن المعاصي سبب في زوال النعم:

إذا كُنتَ في نِعمَةٍ فَارعَها فإنَّ المَعاصي تُزيلُ النِّعَم[6]

وما فعله نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من وعدهم بالمغفرة في الآخرة، ووعدهم بالرزق في الدنيا، هو من التنويع الإيجابي، فالاستقامة على الخير وترك الزنا سبب في صحة البدن والنجاة من الأمراض المختلفة؛ كالهربس والإيدز والزهري والسيلان،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٠، ٣٥٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٨٠)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٨١) «د ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٤٧٧).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وسعيد بن منصور (١٠٩٥)، وابن سعد (٣/ ٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٨٥)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٨٤)، والطبراني في «الدعاء» (٩٦٤)، والبيهقي (٣/ ٤٩٠)، وينظر: «نتائج الأفكار» (٥/ ١١٨- ١١٩)، و«إرواء الغليل» (٦٧٣).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (٣/ ٢٥٩- ٢٦٠)، و«لسان العرب» (٢/ ٤٢١)، و«تاج العروس» (٦/ ٣٣٤) «ج د ح».

(٦) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٧٥).

وحَسَنٌ أن يترك الإنسان المعصية طلبًا لمرضاة الله، وخوفًا من عقابه، وخوفًا من الفضيحة، وخوفًا من المرض، والاقتصاد الإسلامي الناضج يحقق مستوى جيدًا من الأرباح والمصالح، مع مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبر الوالدين وصلة الأرحام سبب في طول العمر، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أَثَره، فليصلْ رحمه**»[1]. فصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحاويج تزيد في العمر وتوسِّع في الرزق، وتكون سببًا في الصحة والعافية.

وفي مجال الإدارة الخاصة أو العامة يجب أَلَّا يكون التدين سببًا في حرمان الناس من مصالحهم، بل على النقيض، يجب أن يعود عليهم بالمزيد من المكاسب المادية والثراء واليسار والرَّغَد، فالفرد الممكَّن أو الجماعة أو الحزب يجب أن يسعى في خدمة الناس وتوفير الضروريات وتسهيل الحياة ورفع مستوى المعيشة والوضع التعليمي والصحي، وهذا من تطبيق الشريعة، فليست الشريعة قصرًا على الحدود والعقوبات، كما يتوهم أقوام.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ زيادة على ما عندكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: زروعًا وبساتين وحقولًا، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾، تجري في وسط هذه الجنات.

والمطر المدرار هو سبب خصب هذه الجنات وجريان الأنهار فيها بإذن الله، وهذا يشبه قول الله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* ﴿مَّا لَكُمْ﴾ أي: ما السبب الذي يجعلكم ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾؟

أي: لا تقيمون لله توقيرًا وتعظيمًا، والوَقار: التمجيد والثناء[2]، فلماذا لا ترجون وقار الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الذي خلقكم أطوارًا؟!

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٢٩١) «و ق ر»، و«القاموس المحيط» (ص٤٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧).

ويجوز أن يكون قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون، فالرجاء أحيانًا يُستخدم بمعنى الخوف[1]، كما يقال:

إذا لسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لسعَها[2]

أي: لم يخف لسعها، فعلى هذا يستنكِر عليهم متسائلًا: لماذا لا تخافون من الله؟

والمعنى بكل حال أنه يذكِّرهم بربهم، ويجعلهم في موقفٍ بين الخوف والرجاء، أن يرجوا ربهم يوم الحساب، وأن يرجوا عاجل خيره وبره في الدنيا، وأن يخافوا منه أن يُعذبهم.

بعد أن دعاهم إلى التوحيد وأمرهم بالاستغفار ذكَّرهم بالله وبآلائه ونعمه وحججه؛ ليحيي في قلوبهم الخوف منه، والاستنكاف عن الأصنام التي لا تنفع ولا تدفع، ثم ذكَّرهم بعظمة الله وجلاله وآياته المشهودة، وأن أمر الدنيا والآخرة إليه، فلماذا لا تعظِّمونه؟ أو: لماذا لا ترجون توقير الله لكم، أن يجازيكم بالخير إن أطعتموه، وبالنَّكال إن خالفتم أمره؟

والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر حجج الله في النفس؛ كالسمع والبصر والأفئدة والقدرة والأعضاء التي ركَّبها في الإنسان، وأحيانًا يُقدمها ثم يذكر ما في الكون، وأحيانًا يذكر ما في السماوات والأرض، والشمس والقمر والنجوم[3].

* وفي هذا الموضع بدأ بذكر النفس: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: طَوْرًا بعد طَوْر، في مراحل وحالات مختلفة، وهذا يشمل أطوار الأَجِنَّة في الأرحام، من نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة، ثم تقلبهم في المهد والطفولة، فالمراهقة فالشباب فالكهولة فالشيخوخة والهَرَم- وهكذا هي الحياة- ثم

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٣).

(٢) القائل: أبو ذُؤيب الهذلي، وتمام البيت: وخالفَها في بيتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ. ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٤٣)، و«معاني القرآن» (١/ ٢٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٤).

الموت، فالأطوار هي التقلبات والتحولات[1]، وهذا دليل على عظمته وقدرته، وعلى حكمته وألوهيته وربوبيته، فاعبدوه ولا تعبدوا سواه، وهو تذكير بالنفس وأصلها يعقبه دعوة إلى التأمل في السماوات والأرض وما أبدع الله فيها وأودع.

وهو الذي حدث لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مراحل خلقه وأطواره، فآدم كان من تراب، فطين، فطين لازب، فصلصال كالفخار، فحمأٍ مسنون، فجسد من لحم وعظم وشحم ودم، ثم روح تسري فيه بإذن ربها، ولعل قوم نوح كانوا يعلمون ذلك لحداثة العهد نسبيًّا.

* ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾:

يجوز أن تكون الرؤية هنا البصرية، أي: ترون بعيونكم[2]، وهم يرون السماء التي فوقهم، وإن كانوا لا يعرفون إن كانت سبعًا أو ليست بسبع، وأراد أن يخبرهم أن السماوات- التي يرونها- سبع، أو أن هذا كان معروفًا عندهم، وكثير من الأمم السابقة كالكلدانيين في العراق كان عندهم معلومات عامة فيما يتعلق بالفضاء والكواكب والنجوم والأكوان والأفلاك، فهو هنا يُذكِّرهم بشيء يرون بعضه، أو يُذكِّرهم بمعلومة متداولة عندهم من كون السماوات سبعًا.

وكونها ﴿طِبَاقًا﴾ أي: أنها طبقة فوق طبقة فوق أخرى[3]، وهذا من غيب الله الذي نؤمن به، فالله تعالى خلق سبع سماوات طباقًا، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرًا، وأما كيفيته فهي عند الله، ومعظم ما يقوله العلماء السابقون، حتى ممن كتبوا في التفسير أو في الأفلاك أو في غيرها، إنما هو من الظنون، أو مما يُنقل عن اليونان أو الكلدانيين أو سواهم، في وقت لم يشهد علم الفضاء هذا التطور العظيم، ولم يملك الإنسان تلك المناظير الهائلة، ولا كان قادرًا على السير

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٢).

والمعرفة الميدانية المباشرة.

وقد تطوَّر علم الفلك من خلال المراصد المعقَّدة والتجارب البشرية، ولا شك أنها مجاهل تدهش الألباب، واكتشف في السماء أعدادًا كبيرة من المجرَّات، وكل مجرَّة فيها ما لا يحصى من النجوم، وفي ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وهذا غيب من غيب الله.

من النجوم التي نراها الآن نجوم قد احترقت منذ زمن، والذي نراه هو ضوؤها الذي استغرق سنوات ضوئية ليصل إلينا، وثَمَّ نجوم مخلوقة منذ زمن لا يعلمها إلا الله، ونحن لا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في الطريق لم يصل إلى الأرض بعد.

وكثير من العوام والبسطاء تضيق عقولهم وأفهامهم ومداركهم عن ذلك، ويعجزون عن تصور بعض المسائل، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم، وشأنهم ألَّا يتكلموا فيه، ولا يُشغلوا أنفسهم به، فيكفيهم أن يصلوا الصلوات الخمس، وأن يقوموا بما أوجب الله عليهم، وأن يشتغل الواحد منهم برزقه وإصلاح أمره، أما مثل هذه القضايا، فهي تترك لأهل الاختصاص ولأهل العلم، وربما يكون دخول غير المختصين فيها بابًا من أبواب الفتنة، أو التزيد أو التقول على الله تبارك وتعالى بغير علم، وليست هي من علم الآخرة الذي يتعبد به كل أحد من الناس، حتى لو لم يصدِّقوا هذه الأخبار، فلا يضرهم ما داموا غير مختصين، وإنما يحتاج إليها الباحثون والعلماء الذين يبنون عليها نتائج، ويرتِّبون عليها آثارًا، ويسهمون في تطويرها وتوسيعها.

* ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾:

وهذا مما احتج به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، و﴿ٱلْقَمَرَ﴾ **قيل**: في السماء الأولى[1].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٤/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٣)، والمصادر السابقة.

وقد يكون المعنى: معهن، كما تقول: جاء القوم وفيهم فلان، وليس بلازم أن يكون منهم أو معهم، فقد يكون جاء بعدهم[1]، كما يقول الشاعر[2]:

تَضوَّعَ مِسكًا بَطنُ نُعمانَ أن مَشَت ... بِـه زينَـبٌ فـي نِسـوَةٍ عَطِـراتِ

وقد يكون المقصود أن نور القمر في السماء، كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3].

وهذا كله غيب، ويكفينا في القرآن الحجة؛ لأن الله تعالى هنا لم يرد أن يقدِّم لنا معلومة فلكية نختلف حولها، وإنما أراد أن يُقدِّم لنا القدر المتفق عليه، الذي يجب على الناس كلهم الإيمان به، وهو أن الله تعالى خلق القمر، وجعله نورًا، وهو حجة على الناس، فالقمر مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فرَّق بين الشمس والقمر، فوصف القمر بأنه نور، ووصف الشمس بأنها سراج، إذ الشمس كتلة ملتهبة مثل السراج، وفيها نور ونار؛ ولهذا قال في الآيات الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، أما القمر فنور فقط، وهذه حقيقة متقررة، والنور الذي فيه إنما هو انعكاس لضياء الشمس، وهذا ما يقرره العلماء قديمًا وحديثًا، فالقمر جِرْم قابل للإضاءة، فإذا انعكس عليه نور الشمس أضاء[4].

ويظهر من السياق أن قوم نوح لديهم اهتمام بالأفلاك وبعض العلوم الطبيعية؛ ولذا وردت هذه المعلومات الدقيقة في خطاب نبي الله لهم.

* ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾:

فرجع إلى الحجة عليهم بأنفسهم؛ ليبني عليها أمر الآخرة والبعث،

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤).

(٢) ينظر: «المحاسن والأضداد» (ص٢١٧)، و«الكامل في اللغة والأدب» (٢/ ٧٨) منسوبًا إلى محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي.

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٤٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٤)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٢٠٠).

والمقصود هنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالله تعالى خلقه من طين الأرض، وهل مرَّ آدم بحياة نباتية قبل نفخ الروح؟ الله أعلم، وبعض العلماء قالوا ذلك أخذًا بظاهر هذه الآية، وكنتُ مستبعدًا لهذا القول، حتى وقفتُ على حديث الصُّور المتقدِّم، والذي فيه أن الخلق يوم القيامة ينبتون أمثال الطَّراثِيث[1]، مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فرأيتُ الأمر قريبًا، وليس فيه ما يُنكَر أو يُستغرب، والله تعالى أعلم بغيبه.

أو المقصود: الذرية، وأن الله تعالى أنبتهم[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. فالله تعالى أنبتهم وجعلهم ينتقلون من حال إلى حال، ومن طَوْر إلى طَوْر، ويأكلون مما يُخرج الله تبارك وتعالى لهم من خيرات الأرض، ويشربون من مائها.

* ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: بالموت، ولذلك بنى عليه النتيجة: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3]:

ويُؤخذ منه في التعليم والدعوة أن يكون الانتقال من المعلوم المتقرر إلى المجهول الذي يراد أن يقروا به ويؤمنوا، فهم يؤمنون بالأول والثاني، وهو نبَّههم على الأمر الثالث المبني عليهما.

وجاء بالمصدر بعد الفعل؛ لتأكيد الأمر الذي يجحدونه أو يشكون فيه، وهو الإخراج والبعث[4].

---

(١) كما في حديث الصُّور المتقدم في «سورة المعارج»: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

والطَّراثِيث جمع: طرثوث، وهو نبت ينبسط على وجه الأرض كالفطر. ينظر: «النهاية» (٣/ ١١٧)، و«لسان العرب» (٢/ ١٦٤- ١٦٥) «ط رث».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٤).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٤٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٤).

* ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾:

أي: خلقها وسخَّرها، فكلمة ﴿جَعَلَ﴾ تختلف عن معنى ﴿خَلَقَ﴾؛ لأن الخلق واسع، وأما الجعل، فمعناه أنه قد ركَّب في خلقها ما يجعلها صالحةً للحياة عليها، كما ترى البشر الآن كيف يتصرفون على هذه الأرض تصرفات هائلة، فيبنون عليها ناطحات السحاب، ويحفرون الطرق والأنفاق، ويشقون الجبال، وهي مذلَّلة مسخرة لهم؛ لأنها مجعولة[1].

وقوله: ﴿لَكُمُ﴾ أي: مخلوقة لكم، وما عليها مسخَّر لكم، فهذه علة خلقها.

وكونها ﴿بِسَاطٗا﴾ أي: منبسطة[2]، وليس المقصود أن الأرض ليست كُرَويَّة، بل هي كُرَويَّة الشكل باتفاق العلماء، كما ذكره ابن تيمية عن ابن المنادي وغيره[3]، وكذلك باتفاق علماء الفلك، وهذه من الحقائق الحسية القطعية، ولكن قد يجهل الإنسان مثل هذا، وليست من أمور الدين التي ينبغي أن تُعلم لكل أحد، ولكنها من مصالح الدنيا، أما مَن كان يعمل في مجال الاتصالات أو المواصلات أو الأقمار أو غيرها من المصالح، فهذه عنده من البدهيات والمعلومات الضرورية المفروغ منها.

* ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾:

أي: طرقًا مختلفة، **والفج** هو: الطريق[4]، وقد يكون بين جبلين في الغالب، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: ٢٧]، أو هو الطريق

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٦)، و«تفسير المراغي» (٢٩/ ٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٧١٢).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٦٦)، (٢٥/ ١٩٥)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا...﴾ [ق: ٧]، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٤٥)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٧١١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٢٤).

الواسع العريض[1]، وكل ذلك حجج عليهم في الأرض والسماء تحاصرهم في أنفسهم ومن تحت أقدامهم ومن فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

* بعد رحلة طويلة استغرقت الليل والنهار، ودامت مئات السنين، وتنوَّعت فيها الأساليب والطرائق بين الإسرار والإجهار، وتناولت كل الموضوعات، ما بين التذكير بالله والدعوة إلى التأمل في مخلوقاته، إلى التذكير بالنفس وأسرار خلقتها، إلى النظر في الكون والأرض والسماء والشمس والقمر، إلى تقرير البعث والنشور، وتراوحت بين الترغيب- وهو الغالب- وبين الترهيب والتخويف.

بعد هذا كله لم يُؤمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠﴾ [هود: ٤٠]، مع طول المدة، وشدة الدأب في الدعوة[2].

ثم هاهو نوح يعرض أمره لربه- وهو أعلم- ويجمع بين الاعتذار والشكوى، ولسان حاله يدعو أن يهديهم الله أو يهلكهم: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾:

أي: لم يطيعوني ولم يقبلوا دعوتي في أصلها، وليس المراد أنهم خالفوه في جزئية مما يدعوهم إليه، واتبعوا أكابرهم من زعمائهم وسادتهم وأمرائهم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: ٦٧].

والغالب أن الضالين المصرِّين على مخالفة الحق لهم أكابر يحضُّونهم على ما هم عليه؛ لأنهم أصحاب مصالح يخشون أن تضيع، فيُصرون على الناس ويُغرونهم، وهم هنا من الكبار الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا خسارة،

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٤٥)، (٦/ ١٠٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٥/ ٦١)، (٢٢/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٥).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٢٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٣٨)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٢٠٣) (ف ج ج).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٠- ٤١٢)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ٧٣).

فهم أصحاب أموال وأولاد، وما كانوا كبارًا وسادة إلا لذلك: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]، ولكن أموالهم وأولادهم كانت سببًا في كبريائهم وإعراضهم، فصدتهم عما هو خير منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٤- ١٥].

فينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون ماله وولده وزوجه مما يقرِّبه من طاعة الله تعالى، وهذا يكون بالتربية الصالحة والنية الطيبة والطعام الحلال والدعاء الصادق والتوافق بين الأزواج.

وفي الآية إشارة من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حسن توظيف الأموال والأولاد، وإلى شكر النعم؛ لأنه قال قبلها: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقد جاء رجلٌ إلى الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يشكو الجَدْبَ، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه آخر يشكو الفقر والفاقة، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه ثالث يشكو العُقم، فقال له: استغفر اللهَ. فقالوا له: يا أبا سعيد، جاءك ثلاثة يشتكون من أمراض شتى، ووصفت لهم دواءً واحدًا، وهو الاستغفار! فاحتج بهذه الآية(١).

ففي الآية دلالة على أن المال والولد والزوجة تكون خيرًا إذا أطاع الله واستغفر، فيُوسع الله عليه في الدنيا والآخرة، وتكون شرًّا وضررًا إذا أساء استخدامها.

وهذا مثل الآيات الغيبية والآيات الشرعية والقرآن والعلم، فإن من الناس مَن ينتفع به، فيزداد إيمانًا ويتقبَّله بقبول حسن، ومن الناس مَن يرفضه ويأباه، فيزيده خسارًا.

* ثم قال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾:

ونوح هنا يخص بشكواه العِلية والأكابر الذين كانوا يعوقون الدعوة، ويصدون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٨٦)، و«فتح الباري» (١١/ ٩٨)، و«عمدة القاري» (٢٢/ ٢٧٧)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٤٥).

الناس عنها، وإلا فغالب الناس عاديون، لا مشكلة لهم مع الخير والحق، ولكنهم سريعو التأثر بالتهريج والخداع والتضليل الذي يمارسه أصحاب النفوذ والمال والسلطان والإعلام.

والمكر: الكيد، ويُطلق على الكيد الخفي اللَّطيف[1]، كما في قوله سبحانه: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وكما في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ [الطارق: ١٥]، إنه مكر خفي مدروسٌ طويل، كما في قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾[2] [النمل: ٥٠].

ووصفه هنا بأنه ﴿كُبَّارًا﴾، ومعناها: كبير[3]، وهي من الألفاظ العربية المحفوظة في بعض القبائل واللغة اليمانية، يقال: إنسان وضَّاء، إذا كان جميل الصورة، نادر الجمال[4]، كما قال الشاعر[5]:

والمَرْءُ يُلْحِقُه بفتيان النَّدَى ... خُلُقُ الكريم، وليسَ بالوُضَّاء

أي: تكرمه الأخلاق والخصال والخلال الجميلة، وإن لم يكن جميلًا بوجهه.

ومن المكر الكبار أنهم يكرِّرون دون ملل أو خجل التشكيك في نية نوح، وأنه يقصد العلو عليهم أو منافستهم فيما هم فيه، وأحيانًا يسخرون من أتباعه، وأنهم أراذل، ويشكِّكون في شخصيته، وأنه ليس له عليهم فضل، فما معنى أن يكون نبيًّا أو يحدثهم بما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

ومع هذا المكر الكُبَّار الصبر الكبار أيضًا، فقد صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا يُضرب به وبأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل في الصبر، وبهذا وغيره كان من أولي العزم من الرسل،

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٣٣)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣٥)، و«مجمل اللغة» (١/ ٧٧٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٢٨، ٧٧٢)، و«لسان العرب» (٥/ ١٨٣) «ك ي د»، «م ك ر».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٠).

(٤) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٠).

(٥) ينظر: «الصحاح» (١/ ٨١)، و«لسان العرب» (١/ ١٩٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٧) منسوبًا إلى أبي صَدَقة الدُّبَيْري.

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الأنبياء مدرسة في الصبر والتحمُّل، وعلينا أَلَّا نتعجل لا مع أنفسنا ولا مع غيرنا، فلا نيأس من نفوسنا، مهما تلومت علينا وأبطأت، ولا ييأس المرء من زوجه وولده ومَن يدعوهم من تلاميذه وخصومه، ومَن يختلف معهم، حتى مع أعدائه، لا يفقد الأمل، ما دامت الروح في الجسد.

* وكان من مكرهم الكُبَّار أنهم كلما وجدوا ليونة في الأتباع استفزوهم من جديد، وخاطبوهم خطابًا مؤثِّرًا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾:

أي: احذروا، فهذه آلهتكم وأربابكم، سموها: آلهة؛ حتى يتعلق الناس بها ويحبوها ولا يفرِّطوا بها، وكأنهم يقولون: هذه الآلهة هي آلهتكم وآلهة آبائكم من قبل، وفي ذلك إثارة للعصبية، والعصبية هي أعظم دليل عند كثير من الناس، فقد لا يملك التابع دليلًا على ما يعتقده إلا التعصب لما وجد عليه آباءه وأجداده: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وهي عذر الجاهلين والمكذِّبين، وهذا ما كانت قريش تفعله وتقوله لصد الناس عن دعوة النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا ...﴾ أي: بعدما قالوا: لا تتركوا الآلهة، بدؤوا يفصِّلونها، ويذكرونها بالأسماء؛ من أجل استثارة الحمية، واستمالة العاطفة، والترغيب في المألوف المعتاد، فهي أسماء طالما ترددت على أسماعهم، وسجدوا لها، وظنوا أنها السبب الجالب للمطر والرزق والعافية، فإذا ذكروا أسماءها على وجه التفصيل استثاروا مشاعر الناس للتمسك بها، فصاروا يسمونها واحدة واحدة، والعرب لا يكررون النفي أكثر من ثلاث مرات.

ومن هنا قال: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ﴾، فذكر ﴿لَا﴾ ثلاث مرات، ثم قال: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾، فلم يكرر ﴿لَا﴾؛ لئلا تستثقل على اللسان، وإن كانت داخلة في المعنى، وربما كانت هذه الأصنام ليست على مقام واحد عندهم عبوديةً واحترامًا.

وهذه أسماء القوم الصالحين الذين نُصبت تماثيلهم ثم عبدوا، وهي أسماء غير عربية، ولما وقع الطوفان جرف هذه الأوثان وألقى بها إلى حيث شاء الله تعالى.

وقد نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن العرب كانت لهم أصنام بهذه الأسماء من دُومة الجَنْدل إلى عُكاظ وإلى بلاد اليمن ومكة والمدينة، وكانت بعض هذه الأصنام على صورة امرأة، وبعضها على صورة نَسْر، وبعضها على صورة حيوان[1].

وكان العرب يتسمون بها أيضًا، مثل: عبد وُد الحارثي الذي جاء ذكره في غزوة الخندق في المبارزة[2]، وكذلك عبد يَغُوث الشاعر الجاهلي المشهور، الذي أمسكه أعداؤه وجرحوه وتركوه ينزف حتى مات[3]، وقال القصيدة المشهورة[4]:

أَلَا لا تَلُوماني كَفى اللَّومَ ما بِيا ... وما لَكُما في اللَّومِ خَيرٌ وَلا لِيا

أَلَم تَعلَما أَنَّ المَلَامَةَ نفعُها ... قَليلٌ وما لَوْمي أَخي مِن شِمالِيا[5]

ولعلها أوثان أخرى وليست هي نفسها، وإنما بقيت الأسماء وتناقلها الناس ثم سمى العرب بها، والله أعلم.

* ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾:

أي: هؤلاء الكبار المتبوعون السادة أضلُّوا كثيرًا من الناس بمثل هذا الكلام؛ ولهذا قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، فدعا عليهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا بعد أن أُوحي إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: ٣٦]. لقد وصفهم بالظلم فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾، وهي الصفة الصادقة على كل مَن يحارب الحق ويقف في سبيله، فهو يظلم نفسه، ويظلم غيره، ومن أجل الحفاظ على مكانته ورئاسته يستمر في الكذب والعدوان والقتل والحرمان

(١) ينظر: «كتاب الأصنام» للكلبي (ص١١- ١٣)، و«صحيح البخاري» (٤٩٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٩- ٢١٠).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٥)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص١٧٤).

(٣) ينظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ١٩٧)، و«في تاريخ الأدب الجاهلي» (ص٣٩٧).

(٤) ينظر: «المفضليات» (ص١٥٥- ١٥٦).

(٥) الشِّمال: الطَّبع والخُلُق.

والتزوير والتضليل؛ لأن المعركة عنده معركة موت أو حياة.

فدعا عليهم بعدما يئس منهم بالوحي، ويئس منهم بالاستقراء التام الذي استغرق ألف سنة إلا خمسين سنة، وليس في يوم وليلة، فلا تقس نفسك على نوح، فالمدرسة النبوية ليست كذلك، فلا بد أن تطمئن نفسك بالإيمان والرضا والتسليم، وتكون واسع الصدر ولا تعجل.

ويقينًا ليس مقصود نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الدعاء عليهم بالضلال في الدين؛ لأنه جاء لينقذهم منه، ولكن المقصود بالضلال هنا أن يذهب الله كيدهم، فدعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا ليس على قومه كلهم، وإنما على عِلْيَتهم وأكابرهم الذين كانوا يكيدون له، فهو بعدما بيَّن كيدهم، وأنه كيد كُبَّار، دعا الله تعالى أن يُبطل هذا الكيد، وأن يجعله في ضلال، مثلما دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وكيده، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٧].

ولما تقول: الكيد في ضلال، أي: ذهبت المؤامرات أدراج الرياح، فما نفعت ولا أثمرت.

* **وبعدما طُويت الصفحة، وانتهت القصة، وتم البيان،** قال سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

فهذا حكم الله فيهم قد تم وجرى، ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: من خطيئاتهم، و«ما» هنا صلة للتوكيد[(١)]، وهي تأتي في لغة العرب، كقول بعضهم[(٢)]:

اللهُ يعلمُ أنَّا في تَلَفُّتنا ... يومَ الفِراق إلى جيراننا صُورُ
وأنني حيثما يَثْنِي الهَوَى بَصري ... من حيث ما سلكوا أدنُو فأنْظُورُ

أي: حيث سلكوا، ويزيدون كلمة «ما» للتوكيد والصلة: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾،

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «المنتخب من كلام العرب» (ص٦٩٥)، و«المخصص» (١/ ١٠٩)، و«الذخائر والبصائر» (٥/ ١٦١)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ١٢١).

وهذا من العجب أنهم يُغرقون في الماء ويُحرقون بالنار، والماء نقيض النار، فأرواحهم إلى الحرق وأجسادهم إلى الغرق[1].

والمقصود: نار في الدنيا، وهي نار البرزخ.

وهذا دليل على عذاب القبر وثبوته[2]، وقد جاء في غير موضع من القرآن، كما في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، وكما في «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»، فقد ذكر طائفة من أهل العلم أنها تدل على عذاب القبر[3].

وعلى القول بأنه عذاب القبر، فهو تمهيد لعذاب الآخرة، أو يكون المقصود أنهم سيدخلون نار جهنم، فعبَّر بالماضي؛ لتحقق الوقوع، أي: كأنهم أدخلوا؛ لأنهم في حكم الله تعالى قد غادروا الدنيا وأقبلوا على العذاب.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: تبَّرأ بعضهم من بعض، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، وهم الذين كان لهم أموال وأولاد، فلم ينفعهم، ولم يغن عنهم ذلك من الله شيئًا[4].

لقد كان لهم في الدنيا أنصار يدافعون عنهم، ويحمونهم، ويشيعون ما يحبون أن يُشاع، ويمنحونهم القوة والوجاهة بكثرتهم ونفاقهم وتزلفهم، فأين هم الآن؟!

* ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾:

كان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آية في الصبر عليهم، وقد قيل: إنه هو الذي قال فيه ابن مسعود

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٢).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١١)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٥٤٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨٨).

(٣) ينظر: «جامع الترمذي» (٣٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٢)، و«التفسير القيم» (ص٥٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٩)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كأني أنظرُ إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومُه فأَدْمَوْه، وهو يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمونَ**»[١]. أي: يطلب من الله أن يمهلهم، وألَّا يعاجلهم بعذاب[٢].

وقد ذكر تعالى ما جرى من إغراقهم قبل أن يذكر دعوة نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ ليبيِّن لهم أن ما حاق بهم إنما كان لذنوبهم، فهم أُغرقوا بذنوبهم وبخطاياهم.

وإنما دعا عليهم نوح بعدما بيَّن الله له أنهم لن يؤمنوا: ﴿**أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ**﴾ [هود: ٣٦]، فدعا عليهم، وقال: ﴿**رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا**﴾، **والدَّيَّار**: ساكن الدار[٣]، والعرب يقولون: هذا المكان ما فيه من دَيَّار ولا نافخ نار[٤]. أي: ليس فيه من مقيم ولا مسافر، ولا بر ولا فاجر.

وفي الاستدلال بدعوة نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **على مشروعية الدعاء على عموم الكفار نظر؛ لوجوه:**

١- أن هذا كان بعد اليأس منهم، والإخبار بأنهم لن يؤمنوا.

٢- أن نوحًا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كان يستأني بهم ويطلب الإمهال، كما في آية: ﴿**وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾**﴾. فكان يطلب المهلة، ويخاطب ربه، فنهاه الله أن يطلب المهلة والإنظار؛ لأنهم مغرقون لا محالة.

٣- وقيل: إن دعوته كانت على المضلِّين للعباد، الصادِّين عن سبيل الله؛

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢). وينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٠٠٨)، و«الزهد» لأحمد (١/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٨٢)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٣٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٠٥)، (٦/ ٢٠٢٢)، (٨/ ٢٧٨٧)، و«أخبار أصبهان» (٢/ ١١٥)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٦٣)، و«فتح الباري» (٦/ ٥٢١)، (١٢/ ٢٨٢)، و«عمدة القاري» (١٦/ ٦٠)، (٢٤/ ٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٤)،)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٣/ ١٣٠٥).

لقوله بعدها:

* ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾: فقد جرَّب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما جرى له، حيث كانوا سببًا في إضلال العباد، وسيكونون كذلك ما داموا باقين، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾:

أي: حتى أولادهم يربونهم منذ نعومة أظفارهم على الكفر والفجور.

وفيه إشارة إلى تعاهد النشء، وأن النشء بحسب ما يكون عليه المجتمع.

ففي كلمة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ **إشارة إلى العناية بالأولاد؛** من حيث اختيار الأم، وهي المنشأ والمحضن، ومن حيث اختيار ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون؛ فـ«**أيما جسد نبتَ على سُحْت، فالنارُ أولى به**»[1]. ومن حيث حسن التربية والتلقين والتأديب، ومن حيث القدوة الحسنة، والدعاء، والتعاهد بكل ما يمكن من الوسائل لتربيتهم، ولكل عصر وسائله وأدواته، وآية هذا الزمان القنوات والبرامج والأشرطة والألعاب والقصص والمدارس والمحاضن.

* ثم ختم الدعاء بهذا الكلام المؤثِّر الخاشع، وقد كفر الناس وأصرُّوا، وعُوقبوا وعُذِّبوا، وسخط الله عليهم، وأنزل الله نقمته، فها هو نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذا العمر المديد الطويل، وهذا الجهد الكبير، يرفع يديه خاشعًا متواضعًا متضرِّعًا إلى ربه مستغفرًا معتذرًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾:

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: وقد كان والداه مسلمين، ولا فائدة من البحث في اسمهما، فيكفي إجمال القرآن، والإشارة إلى أنهما كانا مؤمنين به[2].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤١)، و«مسند الدارمي» (٢٨١٨)، و«جامع الترمذي» (٦١٤)، و«صحيح ابن حبان» (١٧٢٣)، و«المستدرك» (٤/ ١٢٧)، و«شعب الإيمان» (٧/ ٥٠٤)، و«البدر المنير» (٩/ ٣٥٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٥).

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: **والمقصود**: منزله، **وقيل**: المسجد، أو السفينة، **وقيل**: ديني[1]، وكأنه دعا لأهل بيته وأسرته من المؤمنين، واستثنى غير المؤمن، وهذا يصدق على ابنه غير المؤمن، والذي **قيل**: إن اسمه: كنعان، **وقيل**: يام[2].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فهو صبور حليم رحيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعدما عُوقب قومه، دعا لكل المؤمنين والمؤمنات، فجزاه الله عنا خير ما جزى الأنبياء والمرسلين، وجزى الله كل الأنبياء والمرسلين أعظم الجزاء وأوفاه.

وهو درس للمؤمن في دعائه أن يعم فيدعو للمؤمنين والمؤمنات جميعًا.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا وبوارًا[3].

وأعاد وصف الظلم ليبيِّن سوء عاقبتهم بالتَّبار والبوار، بعدما دعا عليهم قبل ذلك بالضلال[4]، أي: لفساد كيدهم ومكرهم وسعيهم، فخسروا الدنيا، وكانت الجولة لغيرهم، وخسروا الآخرة بالهلاك، وحقَّت كلمة الله لنوح ومَن معه من المؤمنين بالنجاة، وأن يكونوا سكَّان الأرض إلى قيام الساعة.

○○○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٤٧٦)،)، و«الكشاف» (٢/ ٣٩٦)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ١٥٧).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٧٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٦٢) «ت ب ر».

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٥).

فهرس المحتويات

سورة المجادلة.. ٥
سورة الحشر.. ٤٧
سورة الممتحنة.. ٩٧
سورة الصف.. ١١٩
سورة الجمعة.. ١٣٩
سورة المنافقون.. ١٦٣
سورة التغابن.. ١٨٥
سورة الطلاق.. ٢٠٩
سورة التحريم.. ٢٢٩
سورة الملك.. ٢٥٥
سورة القلم.. ٢٩١
سورة الحاقة.. ٣٢٩
سورة المعارج.. ٣٦٣
سورة نوح.. ٣٩٩
فهرس المحتويات.. ٤٣٣